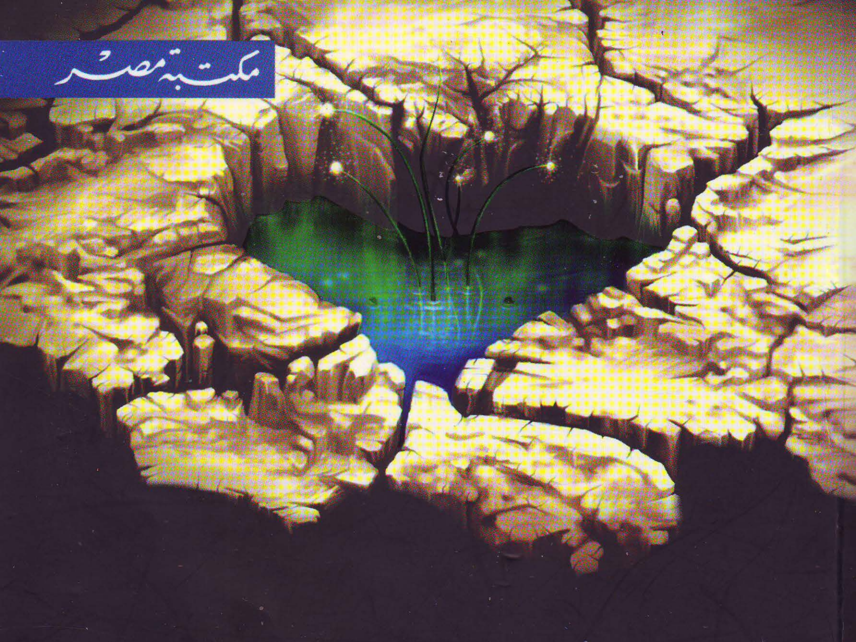
مكتبة مصر



وليفريد ثيسيغر

عرب الهور

ترجمة الدكتور
سلمان عبد الواحد كيوش

مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي

The Marsh Arabs

by
Wilfred Thesiger

Longmans, Green And Co Ltd
48 Grosvenor Street, London W.I

عرب الهور

ولفريد ثيسيغر

ترجمة الدكتور

سلمان عبد الواحد كيوش

مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي

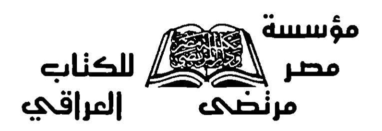
اسم الكتاب :	عرب الهور
تأليف :	ولفريد ثيسيغر
القطع :	١٦ × ٢٢
عدد الصفحات :	٣٥٣ صفحة
سنة الطبع :	١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م (الطبعة الأولى)
الناشر :	مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي
المطبعة :	دار مصر للطباعة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٠٣ لسنة ٢٠٠٨

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر

٢٠٠٩/٤٢٩٨

الترقيم الدولي: 2- 1600 - 11 - 977



العراق – بغداد – شارع المتنبي

المطبعة: 4168730 (1) (964+) أرضي Mobile: (+964) 07902632131

المكتبة: 4154574 (1) (964+) أرضي Mobile: (+964) 07702697982

مصر - القاهرة – زهراء مدينة نصر

(+2) 0113331238 / (+2) 0120776471

E-mail: misr_mrtda@yahoo.com
thaeresam@yahoo.com
ahadi88@yahoo.com

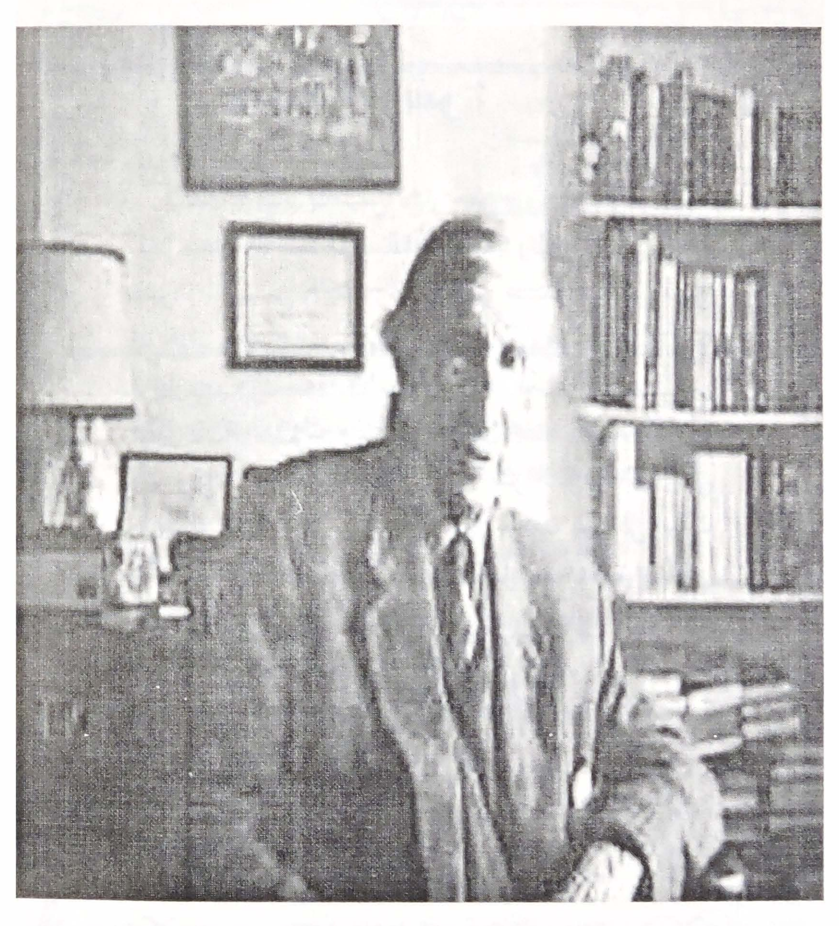
كلمة الناشر :

منذ أن بدأنا بتأسيس «دار مصر» و«دار المرتـــضى» كان شغلنا الوحيد نشر الثقافة الجادة والصادقة من خلال نشرها للقيم من الكتب، وجمع أكبر عـــدد ممكـــن مـــن المؤلفات والترجمات لأهم الكتب الـــتي تهـــتم بـــالأدب والتاريخ، والفلسفة، والسياسه، لأنها الكتب الوحيدة التي تظهر ثقافة الشعوب ولغة التفاهم بين مجتمعات العالم.

وكان جل اهتمامنا موجها إلى نشر الكتاب العراقـــي وإيصاله إلى أبعد دار نشر في العالم وليكون بيد كل إنسان يهتم بالثقافة الجادة الصادقة وبدأنا الرحلة بخطـــوة ولـــن تكون الأخيرة لأن سباق الألف ميل يبدأ بخطوة.

وستبقى «مؤسسة مصر مرتضى» تضيف إلى رصيدها الثقافي نتاجات أخرى بأمل المشاركة في تفعيل الكتـــاب العراقي الجاد طبعا، ونشرا، وتوزيعًا.

راجين أن تكون مطبوعاتنا سفيرًا للحركـــة الثقافيـــة العراقية.



ولفريد ثيسيغر ......في أواخر أيامه ١٩١٠م-٢٠٠٣ لندن

في ليلةٍ .. قبلَ القصبِ،

قبلَ رسو المشحوفِ

تسللتْ ذكورة الأنهارِ، وضاجعتْ .. بشهادةِ القمرِ

رحمَ الأرض الخفيض، فأولدته الأزل.

المداخل النثرية التي تُستهل بها الفصول هي محاولات إثرائية للمترجم.

تعريف بالمؤلف

ولد ولفريد ثيسيغر فى دار المفوضية البريطانية فى أديس أبابا فى الثامن من حزيران عام ١٩١٠م حيث كان أبوه المندوب السامى البريطانى فى الحبشة ليبدأ تعليمه فى مدارسها. كان منذ صغره هاويا للتجوال فجاب عدة مناطق نائية فى أفريقيا وابتداء من عام ١٩٢٩م إلى عام ١٩٣٣م درس فى كلية ماكدالين فى جامعة أوكسفورد.

دخل العراق أول مرة فى شهر مايو عام ١٩٤٨م ليزور الشمال العراقى ومن ثم بغداد فى حزيران عام ١٩٥٠م وانحدر باتجاه الجنوب فوصل الأهوار فى شهر تشرين الأول من عام ١٩٥٠م لتستمر إقامته فيها إلى حزيران عام ١٩٥٨م تخللتها زيارات متقطعة لمدد قصيرة إلى أفغانستان وبعض البلدان الآسيوية وإلى بلده بريطانيا.

عام ١٩٥٧م العام الوحيد الذى لم يزر فيه العراق.

زار معظم الأقطار العربية إلا أن إقامته فى العراق أخذت حصة الأسد تليه الجزيرة العربية فقد أمضى فيها معظم الشهور الممتدة من عام ١٩٤٥م إلى عام ١٩٥٠م.

أبرز مؤلفاته:

١ ـ رمال عربية، منشورات لونجمانز ١٩٥٩م.

٢ ـ عرب الهور، منشورات لونجمانز، ١٩٦٤م.

٣ ــ صحراء هور جبل عالم البدائية، منشورات كولينــز ١٩٧٩م.

٤ ــ كثير من المقــالات فى المجــلات لاســيما المجلــة الجغرافيــة البريطانيــة واصفا فيها رحلاته إلى العديد من مناطق العالم النائية لاســيما العربيــة والآســيويه والأفريقية.

٥ ــ آخر البدائيين.

٦ ــ عبور الرمال.

٧ ــ بين الجبال.

٨ ــ أيامى فى كينيا.

٩ ــ حياة من صور.

١٠ ــ عالم زائل.

توفى ثيسيغر فى ٢٤ من أغسطس ٢٠٠٣م بعد عزلة فرضــها عليــه المــرض دامت قرابة خمسة أعوام قضاها فى شقته فى لندن.

مات صديق العراق... مات صديق الأهوار... هكــذا نعتــه هيــأة الإذاعــة البريطانية صباح يوم ٢٥ من أغسطس ٢٠٠٣م.



مقدمة المترجم

في بواكير عام ١٩٨٦م دعاني أحد أقاربي لأصحبه في زيارة لقرية (أُم الهوش) على مشارف الهور على نهر (الواديّة)، وافقت على مضض بسبب طبيعة المهمة الثقيلة المحتم عليّ أداؤها.

انطلقنا من المعهد الذي كنت أدرّس فيه في مدينة العمارة مركز محافظة ميسان وانطلق بعدها شغفي.

كانت بدلتي النيلية، وقميصي الأبيض، وربطة عنقي اللماعة نقاطاً ناشزة في فضاء المضيف الذي حللنا فيه، زاد في نشوزها شاربي الحليق، فكان الرجل والشباب ينظرون في وجهي ويطرقون. تمنيت ساعتها لو أني بقيت على إصراري في رفض تلك الدعوة التي كانت مهمتها فوق طاقتي وخارج قناعاتي.

لم أكن لأزيد على ردّ السلام شيئاً مكتفياً بصمتي مراقباً لما حولي. وحين انفض الجمع تماماً ولم يبق سوى مضيّفنا، الذي لم يتورع عن تنبيهي إلى ضرورة إطلاق شاربي، بادرت في السؤال: هل نحن في الهور؟ فقد كانت طبيعة المنطقة غريبة لايمكن تصنيفها. ضحك مضيفنا وقال: "لا، الهور هناك" وأشار بيده إلى جهة الجنوب. ومن وقع الكلمة (هناك) عرفت انه قريب. أبديت رغبة ملّحة في رؤيته، رؤية هذا الانبساط الجميل، فتعهّد مضيفنا بمرافقتنا في جولة (بالشختورة) صباح الغد الباكر... دارت في رأسي أخلية ذلك المارد الذي سمعت عنه الكثير حين جفاني النوم بسبب تغير فراشي وبسبب أصوات الكائنات التي لا أستطيع تمييزها بسهولة.

وفى الصباح سارت (الشختورة) التى توسطتها، بهدوء شاقة مياه (الواديّه) إلى أمواج متصلة تنتهى بارتطامات لابطة على الضفتين. كنت أنظر فى عينى (السكّانى) علنى ألمح فيهما بريق دنونا من الهور. وحين توقف أخيراً عرفت أننا فيه دون أن يصرّح أحد بذلك، ذلك أنى تمعنت فى رقة الماء وشفافيته التى تحاكى شفافية البلور. كم أدهشنى اتساع العالم المتحرك فى قاعه. ورغم توسلاتى التى بدت صبيانية بالاستمرار والتوغل أكثر غير أن مضيفيّ رفضوا المكوث لأكثر من ساعة. غمزنى الرجل الذى من أقاربى، وحين سألته عن دلالة غمزته فيما بعد، أوضح لى تفاصيل كثيرة أوجزها بكلمة واحدة (مطلوبين) (*). تساءلت بلوعة: كيف يمكن لهذا الجمال ألاّ يفعم قلوب ساكنيه بالمحبة؟ لم أكلف نفسى عناء البحث عن إجابة، فربما كانت وفرة الجمال واتساعه وعمومية الخير وسهولة مناله هى أسباب خشونة قلوبهم وقسوتها أحيانا، ربما!.

منذ ذلك التاريخ وأنا أبحث عن فرصة أخرى، فرصة أطول وأكثر هدوءاً وبلا مهمات يكلفنى بها غيرى، فرصة أتهيأ فيها وأطلق لها شاربى لأغوص فى أعماق الامتداد اللامحدود للجمال والسحر.

لم تسنح لى تلك الفرصة وضاعت أحلامى سدىً، لذا وجدتنى حريصاً كل الحرص على زيادة درايتى بالهور من خلال كثير من المطبوعات العراقية ومؤلفات أجنبية صدمتنى دقة إخراجها وبراعة المصورات التى توثق لهذه الحياة البدائية التى لا تختلف كثيراً عن نمط حياة السومريين وغيرهم من الأقوام

(*) مطلوبين: تعنى أن فى ذمتهم ثأراً لم تتم تسويته بعد.

الغابرة ممن بنوا محلات سكناهم فوق الماء. والذى صدمنى أكثر خلو المؤلفات العراقية من الصور، ولو حصل واحتوت على عدد قليل منها فهى بعدسات مصورين أجانب زاروا المنطقة عرضاً أو جاءوا لغرض الإيغال فى المعرفة.

فوجئت أن هذا الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارئ لم يترجمه أحد، على الرغم من أن كتباً قبله صدرت بالإنكليزية قد ترجمت كما هو الحال مع كتاب (الحاج ريكان) لفلانين، وكتاب (قصبة فى مهب الريح) لغافن ماكسويل، وكتباً أخرى صدرت بعده (كالعودة إلى الأهوار) لغافن يونغ.

أسعدنى جداً، قدر ما كدّرنى، أن هذا الكتاب لم يترجم من قبل، فقد أتاح لى فرصة تقديم شىء لعاشقي هذا الأفق المائى الممتد ليعانق بخضرته السماء، ولمحبى الاستزادة فيه من عراقيين وعرب وغيرهم. وحين خضت فى الصفحات الأولى للكتاب مترجماً لها، توقف لدىّ هاجس قديم أرّقنى لسنين طوال، هاجس كتابة شىء عن الجنوب العراقى الزاخر بالسحر. لذا كانت أوقات ترجمتى أجمل أوقاتى وأكثرها حيويّة. وحين كنت أفك ما يستعصى علىّ من الجمل الغامضة ذات التراكيب المعقدة أشعر بدبيب السعادة والغبطة فى ثنايا روحى.

لن أضيف شيئا إن قلت: إن الكتاب مهم، وتأتى أهميته ـ بتقديرى ـ من سلاسته وعفويته، فهو يتناول عموم منطقة الجنوب العراقى تقريباً واصفاً إياها فى مدّة امتازت بشدة التحولات السياسية التى تُوجت بثورة ١٤ من تموز المجيدة سنة ١٩٥٨م، وما ترتب عليها من تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وصف المؤلف انعكاساتها المتمثلة بالسلوك الشعبى العام وإن كانت المنطقة التى عاش فيها بطيئة التأثر بما يدور فى مراكز المدن العراقية المهمة.

يمكن عَدّ الكتاب سجلاً توثيقياً لشعبنا فى الأهوار، فهو يصف كل شىء، بكاءهم وضحكهم، ورقصهم وغناءهم، ومأكلهم ومشربهم، ومنامهم وبيوتهم، ويصف خوفهم

ورجاءهم، إنه باختصار يصف كل شيء يراه المؤلف ويعتقده مهماً بأسلوبه البسيط الشيّق، مكملاً تلك التسجيلية الدقيقة بعدد وافر من الصور التى توضح طبيعة تلك الحياة. فهو لذلك صورة ناطقة لكل مفردات حياة امتازت بالبساطة والتلقائية والجمال.

بيد أن ما يجب التنويه إليه أن ليس كل ما كتب عن سكان الأهوار فى هذا الكتاب صحيحاً على الإطلاق. وإن كانت ثمة هنّات هنا وهناك متمثلة ببعض الآراء الجاهزة غير المتأنية والأفكار المسبقة التى لم يكلف المؤلف نفسه عناء البحث فيها وفى مظانها، إلا أنها لا توهن من عزم الكتاب فى نواياه الكشفية شيئاً.

اعتقد أن هذا الكتاب هو أفضل ما كتب عن الأهوار العراقية على الإطلاق، فعلى حد علمى هناك ثلاثة كتب مهمة أجنبية حديثة نسبياً كتبت بالإنكليزية لمؤلفين بريطانيين عن هذا الموضوع، إلا أنها لا ترقى إلى أهمية هذا الكتاب، وذلك لعدة أسباب: يقف على رأسها شموليته واتساعه، ولتناوله مدة طويلة جداً بمقاييس الرحالين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا تقل عن الأولى أهمية: هى حساسية المؤلف الشديدة الرهافة أمام تفصيلات على درجة عالية من الدقة التوثيقية لا يعرفها إلا سكان تلك المنطقة أشبع فيها مؤلِّفَه حد التخمة.

أستطيع طمأنة القارئ أنه أمام النص كما هو بلا زيادة ولا نقصان إذا استثنينا الزيادة فى الهوامش التى ابتغيت من ورائها إثراء الترجمة وإغنائها خاصة وأن الكتاب من أدق الكتب التى قرأتها عن هذا الموضوع، وأكثرها شمولاً وإحاطة بموضوعة الهور. ورغم ادعاء المؤلف فى مقدمته أنه ليس انثربولوجياً إلا أن قراءة الكتاب تفضح أنه انثربولوجى مهم. فقد اطلعت على دراستين عراقيتين انثربولوجيتين لنيل شهادات دراسية عليا فى الموضوع نفسه، فلم أرَ فارقا ظاهريا سوى اعتماد الباحثين العراقيين على لغة الرقم فى قياس الظواهر قيد البحث يقابلها افتقار هذا الكتاب لهذه اللغة. إلا

أن ما يسجل للمؤلف خوضه فى نفس الخطوط العريضة والمبادئ الأساسية لأية دراسة من هذا النوع وتوصله إلى نتائج وصفية كانت على جانب كبير من الأهمية إذا عرفنا شمولية الكتاب لكل ما يحيط ببيئة الأهوار، وهى نقطة جوهرية أحاط بها المؤلف زائداً طول مدة إقامته فيها.

فالمعروف أن ضوابط الدراسة الانثربولوجية تحتم على الباحث الإقامة وسط المجتمع قيد الدرس مدة يجب ألاّ تقل عن سنة، بينما امتدت إقامة المؤلف لأكثر من ست سنين تقطع أحياناً بزيارات طارئة مدة أشهر لبلده بريطانيا أو لمنطقة آسيوية أو أفريقية.

ثمة نقطة جوهرية أخرى تميز الكتاب عن أية دراسة انثربولوجية متخصصة أكاديمية هى الأسلوب، فقد اختار المؤلف لغة قصصية شيقة يضمنها توصيفاته لكل ما يرى مهما ضؤل بينما تنحو الدراسات الأكاديمية إلى لغة جامدة لا تحيد عنها لعلها من مقتضيات أصول الدراسة فى هذا الموضوع، بمعنى أن المؤلف كان حراً فى اختياراته للنقاط التى ينطلق منها كثوابت لبحثه. ولعل حريته هذه هى التى أكسبت الكتاب تلك البراعة والتشويق فى الوصف، مضافا لذلك ـــ وهذه نقطة غاية فى الأهمية ـــ حبه واستمتاعه بما يفعل. فهو رجل يختلف اختلافاً جذرياً عن مكونات البيئة التى عاش فيها إلا أنه يقول عنها وفى أكثر من موطن انه حين يعود إليها كأنما يعود إلى وطنه، فكيف استطاع التوصل إلى مثل هذا الإحساس إن لم يكن فعلاً يحب تلك البيئة؟ فهو الحب الحقيقى إذاً الذى أحسه فى نفسه فأفصح عنه، ولم يجده لقوم عراقيين آخرين فأعلن عن ذلك صراحة. إن المؤلف رومانسى حالم، هذا صحيح، فقد تبيّن ذلك فى مقته لحضارته المادّية وما أنتجته من وسائل الغرض منها خدمة الإنسان وجعله أقدر على مواجهة مشاكله على الأرض، غير أنها تسلبه شيئاً أثمن آخر هو التصاقه بالطبيعة وإحساسه بها، ومن قلقه الشديد من دخول التعليم المنظم إلى الأهوار الأمر الذى يبدو غاية فى الغرابة والتطرف، غير أن تلك الغرابة تتبدّد حين نتعرف على أسباب المؤلف.

لن نستطيع فهم غرابة موقف المؤلف إن لم نضع الحب شعاراً وتتويجاً لكل سعى وجهد بذله، فكيف نستطيع فهم سلوك أوربى متحضر جداً من عائلة نبيلة معروفة يتحمل عناء البعوض والذباب ودرجات الحرارة اللامعقولة فى بيئة تنعدم فيها وسائل الاتصال مختاراً، متنقلاً بصناديقه من قرية إلى أخرى معالجاً لطوابير من المرضى والمتمارضين حتى ساعات متأخرة من الليل؟ شطح عقل البعض وأجاب إجابة تنم عن ضيق الأفق ــ وربما عن حسد ــ لنجاحات المؤلف وشهرته وسط المعدان ليقول "جاسوس". لا أريد التعليق على هذا القول الهش الذى يفضح عدم إيمان قائله بالحب سبيلاً لتجاوز اللغات والألوان وكل العوائق الحضارية، بل أترك المؤلف يدافع عن نفسه ضد الذين لا يستطيعون فهم سلوكه ودوافعه وضد الذين يصرّون على عدم تبرئة نواياه. لقد حرص المؤلف غاية الحرص على أن يظهر متوازناً واقعياً رافضاً لسلوك غيره من أبناء جلدته حين عجز عن العثور على مسوّغ لشكل من سلوكهم المحابى الذى لا يخلو من غرض، لذا نجده يرفض أن يصيح بصوت عال "الفاتحة" فى العزاءات التى كان يحرص على الذهاب إليها معزياً أصدقاءه، لكى لا يبدو متناقضاً رغم انه قرأها مرات فى قرارة نفسه وهو يخيط جراح المعدان ويوقف برح آلامهم. نام على الجبايش بعد ساعات طوال من العمل فى ختن الصبية، مقتسماً بطانياته مع عائلة لا قاسم مشترك بينه وبينهم غير الإنسانية والحب. سار حافياً وراء فالح بن مجيد المصاب بطلق نارى فى قلبه، وقلبه مع ابنه عبد الواحد لأنه ما تعود السير حافياً. كان بإمكانه أن ينتعل، إلا أنه آثر التحفى مواساة بعد أن وجد البكاء بصوت عال كما فعل محبو فالح أمراً فوق قدرته، فاكتفى ببكاء صامت نبيل على شخص أحبه.

سحرته طقوس الماء وأسراره ومخلوقاته، فها هو ذا مشدوه أمام خفق الأجنحة لآلاف الطيور الملونة التى أفزعها مردى عماره بن ثكَب ومجذاف حسن بن مناتى،

فطارت من بين القصب اليانع الخضرة. وها هى (الدهلة) توقف قدرته على الوصف فيقول عنها كالشوكولا، كأنه يريد القول أن لونها امتزاج رضا الرب العظيم عن هذه الأرض بذرات تراب حباها الله بنعمه المغدقة، وبحب أهلها للحياة وامتلائهم بنبضها حتى ابتعدت عنهم عقد التصحّر التى عانى منها غيرهم.

لا يفوتنى هنا أن أتقدم بمودّة إلى كل من لديه معلومة عن أى من الشخوص الذين وردوا فى هذا الكتاب جهراً أو ضمناً، مهما كانت ضئيلة أو أية معلومة يرى أنها تسلط ضوءاً على أية زاوية من زوايا الكتاب أن يسعفنى بها، فيكون بذلك قد أسدى للمعرفة فضلا.

الله أسأل أن أكون قد أسديت خدمة لأبناء بلدى، العراق العظيم، وهو ولى التوفيق.

الدكتور
سلمان عبد الواحد كيوش
بغداد ٢٠/ ٨/ ٢٠٠٢م
Salman-kayoush@ yahoo. Com



شكـــر

منهم مَن فهم مهمتي مباشرة ورحّب بها وأبدى إعجابا بإصراري على نبش تأريخ عدَّه البعض هامشياً وثانوياً، ومنهم مَن تأخر عنده هذا الفهم. منهم مَن بقي على عفويته وتلقائيته، ومنهم من خاتلني وضاق بي ذرعاً بعد أن شطّت به الهواجس المريبة وأصبح نهشاً للظنون. ولكنهم جميعاً مدوّا أيديهم أخيراً، باسطيها كل البسط مبدين مساعدة أصروا على أن تكون كبيرة وفاعلة بعد أن أنعشت ذاكرتهم التي طغت عليها مستحدثات زمنهم المثقل بالمسؤوليات، ونشطوا مستمتعين وهم يزيلون صدأ قرابة نصف قرن عن ذاكرتهم فأدهشوني وهم يحدّقون بي وكنت أعلم أنهم إنما يحدّقون بوميض الذاكرة. لقد كان شيئاً رائعاً يحسدون عليه تذكرهم الأسماء والتفاصيل التي تصرّمت عنها سنين نصف قرن. إلى هؤلاء... وإلى الأصدقاء الذين سعدوا بي وبجهدي وتحلقوا حولي مؤازرين أتقدم بالشكر والامتنان.

١ ــ الحاج عبد الحسين بن اكيوش الفريجي.

٢ ــ حوشي بن دعيش بن بطيبط الفريجي.

٣ ــ الشيخ خلف بن مجيد الخليفة.

٤ ــ الشيخ فالح بن جاسم بن محمد العريبي.

٥ ــ الشيخ عبد الواحد بن فالح بن مجيد.

٦ ــ الشيخ أبو ريشه بن خريبط بن فالح الصيهود.

٧ ــ محمد على بن رضيو بن عسكر المنشداوى.

٨ ــ محمد بن رضيو بن عسكر المنشداوى.

٩ ــ بانى بن صحين بن كاظم الفريجى.

١٠ ــ خريبط بن سفيح بن مكنــزى الفريجى.

١١ ــ دهيش بن نافل الحميداوى.

١٢ ــ عماره بن ثكَب بن لجلاج الفريجى.

١٣ ــ عماره بن محيسن بن رمّيس الفرطوسى.

وإلى أصدقائى وأحبتى:

١ ــ الدكتور عباس عبد الحسين / معهد الفنون التطبيقية.

٢ ــ الأستاذ محمد الكنانى / كلية الفنون الجميلة.

٣ ــ الأستاذ سعد السودانى / معهد إعداد المعلمات.

٤ ــ الأستاذ عايد مطر/كلية الآداب جامعة بغداد/قسم اللغة الإنكليزية.

٥ ــ عادل صدام جويعد الأزيرجاوى.

❁ ❁ ❁

مقدمة المؤلف

عشت فى أهوار جنوب العراق ابتداءً من نهاية عام ١٩٥١م وحتى حزيران من عام ١٩٥٨م، وتستمر إقامتى أحيانا لسبعة أشهر متواصلة. عام ١٩٥٧م هو العام الوحيد الذى لم أذهب فيه إلى هناك. وعلى الرغم من كونى دائم الترحال تقريباً، غير أن هذا الكتاب لا يُعَدُّ كتاب رحلات بالمعنى الدقيق للكلمة بسبب محدودية المنطقة. ولا ينوى الكتاب تقديم نفسه على أنه دراسة تفصيلية لسكان الأهوار الذين عشت معهم لأننى لست انثربولوجيا، وفى الحقيقة لست متخصصاً فى شىء من أى نوع. لقد أمضيت تلك السنين فى الأهوار لأنى أجد متعة فى ذلك. وخلال هذه السنين عشت بين سكان الأهوار واحداً منهم، وأصبحت بشكل محتوم آلفاً طرقهم إلى حد ما. ومن خلال مذكراتى التى كنت أدونها بشكل يومى حاولت أن أعطى صورة عن الأهوار وعن الناس الذين يعيشون هناك. إن الاضطرابات السياسية الحالية[1] فى العراق قد حالت دون زيارة تلك المنطقة. قريباً ربما ستجفف الأهوار، وعندما يحدث هذا، فان نمطاً فى الحياة ــ استمر لآلاف السنين ــ سوف يختفى.

تغطى الأهوار حوالى ستة آلاف ميل مربع من المناطق التى تحيط بالقرنة حيث التقاء دجلة والفرات شمال البصرة ليشكلا شط العرب.

---

(١) فترة نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات.

تتألف الأهوار من الهور الدائم، حيث الحياة النباتية التى يغلب عليها القصب، ومن الهور الموسمى الذى يغطى معظمه البردى الذى يجف فى الخريف والشتاء، ومن الهور المؤقت، الذى تغمره المياه خلال الفيضانات، الذى أفرط البردى أخيراً فى النموّ فيه.

يمكن تقسيم الأهوار بسهولة إلى الأهوار الشرقية التى تقع شرق دجلة، والأهوار الوسطى أو مركز الأهوار التى تقع غرب دجلة وشمال الفرات، والأهوار الجنوبية التى تقع جنوب الفرات وغرب شط العرب.

وهناك أيضا هور دائم أدنى الشطرة على شط (الغرّاف) الذى يتفرع من دجلة عند الكوت ويتجه إلى الجنوب الغربى باتجاه الناصريّة. وهناك خور آخر فى السهول الواقعة شمال شرق العمارة حيث الفيضانات التى مصدرها (الطيْب) و(دويريج) [1] المنحدرة من التلال الإيرانية لتتشتت فى تلك السهول، وهو موسمى آخر فى أراضى (البو درّاج) الواقعة على نحو خمسة عشر ميلاً شمال العمارة غرب دجلة.

وحين تبلغ الفيضانات العظيمة أوجها فان أصقاعاً واسعة من الصحارى المجاورة للأهوار تُغمر بطبقة من المياه المكشوفة الواسعة تتباين مساحاتها من سنة لأخرى ولكنها تمتد إلى مسافة تربوعلى المائتى ميل من ضواحى البصرة حتى الكوت تقريباً. ومع تراجع الفيضانات فإن معظم الأراضى التى كانت مغمورة بالمياه تعود إلى صحارى. وفى الربيع، حين تذوب الثلوج فى قمم الجبال الإيرانية والتركية تتسبب فى فيضان دجلة والفرات. والأهوار هى نتاج لقرون قديمة من الفيضانات وتشتت مياه هذين النهرين. يتزود مركز الهور

(١) نهران ينبعان من الأراضى الإيرانية.

والهور الشرقى بمياههما من دجلة، وأن ٨٠% من تصريف المياه المارة ببغداد تتشتت فيهما. وتتوزع مياه الفرات نفسه أدنى الناصرية من خلال عدد كبير من القنوات تتبدد مياهها تدريجيا وتتلاشى فى هور (السناف) ومن ثم فى شط العرب أسفل قناة (كَرمة على) التى تقع على بعد بضعة أميال شمال البصرة.

مازالت القناة القديمة بين (سوق الشيوخ) والقرنة تعرف بالفرات، ولكن الحقيقة أن الماء فيها يأتى من الضفة اليمنى لدجلة. وحتى وقت قريب كان الاعتقاد أن دجلة والفرات اعتادا الجريان منفصلين ويصبّان كذلك فى الخليج العربى، وأن ما يجلبانه من غرينهما قد دفع ساحل الخليج تدريجيا إلي الجنوب. إن النظرية الحديثة التى قُدمت من قبل الدكتور (ج. م. ليز) و(ن. ل فالكون) عام ١٩٥٢م تؤكد أن ثقل الغرين المتراكم قد سبّب ترسبا متشابها فى سطح الأرض بحيث بقى خط الساحل ثابتا بشكل كبير منذ الأزمنة التوراتية. وفيما يخص دجلة، فإن الفيضان السنوى يصل ذروته فى شهر مايو، وشهر حزيران (يونيو) هو ذروة فيضان الفرات. وابتداءً من شهر حزيران يبدأ كلا النهرين بالانخفاض ويصلان أدنى مستوى لهما فى شهرى أيلول وتشرين الأول. وفى شهر تشرين الثانى تطرأ زيادة طفيفة على مستوى مياه النهرين تزداد طوال الشتاء، ربما ساهمت فى فيضانات مفاجئة خلال الشتاء والربيع.

ولان مسيرتى بدأت فى الأهوار الوسطى فهى المنطقة التى أعرفها جيداً. حقيقة، لقد شعرت كما لو أنى فى بيتى ووطنى. وعلى مرّ سنوات، كان علىّ زيارة كل القرى الصغيرة تقريباً مهما كانت صغيرة، وتكررت زياراتى مرات ومرات للكثير منها. وعندما حزت على مشحوف كان مساعدىّ، الذين يتولون الدفع والتجذيف، من هذه المنطقة. وحين تقبلونى فقد تقبّلنى أفراد عشائرهم. لقد بقوا معى طوال مدة إقامتى وكانت قراهم هى الأماكن التى

أعود إليها بعد كل رحلة. لقد كانت رحلاتي شاملة لكل الأهوار الغربية لكني لم أتعرف على أهلها جيداً، فقد بقيت غريباً رغم المعونات الطبيّة التي قدمتها لهم وكانوا يرحبون بها. أما الأهوار الجنوبية فلم أرَ فيها إلا القليل.

حريّ بي تقديم امتناني للدَيْن العظيم الذي أسداه لي (جون فيري) المتمثل بالمساعدة والنصيحة لإخراج هذا الكتاب في الشهور التي كنت معه في فلورنسا. لقد قرأ مخطوطة الكتاب بصبر لا حدود له وساهم بشكل كبير في تطويره. كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى (فال فرينج بلاك) و(جورج ويب) لاقتراحاتهما القيمة ولفضلهما في قراءة وتصحيح التجارب المطبعية، وإلى (كَراهام واتسن) الذي حفزني لكتابة هذا الكتاب وشجعني وأسدى لي النصيحة. وشكري أيضا إلى (ك. س. جوردن) الذي تولى رسم الخرائط و(شركة جيمس سنكلير أوف وايت هول) التي أولت عناية بتطوير وطباعة صوري والتي قدمت الطبعات لهذا الكتاب، وإلى فريق العمل في متحف التاريخ الطبيعي، والكثير من الآخرين الذين ساعدوني في جمع المعلومات.

ولفريد ثيسيغر

الفصل الأول

لمحة عن الأهوار

تعالوا نرمم ثدى الأرض فحملته الغــرين،
أرضعتها جذور القصب واحترقت.

قضينا طوال اليوم على ظهور الخيل، فى سهل منبسط، يتطـاير الغبــار تحــت حوافرها بصورة خانقة. كانت الأمطار قد انسحبت كما هى غالباً، وتفتت النباتات، وتناثرت فى التربة المتشققة. لم تكن هناك شجيرات ولا صخور لتقوم مقام علامة لكى نقيس مدى تقدمنا البطىء نحو الأفق. كانت سروجنا ذات النمط العربى صلبة كأنهــا ألواح خشب، وكان الرِكاب المعلق بعيداً إلى الخلف يجبرنا على الجلــوس مــائلين إلى الأمام مبتعدين إلى القسم المقوّس من السرج الذى ينتأ إلى الأعلى كما نراه فى سروج الكاوبوى. لقد استوقفنى فى الحقيقة أن السروج الأمريكية ربما كانت مستلهمة مــن هذه السروج، فقد استقدم العرب هذه السروج إلى أسبانيا وقام الأسبانيون بدورهم بأخذها معهم إلى العالم الجديد.

كان سير الخيل خبباً لأن رفيقى لم يسبق لــه امتطــاء جــواد. إنــه (دوكَالــد ستيوارت[1] نائب القنصل البريطانى فى العمارة. على الرغم مــن أنــه فى التاســعة والعشرين من عمره وموهوب جداً غير أنه دائما ما يؤكد أن لا طموح لديه ســوى إنهاء خدمته كقنصل فى (سبلت) [2] حيث يستطيع نيل كل ما يريــد. لقــد تبادلنــا

(١) دوكالد ستيورات: Dugald Stewart: رغم السعى والبحث لم أعثر له مع الأسف على أى ذكــر فى المصادر التى تيسر لى الاطلاع عليها.

(٢) سبلت Split مدينة على الساحل الدلماسى الكرواتى فى الشمال الغربى من يوغسلافيا تعود إلى القرن السابع الميلادى. يبدو أن لهذه المدينة مواصفات محببة فى نفس ستيوارت.

ذكرياتنا الخاصة بـ (ايتون) كما يفعل قدماء الأيتونيين[1]. لقد كان تلميذاً موهوباً بالرغم من عرجه الذى ساء نتيجة عمليتين جراحيتين فاشلتين فقد حاز على الكثير من الشارات المدرسية، فى حين، ـ رغم وجود ساقين سليمتين ـ لم أحز على شيء.

حططنا رحالنا تلك الليلة عند (البزون) [2] ونمنا على الأرض فى خيمة الشيخ الخاصة بالضيوف بعد وجبة دسمة من الأرز ولحم الغنم.

وفيما عدا كونها مدعومة ومستندة إلى أحد عشر عموداً ومتسعة بإفراط، فان الخيمة التى تحيطنا لا تختلف عن بقية السقائف السوداء المصنوعة من شعر الماعز التى تفتح كلها إلى الاتجاه نفسه. وكان يقف أمام معظمها حصان أو اثنان مربوطان إلى الأوتاد من أرجلهما الأمامية. لقد تابعت تلك الأغنام وهى تُساق قبيل الغروب من قبل رعاة شباب تحيط بكل قطيع هالة ذهبية من الغبار. كان ثغاؤها المتواصل طوال الليلة يشكل صدى من ضجيج مقابل نباح الكلاب المتقطع.

أنا فى طريقى إلى الجنوب قادماً من كردستان العراق حيث كنت هناك محاولاً استرداد سلام روحى الذى عرفته فى جنوب الجزيرة العربية. كنت قد عشت هناك مع البدو مدة خمسة أعوام وقطعت بينهم عشرة آلاف ميل عبر أراضٍ لم تمر بها سيّارة، حتى قدوم الفرق الزلزالية[3] متمثلة بطلائع التقدم الحديث، التى بدأت تتوافد للبحث عن النفط.

كردستان العراق، المكان الذى طالما رغبت بزيارته، كنت قد اجتزته على ظهر جواد من أقصاه إلى أقصاه رافقنى فى ذلك كردى شباب. كان المشهد عفوياً وجميلاً، والأكراد الذين يسكنون هناك مازالوا يلبسون الملابس التقليدية المبهرجة والعمائم المزركشة والسراويل الفضفاضة والصدارى القصيرة وأوشحة للخصر من كل لون وجنس،

---

(١) ايتون Eton مدينة قديمة فى بريطانيا. والمؤلف هنا يرمز للإعدادية التى تخرج فيها وتحمل اسم المدينة.

(٢) البزون: اسم لقبيلة عراقية عربية تسكن غرب الأهوار باتجاه الجزيرة العربية وهم فرع من القبيلة الأكبر (العيسى) التى تنحدر من الحجاز.

(٣) الفرق الزلزاليه: تسمية لفرق جيولوجية تتولى عملية البحث عن النفط بطريقة التفجيرات.

تختبئ تحتها الخناجر والمسدسات وتصالبت فوقها أحزمة عريضة مزخرفة مليئة بالذخيرة. أنام ليلتي في قرية تنحدر بيوتها بعضها فوق بعض بمحاذاة سفح الجبل بسطوحها المنبسطة، وفي الخيام السود للأكراد الرحل على قمم الجبال المكشوفة حيث تنمو أزهار الجنطانيا بين الحشائش، وترقد الثلوج طوال فصل الصيف. كنت قد تتبعت الأنهار المتعرجة خلال غابات البلوط حيث تنقب الدببة في الأدغال، واسترعى انتباهي قطيع وعول متخذاً طريقه على طول حاجز يرتفع الى ثلاثة آلاف قدم من الصخور، بينما النسور العملاقة تطوى السماء هازة الري بأجنحتها. لقد رأيت بهاء الربيع في كردستان حيث تغطي السفوح شقائق النعمان، بينما اكتست الجبال حلة قرمزية بأشجار التوليب. لقد اتخمت عنباً طازجاً لوّحته أشعة الشمس وأنعشته برودة الجداول القريبة.

انعدمت عندي الرغبة في العودة إلى كردستان حين رأيتها. فقد كانت رحلتي فيها مقيّدة جداً كأنها مطاردة بخلسة في غابة أيائل اسكتلندية. عبر هذا الجدول تقع تركيا، ووراء بركة الأمطار تلك تقع إيران حيث ينتظر رجال الشرطة بحللهم الرسمية عند الممر مطالبين بجواز السفر الذي لا أملكه.

قبل نصف قرن(١) كان بإمكاني الذهاب عبر راوندوز إلى أورميا(٢) ومنها إلى فان(٣)، والإعاقة الوحيدة الحقيقية ربما تكون قطّاع الطرق والعشائر المسلحة. والشيء المؤكد أن الأهوار، التي أتجه إليها الآن، تغطي مساحة أقل من مساحة كردستان العراق، لكنها عالم كامل قائم بذاته وليست جزءاً من عالم أكبر يتنكر لي ويرفض وصولي(٤). بالإضافة إلى ذلك، فإن كوني مولعاً بالعرب ربما هو الذي حال دون

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى حقيقة انعدام الحزم في الدخول والخروج إلى هذه البلاد قبل نصف قرن، ربما بسبب الحروب.

(٢) أورميا Uremia بحيرة كبيرة في الشمال الغربي لإيران قرب الحدود مع تركيا. تبلغ مساحتها ٢٣١٧ ميلاً مربعاً.

(٣) فان أو وان Van: بحيرة ملحية في الجنوب الشرقي لتركيا. تبلغ مساحتها ١٤٥٠ ميلاً مربعاً.

(٤) ربما كانت إشارة إلى إيران أو تركيا حيث لا يمتلك تأشيرة مرور.

استلطاف للأكراد. وبالرغم من إعجابي بالمناظر الطبيعية التي راقت لي، لكنني لم أتلمس هذا الإعجاب في نفسي بالأكراد.

لا أستطيع أن أذكر أني مشوّش بسبب عدم قدرتي على إتقان اللغة الكردية، وحتى لو استطعت فما كان هذا ليؤنسني بهم. ولأني اعتدت على اعتبار الناس أهم من الأماكن لذا قررت العودة إلى العرب.

امتطينا خيولنا صباح اليوم التالي باتجاه الجنوب، هذه المرّة نحو الأهوار عبر سهل لايكاد يتغير وتوقفنا منتصف النهار عند بعض الخيام للتزود بالطعام ولنستبدل الخيول. إن (دوكَالد) ممتط لجواد فخم حرون ذي لون أشهب. وحين اعترضت على أن (دوكَالد) ليس بفارس لمثل هذا الحصان ظن الشيخ أن بي رغبة لركوبه دون غيره، لذا قال: "لقد اشتريته خصيصاً للقنصل".

وبعد مدة وجيزة وعلى حين غفلة، قام (دوكالد) بوخز الحصان بعقب قدمه فانطلق. ولكي ينقذ (دوكَالد) نفسه رمى الرسن وتشبث بالقسم المقوس من السرج بكلتا يديه، فبدأ رفاقنا يعدون بسرعة لملاحقته ولكني حين أدركت أن هذا التصرف لا يزيد إلاّ في استثارة الحصان فقد صرخت طالباً منهم التوقف. كان (دوكَالد) قد فقد كلا الركابين، لقد لاح أنها مسألة وقت فقط لسقوطه. كانت الأرض صلبة فانصرف ذهني إلى حادث مروّع، ولكن بعد قرابة ميلين توقف الحصان منهكاً بينما يدا (دوكَالد) مازالتا تقبضان على السرج. حينما لحقنا به كان قد ترجل وهو ينظر في يديه المدميتين من مسامير زخرفة السرج.

ـ "الآن وأنا قدميّ بهذا الشكل فسأكمل ماشياً".

قال (دوكَالد) ذلك في الوقت الذي لم يكن هناك أي تأكيد بأن خيولنا هادئة لكي نقنعه بتغيير رأيه والعدول عن قراره ليركب أحدها.

مازالت الشمس في كبد السماء، وامتلأت الأرض بالشقوق العميقة نتيجة الفيضانات السابقة. وفي الوقت الذي استمر الشيخ في سيل اعتراضاته واحتجاجاته كان (دوكَالد) يمشي مترنحاً مضطرباً. ناشدني (دوكَالد):

ــ "إكراماً لله، اطلبْ منه أن يسكت".

مالت الشمس باتجاه الغروب ولم تبد أية إشارة للأهوار ولا للقرية التى نقصدها. كان الظلام قد حلَّ حين رأينا أنواراً تتحرك من بعيد. كانت عشيرة (البزون) قد أخبرت (مزيَّد بن حمدان) [١] شيخ عشيرة (العيسى) [٢] بتوقع قدومنا لذا فقد أرسل فريقاً للبحث عنّا عند الغسق وسرعان ما اهتدوا إلينا وقادونا إلى مخيم الشيخ الواقع على حافة الأهوار. بإمكاننا أن نستشعر وجود الماء لكننا لم نكد نراه.

كان الشيخ (مزيد) نفسه على رأس المستقبلين. رجل ضئيل القامة ذو بنية مألوفة لكنه يقف باستقامة تامة ويعطيك حالاً انطباعاً بالاحترام والثقة والجلال. كانت الخيمة مضاءة بفانوس نفطى ومليئة برجال، تسلح أغلبهم بالبنادق. ما أَن دخلنا الخيمة حتى نهض الجميع. أشار لنا الشيخ (مزيد) إلى مكان جلوسنا قريباً من الموقد. وفى الوقت الذى كانت تقدم لنا فيه فناجين القهوة والشاى كانت أسئلة الشيخ المتمسكة بالمعرفة عن صحتنا ومتاعبنا فى رحلتنا التى لا تنقطع. جلس الجميع ساكنين ولم يكن أحد يتكلم سوى الشيخ. نحن بحضور عرب الصحراء الذين يكونون دائماً شديدى التمسك بأعرافهم أمام الملأ ويتضاعف إحساسهم بوقارهم وجلالهم.

وأخيراً أكلنا، لقد بدت لنا الساعات طويلة ونحن ننتظر طبقاً كبيرا وقد تكوم فوقه الأرز ولحم الغنم المعتادان. إنها ليست وجبة لذيذة، لكن العرب يقدّرون ويحترمون الكميّة على حساب النوعيّة. أكلنا فى البداية مع رجال مسنّين وما أن انتهينا من أكلنا حتى بادر الشيخ (مزيد) إلى دعوة الآخرين بالأسماء ليحتلوا أماكننا. وبوصفه مضيفا فان الشيخ (مزيد) نفسه كان واقفا حتى أطعم الجميع. لقد تناولوا وجبتهم على

---

(١) مزيّد بن حمدان: شيخ عشيرة العيسى، متوف وخلفه طاهر بن عبد الله بن سكر، لم أستطع تعين تاريخ وفاته بالضبط غير كونه بعد ١٩٦٨م.

(٢) العيسى: عشيرة عربية يعود نسبها إلى طيئ القحطانية، موطنها البر الغربى للأهوار.

مراحل، وعندما انتهى آخر رجل، دعا الشيخ (مزيد) الأطفال من خلال الظلام الذى كان يلف الخيمة. كان أصغرهم عارياً تماماً لم يزد عمره على ثلاث سنين. لقد أُتخموا بما فضل من الأرز وقضموا العظام التى أُلتهم لحمها، ثم مسوا الأطباق مفرغين ما فضل فيها فى الطاسات التى جلبوها معهم. ورُميت العظام للكلاب. وأخيراً ادّخر المسؤول عن القهوة حصة من الطعام من على الفرش وانزوى أمام صحنه. تقدم الشيخ (مزيد) ببطء واحتل مكانا بعيدا بعض الشيء وتناول وجبة غاية فى البساطة والاقتصاد فى نفس الوقت الذى أعيدت علينا فناجين القهوة والشاى.

بوصفه مضيفاً، يجب عليه ألاّ يأكل حتى يتيقن من أن آخر ضيوفه قد شبع. وفى اليوم التالى عند أحد الوجبات راقبته عن كثب فرأيته يقف أمام الخيمة ليتأكد ألاّ أحد يمرّ قريباً دون أن يدعوه. كان يذبح خروفين يوميا لضيوفه الذين قد يصل عددهم إلى المائة. إن هذه العشائر الرعوية مازالت أمينة على عاداها وتقيّم الآخرين بما تحمله من معايير جاهزة معروفة جاءت معهم من الجزيرة العربية.

وفى سنين لاحقة، عدت إلى الشيخ (مزيد) مرات ومرات فى خيمة ضيافته، وزرتُ العديد من المخيمات لعشيرته نفسها. خلال أسوأ شهور الصيف، كان لابد لى من الهرب من الأهوار مستعيراً بعض الخيول متجهاً إلى عشائر الرعى، وقد عرفت أغلبهم: (بنى لام) [١]، (البزون)، (العيسى)، (البو صالح) [٢] وآخرين غيرهم. كان البعض منهم يتجاوز الحدود فى الربيع متوغلا عبر التلال الإيرانية حيث نماء العشب الأخضر الطرى المفعم بشقائق النعمان، بينما يتجه آخرون نحو الجزيرة العربية وإلى أطراف الكويت لحين انتهاء فصل الشتاء. يقود الرجال والصبيان قطعان الأغنام والماعز

(١) بنى لام: يرجع نسب هذه العشيرة إلى طيئ القحطانية وتقع مواقع سكناها إلى الشمال من مدينة العمارة على ضفتى نهر دجلة.

(٢) البو صالح: الفرع الرئيس لاتحاد عشائر بنى مالك، يسكنون فى الشمال الشرقى من هور الحمّار على ضفتى قناة البدعة.

بينما تقود النساء المتشحات بالسواد الحمير المحملة بالخيام والأعمدة، والسجاد والأفرشة الأرضية وفرش النوم، وصناديق خشبية صغيرة، وعدة الطبخ، وصحون وغلايات. غالباً ما كنت أراهم يدبّون خلال السراب عبر سهل موحش بثباته كأنه البحر.

بعد أن تناولنا وجبتنا أرشدنا الشيخ (مزيد) إلى كوخ قريب مبنى بإتقان من أعمدة القصب و(البوارى) [١] حيث الحشايا واللحف الملونة قد أفردت لمنامنا. كانت خلوة غير متوقعة لى ولـ (دوكَالد) جعلتنا نشعر بالامتنان. طوال الليل، كانت الريح الباردة المارّة على عتمة المياه تهب خلال مشبكات الكوخ الزخرفية، كنت ما بين اليقظة والنوم وأنا أتنصت لموجات المياه ترتطم بالشاطئ.

وحين خرجت من الكوخ عند الفجر، رأيت على بعد ما مسافة طبقة الماء، شكل ظلى لأرض متباعدة عن بعضها ومعتمة أمام شروق الشمس. لمعت فى مخيلتى صورة (الحفيظ) [٢]، الجزيرة الأسطورية حيث لا أحد يمكن أن يراها وتسلم حواسه، ثم أدركت أنى انظر إلى (جزر القصب) [٣]. كانت هيفاء، معتمة بسوادها، بمقدمة عالية

---

(١) البوارى: جمع (باريه) وهى حياكة زخرفية للقصب بعد تقشيره وتكسيره. تستخدم لعدة أغراض أهمها تسقيف البيوت وفرش أرضيتها وغيرها أما أبرز أنواعها فهى: ١ ــ النعمانى، يستخدم هذا النوع فى تسقيف البيوت الكبيرة والمضايف. ٢ ــ جنكَلى ويستخدم فى تسقيف البيوت الكبيرة. ٣ ــ مفرش، تكون كبيرة عادة وتستخدم فى فرش أرضيات المضايف. ٤ ــ ستر، وتستخدم فى ستر البيوت عند الجوانب القريبة من الأرض، ترفع صيفاً وتسدل شتاءً. ٥ ــ طريده، بعرض متر وأقل وبطول مترين تقريبا تستخدم فى فرش الأماكن الصغيرة. ٦ ــ كَعيده، تستخدم فى حفظ الشلب منقوعاً بالماء قبيل شتاله. لها شكل يشبه التنور.

(٢) الحفيظ: جزيرة موهومة، تقول مخيلة أهل الأهوار عنها إنها محروسة من قبل الجن وتحوى كنوزاً عظيمة،ومن يصادفها لا يعود، وإن عاد فهو إما مجنون أو فاقد لإحدى حواسه.

(٣) جزر القصب: أو (التهول) كما يسمونها محلياً جمع (تَهلَه) هى تشابك للقصب مختلف المساحات، فهناك (تهلة) صغيرة وهناك أخرى كبيرة، وهناك من هى كثيفةجدا بالقصب يستحيل المرور خلالها وهناك مَن هى أخف. والهور بشكل عام يشبه إلى حد ما حىّ سكنى تقوم فيه (التهول) مقام تشابك البيوت، بينما تكون (الكَواهين) جمع (كَاهن) أشبه بالشوارع والأزقة. واكتفيت على طول هذا الكتاب بالإشارة إلى المفردتين بجزيرة قصب **Reedbed** ، وممر مائى **Water way**.

سامقة مدببة ممدّة على الشاطئ عند قدميّ، كانت (طـرادة) [1] الـشيخ الحربيّـة بانتظارنا لنقلنا إلى حيث الأهوار. قبل بناء القصور الأولى فى أور، خرج الرجال عنـد الفجر من بيوت كهذه وعوّموا زوارق كهذه وراحوا يتصيدون.

هنا اكتشف (وولى) [2] بيوتهم وطراز زوارقهم المطمورة تحت أطمـار سـومر، أعمق حتى من شواهد الطوفان. خمسة آلاف سنة من التاريخ هنا وما زال الطراز نفسه كما هو لم يتغير.

لا تكاد تبرح مخيلتى ذكريات الزيارة الأولى للأهوار: نور المواقد المنعكس علـى الوجوه، وصراخ الإوز، وطيران أسراب البط إلى البعيد من أجل الطعام، وصوت غناء طفل فى مكان ما فى العتمة، وحركة المشاحيف فى موكب عبر ممـر مـائى، واللـون القرمزى للشمس وهى تهبط للغروب عبر غمائم الدخان لحرائق القصب، والممـرات المائية الضيقة تزداد حركة تعرجها كلما أوغلت فى الهور، ورجل عارٍ تماماً و (فالته)[3] بيده، وبيوت القصب المشيّدة فى الماء، والجاموس الأسود يقطر منه الماء يبـدو كأنـه خرج من رحم المستنقع عند أول أرض جافة، وصور النجوم فى عتمة المـاء، ونقيـق الضفادع، وعودة الزوارق إلى الديار عند المساء، والسلام والديمومة، والسكون الذى لايعرف للمحركات من أثر[4]. عاودنى حنينى وتوقى مرة أخرى إلى أن أعيش هـذه الحياة وأن أكون أكثر من مجرد متفرج.

❁ ❁ ❁

---

(١) طراده: War–Canoe يميل المؤلف إلى عدّ الطرادة زورقا حربياً على الرغم من أن وظيفتها الرئيسة سليمّة.

(٢) وولى: Woolley السير ليوناردو وولى ١٨٨٠م ـــ ١٩٦٠م، عالم آثار بريطانى معروف نقب قـرقمش، أور، تل اتجانا وهى مواقع أثرية عراقية.

(٣) الفالة: أداة صيد السمك المعروفة والشائعة فى الأهوار بالإضافة إلى استخداماتها الأخرى العديدة، تتكون من عصا من نوع (الجنا) تتميز بالقسوة والصلابة يسمونها (عود). وعلى العموم هناك ثلاثة أنواع من الفالات هى سبيعيّه، خميسيه وثليثيه تبعاً لعدد أصابعها. يسمى أطول هذه الأصابع (لبّى) أما الأصابع التى تتـوزع علـى جانبيه فيسمى كل واحد منها (جتف). أما الزعانف التى ينتهى بها كل إصبع فهى (رواشين) مفردها (راشن). أما نقطة اتصال العود بهيكل الفالة الحديدى فيسمونه صمغ.

(٤) المحركات، إشارة إلى اية وسيلة خدمية بديلة عن عضلات الإنسان.

الفصل الثانى

الرجوع إلى حافة الأهوار

يوخزنى هذا الدّبوس، دبّوس رُقَيْتى، كتبها
عرّاف أسمر بدم لبوة عاقر ليرضى عنى
ضيفى.

ها أنذا ارتحل بعد ستة شهور، فى أحد فروع دجلة نحو الأهوار فى مشحوف مثقوب تتسرب إليه المياه، يجذف فيه عربيان، أحدهما رجل مسن هزيل يرتدى (دشداشة) مرقعّة بلونها اللامحدّد التى لا تكاد تصل ربلة ساقه، أما الآخر فكان شابا ربعة فى الخامسة عشرة من عمره، أحول، يرتدى سترة أوربية رثة فوق (دشداشة) بيضاء جديدة وقد علّق طرفها فى حزامه لكى لا تجر على الأرض. وكان كلاهما يرتدى كوفيّة[1] من النوع الشائع الاستعمال من قبل العشائر الشيعية فى جنوب العراق، وهى عبارة عن مربع بمساحة ثلاثة أقدام تتخلله شبكة من نقاط سود على أرضية بيضاء. ولأنهما لم يكونا يرتديان عقالاً على رأسيهما، فقد لفا الكوفية بحيث تبدو كمثلث حول رأسيهما. جلس الرجل المسن على الجزء المرتفع من مؤخر

(١) الكوفيّة: لها تسميات أخرى تبعا للمنطقة فهى: جفيّه وشطفَه ويشماغ وغتره. وهناك تسميات لطريقة لفها أو وضعها على الرأس إن كانت مع العقال أو بدونه، فوضعها بلا عقال يسمى (تشمير). الجدير بالذكر أن ظهور الشخص، الذى اعتاد على لبس العقال، بدونه فى المجالس أو بعيدا عن بيته، مكتفيا بالكوفية فقط إشارة إلى وجود غم وحزن شديدين أو إحساساً بالغاً بالانتقاص أو العار. ولم تعد هذه الكوفية شاهداً على شىء مذهبى أو دينى كما كانت سابقاً.

المشحوف(١)، بينما كان جلوسى فى القاع عند قدميه مصالباً ساقىّ على قطعة (بساط) مهلهل، تتكدس أمامى أمتعتى التى اشتملت على صندوقين من صفيح أسود احتوى الأول أدوية، واحتوى الآخر كتباً، وأفلاماً فوتوغرافية، وخراطيش عتاد واشياء أخرى متنوعة، تربعت فوقهما حقيبة سرج كردية محاكة بألوان زاخرة فى تنوعها، ملئت ببطانيات وملابس. كنت متكئاً على بندقيتى من نوع (٠,٢٧٥ ركَبى) بغطائها من قماش الكانفاس.

كان عرض النهر نحو ثلاثين ذراعاً وكان سريع الجريان(٢)، وعلى ما يبدو عميقاً. كانت أناملى تلامس الماء وأنا أقبض على جانب المشحوف وكانت الريح قاسية وهى تهب عكس التيار رافعة موجات صغيرة ناثرة قطراها فوق أمتعتى. كنت أجلس كأن على رأسى الطير متيقنا أن أدنى حركة منى قد تقلبنا. كان العربيان يغيّران اتجاههما بسهولة وبلا أدنى اهتمام ولايقلقون توازن المشحوف فى حركته أبداً.

أوقف الشاب التجديف، أدار وجهه ثم جثم منحنياً جاعلاً جسمه مصداً للريح لكى يشعل لفافته، بينما وقف الرجل العجوز باحثاً عن أى صديق يعمل فى الحقول. من قعر المشحوف، كنت لا أرى شيئا سوى ضفاف النهر شديدة الانحدار والتى ترتفع من نحو ثلاثة إلى أربعة أقدام، يقطع استمرار هذه الضفاف قنوات سقى مختلفة الاتساع تنحدر عن المجرى الرئيسى، وكانت ضفافها محاطة بشجيرات الشوك التى ترتفع نحوا من قدمين أوثلاثة بلونها المغبر المائل للزرقة. كانت السلاحف تنزلق إلى الماء من بين الضفاف وتختفى فى الماء الضارب لونه إلى البنى. كان البعض مسطحاً فى شكله بترس ناعم متسع

(١) مؤخر المشحوف يُسمى (أخير) ومقدمه يسمى (سَدِر) أى صدر. أما مكان جلوس الجذف سواء كان فى المقدمة أو المؤخرة فيسمى (دوسَه).

(٢) نهر (الواديّه) الذى يكوّن مع (العدل) شطرى نهر المجر الكبير المتفرع من ضفة دجلة اليمنى.

إلى قدمين[1] يظهر تموجاً حين يتحرك، والآخر أصغر وأكثر شبها بالسلحفاة التقليدية. وكان خاطف الذباب الأبقع (**Pied Flycatcher**) يندفع كالسهم أو يسكن فى الهواء بخفق جناحيه السريع قبل أن يسقط غائصاً فى الماء. حامت (حُدَيَّة) فوقنا، بينما راح سرب من الغربان يقلع وسط نعيبه من أحد الحقول خلف الضفاف. بهتت زرقة السماء بتأثير الغبار واكتسى كل شيء بلون الأرض الكئيب.

اجتزنا مجموعة صغيرة من الصرائف القصبية بدت كأنها أكداس أحالت قسوة الجو لونها إلى الرمادى وظهرت النسوة بملابسهن المعتمة وهن يغسلن الأوانى على حافة الماء قرب أسطول من المشاحيف السود التى استقرت على الضفاف الطينية. خرج رجل من أحد الصرائف فبادر الرجل المسن إلى تحيته:

ـ "السلام عليكم".

فردّ الرجال:

ـ "عليكم السلام".

وأضاف:

ـ "افلحوا".

فأجبناه:

ـ "كفو، الله يحفظك"[2].

كانت ستة كلاب تعدو مسرعة على طول الضفة بجانبنا تنبح وتزمجر بشكل هستيرى محموم إلى أن توقفت عند خندق كان من الاتساع بحيث حال دون عبورها.

---

(١) السلحفاة الكبيرة يسمونها (رَفش) جمعها (رفوش).

(٢) وردت الحوارات فى الأصل بحرف انكَليزى ولكن الكلمات عربية، هكذا **Salam Alaikum**.

فى أحد صباحات الأسبوع الأول من شباط عام ١٩٥١م كنت قد غادرت العمارة واكتريت مشحوفاً فى المجر الكبير لكى أقطع خمسة أميال مع النهر إلى مضيف (فالح بن مجيد)(١) الواقع على حافة الأهوار. إن (مجيد)(٢) أبو (فالح) واحد من شيخين على جانب كبير من الأهمية وسط عشائر (البو محمد)(٣) التى يربو عددها على (٢٥,٠٠٠) رجل مقاتل. يحدونى الأمل بقضاء بضعة أشهر فى الأهوار، وكان (دوكَالد ستيوارت) قد قال لى إن (فالح) سيكون أقدر رجل على مساعدتى.

برغم تعاستى فى جلوسى القرفصاء فى قاع المشحوف إلا أننى كنت انظر، ويحدونى الأمل كلما انعطفنا لعل الهور على مرأى منّا، لكن النهر بلونه القهوائى الفاقع بدا كأنه يسير باستواء لا نهاية له.

ما هى إلاّ انعاطفة حتى تفرّع النهر. هناك صف من بيوت قصبية محكمة الهيأة قابلت المجرى الرئيس للنهر. شخَصَ بيت مبنى بالطابوق بطابق واحد فى الاتساع الأرضى من خلفنا، كان ذا سقف مسطح كأنه الحصن، لكن ما أدهشنى هو البناء

---

(١) فالح بن مجيد بن خليفه من بيت لويلو الذين تنحصر زعامة البو محمد فيهم، وأمهُ هى مولانى بنت عبد الكريم بن يسر الفيصلاوى الحمداوى ولد سنة ١٩٠٧م، أدار مقاطعات والده الواقعة على نهر الواديه، وهو أصغر من شقيقه خريبط بن مجيد بن خليفه. قتل عن طريق الخطأ بإطلاقة من بندقية عباس بن محمد بن خليفه ابن عمه فى أوائل شباط عام ١٩٥٣م.

(٢) مجيد بن خليفه بن وادى بن منشد ولد عام ١٨٨٧م أحد أكبر شيوخ آل بو محمد، انتخب لعضوية البرلمان العراقى عدة مرات. امتدت مقاطعاته على طول الأراضى المحيطة بنهر المجر من منبعه إلى مصبه والأراضى المحازية. توفى عام ١٩٨١م فى بيته فى بغداد، منطقة الكاظمية قرب تمثال الشاعر عبد المحسن الكاظمى حيث اقيمت مراسيم العزاء المهيبة.

(٣) البو محمد: هم ذرية محمد بن سعد بن مروّح العزاوى الزبيدى الذى ترك عشيرته التى تستوطن المنصورية الكائنة فى محافظة ديالى إثر نزاع بينه وبين ابن عمه، فهرب باتجاه الجنوب ليستقر أخيراً عند الفريجات الذين أكرموا وفادته وقامت بينهما مصاهرة متبادلة. أنجبت الكوشه بنت شيخ الفريجات آنئذ العديد من الأبناء من محمد بن سعد ليكونوا على رأس بطون هذه العشيرة العملاقة.

الأسطواني المقبب المسقف (بالبواري) عسلية اللون، عند كل نهاية من نهاياته هناك أربع أعمدة مستدقة الأطراف وقد تجاوزت خط السقف. كان موقع البناء في أرض توسطت نهرين[1].

"مضيف فالح". قال الرجل المسن.

كان ثمة شاب يقف عند الباب وحين رآنا دخل إلى المضيف، وما هي إلا لحظات حتى خرج عدة رجال وانتظروا رسو مشحوفنا.

"الشيخ فالح".

صار الرجل المسنّ مشيرا إلى شخص متماسك البنية يلبس عباءة من غزل قهوائي فاخر فوق (زبون) من قماش داكن ثقيل.

قفز الشاب بمهارة عالية إلى اليابسة ما أن لامس مقدم المشحوف الضفة وامسك به حتى استوى بمحاذاة الجرف. خطا الرجل باتجاه (فالح) ما أن أصبح على اليابسة، سلمّ عليه وقبّل يده قائلاً:

"رجل انكَليزي من العماره (يامحفوظ)".

نظر (فالح) إليّ وقال:

"أهلاً وسهلاً".

يوحي وجهه بالقوة والرجولة، حليق الوجه بشكل جميل ماعدا شاربه المقصوص بمستوى الشفة العليا. كان حاجباه كثيفين ويكادان يتصلان مع بعضهما فوق أنف بارز ضخم. كان وجهه محاطاً بطيات من الكوفية التقليدية المنقطة بالأسود أتقن موقعها وضبطها عقال أسود ثقيل. ما أن استويت واقفاً في المشحوف حتى اهتز وتمايل وعبرت المياه حافته، فصاح (فالح):

"انتظر لحظة".

---

(١) النهران هما: الواديّه وخِر بُديّر.

وباتجاه رفاقى الذين أوصلونى:

"يا ألله، ساعدوه، بسرعة".

مدّ يده القوية إلىّ ليجذبنى إلى الضفة مردداً:

"أهلاً وسهلاً". التفت إلى رجل بجانبه وأمره:

"تأكد من أهم أنزلزا حاجيات الرجل الإنكليزى فى المضيف".

ثم اقتادنى إلى بوابة المضيف:

"أهلاً وسهلاً، الدار دارك".

خلعت حذائى واجتزت ما بين عمودى الباب القصبيين. كان قياس كل (شَبّة) ثمانية أقدام، وكل (شَبّة) تتخذ شكلها من خلال جمع حزمة من قصب عملاق بعد تقشيره وربطه بقوة إلى بعضه بحيث يصبح وجه (الشبَّة) ناعماً لّماعاً.

كانت الرائحة قوية داخل المضيف والإضاءة معتمة فى حين كانت الشمس مشرقة فى الخارج. بدا الموجودون كأهم ظلال معكوسة على جدران المضيف، صحت بصوت عال:

ــ "سلام عليكم". فأجابوا جميعاً:

ــ "عليكم السلام".

جلسنا فوق سجاد مبهرج الألوان، صارخها، فُرش فوق (البوارى)، جلس الباقون على طول جدران المضيف. كان المسلحون منهم قد وضعوا بنادقهم أمامهم. لقد لفت انتباهى سجادتان جميلتان باللون الأزرق والذهبى امتدتا طويلاً فى أرضية المضيف تحتلان مرتبة أدنى فى الرفعة بالمقارنة مع تلك التى جلسنا عليها. وكان هناك صندوق خشبى عند الجدران فى النهاية البعيدة، وعند المدخل، هناك زير مملوء بالماء مستند إلى مسند خشبى[1]، ولم تكن هناك أية أثاث أخرى. كان الموقد فى وسط المضيف عند الثلث الأول من طوله. هنا بجانب النار الصغيرة، توزعت ست دلال

(١) المسند الخشبى يسمونه (مُركه) أما الزير فهو (الحِب).

رتبت من أعلاهن، وكانت بارتفاع حوالى قدمين[1]، حتى أصغرهن. وبالاستناد إلى تقاليد العرب فإن الثقل الذى سبق إعداده يوضع فى أكبر الدلال، وحين تركد الأجزاء الصلبة يُفرغ السائل المتبقى فى الدلال الأصغر. دائماً ما تكون أصغر الدلال مهيأة وجاهزة لصب القهوة الطازجة لأى قادم أوضيف. ثمة رجل (بدشداشة) بيضاء هو الرجل الوحيد بلا عباءة، مشغول بتوزيع القهوة طبقا للعادة المتسمة بالقداسة. ما أن تُحمص الحبوب حتى تطحن فى هاون نحاسى صغير وتكون ضرباته بإيقاع موسيقى ثابت. وصوت الدق هذا هو إعلان بأن إعداد القهوة جارٍ الآن فى مضيف الشيخ، وهو دعوة أيضا إلى أى رجل يصله صوت الدق للمشاركةً فى شربها. حمل الرجل الدلّة بيده اليسرى، وفى يده الأخرى فناجين أكبر قليلاً من حجم البيضة، صبّ قطرات فى الفنجان وقدمّها إلى (فالح) الذى أشار بأن يقدمها إلىّ أولاً، وفى مقابل ذلك رفضت. عندما أصرّ (فالح) شربت فنجانى بينما قُدم الفنجان الثانى إلى (فالح). كان طعم القهوة قوياً ومراً، ولأنى أعرف طباع العرب شربت ثلاثة فناجين قبل أن أهزّ الفنجان هزاً رقيقاً إشارة إلى اكتفائى وامتنانى. دار (القهوجى) ببطء حول الجالسين مقدماً لهم القهوة بترتيب حسب أهميتهم[2]. ثم قدمت لى و(لفالح) وللاثنين الذين تولّيا توصيلى إلى المضيف أقداح الشاى، كان لونه داكناً ولو المذاق وكانت الأقداح صغيرة وضيقة من الوسط بحافة مذهبة. دخل أكبر أبناء (فالح)، شاب بعمر السادسة عشرة[3]، له نفس أنف أبيه الضخم ولكن أضأل قليلاً، ويوجه نحيف. قدمّه (فالح) إلىّ قائلاً:

---

(١) يسمونها (كَمكَم)، والأدنى منها يسمونها (تلكَامه)، أما أصغرهن فتمسى (سكَايه).

(٢) سألت عن هذه المعلومة أناساً خبروا المضايف فأجابوا إنها ليست دقيقة. ففى أول توزيع للقهوة بعد إعدادها تعطى لأهم شخصية وهو الشيخ أو السيّد إن كان موجوداً، بعدها يتم التوزيع بالدور. أما عند حلول ضيوف جدد فيسقى أولاً من نقدمهم بالسلام.

(٣) عبد الواحد بن فالح بن مجيد الخليفه، وأمه جريّه بنت حمود الخليفه سكن قضاء المجر الكبير فى محافظة ميسان. ولد عام ١٩٣٧م. توفى فى المجر بعد إصابته بمرض السرطان عام ٢٠٠٢م. كانت مراسيم العزاء مهيبة وذهبت وفود التعزية من محافظات كثيرة.

"خادمك".

أوصاه (فالح) أن يتابع أمر الغداء، ثم قال لى:

"أنا فى غاية الحرج منك ألاّ يكون طعامك ملائماً، لكنك قدمت إلينا دون أى علم منّا. اعذرنى، لكنى أتوقع أن يكون الأَولى بك أن أن تأكل ما هو موجود على أن تنتظر ذبح خروف، لأنك لابد أن تكون جائعاً جداً بعد هذه الرحلة الطويلة".

إن مدّة الصمت الطويل بالنسبة للعرب محرجة جداً بين الضيف ومضيّفه، لذا سألنى (فالح) مرتين أو ثلاث:

"شلونك"؟

وكنت أعطيه نفس الإجابة:

"الحمد لله".

وأكثر من مرة سألنى:

"سفرتك، هل هى جيدة"؟

فأجيب:

"نعم، جيدة والحمد لله". وفيما عدا ذلك لم يتكلم أحد.

بعد برهة انشغل (فالح) بشؤونه الصباحية لأن المضيف بطبيعته ليس مكاناً لاستقبال الضيوف فحسب، بل يُعدّ أشبه بقاعة اجتماعات حيث يجلس الشيوخ صباحاً ومساءً يديرون مقاطعاتهم الواسعة ولحسم النزاعات بين أفراد قبائلهم.

يمتلك بعض الشيوخ أمثال (مجيد الخليفه) أبو (فالح)، مقاطعات واسعة جداً وتدر عليهم مئات الآلاف من الدنانير كل سنة. فيما مضى، كانت ملكية الأرض تعود للعشائر، وتكون مسؤولية الشيخ هى الإدارة طالما أطاعته عشيرته واتبعته. ولكن فى السنوات الحالية يحصل الشيوخ من الناحية العملية على الملكية. أما بين العشائر المستقرة المستوطنة الآن، أصبح الشيوخ هم المالكون وتحول أبناء عشائرهم إلى مجرد فَعَلَة فى حقولهم ومزارعهم مقابل سهم من الغلة بلا أى تأمين أوحماية قانونيتين. إن كل الأراضى فى لواء العمارة تعود ملكيتها إلى الدولة من الناحية النظرية، التى تقوم

بتأجيرها إلى الشيوخ، ويقوم هؤلاء بدورهم بدفع ضرائبها وتولى شؤونها كما لو كانت ملكهم الصرف. وما داموا أقوياء فاعلين ذوى سطوة فلا أحد يجرؤ على مطالبتهم بسند الملكية أو حقهم الشرعى فيها.

وعلى الرغم من أن الشيوخ لا يمتلكون سلطة قضائية، فإن القليل جداً من النزاعات بين الناس تأخذ طريقها إلى المحاكم الحكومية (عدا جرائم القتل، وهذا ليس دائماً). إن أفراد العشائر يفضلّون تحكيم الشيوخ الذين يعرفونهم على قضاء المسؤولين فى الحكومة الذين لا يشعرون أن ثمة شيئاً مشتركاً معهم، وعلى العموم فإن الحكومة مقتنعة وراضية ولا تغير ما هو قائم.

يتعامل (فالح) مع مختلف القضايا، فهو يعطى الأوامر فى تقوية ضفاف الأنهار قبل ارتفاع مناسيب المياه، ويناقش تقسيم الأراضى لموسم حصاد الأرز القادم، وينذر رجلاً بدفع ما بذمته من محصول لا زال معلقا وغير محسوم. لقد وجدت صعوبة فى فهم ومتابعة لهجتهم، فانشغلت بالتمعن فى وجوه الرجال الجالسين أمامى فاسترعى انتباهى الاختلاف بين ملامحهم الثقيلة بشكل واضح وملامح البدو الجميلة فى الجزيرة العربية كالفرق بين حصان العربات والحمولات وآخر أصيل أرستقراطى. ولكن من الصعب تكوين رأى عنهم فى مثل ظروف كهذه إذ جلس كل واحد منهم وقد أحكم لف عباءته حوله، يتوج كوفياتهم حبل أسود ثخين يُعّد طرازاً شائعاً جداً فى هذه الأنحاء. لقد صعقنى مزاجهم الرائق وميلهم للنكتة والفكاهة والدرجة العالية فى ضبط النفس، ولكنى أظن أن كليهما (ابن الهور والبدوى) ربما كانا عنيدين ومتصلبين فى رأييهما وسرعان ما يغضبان عندما يستثاران.

إن المضيف الذى قستُ أبعاده أخيراً كان بطول ستين قدماً وبعرض عشرين، وثمانية عشر قدماً ارتفاعاً، ولكنه يعطى انطباعاً أنه أكبر من ذلك بكثير لاسيما عندما ولجته أول مرّة. تدعم سقفه إحدى عشرة (شَبّة) لها شكل حدوة الحصان تشبه دعائم المدخل، وتُصنع من سيقان القصب العملاق، توثق مع بعضها بقوة. يقدر قطر (الشَّبّة)

حوالى تسعة أقدام عند منطقة بروزها من الأرض، وبقطر قدمين ونصف عند قمتـــها. ينمو هذا القصب كما عرفت إلى ارتفاع أربعة وعشرين قدماً. ولغـــرض اســـتكمال الهيكل فإن المزيد من حزم القصب تدمج بحيث تشبه حبلا بسمك بوصتين لإحكـــام ربط الحزم، واحدة فوق الأخرى على طول المضيف من الجهة الخارجية (للشباب). إن التباين بين الأضلاع الأفقية وعمودّية (الشباب) يخلق منظراً لافتاً للنظر من الـــداخل. يُغطى السقف بـــ (البوارى) المتراكبة بعضها فوق بعض وتربط الأضلاع بطريقة تعطى طمأنينة لسمكه. يكون لون الجدران الجانبية ذهبياً شاحباً بينما لون السقف كـــستنائياً داكنا بسبب دخان الموقد ويعطى إحساساً بأنه مطلى بالورنيش.

ظهر العديد من الخدم تحت مراقبة وإشراف ابن (فالح) وطرحوا أمامنا (سُـــفره) دائرية بعرض حوالى خمسة أقدام محاكة من بردى ناعم ووضعوا فوقها صينية دائريـــة مملوءة بالرز، وإطباقاً من مرق الخضر، وثلاث دجاجات مشويات، وسمكـــة مـــشوية وتمراً، فضلا عن أطباق (المحلبى) وطاسات من لبن وإنـــاء للـــشرب. كـــان أغلـــب الموجودين قد غادروا المضيف. لقد توقعت منهم البقاء لأن العرب عادة ما يحتشدون عندما يعلمون أن ثمة وجبة تعد، لكنى علمت فيما بعد أن شيوخ البدو فقط يقيمـــون دعوات مفتوحة فى خيم الضيوف. أما الشيوخ الآخرون، باستثناء بعض المناســـبات، فيتوقعون أن أتباعهم قد تناولوا طعامهم، أما القادمون من مـــسافات بعيـــدة فهـــم الوحيدون الذين يُطعمون. بقى الآن ثلاثة رجال مسنين فقط. فضلا عنّا، أنا ورفيقىّ.

أكل (فالح) وابنه معه بعد أن جلب الخادم طشتاً وإبريقاً لغسل أيدينا قبل الأكل.

قال (فالح) بعدها:

"هيّا، خذ راحتك".

انحنى إلى الأمام وصبّ صحناً من المرق فوق الأرز، ومزّق دجاجه بيديه واضـــعا قطعة كبيرة فوق الصحن الذى أفرد بشكل استثنائى لى مع ملعقة وشـــوكة! مـــادام الآخرون قد أكلوا من صحونهم بأيديهم اليمنى مباشـــرة، لـــذا لم أتـــردد أن أحـــذو حذوهم. قال (فالح) فوراً:

"استعمل الملعقة والشوكة، ستكون سهلة عليك".

فقلت له إننى أتناول طعامى بيدى منذ سنين وأنا معتاد على طريقة العرب، فعلّق (فالح) قائلاً:

"إذاً، أنت واحد منّا".

عندما انتهينا من طعامنا غسلنا أيدينا مَرّة أخرى، وقدمت لنا القهوة والشاى.

لاحظت أن (فالح) يرمق بندقيتى، فقدمتّها إليه وسألته عن رأيه فيها لدرايتى أن رجال العشائر مولعون بالبنادق. تحسس (فالح) اتزانها وصوّب بها ثم قال: "إنها بندقية رائعة".

(لقد كانت كذلك فعلاً). ثم أبدى فضوله كأى عربى فى معرفة سعرها. وأخيراً، وكما كنت آمل أبدى تساؤله عن خططى وما أنوى عمله، فقلت له إنى أنوى الذهاب إلى الأهوار لرؤية المعدان.

"إنها عملية غاية فى السهولة، سأرسلك غداً إلى (الكباب)، إنها قرية كبيرة فى قلب الأهوار، منها جاء قصب هذا المضيف. للشيخ (مجيد)، والدى، وكيل هناك، وإن شئت قضاء الليل هناك فهو يمتلك بيتا مناسباً. سترى كيف يعيش المعدان فى (الكباب)، لاشيء سوى الجاموس، والقصب والماء، ليس بإمكانك التنقل إلاّ بمشحوف، لا أرض يابسة هناك أبدا، ستجد هناك الكثير من البط إن شئت الصيّد".

شكرته وأوضحت له أنى آمل أن أقضى عدة شهور مع المعدان.

"إن (الكباب) أفضل مكان و(صدّام) [1] يملك مضيفاً هناك، لكن المعدان يعيشون كما تعيش جواميسهم".

---

(١) صدّام بن طلال بن كحيط المنشداوى أحد أبناء عمومة مجيد الخليفة توفى فى منطقة الشاكرية فى بغداد فى بداية الستينيات.

قال (فالح) ذلك وأردف:

"نصف بيوتهم تحت الماء ومليئة بالبرغوث والبعوض، إذا نمت هناك فى أحد هذه البيوت فمن الممكن جداً أن تطأ وجهك جاموسة خلال الليل. إن المعدان أناس فقراء جداً ليس لديهم طعام مناسب، الأرز والحليب هما كل ما يملكون من طعام. من الأفضل لك البقاء هنا حيث تستطيع زيارة الأهوار متى ما شعرت بميل إلى ذلك. أستطيع أن أوفر لك هنا أسباب راحتك، هذا المكان لك طالما رغبت فى ذلك. لدىّ الكثير من المشاحيف والرجال الذين بإمكانهم أخذك إلى أى مكان تريده. امضِ لياليك هنا والنهار فى الأهوار، هذا هو الشيء المعقول الذى يجب أن تفعله".

قلت له أن سبق لى البقاء فى الأهوار لبضعة أيام مع قنصل من العمارة فى العام الماضى، وقد عدت الآن لأنى مهتم جداً بالمعدان وأريد أن أعرفهم أكثر، وهذا لا يتسنى لى إلا من خلال العيش معهم. لقد أمضيت حياتى فى الترحال فى مناطق مقفرة موحشة وقد اعتدت عدم الراحة. لقد أمضيت السنوات الخمس السابقة فى الربع الخالى، وكان من القسوة بحيث أنى كنت دائم الجوع والعطش. هنا، على الأقل وفرة المياه تفيض عن حاجتى!

ضحك (فالح):

"إيه والله، لن يكون هناك نقص فى الماء، سوف تنام فيه! أنتم الإنكليز غريبو الأطوار، فليلة واحدة فى الأهوار تُعدّ كافية يملى علىّ عملى بوصفى شيخا أن أذهب هناك، أنا لا أنام هناك للمتعة بل للضرورة. على كل حال ابقْ معى حتى غد فسأدبر أمر جولة لصيد الخنازير، ثم أرسلك إلى (الكباب) بعد غد وسأُوصى (صدّام) أن يعتنى بك. سنتجول هذه الليلة مشياً حول الحقول وسنرى إن كان بإمكاننا صيد (الحِجَّل). سأتركك الآن لكى تأخذ قسطاً من الراحة".

❁ ❁ ❁

"هل سبق لك أن اصطدت خنـــزيراً"؟

سألنى (فالح) ثم أردف:

"انتبه، إن الخنازير خطرة، ففى الأسبوع الماضى هاجم خنـــزير رجـــلا وقتلـــه بالقرب من هنا بينما كان يعمل فى حقله. أنا أشك فى أننا سنصادف أيّاً منها اليوم، مع ذلك، لابد أن نجد بعض (الحجَّل)".

كنا سائرين فى صف طويل مع امتداد ممر مرتفع محاذٍ لقناة رى، واتجهنا إلى بستان نخيل معتم. لقد جعلنا هذا الممر الصناعى المرتفع نشرف على تسطح لانهائى من سهل رسوبى واسع، ذلك هو جنوب العراق. إلى الشرق، يمتد السهل إلى مسافة مائة ميـــل إلى التلال الإيرانية، وإلى جنوب، مسافة مائة وخمسين ميلاً باتجاه البحر، والى مـــسافة تزيد على مائتى ميل باتجاه بغداد، وإلى الغرب، ما وراء الفرات، ليندمج مع الصحراء العربية. ويتوجب علينا بين الحين والآخر أن نقفز متخطين قنوات وفتحات للماء تتولى إرواء الحقول خلفنا. وللحظة، وجدنا أنفسنا وقد غطسنا تحت أشجار النخيل خـــلال كمّ هائل من شجيرات شائكة ملتفّة ترتفع إلى ثلاثة أو أربعة أقدام، ثم اتجهنا إلى أرض أكثر انفتاحاً، أرض زلقة وقد ابيضت نتيجة السبخ وتغطت بـــشجيراته الكثيفـــة(١). أفزعنا عدداً من طيور (الحجّل) السوداء لكنها كانت من الحذر بحيث ضيّعت علينـــا فرصة إطلاق النار عليها. وفى طريق عودتنا إلى القرية، حلقت فوقنا ثـــلاث بطـــات قادمات، بارتفاع شاهق، من الأهوار. أطلق (فالح) فأَصاب واحدة. هنأته وتـــساءلت فيما إذا كانت رميته ضربة حظ! اكتشفت فيما بعد أنه رامٍ بارع.

مع حلول الغسق عدنا إلى القرية. أُوقد فانوس فى المـــضيف وعُلّـــق متـــدلياً فى السقف بحبل. كان هناك ستة شبان يجلسون فى المضيف. أدى (فالح) صـــلاة المغـــرب

(١) شجيرات السبخ هى: شريب، وشويل، وجبجاب، وكبر، وكَوك الله، وعندما تكبر شجيرة الكوك الله يسموها طحَمَه.

متجها إلى مدخل المضيف كما هي العادة لأن باب المضيف دائما ما يتجه إلى مكة (المكرمة). المفروض بالمسلمين أداء الصلاة عند الفجر، وعند توسط الشمس كبد السماء، وبعد الزوال، وعند الغروب ومرة أخرى بعد حوالى ساعتين. القليل من الناس فى هذه الأنحاء من يجهد نفسه بالصلاة، والذين يصلّون عادة ما يكونون من كبار السن. أرسل (فالح) بطلب العشاء ما أن أنهى صلاته. كانت الوجبة مشابهة لما تناولناه عند الغداء باستثناء لحم الغنم المشوى بدل الدجاج وبعض اللحم فى المرق. وبعد ذلك مباشرة دخل الخدم الذين سبق لهم رفع الصحون وهم يحملون ملء أذرعهم أفرشة المنام: حشايا، مخدات وملاحف ثقيلة توزعت ألوانها بين الأخضر والأحمر والأصفر من قماش لّماع[1].

أمضى اثنان من كبار السن ليلتهما فى المضيف. أمر (فالح) غلاماً أن يجلب بندقيته وأن يبقى لحراستنا حتى الفجر، تمنى لى ليلة سعيدة وعبر باتجاه بناية من الطابوق حيث يقطن هو وعائلته.

أطفأ الغلام الفانوس، شرب ما تبقى من قهوة وجلس يذكى النار فى الموقد. كانت ملامحه ثقيلة ولها طابع إلى حد ما بعثرت جمال وجهه. عندما راح أحد الرجلين المسنين فى نوبة شخير، صاح الغلام بإصرار أن يكف. وأخيراً انقلب الرجل المسن على جانبه مصدراً صوتاً ناخراً وبعد دقائق معدودة عاد إلى شخيره مرة أخرى. ابتسم الغلام فى وجهى وقال:

"كبار السن يشخرون دائماً".



(١) يسمون هذا القماش (وايلى).

الفصل الثالث

صيد خنزير برىّ

كما (العنكَر) حكاية الوله القسرىّ
بفتحة الباب الواطئة... و(الشِباب) تغرس
فى أرضها الهشة ثقل الله تتجدد.

عند غبش الفجر، قَدِم (عبد الرضا القهوجى)[1] وأشعل ناراً وسرعان ما امتلأ المضيف بالدخان. كان الغلام قد انصرف. استيقظ الرجلان المسنان وراحا ينخعان ويبصقان، وبعد إسباغهما للوضوء أديّا صلاة الفجر ثم تحلقا حول النار. كان الجو بارداً، لذا فقد آثرت البقاء حيث كنت إلى أن جاء خادمان لرفع الفرش والوسائد فالتحقت بالرجلين وشربت فنجان القهوة. جلب خادم طعام الإفطار، رقائق من طحين الأرز[2] فى طبق محاك من الحشائش وخوص النخيل[3]، وإناء من حليب ساخن وحلو. وضع الخادم الطبق على السجادة أمامنا فى حين كانت الشمس ترتفع مُذهّبة (شِباب) مدخل المضيف.

بعد ساعة أو ساعتين جاء (فالح) برفقة حشد من أتباعه المسلحين لنذهب حيث اتفقنا لصيد الخنازير. وبعد أن اكتفى الجميع من شرب القهوة، ركبت فى نفس المشحوف الذى كان يقل (فالح) وابنه.

---

(١) القهوجي: عبد الرضا بن بريسم، توفى فى بغداد بعد عام ١٩٥٨م. لم يتعرف الشيخ خلف بن مجيد على عشيرته.

(٢) رقائق من طحين الأرز: تسمى عندهم (سِيّاح) مفردها (سِيّاحه).

(٣) يسمونه محلياً (طبك).

لقد كانت طرادة جميلة، متسعة بحيث يمكن أن يركبها اثنا عشر شخصاً. كان طولها نحو ستة وثلاثين قدماً لكنها لا تتجاوز ثلاثة أقدام عند أوسع نقطة فيها، لقد بنيت لتكون مركباً، مستوية القعر ومطلية من الخارج بطبقة من القار[١] فوق ألواحها الخشبية. يندفع مقدمها إلى الأمام والى أعلى بتقويس تام ليشكل مقدمتها المستدقّة النحيفة الطويلة وكذلك مؤخرها، فهو يرتفع برشاقة أيضاً. القدمان الأوليان من مقدمها ومؤخرها مزخرفان. يقع مقعد المجدف فى ثلث المسافة للأمام وتقع عارضة التقوية[٢] الخشبية التى تربط جانبى الطرادة عند ثلثى المسافة للأمام. تغطى الأرضية ألواح خشبية قابلة للتحريك[٣]. كان الجزء الأعلى من الأضلاع[٤] مستنداً بقوة على طول دواخل الطرادة ومرصعاً بخمسة صفوف من رؤوس مسامير مستديرة[٥] ومسطحة عرض كل رأس بوصتين. والمسامير الزخرفية علامة لتمييز الطرادة التى ربما لا يملكها إلا الشيوخ. بعد سنين، فى أوسلو، شاهدت مراكب اسكندنافية تُرمم وتصان هناك فذكرتنى على الفور بالطرادات فى الأهوار، فكلا النمطين من الزوارق له البساطة نفسها المحببة فى تفكير صانعها وتنفيذه. كان عدد الذين يتولون التجديف أربعة، اثنان فى المقدمة واثنان فى المؤخرة، هم نفس الحركة الإيقاعية فى نفس الوقت

---

(١) يسمونه محليا (جير) وهم يشمئزون من ذكره فعندما ترد كلمة (جير) فى سياق حديث أحدهم، يردف بعدها (جَيِّر عدوك) أو (جَيِّر عدوكم) إذا كان مستمعوه أكثر من واحد. وهناك جملة ترد على لسان الساخط أو المتعض من صنيع أحدهم فيقول له: (جيرة بفركَك). وهى صورة غاية فى الغرابة فالجيرة هى قطعة من الجير والفرك هو على الأغلب مفرق الشعر. أما إن ازداد السخط فالجيرة هذه تأخذ مكاناً آخر أكثر غرابة! ويقولون أيضاً حين يصفون أمراً سيئا لم يفلحوا فيه: (جير وخَفُت) والخفت هو الرماد.

(٢) عارضة التقوية يسمونها (جِستْ).

(٣) لاشىء من خشب المشحوف قابل للتحريك غير (الدوسه).

(٤) الجزء الأعلى من الأضلاع يسمونه (جابش) جمعه (جوابيش).

(٥) (كَرص) هو مفرد هذه المسامير ذات الرؤوس العريضة المستديرة.

وهم يدفعون عصيهم الطويلة[1] فى الماء فى الجانب نفسه ويتحولون إلى الجانب الآخر متى كان ذلك ضرورياً. كانوا قد طرحوا بنادقهم عند أرض الطرادة بجانبهم وألقوا عنهم عباءاهم. كل واحد منهم كان يلفّ حزاماً عريضاً معبأ بالخراطيش ومثبت فيه خنجر معقوف وضيق النصل.

تبعد الأهوار مسافة ثلاثة أميال عن مضيف (فالح)، وحين وصلناها كنا قد اجتزنا قرية كبيرة تمتد مسافة مائتى ذراع[2] على طول الضفة اليسرى للنهر. لقد رتبت بيوتها بحيث تكون موازيّة لضفة النهر وغالبا ما تكون قريبة جداً من بعضها. كانت مبنية من بوارى القصب المستندة فوق دعامات من أعمدة القصب أيضاً، وكانت تقف أمامها مجموعة من عجول الجاموس مربوطة، فى حين كان البعض يتجول فى أنحائها. لقد لاحظت حصانين أو ثلاثة وقد غطيت أجسادها بغطاء صوفى ثخين وقيدت أقدامها الأمامية بسلسلة حديدية. قيدت خيل (فالح) بالطريقة نفسها، وحين سألته عن السبب أوضح لى:

"إنها تمنع اللصوص من سرقتها، فإذا ربطت الخيول بالحبال فإنهم يستطيعون قطعها ثم يمتطونها ويختفون. إن خيولنا أصيلة وثمينة ونحن نعتنى بها".

سألته: "لماذا تغطونها هكذا، فالجو ليس بارداً"؟

ـــ "لكى نوقف عضّ الذباب لأجسامها".

عَدَتْ الكلاب على طول الضفة العالية وكانت تتوقف كل عشرة أو خمسة عشر ذراعا لكى تنبح فى وجوهنا بنوع من الزمجرة المسعورة وقد انكشفت شفاهها عن أسنانها. تسلّمنا كل مجموعة كلاب عند حدودها إلى مجموعة أخرى جديدة وكان الأطفال يراقبون بصمت، والنسوة ينظرن وهن فى بيوتهن. يبدو أن هناك القليل من الرجال فى القرية.

---

(١) العصى الطويلة: يسمونها (مرادى) مفردها (مردى)وحين يسمونه بصيغة التصغير فهو (مريدى) وقد آثرت استخدامها بصيغتها المحلية على طول الكتاب بعد ذكرها هنا.

(٢) القرية الكبيرة التى تقع بين الهور وبين مضيف فالح هى: السرّاطَه.

تقدمّنا باتجاه الضفة تحت بيت كبير، فصاح أحد أتباع (فالح):

"زاير محيسن[١]".

فخرج رجل مسنّ وهو يحكم وضع كوفيته على رأسه.

"أهلاً، أهلاً محفوظ، تفضلْ، تفضلْ".

رفض (فالح) بالرغم من إلحاح الرجل ومناشدته لنا بشرب القهوة، سأله (فالح):

"هل أرسلت الرجال إلى الهور بمشاحيفهم"؟

"نعم، محفوظ، إنهم هناك الآن بانتظارك عند مصب النهر". فأردف (فالح):

"هل هناك أية خنازير فى منابت القصب"؟ فأجاب الرجل:

"نعم، ولكن عدد قليل متبعثر. إن مناسيب المياه منخفضة جداً بحيث تتجمع عند جزر القصب". فطلب (فالح) منه أن يركب:

"تعال كما أنت".

فركب (زاير محيسن) فى الطرادة بشكل أنيق بارع وجلس على الألواح الخشبية.

غالباً ما يجلس المسافرون والعابرون فى قاع المشحوف، بينما مجلس الشرف والتكريم أقرب ما يكون إلى مؤخرته قبالة مقعد القيادة. وعندما يجدّف الطاقم، يجلس اثنان فى المؤخرة على دكة مرتفعة. كل منهما إزاء الآخر، بينما يقف الثالث على دكة القيادة الأمامية، وهى عبارة عن عارضة ضيقة غير مريحة، أما الرابع فيجثو فى المقدمة. سألت (فالح):

"هل هؤلاء معدان"؟

تبادل ابتسامة مع (زاير محيسن) وقال:

"لا، هؤلاء فلاحون. المعدان يسكنون فى الأهوار، ستقابلهم عما قريب عندما تذهب إلى (الكباب)".

---

(١) محيسن: إما أن تكون محيسن بن مطليج بن غزاى الخضرانى الفريجى، متوفى منذ زمن طويل، وإما زاير محيسن بن نادم من بيت بجيبج الفريجى، وهو أيضاً متوفى منذ زمن طويل.

خلّفنا حقول الحنطة والشعير وراءنا قبل أن ندخل القرية. كانت القناة التي ننساب فيها قليلة المياه، لذا عانى طاقم التجديف من صعوبة بالغة في تسيير الطرادة. كانت ضفتا النهر منخفضتين بحيث استطعت وأنا جالس باستقامة رؤية ما وراءها. على كلا جانبي النهر، فُرشت الأرض إلى مسافة تمتد مائتي ذراع بأنواع مختلفة من النباتات العشبية وسط أرض موحلة تتلألأ تحت أشعة الشمس، وامتدت بعدها جزر القصب الكثيفة. عرض سربٌ صغير من طيور (البيوضى) بياضه الثلجي إزاء تلك الأرضيّة، في حين جلس اثنان من طيور (الرخيوى) بمؤخرتيهما الصفراوين مغمومين ساكنين على حافة قناة، وراحت الغربان المبقعة تتقاتل حول قطعة نفاية محدثة ضجة عالية. أشار (فالح):

"هنا يزرعون الشلب، وعما قريب سوف يبدأون تسوية الأرض".

أستطيع رؤية العديد من الرجال والمشاحيف أمامنا. وعندما اقتربنا منهم تسلقنا الضفة ووقفنا متقلقلين عند أدنى نقطة من سدّة متقوضة. كان ثمة مجموعة من رجال مسنين عليهم ملابس هي أفضل مما لبس غيرهم يخوضون خلال ماء موحل لكي يسلموا على (فالح) ويقبلّوا يده. أما الآخرون، واغلبهم من الأطفال، فقد جلسوا أو وقفوا في مشاحيفهم على مسافة قصيرة في المياه العميقة. لفّ البعض منهم عباءات سوداء أو قهوائية رديئة حول خصورهم فيما كان بعض منهم عراة، في حين لبس بعض آخر (الدشداشة) العربية التقليدية وقد رفعوا أطرافها السفلى إلى أفخاذهم. وكان اثنان منهم يدفعان مشحوفاً خلال مياه ضحلة وقد رفعا (دشداشتيهما) إلى ما تحت إبطيهما فأضحيا عُريا تاماً ولم يعيرا لذلك أدنى اهتمام! كان أغلبهم يلف رأسه بقطعة قماش بائسة، ووضع الكثير منهم خنجراً في جانبه. وكان الغلمان مسلحين بالهراوات المثقلة إحدى نهاياتها بكتلة من القار. حين مرّ أحدهم أمامي وقد رآني انظر إلى هراوته ناولني إياها بابتسامة عذبة. يتميّز هؤلاء الناس على العموم ببناء جسمي قويّ وبطول معتدل وبجلود برّاقة عتّمتها ظروف الجو، وبوجوه واسعة ودودة وصريحة وعيون تميل إلى الاتساع وأنوف عريضة بعض الشيء.

تميل مشاحيهم المغطاة بالقار للصغر في الغالب، والاصطلاح الشامل لكل الزوارق هو مشحوف على الرغم من أن كل نوع وحجم له تسمية خاصة[١]. فالبعض منها الذي يكون منخفض العنق جداً يسمى فيما بينهم (ماطور) لا يحمل إلا شخصا واحداً ويستخدم في الغالب لصيد الطيور. وهناك نوع آخر اكبر قليلاً معد لشخصين، بينما هناك نوع آخر له الحجم نفسه ولكن يتسع لأكثر من اثنين كالذي جئت به من المجر الكبير. يسيّر كثير من أهل الأهوار مشاحيفهم بواسطة (الفاله) منظراً مرعباً كسلاح، فالعصا طويلة من الخيزران يتسع طولها إلى حوالي اثنى عشر قدماً وفي نهايتها شوكة كبيرة لها خمس رؤوس، لكل رأس شعبتان مدببتان كأنها سنّارة تشبه شوكة التسخين العملاقة.

اقترح (فالح) ضرورة أن أتسلح ببندقية صيد لأن البندقية ربما كانت خطرة مع هذا العدد الكبير من الناس. لقد سرّني رؤية طاقم (فالح) المكون من أربعة هم الوحيدون الذين يحملون بنادق على الرغم من حقيقة مؤداها أن سكان القرى يمتلكون عدداً كبيراً من الأسلحة النارية[٢]. لقد استحوذ رجال العشائر العراقية على أعداد هائلة من البنادق الإنكليزية والتركية خلال الحرب العالمية الأولى من ميادين القتال. ولم ينزع السلاح منهم منذ ذلك الوقت. مازالت ذخيرة البنادق (لي انفايلد) سهلة المنال لأن تسليح الجيش العراقي والشرطة بهذا النوع من البنادق. أما عتاد البنادق التركية فهو مستنفد من الناحية العلمية. وهناك بعض الحرفيين الماهرين من سكان القرى من استطاع إعادة حشو الخراطيش الفارغة مستخدمين باروداً مصنّعاً محلياً وبعض الكرات الحديدية[٣]، ولكن خراطيش العتاد التركي نفسها تصبح خطرة بسبب رقتها.

---

(١) أبرز أنواع المراكب تبعا لحجمها هي ابتداءً من أصغرها: أميْطير (مصغر ماطور)، مشحوف، بلم، طرادة، مشحوف هويري، بلم جبير، عانيّه (تستعين عادة بالشراع)، سفينة.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى اختلاف (فالح) عن بقية الشيوخ بعدم استمتاعه برؤية حاشيته وقد تسلحوا جميعاً أمام سكان مقاطعاته العزل.

(٣) الكرات الحديدية: تسمى محلياً (صجم) مفردها (صجمه).

أما فى الحرب العالمية الثانية فكانت هناك معارك قليلة فى العراق، لذلك كانت الفرص نادرة أمام العشائر لأن تغنم الأسحة. أما فى إيران فقد كان الجيش والشرطة قد تحطما بشكل كبير قبيل التقدم البريطانى، لذا فقد غادر الرجال من أفراد الجيش والشرطة إلى بيوهم مع أسلحتهم. واستحوذت العشائر أيضا على الأسلحة من مواقع عسكرية مختلفة. وفيما بعد، قام (رضا شاه) [1] بإصدار قانون قاس يقضى بالمعاقبة الشديدة لكل من وجُد بحوزته سلاح، لذا فقد قاموا بتهريب الكثير منها إلى العراق وباعوها بثمن بخس وصل إلى خمسة دنانير أى ما يعادل خمسة باونات. اما الآن فقد قيل لى إنها تساوى مائة دينار. وتعرف البندقية الجكسلوفاكية بـ (البرنو) من علامة على ماسورها. لاحظت أن البنادق التى يحملها طاقم (فالح) من هذا النوع .

استمع (فالح) إلى شكوى مشوّشة حول توزيع بعض الأراضى المخصصة لزراعة الشلب، فقال:

"هذا كاف، تعال غداً صباحاً إلى مضيفى بعد شروق الشمس بساعتين وقل لـ (حسن) أن يأتى أيضاً".

ثم سأل:

"هل (إدهيم) هنا؟ قل له أن يأتى".

رجل قصير يعانى من عرج خفيف نزل من أبعد مشحوف عنّا ثم خاض فى الماء شاقاً طريقه باتجاهنا. حاول تقبيل يد (فالح) بطريقة متذللة. سأله:

"هل أعطيت العشرة دنانير لـ (جاسم) كما أمرتك"؟

---

(١) رضاه شاه: (١٨٧٧م ــ ١٩٤٤م) شاه إيران وهو ضابط عسكرى، تربع على عرش السلطة إثر انقلاب فى سنة ١٩٢١م الذى أطاح بسلالة كاجار وأعلن شاهاً لإيران فى ١٩٢٥م. فعل الكثير لتحديث إيران. أجبر من قبل بريطانيا والاتحاد السوفيتى على التخلى عن السلطة لصالح ولده محمد رضا هلوى عام ١٩٤١م. حاول أن يلحق إيران بالركب الغربى على غرار ما فعل أتاتورك فى تركيا، إلا أن تصدى المرجعيات الإسلامية فى إيران آنذاك حال دون تحقيق مآربه.

"سوف أذهب غداً وأدفعها له يا محفوظ".

"لقد قلت لك ذلك منذ عشرة أيام".

"كنت مريضاً يامحفوظ، مدة يومين كنت...".

"سمعت أنك كنت فى المجر البارحة".

"كنت هناك عند الطبيب ولأشترى دواء...".

"أنك لم تقرب الطبيب، فقد أمضيت يومك فى عرس (نصيّف):

"أحلف (بالعباس) [١] لقد ذهبت إلى الطبيب، سوف...".

"كلب ابن كلب، لقد قلت لك إذا لم ترجع ما عليك من دين لـ (جاسم) حالاً سوف أعاقبك، أنت حيّال وكاذب. (ياسين) [٢]، خذه لـ (خزعل) [٣] وقل له أن يبقيه إلى أن أصل. قلّ له أن يقيّده، خذه، اذهبْ، كلب أسود، سوف أعلّمك كيف تحترم أوامرى".

وحين جاء شخص آخر بشكوى له قال (فالح):

"يكفى هذا، ارونا الخنازير، أرغب فى رؤية كيفية صيدها من قبل هذا الرجل الإنكليزى".

ثم قال لى:

"سوف تذهب أنت فى ذاك المشحوف، كن حذراً فى حركتك داخله، هذا الرجل سيتولى التجذيف".

ركبت فى مشحوف صغير كاد يغرق تحت قدميّ، وركب (فالح) وابنه فى مشحوف آخر، ثم انطلقنا باتجاه جزر القصب متبوعين من قبل البقية عندما أخذت المياه تعمق أكثر، طرحوا (المرادى) والفالات التى كانوا يدفعون بها وجلسوا يجدّفون

---

(١) الإمام العباس بن على بن أبي طالب ــ عليهما السلام ــ أستشهد مع أخيه الحسين بن على فى واقعة الطف سنة ٦١هـ، له منزلة خاصة جداً فى عموم جنوب العراق ولاسيما بين المعدان. فى مرقده تحسم كثير من النزاعات من خلال القسم به ضمن مراسيم غاية فى الرهبة والإحساس المضاعف بالقدسية.

(٢) ياسين بن حجى سيّد المنشداوى. لم يؤكد لى أحد إن كان متوفى أو لازال على قيد الحياة.

(٣) خزعل بن حطاب بن كحيط توفى فى البصرة عام ١٩٦٧م.

بالغرافات بحركات سريعة وقصيرة. عندما يكون هناك أكثر من مجدف فإنهم يجدفون بإيقاع واحد وعلى الجانب نفسه من المشحوف.

كان ضباب اليوم السابق قد اختفى وبدت السماء صافية بزرقتها الباهتة تتناثر هنا وهناك سلاسل من كتل صغيرة واضحة لغيوم رقيقة. كانت المجاديف تبرز سلسلة من دوامات صغيرة فى حين راحت القطرات المتلألئة ترتفع وتعود إلى الماء الرائق الذى كان غاية فى البرودة. كنا قد خلّفنا وراءنا الجدول الموحل المتفرع من مصب النهر بين طبقات من بردى مهشم شاحب كان قد نما فى المياه الضحلة. نحن الآن بين منابت القصب الذى يغطى معظم الهور الدائم. هذا النبات العملاق الذى يشبه الخيزران ينمو بتجمعات كثيفة ويصل إلى ارتفاع يزيد على خمسة وعشرين قدماً، وتنتهى سيقانه برؤوس تخرج شّرابات[1] صفراء باهتة. وتكون هذه السيقان من القوة بحيث أن رجال الأهوار يستخدمونها كعصى لتسيير مشاحيفهم. فى هذا الفصل من السنة يكون القصب فى الجزر المحاذية للممرات المائية الضيقة خفيفاً وشاهقاً. إن القصب الذى يمضى عليه حول يكون إما بلون ذهبى شاحب أو رمادى مفضض[2]، باستثناء القصب النامى والمتفرع من السيقان الذى يشكل نماءً جديداً لا يتعدى ارتفاعه بضعة أقدام، فيكون لونه زاهى الخضرة. انطلقت مجاميع صغيرة من طيور (دجاج الماى) بموازاة الماء إلى الأمام منّا إلى ملاذها فى جزر القصب، بينما دبّ الرعب فى طيور (الهليجى) و(الورده) التى كانت تنشر أجنحتها الداكنة لتجف فوق بقايا القصب المقطوع المبيّض بفعل الزورق، فغاص قسم فى الماء بينما حلّق القسم الآخر فوقنا، وطارت طيور (الرخيوى) فوق القصب محدثة اضطراباً صاخباً تجر وراءها أرجلها الطويلة المتدلية.

---

(١) شَرابات: يسمونها محلياً (عذَب) مفردها (عذْبه).

(٢) القصب الذى يدور عليه حوَل يسمونه محلياً (رُبَاخ) مفرده (رُباحه). أوضح استخدام له كوقود. بينما يسمون النماء الجديد له (عنكر).

كانت المشاحيف التى لا يقل عددها عن أربعين مشحوفاً تتصادم وهى تنـــزلق خلال الممرات الضيقة وتنتشر فى الامتدادات المفتوحة للمياه بينمـــا راح مـــسيّروها يتسابقون وسط صيحاهم وضحكهم.

لم أستطع اتخاذ قرارا فيما يتوجب علىّ عمله، هل نذهب بعيـــداً فى الأهـــوار أم نمكث عند الشاطئ بسبب انغلاق الممرات المائية أو بسبب ضيقها والتوائهـــا. فجـــأة وجدنا أنفسنا خارج غابات القصب وسط مياه مكشوفة[1]. انـــتفض (الخـــضيرى) بسرعة وطار محلقاً فوق رؤوسنا. وصل عرض بعض الجزر الصغيرة التى قطعت النهاية البعيدة للمياه المكشوفة بضعة أذرع، فى حين امتدت الأخرى إلى أكثر من (اكر) [2]. يطلق سكان الأهوار اسم (هول) على هذه الجزر. كان البعض منها راسيا لا يتزحزح فى حين يتحرك البعض الآخر سائبا على غير هدى، وتكون هذه الجزر مغطاة تحت كم من القصب الذى يرتفع هنا إلى ثمانية أو عشرة أقدام، وأجمات متشابكة من (الكولان) و(الجريّح) الذى ترهف أوراقه فتوازى الأمواس فى قدرها على القطع، و(**bambles**) وشجيرات (الغَرَب) وعدة أنواع أخرى من نباتات متسلقة، وتحت هذا كله انتشرت نباتـــات (النعنـــاع) و(**Sow thistle**) و (**Willow herb**) و(**Pondweed**) ونباتات أخرى.

تبدو أرض هذه الجزر الصلبة لكنها فى الحقيقة رخوة مثقلة بالمياه، تغطيها طبقـــة من جذور ونباتات متفسخة طافية على السطح. وفى سنوات لاحقة أطلقتُ النار على خنـــزير ضخم كان يرعى فى واحدة من هذه الجزر التى تمّ إحراقها قبل ذلك. كـــان يقف هناك كأنه على أرض راسخة. وحين مررنا بالمكان بعد ساعة كانت الجثـــة قـــد اختفت. فقلت:

---

(١) المياه المكشوفة **Lagoon**: يسموها محليا (بَركَه). وتمتاز بعمق المياه فيها.

(٢) الأكر: **acer**، وحدة قياس مساحة تساوى أربعة آلاف متر مربع.

"يبدو أننى لم أقتله، لابد أنه استرد عافيته وانصرف".

فصاح مرافقى:

"لا، لا، لقد مات بالتأكيد وقد غرق".

إلى واحدة من هذه الجزر كانت طرادة (فالح) تتجه بموازاة مشحوفنا. فقال:

"هذا هو المكان" وصاح بالآخرين:

"تعالوا، انزلوت فيها وتأكدوا إن كان فيها شيء".

ترجّل عدة رجال حاملين فالاهم أمامهم. كانت الجزيرة خالية، لذا فقد انتقلوا إلى غيرها وإلى أخرى وثالثة. كنت منشغلاً بمراقبة اثنين من طيور (**warblers**) وهى تثب هنا وهناك بين القصب عندما فزعت بضجيج عالٍ تلته صيحات:

"هذا هو هنا، أسرعْ، انتبه اللّه، إنها أربعة".

تلا تلك الصيحات طرطشة ماء ثم صمت.

سأل صوت آخر:

"أين ذهبتْ"؟

"لقد خاضت فى المياه، لقد نهض أحدهما تحت قدمى تماماً، والله و(العباس) كان بحجم الحمار".

صرخ أحدهم:

"لقد قذفت فالتى باتجاهها، كنت أصيبها، خنزيرة مع ثلاثة من صغارها".

صيحات أُخرى:

"لقد ذهبت من هنا، طوقوهن بسرعة واعزلوهن".

كنّا فى ممر بين جزيرتين لكن رجل مشحوفى خالفنا بسرعة وذهب إلى المياه المكشوفة حيث التحقت بنا عدة مشاحيف أخرى. لقد انتقل الصيد إلى جزيرة أخرى وحين استعجلنا باتجاهها كان هناك المزيد من الاهتياج. كانت هناك صرخة حادة قصيرة، وضحك، ثم صياح رجل:

"لقد أصبت، واحدا صغيرا منها، لقد طعنته بالفاله، إنه فى الماء، لقد أغرقته".

مرّ مشحوف (فالح)، كان قد خلع عنه عباءته وبدأ بالتجذيف بنفسه.

"أين ذهب الكبير فهيم يا (مناتى) [1]"؟

سأل (فالح) رجلاً مسناً تولى إرشادنا حتى الآن.

"أظن هناك فى الجزيرة الكبيرة يا (محفوظ)، نعم هذه آثاره، هيّا لنخرجه".

اندفع (مناتى) مسرعاً بعيداً فى أجمة قصب وتبعه اثنان من البقية. كنت أسمع صوت حركتهم هناك. صاح أحدهم:

"إنه لم يأت فى هذا الاتجاه".

ثم صاح (مناتى) من مكان آخر بعد قليل:

"ها هى آثاره".

اعتقدت أنهم فقدوا آثاره ولن يحدث شيء حين تناهى إلى سمعى ضجيج متقطع من الجانب البعيد وصوت صرّاخ:

"لقد قتلنى، لقد قتلنى".

صرخ أحدهم:

"لقد قتل (مناتى) هيا يا شبان، بسرعة، أين الرجال"؟

أجاب استغاثته العديدُ من الرجال وهم يخوضون خلال القصب.

جذفنا أنا و(فالح) وآخرون بسرعة واهتياج باتجاه الجانب البعيد من الجزيرة حيث وجدنا (مناتى) وقد وضع فى مشحوف كبير. كانت (دشداشته) مبتلة بدمائه ومزق نصفها الأسفل. كان مضطجعاً هناك بعينين مغمضتين. ثَمة جرح فاغر فى ردفه الأيمن، من الكبر بحيث أستطيع وضع قبضة يدى فيه. انحنى (فالح) فوقه وسأله بقلق:

"كيف أنت يا (مناتى) "؟

فتح الرجل المسن عينيه وهمس:

ـ "أنا بخير يا (محفوظ)".

---

(١) مناتى بن لازم بن فرج الموزانى، متوفى منذ زمن طويل.

أعطى (فالح) أوامره بالعودة حالاً إلى صدور (الخرّ) التى كانت لحسن الحظ غير بعيدة. قال صبيٌّ فى طريق عودتنا:

"لقد كانت خنـزيرة التى عضته، فلو كان خنـزيراً لشقه شقاً وقتله".

وقال آخر:

"لقد كان تصرفاً سليماً منه أن ألقى نفسه على بطنه، فقبل سنتين، رأيت رجلاً فى أراضى (البو بخيت) وقد قتلته خنـزيرة، لقد استطاعت سحب نصف أحشائه إلى الخارج".

وقال آخر:

"فى العام الماضى، قتل (سيّد) شاب فى حقول الحنطة بعد أن قطّعه خنـزير إربا. لقد كان وحيداً وأعزل. لابد أن (السيّد) قد داس فوقه. كانت سنابل عالية قبيل حصادها. زحف (السيّد) عائداً إلى قريته لكنه مات قبل أن يستطيع الخروج من الحقل".

سأل صبى:

"هل تذكر عندما امتطى (هاشم) خنـزيراً"؟

"أى والله". أجاب رجل مشحوف وأردف:

"كان هو وأخوه يعاينان حقل شعيرهما عندما فوجئا بخنـزير هرم بلون شاحب. عزم أخو (هاشم) على أن يرميه بالرصاص، فقد اشترى قبل مدّة قصيرة بندقية من (الفريجات) [1]، لكن (هاشم) حاول منعه ومع ذلك أطلق النار وأصاب الخنـزير فى بطنه".

---

(١) الفريجات: من أقدم العشائر فى محافظة ميسان. يرجعون إلى بطون ربيعة العدنانية، نزحوا من مناطق الشطرة وواسط. والذين نزحوا من الشطرة هم من صلب قبيلة العبودية إحدى قبائل ربيعة، أما الذين نزحوا من أرياف واسط فيرجعون إلى قبيلة السراى أكبر أثلاث إمارة ربيعة العدنانية. شكلت هذه الحمائل وحدة وقوة فى مناطق أهوار ميسان بعد أن حملت أسماء أجدادها فرج الدارمى العذارى، وفرج عماره عنار بن سرّاى. ادت مصاهرتهم مع البو محمد إلى تحالف عشائرى قوى.

"نعم". قاطعه رجل آخر.

"لقد كانت إصابة رديئة جداً".

أكمل رجل مشحوفى:

"لقد هاجمه الخنزير وأسقطه أرضا وشق ذراعه شقاً بالغ السوء، فاستدار (هاشم) إلى مؤخرة الخنزير وطعن كتفه بخنجره، وعندما استدار الخنزير باتجاهه اسقط (هاشم) الخنجر وقفز فوق ظهره. ولّى الخنزير هارباً مع حمله! لقد تشبث (هاشم) بأذنيه وسار به ممتطياً إياه كل المسافة إلى بستان (سيّد على) حيث انهار الخنزير هناك وهو يحاول ارتقاء سدّة رى عالية. قال (هاشم) فيما بعد إنه لن يرغب فى امتطاء خنزير مرة أخرى! فضحك مستمعوه".

قال رجل عجوز:

"إن الخنازير عدو، فهى تأكل محاصيلنا وتقتل رجالنا، الله يلعنها، ها هو (مناتى) سوف لن ترجى منه أى فائدة، لقد قضت عليه تلك الخنزيرة".

وصلنا إلى صدور النهر. كانت طرادة (فالح) مع حشد صغير من الرجال بانتظارنا حيث الطريق بمحاذاة النهر واسع بحق. رسونا بعد أن سحبنا المشحوف الذى أقلّ (مناتى) الراقد على أحد جنبيه وقد أسند رجلٌ رأسه وكتفيه. يبدو انه لم ينزف الكثير من الدماء لأن الماء الذى استقر فى أسفل المشحوف مشوب بلون وردى، لكن الجرح فظيع بهيئته المزرية. كانت النهايات الممزقة للعضلات بادية بوضوح من خلال اللحم الناز. تحرك (مناتى) بوهن ليرى جرحه لكنه لم يقل شيئاً.

أدوية كثيرة ترقد فى صناديقى التى أودعتها فى قرية (فالح). لم أكن مؤهلاً للطب، ولكن بعد عشرين عاماً من العيش فى أماكن موحشة حيث يتولى كل إنسان أمر نفسه كنتيجة منطقية، توليت أمر معالجة المرضى والجرحى، لذا اكتسبت بعض الخبرة فى العقاقير. بالإضافة إلى ذلك كنت أحرص على استغلال كل فرصة فأدور فى المستشفيات مراقبا العمليات وبهذه الطريقة استطعت التقاط كماً لا بأس به من المعرفة

الجراحية. واستطعت اكتساب كم آخر فى أثناء تواجدى خلال السنين التى قضيتها فى الأهوار. قلت (لفالح):

"الأولى بنا أن نأخذه بالسرعة الممكنة إلى مضيفك حيث أستطيع إعطاءه مادة مخدرة لكى يتسنى لى ترقيع جرحه، هذا غير الكثير مما يسعنى تقديمه له. ولكن يجب أن يذهب إلى المستشفى فى العمارة".

ناشدنى (مناتى):

"لا ترسلونى إلى المستشفى، لا، ليس للمستشفى، دعونى فى قريتى، اطلبوا من الإنكليزى أن يداوينى"(١).

فقلت (لفالح):

"دعنا نعود به إلى قريتك بأية طريقة".

لكن (فالح) أصرّ واعتذر بأن الطعام جاهز:

"دعنا نأكل أولاً ثم نذهب".

استشعرت الغضب يتخللنى حين رأيت (مناتى) يبتسم لى ويقول:

"كلْ، يا (صاحب)، كلْ، أنا بخير"، وأردف:

"على أية حال فأنا جائع، أريد شيئاً من الطعام قبل أن أذهب إلى أى مكان".

أذعنت واتجهت إلى حيث أُفرد الطعام على (باريه). كان هناك طبق ضخم من الأرز وقطع كبيرة من لحم الضأن فضلا عن الدجاج المشوى وصحون المرق. وحيث

---

(١) يعانى سكنة الأهوار من وحشة قاتلة ما أن يغادروا بيئتهم فيبدون فى غاية الحيرة والضياع والانشداه، لذا فهم لا يحبذون بل ويصرون على عدم مغادرة هذه البيئة تحت أقوى الحجج والذرائع، وها هو مناتى يرفض الذهاب للمستشفى الذى يقع فى المدينة طبعاً. أما موقفهم من المستشفيات فمعروف أيضاً فهم يعرّفون المستشفى بأنه المكان الذى يموت فيه الناس! أعتقد أن إحجامهم عن مغادرة بيئتهم له علاقة بتطيّرهم من فكرة المستشفى، فهم لا يرسلون أحداً للمستشفى إلا الذى يئسوا من شفائه بوسائلهم الاعتيادية حيث يكون المرض قد تمكن منه وفتك به، فيموت فى المستشفى على الأغلب!

عملية الأكل مستحيلة لذا نهضت بسرعة آملاً أن يحذو الآخـرون حـذوى، لكـنى ألفتيهم جالسين حتى شبع آخرهم، ثم تناولوا قهوتهم وشايهم. عجزت عن مـصادرة غضبي واستيائى ونفاد صبرى فخطوت باتجاه (مناتى). كان يحمل عظماً. تـساءلت إن كان فعلاً قد أكل شيئاً. كان يبدو شاحباً.

توسل (مناتى) مرّة أخرى فى قرية (فالح) ألاّ يرسلوه إلى المستشفى لكن (فـالح) أقنعه أخيراً بالذهاب. كانت الخنـزيرة قد اقتطعت كتلة كبيرة من ردفـه. حقنتـه بالمورفين ونظفت جرحه ونثرت فوقه طبقة سميكة من مسحوق السلفونامايد. حرصنا على وضعه فى المشحوف بشكل مريح وأرسلناه إلى المجر الكبير فى طريقه إلى العمارة.

التقيته بعد سنة حين نزلت لتناول الغداء فى قريته وقد روعّنى أن أجـده معاقـاً بالعرج بشكل دائم، غير قادر على الحركة ما لم يلق بثقل جسده على عصا. وحـين سألته عن المدة التى قضاها فى المستشفى أجابنى:

"عندما ذهبت هناك، لم يسمحوا لى بالدخول، لذا عدت من حيث أتيت، الحمد لله أن دواءك هو الذى شفانى، وهو كل ماحصلت عليه".

انتابنى الشك فى أنه لم يقرب المستشفى وقد ذهب إلى قريتـه بمجـرد مغادرتـه مضيف (فالح).



الفصل الرابع

الوصول إلى الكباب

سمعتُ صوت انسكاره هـذا (المـردي)
العتيق كنبض توقف، فتطيّر المـشحوف
فأل السوء ضحكتُ. وعدتُ أقطره.

أرسلنى (فالح) إلى (الكباب) فى الصباح التالى فى مشحوف يقوده ثلاثة رجال.

"سوف يذهبون بك إلى (صدّام). عُدْ إلينا متى ما تعبت من العيش وسط المعدان. تذكر أن هذا البيت بيتك. اذهبْ بأمان الله".

انطلقنا فى النهر الرئيس واجتزنا مضيفاً آخر قال لى رجال مشحوفى إنه يعود إلى (سيد صروط) [1] اكتشفت حالا أنه الرجل الأكثر تبجيلاً وهيبة من بـين (الـسادة) الآخرين فى المنطقة والذى طافت سمعته وشهرته وامتدت كل أرجاء جنوب العـراق. لذا اكتسب مضيفه قداسة وحرمة جامع. إن كل رجل مدلّى فى العراق هذه الأيام له

---

(١) السيد المبجل جداً صروط بن السيد محسن بن السيد كريم بن السيد إدريس بن السيد على الإسماعيلى، ينتهى نسبه إلى الإمام موسى الكاظم ــ عليه السلام. لا يضاهيه أحد فى شهرته التى عمت أرجاء وسـط وجنـوب العراق. اشتهر بالكرم المتطرف والكمة والتدين إلى أبعد الحدود، وقد كانت الكرامات تجرى على يديه حـتى عرف بـ (شارته) حتى وصل الأمر إلى أن العامة يقسمون به. كان لطوله الفارع واتساع منكبيـه وصـوته الراعد وتجلله بالسواد الأثر البارز فى قدرته على التأثير فيمن حوله. تزوج عدة مرات وأنجـب الكـثير مـن الأولاد موزعين حالياً بين بغداد والبصرة والعمارة. توفى بتاريخ ٢٠/ ١ / ١٩٨٤م عن عمر ناهز التـسعين ودفن فى النجف الأشرف وبُنى له قبر بهى فى مقبرة وادى السلام.

نصيب من التعليم يطلق على نفسه (سيّد) كما كان يطلق على نفسه لقب (أفندى) أيام العهد العثمانى. تعطيك كلمة (سيّد) معنى (مستر . Mr) وليست لها دلالة قدسيّة، أما عند عشائر الأهوار فلا زالت هذه الكلمة عنوان تبجيل وتوقير وتعنى انحدار الإنسان من سلاله النبى محمد (ﷺ).

بعد مضيف (سيّد صروط) تنتشر قرية صغيرة بغير انتظام على طول ضفة النهر[1] انتشرت فوقها غمامة من دخان. كانت الجواميس السوداء الواجمة الهائلة بأجسامها الثقيلة وفرائها الأشعث تقف هناك بجانب النهر أو تغطس فيه لا يظهر منها سوى مناخيرها أو قمم رؤوسها أو أقواس قرونها السميكة. رست هناك مشاحيف من مختلف الأحجام على طول الضفة أو سُحبت على الأرض اليابسة حيث البقايا المتهرئة لمشاحيف أخرى تساقطت ألواحها عن إضلاعها. لاحقتنا الجموع التقليدية للكلاب نابحة عند حافة الماء. كان ثمة رجل يراقبنا بصمت من مدخل بيته. قال أحد رجال مشحوفى:

"هيا ياصاحب، حَيّه".

فهتفت:

" السلام عليكم". فرد الرجل:

"عليكم السلام" وأضاف "افلحوا" فرددت:

"لقد أكلنا... الله يحفظك".

قال الرجل الذى بجانبى:

"جيد، يجب عليك أن تعلم طباعنا، فمن عادة الرجل فى المشحوف أن يحيى الرجل على الشاطئ، وان يحيى الرجلُ المنحدر مع التيار القادمَ ضده".

---

(١) القرية التى تلى مضيف (سيد مصروط) التى يقصدها المؤلف هى إما (أم الهوش) أو (صوب الله) التى يشكل البربرة أغلب سكانها. آثرت ذكر القريتين لعدم اتفاق الذين سألتهم.

كانت أشجار (الغَـرَب) فى القريـة الأخـرى عاريـة حـتى الآن باسـتثناء لمسات طفيفة من بروز براعمها، تصطف علـى جـانبى النـهر، تتـدلى فروعهـا السفلى فى الماء الموحل غاطـسة فى التيـار. انتـشرت وراءهـا، حيـث أجمـات وتشابكات النخيل غير (المكرّب)، وفى مكـان واحـد، عـدة بيـوت قـصبية فى أرض خلاء. انساب فرع آخر من النهر هنـا، فانحـدرنا فى الفـرع الـصغير عـن يميننا[١]. حقول الحنطة والشعير، قرية أخـرى، أراضٍ موحلـة مـستوية، ومـن ثم حافة الأهوار وجزر البردى، منظر اليوم السابق نفسه.

سرنا فى قناة ملتوية ضيقة يجللها القـصب وقابلنـا العديـد مـن المـشاحيف وهى راجعة محملة إلى أقصاها بالقصب الغـض النـدى (العنكَـر) الـذى أخفـى المشاحيف نفسها تحته فلا تكـاد تُـرى. كـان يقودهـا رجـال أنـصاف عـراة وغلمان، اثنان فى المشحوف الواحد أحيانا وغالبيتـها تقـاد مـن قبـل شـخص واحد. قال الرجل الذى عـيّن نفـسه معلمـاً لى واسمـه (جحـيش)[٢] (مـصغر جحش):

"حشيش لجواميسهم".

لم يكن (جحيش) كنية أو لقباً له، بل اسمهُ الحقيقى الصحيح. كان الكـثير مـن رجال العشائر بأسماء وحشيّة و (جحيش) أقلها شذوذا. لقد قابلت فى مناسبات عديدة رجالاً واطفالاً بأسماء مثل (جليب: مصغر كلب)، (بكّور: خنـزيره) و (خنـزير). والتى تعدُ أسماءً مروعة مجفلة بين المسلمين الذين يبخسون الكلب والخنـزير بوصفها حيوانات نجسة. وللبعض أسماء غريبة مثل (جريذى)، (واوى)، (ضبع)، (كوسـج)،

---

(١) الفرع الصغير عن اليمين هو نهر الموزر.

(٢) جحيش: لم أستطع العثور على أى معلومة تخصه، لكن البعض أكدّ لى أنه ربما كان دهيش بن نافل بن حسـين من آل حميد يسكن مدينة الثورة حالياً.

(عفريت) وحتى (بعرور). تطلق هذه الأسماء غير الجذابة لغرض تفادى عين الشر على الأطفال الذين مات إخوتهم فى طفولتهم المبكرة[١].

اجتزنا مكانا يُجمع منه الحشيش، وحشيش هى الكلمة العربية المستخدمة هنا للقصب الغض الطرى كعلف. وقف صبى عارٍ تماماً فى مقدمة المشحوف يقطع الفروع الجديدة الخضراء للقصب بمنجله المسنن الحافة ويركم الحزم المقطوعة الندية المقطرة خلفه فى المشحوف. يقوم، بين الحين والآخر، بتقديم مشحوفه مسافة ذراع أو ذراعين بجذب سيقان القصب الكبيرة. من خلال حُجب القصب أستطيع سماع ضحكات، صوت طفل صادق ونقى يغنى أغنية إيقاعية مرحة. توقف رجال مشحوفى عن التجذيف للاستماع. قال أحدهم وهو يستشعر تقديره لهذا الصوت:

"هذا حسن".

انتهت الأغنية فصاح أحدهم:

"غنّ لنا أغنية أخرى".

انه المشهد الذى سيصبح مألوفاً خلال السنوات السبع القادمة. حيناً، يكون الفصل شتاءً فيكون الماء ببرودة الثلج والريح الباردة تهب على الأهوار قادمة من ثلوج الشمال، وحيناً، يكون الفصل صيفاً، حيث الهواء المشبع بالرطوبة، والحر الذى لا يطاق فى قعر ظلمة أنفاق القصب الشاهق والبعوض الراقص بسحب حائمة".

---

(١) تمتد غرابة الأسماء لتكون وصفاً دقيقاً لحالة الولادة، فمثلا هناك من الأسماء الذكورية (شوبطيت) أى تأخرت كثيراً و(وين جنت) أى أين كنت، وهما بمعنى أننا انتظرناك طويلاً. تطلق مثل هذه الأسماء على الولادة الذكورية بعد سلسلة من الولادات الأنثوية، أما حين تكثر الولادات الأنثوية فتأخذ أسماء المتأخرات منهن طابع الاعتراض أو الدعاء المتواصل مثل: كافى، أى (كفى) بسنه، أى (اكتفينا) مليّنا، أى (مللنا) بس عاد، أى (أى يكفى)، جماله، أى (زيادة).

من النادر أن ترى الربيع أو الخريف لأنهما فصلان قصيران فى هذه الجزء من العالم. ولكن أيا كان الفصل شتاءً أو صيفاً فقد ألفت أصوات الضحك أو الغناء بين أجمات القصب حيث رجال الأهوار يكدحون بجمع العلف لجواميسهم النهمة.

قال (جحيش) وهو يلتقط مجدافه مرة ثانية:

"هذا الولد صوته جميل".

"نعم، له صوت أجمل من صوت (جليب) [1] الساكن فى (الكباب)".

"نعم صحيح، صوت جميل لكنه لا يستطيع الرقص، هل رأيت (الذكر بأنثى) فى حفلة عرس (عبد النبى)؟ والله أنها لمتعة حقيقية مشاهدتهُ وهو يرقص".

سألت:

"ماذا يكون (الذكر بأنثى)؟"

فالكلمة تبدو كما لو إنها تعنى فتاة ورجل. فأوضح (جحيش) أن (الذكر بأنثى) هو ولد محترف للرقص وهو مخنث ويأتى أفعال النساء ويوجد منهم اثنان أو ثلاثة فى المجر الكبير. يُدفع له مبلغ مقابل الرقص فى الأعراس والمناسبات السّارة الأخرى.

وحين سألت إن كانوا يسكنون بين العشائر، أجاب (جحيش):

"لا، لا أبداً، طبعاً الكثير من أولادنا يرقصون ولكنهم ليسوا (ذكر بأنثى)".

أضاف أحد رفاقه:

"طيب، هناك واحد منهم فى (الصيكَل)، والأدهى من ذلك أن ابنه (مازن) فى طريقه لأن يصبح راقصاً بارعاً، والله، إنه فى بدايته أحسن من أبيه الذى سبقه".

لم تمرّ بنا زوارق أخرى وأخذت حركتنا بالتباطؤ منساقة على غير هدى، منحدرين فى الممرات الساكنة بين عرائش القصب الذهبى. باستثناء صوت

---

(١) جليب بن مريوش بن فرج الله الساعدى، توفى حوالى سنة ٢٠٠٠م فى البصرة.

أحدنا وهو يتكلم، لم يكن هناك ثمة صوت أكثر من طرطشة ميـــاه مكتومـــة تحـــت المجاذيف وهمس الماء تحت مقدم المشحوف. بدأ الممر بالاتـــساع تـــدريجيا ووجـــدنا أنفسنا على حافة قصيرة باتساع حوالى ثلاثة أربـــاع الميـــل. كانـــت زرقـــة الميـــاه شفيفة زاهية تحت أشعة الشمس. قال (جحيش):

"سنعبر البحيرة، فلا رياح هناك".

كانت مجموعةكبيرة من (دجاج الماى) ترقد مطمئنة على سطح الـــبحيرة تلتـــها أعداد كبيرة من طيور البط كانت من البعد بحيث يصعب تحديدها. حملت بنـــدقيتى، لكنها طارت ما إن برزنا فجأة من خلال ستار القصب.

قال (جحيش):

"إنه يكون حذراً جداً فى هذا الفصل، فلو جئت فى الخريف، موعد وصـــوله إلى هنا فسوف تصطاد منه ما تريد، لقد اصطاد (فالح) عدداً هذا الشتاء".

ظهر القصب عبر البحيرة كأنه منحـــدرات صـــخرية شـــاهقة علـــى طـــول ساحل مثلّم بينما ذكّرنى القصب البعيد خلفـــى بحقـــول الـــذرة اليانعـــة. انـــدفعنا باتجاه الجانب البعيد مرة أخرى بين أجمات القـــصب وقابلنـــا مـــشحوفين كـــبيرين محملين بالقصب الجاف ولم يتركا لنا إلا فسحة ضئيلة لنمـــرّ. كانـــا واســـعين جـــداً بجوانب عالية وبطول يصل إلى ثلاثين قدماً وبمـــؤخرة ومقدمـــة مزخـــرفتين، ســـيّر كل منهما ببطء إلى الأمام ثلاثـــةُ رجـــال بغـــرز (المـــرادى) فى المـــاء ثم يـــسيرون خطوة خطوة على الحافة العليـــا للمركـــب مـــن مقدمتـــه إلى مؤخرتـــه، وحـــين يصلون إلى المؤخرة يعودون ثانية إلى المقدمة ويبدأون من جديد.

صاح (جحيش):

"هل (صدّام) فى (الكباب) "؟

" نعم، لقد عاد أول أمس من قرية (خلف)[1]". و (خلف) هذا هو أخو (فالح) الأصغر.

"إلى أين أنتم ذاهبون؟"

"إلى (صدّام)، نحن نقلّ الرجل الانكليزى من مضيف (فالح)".

"وأين هو (فالح) "؟

"فى بيته".

"ومجيد"؟

"مازال فى بغداد".

قال لى (جحيش):

"نحن نسمى هذا المركب (بلم)" وأردف:

"إنهم قادمون من (الكباب) محملين بالقصب لبناء مضيف (مجيد) الجديد".

بعد ذلك بقليل أدركنا عدة مشاحيف محملة بالحشيش فى طريقها إلى (الكَباب). يبدو أن القناة أكثر ضحالة لأن البردى ينمو فيها بين القصب. اتسعت القناة، دُرنا حول جزيرة من البردى وهناك فى فسحة واسعة متلألئة تتمايل أمواجها بفعل النسيم، كانت القرية. كانت ظلال البيوت منعكسة فى المياه، تلاشت فوقها غشاوة رقيقة من دخان فى سماء شاحبة الزرقة، استقر وراءها جدار البردى الأصفر. تبعثر حوالى سبع وستين بيتاً وسط (بركَه)، تفصل فيما بينها أحيانا بضعة أذرع فقط. تبدو من بعيد وكأنها غاطسة فى المياه فعلاً ولكنها فى الحقيقة شيدت فوق كومة بردى مثقلة بالماء كأنها عش

---

(١) خلف بن مجيد الخليفه بن وادى الأخ غير الشقيق لفالح بن مجيد وخريبط بن مجيد، فأمه هى شريفة بنت سلمان العلياوى المحمداوى، ولد عام ١٩٢٧م، يسكن حالياً فى بغداد حى أور، يتزعم مع غيره من الشيوخ عشيرة البو محمد. يتميز بذاكرة ماسية وباهتمامات معرفية متنوعة.

بجعة عملاق لها من الكبر مـا يكفـي لبنايـة وفـسحة صـغيرة أمامهـا. وقفـت جاموستان أمام أقرب هذه البيوت يقطر الماء من فروهـا الأسـود بينمـا رقـدت الأخريات مغمورات أو شبه مغمورات قريبا منها. تـبنى هـذه البيـوت، تـشبه فى ذلك البيوت على اليابسة، من (البـوارى) المـشدودة إلى هياكـل مقوسـة مـن القصب وتكون مفتوحة من جهة واحدة. كان بإمكاننا النظر داخلـها ونحـن نمـر خلالها مجدفين. كان البعض منها بحجـم معتـدل، والـبعض الآخـر مجـرد سـتر بالكاد يمكن تصنيفه ضمن البيـوت. يكـون لـون أحـدثها بنـاءً بلـون القـش الطازج بينما لون القديم منها شاحباً كدراً.

فى كل مكان، تجد هناك من يركب مشحوفاً أو ينـزل منـه لكـى ينتقـل من جزيرة صناعية إلى أخرى. يحمـل الرجـال والـصبيان مـلء أذرعهـم حـزم الحشيش ويلقونها أمام بيوتهم. حييناهم، فردوا علينا:

"أهلاً وسهلاً، أفلحوا".

لقد راقبت طفلاً بعمر الرابعة أو الخامـسة يخطـو فى مـشحوفه دافعـا إيـاه بعصا طويلة متجها نحو جزر القصب. نادتـه امـرأة تحمـل طفـلاً بـين ذراعيهـا عندما اجتازها. كانت بوجه جميل وحنـك مـستدق عـذب، تلـبس رداءً معتمـا مع عباءة سوداء خشنة تنحدر من أعلى رأسها. وأمام بيـت آخـر كانـت هنـاك فتاتان برداءين طويلين مزخـرفين احـدهما بـالأحمر والآخـر بالأخـضر. كانتـا تهرسان (الشلب) فى هاون خشبى[1] بمدقة ثقيلة. كانتـا تـدقان بالتعاقـب وهمـا تثنيان جسديهما للأمام عند منطقة الورك وتطلقان صوتاً إيقاعياً عند كل دقة.

يقع مضيف (صدّام) فى الطرف القصيّ للقرية عنـد حافـة جزيـرة قـصب وقد عزل قليلا عن بقية البيوت. كان أكـبر بنـاء فى (الكّبـاب) وهـو الوحيـد الذى استقر على أرض يابسة لأنه شغل جزيرة صـغيرة شـديدة انحـدار الجوانـب

---

(١) الهاون الخشبى الكبير نسبيا يسمونه محلياً (جاون) بتعطيش الجيم، أما المدقة فيسمونها (ميجنه) معطشة الجيم أيضاً.

من أرض سوداء ارتفعت عن مستوى المياه بحوالى خمسة أو ستة أقدام[١]. من الواضح أن هذه الجزيرة هى موقع قديم بسبب وجود الطابوق قرب مستوى المياه. كانت ثمة فسحة فى الجزيرة وسعت لبيت آخر حيث يسكن (صدّام) وعائلته. ما إن اقتربنا حتى خرج إلينا صائحاً آمراً صبياً أن يجلب الفرش.

"أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً".

ساعدنى فى الترجل من المشحوف. كان رجلاً طويلاً نحيفاً تعلو وجهه أمارات خفيفة من إصابة بالجدرى، حليق الوجه إلاّ من شارب رقيق يلبس (دشداشة) بيضاء تعلوها عباءة بنية فضلا عن الكوفية والعقال. كان بصحبته ابنه (عوده)، طفلٌ هادئ عمره عشر سنوات.

خلعت حذائى عند مدخل المضيف ودخلت. كان المضيف، وهو الوحيد فى (الكَباب)، مبنى بطريقة خشنة فظة على سبعة (شِباب) وكانت فتحته باتجاه الجنوب. كانت النظرة من هذا المضيف ذى الموقع المرتفع تشرف على كل القرية وكانت (البوارى) التى تغطى أرضيته بالية رثة، والفانوس النفطى المعلق بقصبة مغروسة فى الجدار مسوداً معتم الزجاجة.

"أين هذا الولد؟ الله يلعنه".

أعلن (صدّام) ذلك بنفاد صبر.

ظهر غلام تلوح عليه إمارات الغباء يحمل (مَدّتين)[٢] وبعض الوسائد.

---

(١) يطلق سكان الأهوار كلمة (إيشان) على كل واحدة من هذه الجزر، وهى كثيرة جداً فى منطقة الأهوار وبارتفاعات مختلفة قد تصل إلى ١٢ قدماً عن مستوى الماء، أشهرها إيشان (الواجف) و (العزيزه) و (الكَبور) و (أبو صخير) وغيرها.

(٢) (المدَّه) بساط سميك من الصوف ذو نقوش بألوان مختلفة يغلب عليها الأحمر والأزرق والأصفر والبرتقالى، بأطوال مختلفة وبعرض قد يصل إلى ثلاثة أقدام، عادة ما تكون ثقيلة بسبب سمك حياكتها على عكس (البساط) الخفيف نسبياً والذى لا يبالغ الحائكون فى زخرفته.

"هيّا أسرعْ أيها الولد، ألا ترى أننا نستقبل ضيوفاً؟ أعطني هاتين(المَدّتين) واذهبْ لجلب المزيد منها، الجيد منها فقط".

عاد الغلام يحمل بساطاً من النوع الفاخر، بسطه إزاء الجدار البعيد ووضع عليه وسائد لها شكل مخدات النوم ومغطاة بقماش لَمّاع أحمر، طلب مني (صدّام) الجلـوس هناك. لقد سمعته يهمس للعبد:

"قل لهم أن يعدّوا غداءً، ثم اذهبْ إلى العطار واعلمْ إن كان عنده سمك. تذكرْ أن تجلب واحدة كبيرة هات ستة علب سجائر وسكرّ وشاي، استعن بالمشحوف الصغير".

دخل رجل ذو بنية متماسكة ثقيلة له وجه فضولي غامض، ربما كان وسيماً حين كان في صباه، لكنه الآن مترهل رخو، بصحبته ابن له بعمر الخامسة عـشرة، حيّانـا وجلس.

"هيا يا (عجرم)[١]".

قال (صدّام) للشاب ذو الوجه المبتهج:

"اغلِ ماءً للقهوة، تجده في الدلة الكبيرة، أشعلْ ناراً، القصب هنـاك في الزاويـة وهنا الثقاب".

عندما عاد العبد، رمى (صدّام) علبة سجائر أمامي وأمام كل واحد من رجـال مشحوفي، ثم فتح البقية ورمى سيجارة أمام كل واحد من الجالسين.

جاء عدةَ رجال حين قدّم (صدّام) لنا القهوة، ووصل المزيد منـهم الآن، حـتى أصبح عددهم بين عشرين إلى ثلاثين رجلاً يشبهون في الهيأة سكان القرى الذين دهبوا معنا، أنا و(فالح) لصيد الخنازير. إن الذي شدّ انتباهي بـشكل كـبير هـو اتـساع وجوههم، وكان فيهم شاب طويل له مظهر منغولي. يطلق كـل الرجـال شـواربهم والقليل من مسنيهم كانوا بلحى شيباء، شعر رؤوسهم حليق إلى مستوى قصير جـداً.

---

(١) عجرم بن حسين بن حيدر بن سلامه الفريجي، ارتحل إلى بغداد وتوفى فيها عام ١٩٨٠.

وقد ارتدوا الكوفيات التقليدية على رؤوسهم و (الدشاديش)، وارتدى أغلبهم عباءات خشنة.

خرج (صدّام) وما أسرع أن عاد متبوعاً بابنه (عوده)، و(عجرم)، وخادمه وقد حملوا وعاءين كبيرين للمرق، ودجاجتين مطبوختين، وصينية كبيرة مدورة يعلوها تل من أرز الدبق. ووزع الصحون فوق حصير دائرى أمامى. لاح (عجرم) والخدم وهم يحملون سمكة بشكل جيد ومكسو فى بعض أجزائه بالرماد[1]. وكما جرت العادة دعا (جحيش) (صدّام) للانضمام إلينا لكنه رفض قائلاً:

"كلْ، كلُ".

صبّ (صدّام) المرق فوق الأرز وراحت يداه تمزقان الدجاج قاذفاً بقطع اللحم أمامنا. عادة ما يكوّر البدو كتلة الأرز فى راحة يدهم بشكل كرة صماء قبل أن يدفعوها إلى أفواههم،ولكن هنا، لا يستخدم سكان الأهوار سوى أطراف أصابعهم، لقد لاحظت أنهم يأكلون الأرز مع الدجاج ويأكلون الخبز مع السمك. وفى النهاية ينهض كل شخص بشكل مستقل، يغسل يديه ويشطف فمه.

بعد أن أنهينا تناولنا للطعام، دعا (صدّام) الآخرين ليأكلوا، لكنهم تظاهروا، الواحد بعد الآخر، بالرفض قائلين:

"شكراً، لقد أكلنا تواً".

لكن (صدّام) يلح:

"هراء، هيا، كلْ".

---

(١) يسمون هذا النوع من الخبز (طابك) ومادته طحين الأرز، يستعمل عادة فى حالة الضيف الطارئ لأنه لا يحتاج التخمير. يشوى خليط الماء مع طحين الأرز، ذو القوام الثخين، على طبق طينى سميك يرتفع عن الأرض بثلاث قطع طينية تسمى (مناصب) مفردها (مَنْصبَة) توقد تحته النار إلى درجة معينة. يُصب الخليط فوق الطبق الساخن ويغطى سطحه بجمر (المطّال). ومن هنا جاء الرماد الذى يشير إليه المؤلف.

"أبدا، لا، لا".

يجيبون بما يشبه النقمة والسخط الواضحين.

وأخيراً يمسك (صدّام) بذراع الرجل كما لو أنه يقسره، عندها ينهض الرجل ويذهب إلى الطعام. وبعد الكثير من الاعتراضات والاحتجاجات يلتحق الآخرون به! لكن البعض قال:

"لا، حقيقة يا (صدّام) لقد، وأعاهدك، أكلت، ولبن أمك، أكلت".

إنه قسم غريب ويبدو أنه خاص بعشائر (البو محمد) [1]. وبشأن الذين أكلوا أخيراً، فلم يكن من بينهم مَن لم يصرّح أنه لا يشتهي مطلقاً!

لقد لاحظت أنهم طردوا كلباً حال دخوله المضيف بينما سمحوا لقطة أن تقرفص بجانبهم حتى أنهم رموا لها بعض الفتات.

وبعد المزيد من القهوة والشاي، نهض رجال مشحوف الثلاثة.

قال (جحيش) من بينهم:

"استودعك بحفظ الله يا (صدّام)". احتجَّ (صدّام):

"ماذا؟ تذهبون؟ هراء، امضوا الليلة معنا".

"لا، لدينا ما يجب عمله، لابد من العودة".

"أرجوكم، ابقوا".

"لا، صدقاً".

ثم أعادوا:

"استودعك بحفظ الله".

قال (صدّام):

---

(١) سألت عن حقيقة هذا القسم (ولبن أمك) فيما إذا كان خاص بالبو محمد فقط كما اعتقد المؤلف، فأكدّ الكثير أنه قسم شائع ولا علاقة له بعشيرة دون أخرى.

"حسنا، اذهبوا بأمان الله".

وقلت:

"سلّموا لى على (فالح)".

"الله يسلمك".

أجابوا هم يلتقطون مجاديفهم و (مراديهم) التى كوّموها فى زاوية المضيف، خرجوا ثم ركبوا مشحوفهم.

وحين غادر البقية، نهض رجل وقال لـ (صدّام):

"اصحبْ الرجل الإنكليزى إلى دارى ليشرب شاياً عند العصر".

لقد لاحظت أن (صدّام) وهو يقبل دعوته كان يخاطبه بكلمة (زاير)، لقب دينى مستخدم من قبل الشيعة.

هناك مذهبان فى الدين الإسلامى، شيعة وسنة، كما هو الحال بين الكاثوليك والبروتستانت. يسود المذهب السنى شمال العراق اليوم بينما يسود المذهب الشيعى جنوبه. إن كلمة شيعة تعنى فى اللغة العربية حزباً أو مجموعة ولكنها أخذت معنى محدداً يشير إلى أتباع على بن ابى طالب بن عم النبى (ﷺ) وزوج ابنته الذى يعدّه الشيعة الخليفة الشرعى ، ويؤكد السنّة أن أبا بكر هو الخليفة الأول.



الفصل الخامس

الانطباعات الأولى عن المعدان

يا حزين... أما آن للاانتـــهائك أن
يكف...؟

وحّد محمد (ﷺ) القبائل المتحاربة فى الجزيرة العربية فى بداية تأريخها. وبعد أقـــلّ من عشر سنوات على وفاته فى ٦٣٢م، انطلقت القبائل نفسها المعوزة بشكل كـــبير المحتفظة بفرديتها من الجزيرة العربية وحررت بلاد الشام ومصر مـــن البيـــزنطينين، والعراق من الساسانيين وامتدت إمبراطوريتهم فى أقل من مائة عام من بـــايرنيز[1] إلى تخوم الصين واحتلت أراض أوسع مما امتلكت الدولة الرومانية. كان إنجـــازهم ملفتـــاً للنظر ورائعاً لكن الدولة التى أسسوها مزقتها المنافسات والعداوات منذ عهدها المبكر.

بدأت المتاعب بعد مقتل عمر الخليفة الثانى الذى خلف أبا بكر فى عـــام ٦٤٤م. لقد اغتيل عثمان الخليفة التالى الرجل الواهن الشخصية لكنه ممثل للبيوتات القوية فى مكة سنة ٦٥٦م. تلاه علىّ الذى أحيط بالشكوك بشكل كـــبير فى تورطـــه بتلـــك الحادثة. وانفجرت حرب داخلية، لكن معاوية، وهو ابن عم لعثمـــان وكـــان واليـــاً للشام، جمع المتمردين. كانت الحروب المتقطعة والمفاوضات غير الحاسمة تتوالى حـــتى مقتل علىّ سنة ٦٦١م فى عاصمته الجديدة الكوفة فى جنوب العراق ودفن جثمانه فى الصحراء.

(١) بايرنيز Pyrenees: سلسلة جبلية تعزل فرنسا عن اسبانيا يبلغ طولها حوالى ٢٧٠ ميلاً.

كان الحسن، أكبر أبناء على، ضعيفاً ومتسامحاً وبحاجة إلى قليل من الإقناع ليعلن عن تخليه عن حقوقه. فأصبح معاوية، والى بلاد الشام القوى، خليفة وأسس الخلافة الأموية المشهورة فى دمشق. وأصبح هذا الحكم فى العراق بغيضاً، حيث أغلب سواده، بالرغم من دخولهم الإسلام، إلا أنهم ليسوا عرباً فامتعضوا من عجرفة زعمائهم وغطرستهم.

حين مات معاوية خطط أهل الكوفة للثورة، فبعثوا ممثليهم للحسين، الابن الثانى لعلىّ، يستعطفونه للقدوم إلى العراق ليترأس الثورة، معاهدينه على الدعم الشامل. قَبلَ الحسين العرض وصمم على قطع الصحراء من مكة مع مجموعة صغيرة تحوى النساء والأطفال. وفى طريقه إلى العراق علم أن ما خطط له انهار بالخيانة، وأن عشرة من الزعماء قد القى القبض عليهم وقتلوا. استمر الحسين فى سيره لم يرعبه أو يثنيه ما حدث حتى وصل كربلاء على الفرات. لقد قوبل بأربعة آلاف رجل انتشروا على طول النهر كان قد تم إرسالهم من قبل يزيد بن معاوية لاعتراض الحسين. من المؤكد أن (يزيد) لم يأمر بقتل الحسين ولم يكن راغباً فيه. كان بإمكان الحسين الانسحاب بسلام أو الاستسلام، لكنه بدلاً من ذلك اختار أن يقاتل، وبعمله هذا غيّر تاريخ الإسلام.

لا أحد من الذين توقع مؤازرتهم ودعمهم تحرك لنصرته، سوى الحرّ، هكذا تحكى وقائع القصة، انضم إلى المجموعة الصغيرة متأثراً بشجاعتها. وفى العاشر من الشهر العربى المحرم سنة ٦٨٠م قاتل الحسين وجماعته أعداءهم.

"إنها لم تستغرق وقتاً طويلاً".

قال شاهد عيان ليزيد:

"كوقت ذبح بعير أو قيلولة قصيرة".

حُمل رأس الحسين المقطوع إلى الكوفة وعُرض على عامل يزيد الذى ضربه على شفتيه بعصا من الخيزران، وأثناء الصمت الرهيب الذى تلا ذلك رفع رجل عجوز صوته(١):

" وا أسفاه أنى عشت لأرى هذا اليوم وأنا الذى رأيت هاتين الشفتين تقبلان من قبل رسول الله"!

بدأ التشيع كحركة سياسية بين العرب لتقديم حقوق على وذريته فى الخلافة، ولكن بعد استشهاد الحسين تشكل على هيئة حركة دينية جديدة أصبح بعدها قوة خاصة بشكل سريع فى العراق وبلاد فارس مجسداً التذمر الجماهيرى لسكان البلاد الأصليين ضد ارستقراطية العرب. وبهذا يكون التشيع قد قسم الإسلام بشكل حاسم، يشبه فى ذلك الانقسام الإصلاحى للكنيسة الكاثوليكية. فى الوقت الذى ينظر السنّة المحافظون إلى علىّ كونه الخليفة الرابع لمحمد (ﷺ) يرى الشيعة أن الخلفاء الثلاثة مغتصبون للخلافة ويؤمن الشيعة بسلسلة قدسية متعاقبة من الأئمة تلى الرسول. وأغلبهم يؤمن الشيعة باثنى عشر إماما من هذه السلسلة الذين يُعد على والحسن والحسين أول ثلاثة فيها، وأما الباقون فهم من ذرية الحسين. وبالاستناد إلى الشيعة، فان آخر هؤلاء الأئمة هو الإمام محمد المهدى الذى اختفى بطريقة غامضة فى سامراء والذي ينتظر الشيعة ظهوره طوال الوقت باعتباره المهدى أو الرجل المنتظر.

فى الصحراء، نمت المدينة المقدسة فى النجف حول مرقد على الذى بنى المؤمنون فوقه مسجداً عظيماً بقبة ذهبية، لا يسمح للكافر بدخوله حتى هذه الأيام. ما زال الناس يجلبون موتاهم من مناطق بعيدة جدا كالهند لكى ترقد بسلام فى الأرض المقدسة، لأن علىّ، الشخص العظيم الشبيه بالرسول، للكثير منهم، أعظم من الرسول

---

(١) عامل يزيد على العراق آنئذ هو عبيد الله بن زياد بن أبيه، أما الصحابى الجليل الذى اعترض عليه فهو زيد بن أرقم.

نفسه. يكون إعلان المسلم لإيمانه ودينه بالشكل التالى: أشهد أن لا الـــه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويضيف المسلمون الشيعة: وأن علياً ولى الله. دفن جثمان الحسين فى كربلاء حيث سقط صريعاً، ثم بدأ الناس بعد ذلك مباشرة بزيارة ذلك المكان للصلاة فازدهرت المدينة، ثم شُيّد مسجد رائع احتوى جسد أعظم شهيد مسلم. أصبحت كل من النجف وكربلاء غاية الزائرين من كل أصقاع الأرض.

حين زرهم أول مرة، وجدت سكان الأهوار مرتابين بـــشكل كـــبير فى العـــالم الخارجى. قد يذهبون من (الكباب) إلى السوق فى (المجر)، والقليل منهم مَن سبق لـــه الذهاب إلى العمارة التى لا تبعد سوى عشرين ميلاً عن (المجر) . لكن واحداً أو اثـــنين فقط مَن سبق له الذهاب إلى البصرة أو بغداد. مع هذا فهم يـــأملون جميعـــاً بزيـــارة كربلاء والنجف، والكل يأمل أن يؤخذ جثمانه إلى النجف ليدفن هناك.

❁ ❁ ❁

فى طريقنا إلى بيت (الزاير)[١]. اقتراح (صدّام) أن نـــزور العطـــار[٢]. ركبنـــا مشحوف (صدّام) الذى كان (عجرم) يجدف فيه، واتجهنا إلى أقـــرب مجموعـــة مـــن البيوت. كان اثنان منها قد بنيا على جزيرتين منفصلتين، وعلت قطعة قماش بيـــضاء حُملت على قصبة كأنها راية صغيرة، البيت الكبير بينهما.

قال (صدّام):

"عادة ما يُعلّم الدكان بهذه الطريقة لكى يتسنى للغريب رؤيته".

كانت هناك بقرتان بنيّتان فضلا عن ثلاثة خراف تجتر فوق كومة من قصب أخـــضر. قدم العطّار إلى حافة الجزيرة ليحيينا وليمسك بالمشحوف، غاصت عدة بوصات من البردى الذى يقف عنده تحت قدميه فى الماء الكدر الذى تطفو فوقه قطع الروث وفضلات أخرى. وقريبا منه كان هناك مرحاض بُنى فوق الماء، كان عبارة عن منصة من القصب حجبت

---

(١) الزاير: لفتة بن مغامس النصراوى، متوفى منذ زمن طويل.

(٢) العطار: عبد الحسين الأسدى، متوفى منذ زمن طويل.

عن الأنظار بشكل منقوص بقطعة (باريه) ممزقة. كان شيئا فيه رفعة ذوق وحضارياً، فالطريقة العادية التي يتبّعها سكان الأهوار هي أن يجذف أحدهم إلى اقرب أجمة قصب ويقعي على حافة مشحوفه، إنها براعة لا تكتسب بسهولة!

ما أن خطونا على شاطئ الجزيرة حتى هرع ابن العطار لتهدئه كلب بصمت ملوحاً بمجذاف فوق رأسه، بينما فرّت دجاجتان إلى السطح. صنُع باب الدكان من صناديق شاي فارغة لكي أجلس عليه وقال لابنه أن يعدّ الشاي. لم يكن هناك الكثير من البضاعة، كيسان أحدهما للسكر والآخر للطحين، ووعاء تمر كبير، وصندوق شاي هندي رخيص، وصفيحة نفط، وعلب سجائر عراقية و(شخاط)، وقطع صابون مستطيلة وعقال مغبر. تذكرت أني رأيت العطار في مضيف (صدّام)، كانت إحدى عينيه منطفئة وكان كثيراً ما يمسحها بطرف كوفيته.

عبر فتحة الباب لاحظت توجس فتاة تملأ إناءً بالماء، حيث يرسو مشحوفنا وهي تزيح أشياء صلبة طافية وقذارة بعيداً، ولكن كان للشاي الطعم المعهود نفسه! سألت (صدّام) حين كنا بانتظار الشاي:

"ما مؤهلات الرجل ليسمي نفسه (زاير)"؟

فأوضح لي:

"لكي يُسمى الرجل (زاير) عليه أن يزور مرقد الإمام علي الرضا، الإمام الثامن في مشهد في خراسان في الشمال الشرقي لإيران".

لقد كنت في مشهد الشتاء الماضي وقد كنت محظوظاً إذ تسنى لي رؤية المرقد والطواف حول القبر. هذا هو المرقد اعتقد روبرت بايرون[1] أنه واحد من أجمل الأبنية في غيران حين دخله متخفياً عام ١٩٣٣م. وحتى عام ١٩٥٠م كانت عملية

(١) روبرت بايرون: (١٩٠٥م ــ ١٩٤١م) واحد من مشاهير الرحالة البريطانيين في القرن العشرين. صاحب الرحلة الشهيرة إلى بلاد فارس وأفغانستان في ثلاثينيات القرن العشرين التي وثقها في كتابه الشهير (الطريق إلى أوكسيانا، ١٩٣٧م). مات عام ١٩٤١م حين تعرضت السفينة التي كانت تقله إلى الشرق الأوسط لطوربيد.

دخوله غاية فى الصعوبة على غير المسلمين[١]. وفى المسجد نفسه، كان قبر الخليفة المعروف هارون الرشيد الذى يعتبر ملعوناً وممقوتاً من قبل الشيعة بسبب كونه المسؤول عن موت الإمام على الرضا[٢]. وفى عموم جنوب العراق يفضّل غالبية الناس زيارة مشهد علىّ على الذهاب إلى مكة بالرغم من أن المسافة تقريباً واحدة. قابلت خلال سنواتى فى الأهوار الكثير ممن يسمّى (زاير) لكنى أتذكر فقط ثلاثة حجاج.

وعلى الرغم من أن الشيعة يعتبرون النجف وكربلاء أكثر قداسة من مشهد علىّ. لكن السفر إليهما من جنوب العراق لا يمنحهم هذا اللقب. وفى سنوات لاحقة حين كنت فى قلب أفغانستان بين (الهزاريين) [٣] وهم شيعة أيضاً، وجدت أن أى رجل سبق له الذهاب إلى كربلاء يسمى (كربلاوى) فى حين أن التوجّه إلى مشهد لا يجلب تمييزاً أو لقباً.

كان بيت (الزاير) واحداً من عدّة بيوت فصلتها خنادق من مياه قذرة باتساع عدة أقدام. وكان قبل النهاية المفتوحة لهذه الأبيات ثمة فناء احتل مساحة أكبر من مساحة البيت نفسه،وكانت أرضية هذه الأفنية مزيجاً من حياة نباتية متحللة ترتفع بضعة بوصات فوق مستوى الماء مشتملة على سياج قصبى أقل من قدم ارتفاعاً. كانت هناك صفوف من أقراص فضلات الجاموس[٤] تتوزع على جدران البيت من الخارج لكى تجف تحت الشمس. جلست امرأة بثيابها السود مع فتاتين صغيرتين بملابس ملونة تحت أشعة الشمس عند مدخل البيت. رسونا وخطونا عبر السياج ودخلنا البيت دافعين الجاموس المتخطى أمامنا وقد لوى أعناقه بعيداً، فى حين لم تعرنا البقية أى

(١) يبدو أن المؤلف على دراية بالتغيير الذى أصاب هذا المعتقد، فمن المعروف أن بعض المرجعيات المتأخرة قد صرحت بطهارة الكتابىّ وجواز دخوله إلى المراقد المقدسة.

(٢) المسؤول عن قتل الإمام على الرضا كما هو شائع الخليفة العباسى المأمون وليس هارون الرشيد كما أشار المؤلف توهماً. هارون الرشيد هو المسؤول عن قتل الإمام موسى الكاظم.

(٣) الهزاريين: **Hazaras**: من قوميات الشعب الأفغانى يشكلون نسبة ٣% حسب تقدير سنة ١٩٥٣م.

(٤) أقراص فضلات الجاموس: يسمونها (مطّال) مفردها (مطّاله) تستخدم بالدرجة الأولى وقوداً.

اهتمام. وقفت عجوزها فى الداخل بينما فرّ صغار الدجاج من بين أقدامنا. كانت هناك امرأة أخرى تلبس ملابس سوداء كأى امرأة مسنة[١] فى القرية، قالت:

"أهلاً وسهلاً بـــ (صدّام):

ثم رفعت طفلاً صغيراً من على الأرض لتخلق مجالاً لنمُرّ.

كان داخل البيت بطول حوالى ستة أذرع وبعرض ذراعين وبارتفاع ثمانية أقدام وله سبعة (شباب). علمت فيها بعد أن كل المضايف والبيوت لابد أن تبنى، كإجراء تقليــــدى، من عددٍ وترىّ من (الشباب). قُسمت الغرفة إلى قسمين بهيكل يشبه السرير من ســـيقان القصب بنى بإزاء الجدار الأيسر وتكومت فوقه أكياس من الصوف تحوى حبوباً ومجموعـــة من اللحف والحشايا وملابس، وبسط استندت فى أعلاها (المرادى). خصص القسم القريب من الغرفة للنساء حيث تجرى عملية إعداد الطعام. شققنا طريقنا مجتازين هاونـــاً خـــشبياً وممخضة لبن[٢] صنعت من جلد حيوان تدلت تحت ثلاثة قوائم، وحجراً دائريـــاً بقبـــضة خشبية[٣]. كان هناك الكثير من الصحون، الصوانى والقدور مبعثرة هنا وهناك بجانب موقد صغير. وفى النهاية البعيدة للغرفة كان (الزاير) يصلى صلاة الظهر وقـــد افتـــرش عباءتـــه كسجادة. هذا هو الجزء المخصص للرجال حيث يمكن استقبال الضيوف. كان هنا (مَدّتان) باليتان وقذرتان مبسوطتان فوق (بوارى) القصب فصلا عن العديد من المخدات الـــصوفية الزاهية بألوانها وأشكالها الهندسية[٤] وقد ملئت إلى حد التخمة لمزيد من الراحة. تصرّف (صدّام) كأنه المضيّف قائلاً:

---

(١) حين تصل المرأة فى عموم جنوب العراق تقريباً إلى عمر معين تبدأ بلبس السواد حتى مع عدم وجود مناســـبة لذلك وتعد متصابية بخلافه.

(٢) ممخضة اللبن: يسمونها محلياً (سكَه). أما قوائمها الثلاثة المصنوعة من أغصان الأشجار فيسمونها (مرجاحه).

(٣) الحجر الدائرى الثقيل المكون من شقين يعلو أحدهما الآخر يسمونه (رَحَه).

(٤) تقسم المخدات إلى نوعين: الأول ذات السطوح شبه المستوية ولها شكل مستطيل يسمونها (مخدّة)، أما النوع الآخر هو أسطوانى الشكل ويسمونه (لوله).

"استرحْ، تصرف كما لو كنت فى بيتك".

أخيرا أنهى (الزاير) سجداته، جلس مستقيماً ثم راح يتمتم بأواخر صلاته، مسد على لحيته، نظر عبر كتفه الأيمن ثم الأيسر، نهض، رفع عباءته وقال:

"أهلاً، وسهلاً".

لقد كان رجلاً عجوزاً معروقا، طويلاً لكنه محدودب بوجه غضنّه الزهد، ذو أنف أعقب ولحية بيضاء. لم يكن يرتدى شيئا غير كوفية و(دشداشة) بيضاء طويلة، رقيقة حتى بدت كأنها شفافة. رفع مخدة أخرى ووضعها فوق التى بجانبى وقال:

"الآن، أتكئ على هذه، سوف تكون أكثر راحة".

أوقد ناراً فى بَرْدى هش فى فجوة فى الأرض، وحين استعرت أضاف إليها (المطّال) مسنداً إحداهما إلى الأخرى كبيت صينى. امتلأت الغرفة بدخان حاد لاذع ضارب إلى البياض جاعلاً عينيّ تفيضان بالدمع. قال (صدّام):

"هذه القطعة لازالت رطبة".

انتشلها من بين البقية، لكن النار نفثت الدخان نفسه!

جلب (الزاير) عدة الشاى وجلس بجانب النار ليغسل (الاستكانات) والصحون والملاعق فى طاسة مزخرفة. كان الشاى فى قرطاس ورقىّ بينما السكر فى صفيحة صغيرة. بينما كان (الزاير) و (صدّام) يتباحثان فى قضية ضريبة القصب التى فرضها (فالح) لبناء مضيف والده الجديد، عاد ابن (الزاير). أنزل حمولته من الحشيش وبدأ بإطعام بعضا منها إلى الجواميس بينما كوم البقية على مقربة من مدخل الغرفة. يبدو فى العشرين من عمره، حاسر الرأس، قص شعره بطريقة (الطاسه) وقد كان عارياً إلا من عباءة لفها حول وسطه. أسند فالته فى إحدى الزوايا، لبس (دشداشه) قبل أن ينضم إلينا. قال (صدّام):

"سوف أذهب إلى (بو مغيرفات) غداً لرؤية (صحين)[1]. عليه أن يزيد حمل مشحوفين آخرين من قريته".

أوضح (الزاير):

"إيه والله (صدّام) فقد كان القصب للمضيف كله علينا".

وأردف ابنه:

"دائما ما يتنصّل رجال (صحين) عن كل شيء وهكذا هو الأمر مع جميع (الفريجات). كل ما يستطيعونه هو إثارة المشاكل".

وقفت ذلك المساء، حين عدنا إلى مضيف (صدّام) مراقباً الشمس وهي تهبط خلف جزر القصب التي امتدت إلى نهاية العالم. وفي الأعالي تنتفخ كتل من سحاب رقيق ثم تتفرق كأنها بيارق ممزقة تتراوح بين اللون الأبنوسي إلى الذهبي الملتهب إلى لون العاج القديم، مقابل أرضية من اللون القرمزي والبرتقالي والبنفسجي الزاهي والأخضر الأكثر شحوباً. ومن كل ما حولي، كما لو كانت الأهوار تتنفس، يأتي نقيق الضفادع الجماعي كأنه نبض لكل شيء، لذا هو يؤازر الحس بالكف عن التقاطه. كان أوضح من كل صوت، حتى من صوت نواح البط في الشتاء، هذا هو صوت الأهوار. نبح الكلب، وقبعت جاموسة بضجة دهشتها كدهشة البعير، صيحة رجل ينادي من بعيد،

---

(١) صحين بن كاظم بن صنيّع الفريجي، توفي في أحد مستشفيات بغداد في ١٧/ ٦/ ٢٠٠١م. عرف (صحين) بالكرم والشجاعة فضلاً عن رئاسته لبطن من بطون (الفريجات) هم بيت أبو لسان. عرف الرحالة البريطاني غافن يونغ والرحالة غافن ماكسويل، ونشرت له صورة رائعة في كتاب العودة للأهوار بنسخته اللإنكليزية. هزج أحدهم ممن كان يعرف علاقته مع هؤلاء الرحالة في مراسيم تشييعه في بغداد: كلها تنوح عليه حتى امريكا ولندن! وهزج آخر: طاح آفة بالكوشة من أهلج. وهزج آخر: الماو يسولف بيكم وهل الهور شهود عليه.

كان بالنسبة لى رسالة، إجابة لشخص مبهمة، توقف لوهلة ثم إجابة لشخص ما. كثير من الجاموس يسبح عبر المياه المكشوفة باتجاه القرية لا يبدو منه إلا رؤوسه. وبين البيوت راحت أعمدة الدخان الكثيف تتصاعد من مواقد صغيرة توقد لكى تقى قطعان الجاموس من البعوض. صبى يجدف وهو فى طريق عودته المتأخرة من جزر القصب وسط ممر مائى، ممر من ذهب، متوهج بفعل شمس مائلة للغروب. كان يغنى بنعومة وهو يتقدم باتجاهى، مكثتْ النغمات طويلاً فى الأثير. نادانى (صدّام) فدخلت.



الفصل السادس

فى مضيف صدّام

ذاك المضيف... ميسم الأكواخ دار
الكون حوله حكايات حكايات أجلس
مستقيماً يقظاً فى قرقعة هيبته. أنتقى
كلماتى... أو أصمت

فى السنة الأخيرة استطعت قراءة ما أسطتعته عن المعدان. كانت قراءتى مبتسرة. لاح لى أن كتاب (الحاج ريكان) عربى من الأهوار لـ (إس. أى. هيجكوك) [1] هو الكتاب الوحيد الذى أعطى وصفاً متفهماً لحياة رجل الأهوار فى نهاية الحرب العالمية الأولى. ومن ناحية أخرى لم أجد شيئا سوى مراجع من حين لآخر، عنهم، وكانت كلها لا ترضى ولا تسر، على شكل تقارير عن حملة أو إرسالية فى بلاد وادى الرافدين. من المؤكد أن المعدان اسم سيئ للعرب أو للبريطانيين على السواء. تعنى كلمة معدان فى اللغة العربية (الساكن فى عدن **Adan** أو فى السهل **Plain**) ويستخدمها البدو ليعبروا بها عن احتقارهم مشيرين بها إلى العشائر التى تسكن على ضفاف الأنهار، بينما يستخدمها المزارعون على طول الأنهار بشكل مستخف وانتقادى

---

(١) نُشر الكتاب باسم مؤلف مستعار هو (فلانين) **Fulanain** وهى صيغة تثنية عربية لـ (فلان). قام بترجمته كل من الدكتور جميل سعيد، والدكتور إبراهيم شريف فى عام ١٩٦٦م. والمؤلف ضابط سياسى بريطانى فى منطقة العمارة زمن الانتداب، وكان يعرف العربية ويتحدث بها. كان كثير التجوال فى المنطقة، حريصاً على معرفة كل شيء عنها وعن سكانها. صدر الكتاب فى لندن عام ١٩٢٧م.

لرجل الأهوار. إن كل العرب متكبرون متعجرفون، يعظم تباهى أية عشيرة عربية بنقاء سلالتها فيزداد معه احتقار أفرادها لرجال الأهوار بسبب نسبهم المشبوه، ويكثر استعدادهم لان ينسبوا لهم كل غدر وشر. وكذلك الحال بالنسبة لسكان المدن فهم يخافونهم أثناء انتقالهم نزولاً وصعوداً فى دجلة والفرات، ويتحاشونهم ويصدقون كل ما يسمعون عنهم. وحتى بين البريطانيين فى العراق، كانت سمعتهم سيئة، السمعة التى اكتسبوها ــ أظن ذلك ــ فى الحرب العالمية الأولى حين كانوا يخرجون من مخابئهم فى القصب ويقتلون وينهبون من كلا الفريقين (البريطانى والعثمانى) دون تمييز.

وفى السنوات القليلة التى تولى فيها البريطانيون إدارة شؤون العراق، كان الضباط السياسيون مشغولين جداً بقضايا أكثر أهمية من متابعة المعدان، وكان عدة من هؤلاء الضباط السياسيون قد قطع مسافات طويلة غائراً فى الأهوار، لكن زياراتهم لم تكن لتستمر أكثر من بضعة أيام. فى السنوات الحالية قَدِم الكثير من الأوربيين من البصرة وبغداد لاصطياد البط، لكنهم كانوا يبقون برفقة الأثرياء عند حافة الأهوار. أما فيما يخص الموظفين الحكوميين العراقيين فأنا اشعر جازماً أن لا أحد منهم سبق له أن ولج الأهوار ابعد مما تقتضيه الضرورة أبدا. قد أكون أنا الرجل الغريب الوحيد الذى قادته نزعته مع شيء من الصدفة لأن أعيش بين المعدان كواحد منهم.

بوصفي واحداً من كثير من الرجال الإنكليز من أبناء جيلى وتربيتهم، عندى تعاطف غريزى مع حياة الآخرين التقليدية. لقد قضيت طفولتى فى الحبشة التى كانت فى ذلك الوقت بلا سيارات أو طرق، ثم بعد مغادرتى لأكسفورد عشت السنوات الثمانية عشرة التالية فى أجزاء نائية من أفريقيا والشرق الأوسط. كل هذا سهّل علىّ معاشرة أهل العشائر وتكييف نفسى مع أنماطهم، وأن أجد اللذة والمتعة فى حياتهم، كان من الصعب علىّ أن أشعر فى موطنى بهؤلاء الذين ينبذون عنهم طباعهم الخاصة ليحاولوا تكييف أنفسهم مع نمط الحضارة الغربية. فى العراق، كما فى مناطق أخرى،

كان هذا التغيير لابد منه وأنا أعرف أن الآخرين الأوسع صدراً مني قد وجدوا العملية، عملية التغيير، ممتعة وآمنوا بقيمة نتائجها. ومع ذلك فضلت رؤية القليل من إفرازات الحضارة قدر إمكاني! فعلى سبيل المثال، أشعر بالضجر والإحباط حين أقضي ليلتي مع الموظفين العراقيين الحكوميين والتي ألوم نفسي عليها رغم كرم مضيفيّ الواسع وحميميتهم. إن قلقهم منصبّ على شؤون العراق السياسية، التي أعرف عنها القليل وأبذل إزاءها اهتماماً اقل، في حين أن متعتي مع رجال العشائر تظهر لهم عصيّة على الفهم، مبهمة وحتى منذرة بشؤم! فقد نتحدث لساعات عن الأمم المتحدة، عن سحر أجازة في باريس، طراز السيارات المختلفة وتطور بلدانها المصنعة، ولكي لا أبدو عاقاً جداً للأعراف أجدني مجبراً على أن أتمتم بالأكاذيب! كانت بيوتهم المريحة بالمقارنة مع الكثير من الأمكنة التي بتُّ فيها غالباً ما تكون من طابق واحد وبذوق رديء. علّمتهم نشأتهم الحكم على أن التحضر مرهون تماماً بالتقدم المادي، لذا يبدون خجولين من ماضيهم وحريصين على نسيانه. إن ضواحي المدن[1] التي تمتد في طول العراق وعرضه هي المدينة الفاضلة التي يحلمون بها. أما بشأن نزعاتي الشخصية فربما شطّت بي بعيداً إلى الطرف القصي الآخر. أنا أشمئز من السيارات والطائرات، والراديو والتلفزيون، وفي الحقيقة من كل مظاهر حضارتنا في الخمسين سنة الأخيرة، وكنت سعيداً سواء في العراق أو في أي مكان آخر حيث أشارك السكنى في خيمة مليئة بالدخان مع الرعاة وعائلاتهم وماشيتهم. في أسرة كهذه يبدو كل شيء غريباً ومختلفاً، اعتمادهم على أنفسهم يشعرني بالطمأنينة. لقد كنت مفتوناً بإحساسي بالتواصل مع الماضي. أنا أحسد فيهم القناعة والاطمئنان النادرين في العالم هذه الأيام، وأحسد فيهم سيطرتهم على المهارات مهما كانت بسيطة والتي لا أستطيع إحرازها أبدا أنا نفسي.

---

(١) ضواحي المدن: **Suburbia** أو سكان الضواحي، قصد بها المؤلف الأحياء الراقية والقصور الفارهة التي عادة ما تبنى بعيداً عن الأحياء السكنية المحتشدة.

لقد تصرّمت العديد من سنينى فى الاستكشاف، ولم يعد هناك الآن مكان بكر لكى يُسبر غوزه، على الأقل فى البلدان التى اجتذبتنى. لهذا أشعر بميلى للاستقرار بين أناس من اختيارى. كنت قريبا جدا من مرافقىّ فى الجزيرة العربية لكن الترحال المتواصل منعنى من معرفة أى مجتمع واحد بعينه كما كنت آمل. إن القليل الذى رأيته لدى سكان الأهوار قد راقنى. إنهم مبتهجون وحميميون وأعجبتنى سيماء وجوههم وتعبيراتها. كانت طريقتهم فى الحياة، على قدر تأثرها البسيط بالعالم الخارجى حتى الآن، متفردة، والأهوار نفسها جميلة ساحرة. هنا، وشكراً لله على ذلك، لا أثر للحداثة الرتيبة الكئيبة، فلا بدلات أوربية مستعملة تنتشر كآفةٍ بين أرجاء المناطق الأخرى من العراق.

❁ ❁ ❁

كان (صدّام) وحده فى المضيف يعدّ القهوة، وما أن جلست حتى ناولنى فنجانا، ودفع الأطراف المحترقة لحزمة قصب طويلة تحت الدلّة. قال:

"ما خططك يا (صاحب)؟ (تعنى كلمة صاحب بالعربية صديق) أرسل (فالح) لى رسالة يعلمنى فيها أنك تودُّ رؤية الأهوار، هل تعمل لصالح الحكومة"؟

"لا، أنا أتنقل بسبب استمتاعى برؤية مناطق مختلفة وأناس من نوع مختلف".

"مَن يغطى نفقات رحلتك؟ كم هو راتبك"؟

ليس لدى راتب وأنا الذى أتحمل نفقات رحلاتى".

"ما اغرب ذلك"!

لم يقل (صدّام) شيئاً لدقيقة أو اثنتين. يمكن القول أنه لم يصدّق شيئا مما قلت، لذا أردفت:

"لقد شملت رحلاتى الكثير من الأقطار، فقد زرت الحبشة، والسودان، والجزيرة العربية وقد كان قدومى إلى هنا مباشرة من كردستان. أنا أبحث عن المعرفة".

كنت آمل أن يكون كلامى مؤثراً، فمن المؤكد ما كان ليصدقنى لـــو قلـــت أنى أتنقل لأجل اللهو.

"هل تبحث عن المعرفة بين المعدان"؟! سألنى (صدّام) بريبة.

"من الممكن أن نجد المعرفة فى أى مكان" رددت عليه بإيجاز.

وبعد برهة صمت أخرى قال:

"هل تعرف كَرملى؟ لقد كان قنصلاً فى العمارة".

"نعم لقد كنا معاً فى الحرب".

"إنه صديقى، إنه يستمتع بالحفلات، أين هو الآن"؟

"لا أدرى".

"هل تعرف دجبيرن فى بغداد"؟

"لقد قابلته ذات مرة فى سورية".

"هل تعرف أدموندز"؟

"نعم، فى بريطانيا".

"إنه رجل طيب ادموندز هذا، لقد كان صديقنا، كان حكيماً جداً، هـــل هـــو بخير"؟(١).

"نعم، الحمد لله، هو بخير ويسلّم عليكم".

فى ذلك الوقت، كان البريطانيون ما يزالون يمتلكون إرثاً قيّماً فى العراق كنتيجة لرفقتهم الحميمة لهذا البلد بين الحربين العالميتين حين عمل البريطانيون هناك مـــوظفين

---

(١) رغم الجهود التى بذلتها للحصول على معلومات تخص هؤلاء البريطانيين الثلاثة ولكن دون جدوى. كل ما اســـتطعت معرفته عن كَرملى Grimley هذا هو الافتراضى انه رجل حيوى مؤثر وإلا كيف أطلق القرويون اسمه على الكثير من أبنائهم؟ وكل ما استطعت معرفته عن ادموندز Edmonds هو تأليفه لكتاب عنوانه (أكراد وأتراك وعرب) وربما كان هو نفسه المستشار الحاذق والمزمن لوزارة الداخلية العراقية فى العهد الملكى كما وصفه طبيب العائلة الملكية هارى سندرّسن فى مذكراته. أما Ditchburn فلم استطع معرفة شىء عنه.

إداريين وموجهين[1]. كان الكثير من كبار السنّ من السكان يحتفظون بمشاعر الاحترام والحب لبعض البريطانيين المتميزين. كان رجال العشائر بشكل عام دمثين جداً وأكرم من أن يجرحوا ضيفاً، لكنى كنت أُهاجم بمرارة من قبل سكان المدن ومن قبل موظفى الدولة وخاصة فيما يخص موقف الحكومة البريطانية من أحداث فلسطين والسويس على سبيل المثال. فى مثل هذه المناسبات، ويكون ذكر رجل انكليزى، سبق لسكان الأرياف معرفته، قد يقلب المرارة إلى ذكرى صداقة حميمة.

"ما الذى تحويه تلك الصناديق"؟ استمر (صدّام) بأسئلته.

"أدوية".

"أنت طبيب"؟

"لى دراية بالدواء".

"هل عندك دواء لرأسى؟ إنها تؤلمنى".

فتحت صندوقاً وأعطيته حبتين أسبرين.

"أعطنى المزيد، إنها قليلة".

أعطيته ست حبات أخرى وحذرته من ابتلاع أكثر من حبتين فقط فى كل مرّة.

"وماذا عن معدتى؟ أعانى من ألم هنا أيضا".

أعطيته بعضاً من حبوب الصودامنت.

"ما هذا"؟ مشيراً إلى القنينة.

"هذا أيودين".

" وهذا"؟

"وهذا مستحضر للحروق" ثم أغلقت الصندوق بإحكام.

---

(١) قد يكون لهذا الكلام شيء من الصحة على الجانب الشخصى للمؤلف فى أثناء مقابلاته للعديد من العراقيين الذين انتفعوا من احتلال بلادهم من قبل الإنكليز ومن ثم انتدابها تحت إدارتهم، ولكن على المستوى الجماهيرى الشعبى فان الوقائع تدمغه تماماً، وما ثورة ١٩٢٠م العراقية إلا شاهداً من بين العديد من الشواهد على زيف هذا الادعاء.

سألني:

"إلى أين ترغب الذهاب"؟

"أرغب في عبور الأهوار إلى الفرات والعودة خلال ديار (الفرطوس) (١) التي سافرت إليها العام الماضي مع القنصل".

"هل قابلت جاسم الفارس"(٢)

"لا لم يكن هناك حين زرنا قريته، لقد ضيّفنا ابنه (فالح) (٣)"

"لا أعرفه. ابق هنا فهو أفضل لك، سوف نذهب للصيد سويا، بط، وخنازير، وأي شيء ترغب به".

"أشكرك يا (صدّام)، من المؤكد أني سأعود، ولكن أول ما أرغب به هو رؤية الأهوار".

"إن الأهوار واسعة يا (صاحب) فهي تمتد وراء دجلة بعيداً حتى إيران سوف لن نستطيع رؤيتها في سنة".

"مع ذلك، آمل رؤية ما أستطيع الآن".

"حسناً، سوف نذهب غداً إلى (بومغيرفات) فلدي ما يجب أن أفعله هناك. سوف نتغدى عند (صحين) وفي اليوم التالي سوف آخذك إلى الفرات في الطريق إلى (زجري)، إنها بحيرة كبيرة وتصبح مكاناً سيئاً حين تشتد الريح، فقد غرق الكثير من المعدان هناك".

على مائدة العشاء الذي تناولناه وحدنا، قدّم لي (صدّام) طاسة من حليب الجاموس لم يسبق لي أن شربته من قبل فألفيتني أفضله على حليب الأبقار. امتلأ المضيف بعد ذلك بالناس فجلست مستنداً إلى جدار المضيف مصغياً إلى أحاديثهم التي

---

(١) الفرطوس: إحدى عشائر آل غزي الفضلية الطائية، نزحت من الجزيرة العربية وسكنت مناطق الناصرية. كانت هجرتها أيام مشيخة غزي بن فضل الطائي. وعلى أثر مقتل شيخ الفرطوس المدعو جليب فقد تفرقت العشيرة كل مجموعة إلى منطقة كبصرة وميسان والقادسية.

(٢) جاسم بن فارس بن خلف، أحد زعماء الفرطوس المرموقين، توفي سنة ١٩٧٨م تقريباً في العويدية.

(٣) فالح بن جاسم بن فارس بن خلف، توفي سنة ١٩٨١.

فاتنى الكثير منها لأنهم كانوا يتباحثون فيما يخص فلاحة الشلب مستخدمين عبارات ومصطلحات لم أكن أعرفها حينئذ.

سألت:

"هل تزرغون الشلب فى (الكباب) "؟

"كنا نفعل ذلك من قبل، لكن الفيضانات لم تعد تحمل إلينا الغرين. لم تعد (الكَباب) تزرع الشلب، فأنت لا تستطيع زراعة الشلب بدون الغرين المتجدد. سنطلب هذه السنة من (مجيد) أن يمنحنا أرضا نفلحها بالشلب فى صدور النهر[1]".

"هل يعنى هذا أنكم ستتركون مكانكم هذا"؟

"بالطبع لا، فهنا موطننا ونحن معدان، أما الذين يرغبون فسيزرعون الشلب على ضفاف الأهوار لكنهم سيعودون جميعاً إلى هنا".

بدأ رجلان حواراً غاضباً حول مهر لعروس ما زال غير محسوم وتوزع الحوار ليشمل كل واحد منهم. حاول (أبو عجرم) [2] أن يؤكد العرف المتفق عليه فى ذلك فالتفت إليه (صدّام) قائلاً:

"حسين، غداً سوف يأتى أنا والإنكليزى لكى نتغذى معك، سنأمل غداءً فاخراً"!

خيم الصمت وراقب كل واحد من الجالسين (حسين) الذى تململ فى جلسته وقال بجرس غير مقنع:

"أهلاً وسهلاً". ثم أردف بسرعة:

"ولبن أمك يا (صدّام) علىّ غداً الذهاب إلى المجر"!

ابتسم عدد من الجالسين مدركين ما يعانيه (حسين) من تعذيب. لقد علمت فيما بعد أنه مشهور بالبخل.

---

(١) النهر المقصود هو نهر الكارون الذى يتفرّع من نهر أم العبيد ويتلاشى فى منطقة الكباب، وهو غير نهر الكارون الذى يجرى فى الأراضى الإيرانية كما لا يخفى.

(٢) حسين بن حيدر بن سلامة الفريجى الملقب (أبو سوف)، توفى حوالى سنة ١٩٩٠م فى ميسان. عُرف بنهمه الشاذ فى الأكل وبقوته الجسدية الخارقة.

"اجعلْ ذهابك إلى المجر بعد غد، أما غداً فسوف يتشرف الانكليزى بزيارة بيتك".

"أنا الذى أتشرف به" رد (حسين) بضيق. فأردف (صدّام):

"إذاً، عند الظهيرة. لحم و (روبه) وأرز"!

احتكم (حسين) إلى الآخرين:

"أنتم جميعاً تعرفون أنه يجب عليّ الذهاب غداً إلى المجر فلديّ موعد مع ابن عم زوجتى".

"الرجل الذى مات العام الماضى"؟

"لا، الصدق، (صدّام) اقسم بحياتك، (بالعباس) يا (صدّام)".

"والله يا (حسين) إن اليوم الذى تضيّف فيه ضيفا سوف يكون يوماً مشهوداً لا يمحى من الذاكرة. أنت مصيبة". انتابنى أسف على ابنه (عجرم).

وأخيراً عندما غادر الضيوف قام (صدّام) بوصف على (عجرم) وشاب آخر القيام به وأن يقضيا ليلتهما فى المضيف.

"ضعا حاجيات الإنكليزى بينكما والفانوس فوقها. لابد أن يبقى أحدكما يقظاً، وإن سُرق أى شىء فلن أتردد عن قتلكما. سوف آخذ بنادقه معى لمزيد من الحفظ". ثم قال لى:

"سوف تكون على ما يرام هنا، لكن المعدان (لصوص) فقد سرق بعضهم مشحوفى الأسبوع الماضى، الله يشعلهم، فلم أعثر عليه حتى الآن، وقبل شهر اقتحموا دكان العطار وكنسوه كنساً. عندما تكون فى الأهوار نمْ فوق بندقيتك وإلا سُرقت منك. طبعا ليس من قبل مضيفك، لا، وإنما من قبل آخرين، وربما من قرية أخرى. فقبل عدة سنين جاء (الوصى) نفسه إلى المجر وكان كل الشيوخ هناك من أتباعهم[1]،

---

(١) أتباع الشيوخ: يُسمون (حوشيّه) و (رشاكَه) وحين استعلمت إن كان ثمة فارق بين المفردتين، لم يؤكد أحد بينهما. و (الحوشيّه) أو (الرشاكَه)، على أية حال، مقسمون إلى عدة طبقات تبعا لقربهم فى النسب إلى الشيخ أو لنوع الخدمات التى يؤدونها له أو لمقاطعاته. فمنهم (المأمور) و (السركال) و(الملّه) باستثناء فئة العبيد الذين قد يحتلون مواقع مرموقة ويؤدون مهاماً خطيرة إلا أنهم ليسوا (حوشيّة) أو (رشاكَه).

كان حشداً كبيراً وكان أحد أتباع (مجيد الخليفه) يحمل بندقية (برنو) جديدة، وقد دفع (مجيد) أكثر من مائة دينار ثمناً لها. كان الرجل فخوراً جداً بها وحرص على أن يراهـــا الجميع. طلب أحد المعدان أن يلقى عليها نظرة فأعطاها له فاندّس هذا حالاً فى الحشد ولم يره أحد بعد ذلك لا هو ولا البندقية، فاهتاج (مجيد) لذلك".

جلب الخادم لى مضيف (صدّام) فرش النوم ولحافاً، فقال له:

"ضعها هنا، لا، هناك، أنت أحمق، اجلبْ المخدات".

فقلت أن لدىّ بطانياتى الخاصة.

"سوف لن تحتاجها هنا، فهذا بيتك".

رتب المخدات وتمنى لى ليلة سعيدة، ثم حذّر (عجرم):

"إذا نمت فسوف أسلخ جلدك".

كان من الواضح أنه يستطيع تنفيذ وعيده.

غادرت خارج المضيف قبل الخلود للنوم، كانت الليلة شديدة العتمة بلا قمـــر. صاح (عجرم):

"احترسْ من الكلب".

لمعت النجوم كأنها الماس المتلألئ وانعكست على الماء عند قدمىّ. كـــان الهـــواء جامحاً وفيه لمسة متأخرة من الشتاء وكان ضوء الفوانيس المنبعث من بعـــض البيـــوت يتذبذب عبر مداخل الأبواب. خرج البط[١] من الماء من مكان قريب وهو ينفض الماء العالق بريشه، واجتذبنى مرة أخرى الإيقاع فى نقيق الضفادع.



(١) أغلب الظن انه بط داجن من النوع الذى تربيه بعض العائلات.

الفصل السابع

بومغيرفات: قرية الهور

غَضٌّ قلبى ملونٌ وهش مثل (كَعيبة) الربيع
وما زال يغنى مردداً صدى الامتداد

عندما استيقظت لم تكن الشمس قد أشرقت بعد. كان (عجرم) قد أوقد ناراً من (المطّال) فدارت دوّامات الدخان فى المضيف.

"صباح الخير (صاحب)، هل نمت جيداً"؟

"صباح الخير (عجرم)، نعم، نمت جيدا، جيداً جداً فى الحقيقة، وأنت"؟

"لم يغمض لى جفن فقد كنت أحرس أشياءك".

طوى أفرشة النوم ثم أخذ وعاءً وبدأ يصب ماءً فاتراً على راحتىّ المضمومتين إلى بعضهما فغسلت وجهى وتمضمضت. ناداه (صدّام) أن يذهب لحلب الجاموس فذهبت لمراقبته. تكاثف الدخان المنبعث من العديد من المواقد فى عموم القرية على هيئة غمامة حامت فوقها. كان ماء (البركَه) كالزجاج فى شفافيته وكان اللون خافتا فى كل مكان والنسيم بارداً باعتدال ورطب. كان دلو الحليب، المعدّ من قطعة خشب، مستدقاً جداً من أسفله حتى انتهى بنقطة بحيث لا يمكن أن يقف مستقيماً. ناول الخادم الدلو إلى (عجرم) الذى قرفص بإزاء خاصرة الجاموسة مسنداً الدلو بين ركبتيه. كانت هناك أربع جاموسات وعجل. تساءلت لم استدعى (صدّام) (عجرم) بدلاً من أن يكلف الخادم بهذه المهمة؟ فلم أكن قد أدركت بعد أن البعض فقط يعرف كيف يحلب الجاموسة. كان من الغريب حقاً وجود مثل هذا النقص بين قوم تتركز كل حياتهم

حول جواميسهم... تمتلك بعض العائلات فى (الكباب) عدداً كبيراً من الجاموس يصل إلى خمس عشرة جاموسة، لكن الرقم المعتاد يتراوح بين الست والثمانى، وكان هناك على أقل تقدير جاموسة واحدة أمام كل بيت.

لم يدهشني امتناع النساء عن حلب الجاموس، فكذا الأمر بين البدو، لا يسمح للمرأة أن تحلب الإبل. وبالمقابل، فبين العشائر الرعوية خارج الأهوار وكذلك بين الأكراد لا يقدم الرجال على حلب الغنم والماعز وإنما تناط هذه المهمة بالمرأة. لن تجد رجلاً يهرس[١] أو يطحن الحبوب أو يبسط فضلات الجاموس على شكل أقراص، تستطيع أن تعثر عليه وهو يطبخ، أو يجلب الماء فى حال انعدام وجود المرأة. تجد مثل هذه التحريمات شائعة بين الأقوام البدائيين. لقد فقدت إرسالية كاثوليكية فى مقاطعة (شيلوّك) [٢] فى جنوب السودان معظم أنصارها حين تجاهل القساوسة هناك احتجاج الأطفال من أن النساء فقط يمكن لهن أن يطلين البيت من الداخل بطبقة طينية!

حين أتمّ (عجرم) عمله، تناولنا إفطارنا من خبز (السيّاح) وحليب الجاموس الساخن والمحلّى بالسكر. أرسله (صدّام) بعدها لجلب مشحوف مع ثلاثة رجال لنذهب إلى (بو مغيرفات). يمتلك (صدّام) هنا فى (الكباب) سلطة طاغية فهو أما مغرمّاً أو جالداً سكان القرية حسب مشيئته وفارضاً الضرائب على البضائع المارّة خلال قريته[٣]، فلا غرو فى ذلك مادام وكيلاً (لمجيد الخليفة) بعد أن اقتنعت الحكومة بترك السلطة بيد الشيوخ.

---

(١) يهرس الأرز: أى يزيل قشوره الصلبة الخارجية التى تسمى محلياً (سبوس) والقشرة الداخلية الرقيقة التى يسمونها (سحاله)، والفعل لهذه العملية هو (يهبّش) أو (همّبش) وهو الأصح، لأن الرجل لا يقوم بهذه العملية مطلقا كما يشير المؤلف.

(٢) شيلوك Shilluk: اسم لقوم سميت المقاطعة باسمهم يعيشون بصورة رئيسية على الجانب الغربى من النيل الأبيض فى السودان.

(٣) البضائع المقصودة هنا لا تعدو أن تكون (البوارى) والتمر الذاهب إلى البصرة وبعض السلع البسطية القادمة منها مما يحتاجه الناس فى الأهوار.

إن (مجيد) هو أحد شيخين رئيسيين من شيوخ (البو محمد)، العشيرة الراسخة التي يقدر عددها بمائة وعشرين ألفاً والساكنة على المجرى الرئيس لدجلة والعديد من فروعها التي تصب فى الأهوار ابتداءً من العمارة نزولاً إلى الجنوب قرب (العزير) [1]. والشيخ المهم الآخر هو (محمد العريبى) [2] الذى تمتد مقاطعاته إلى الشرق من دجلة. كان قوام الحياة لهذه العشائر أيام العهد العثمانى يعتمد على محصول الأرز الذى يزرع فى أراض تغمرها المياه فى الفيضانات الربيعية. وفى عهد لاحق وبالاستعانة بالمضخات الميكانيكية فإن العديد منهم بدأوا يزرعون محاصيل شتوية من الحنطة والشعير. وعلى الرغم من أن كل عائلة تقريبا تحتفظ ببضعة جاموسات فان أفراد هذه العشيرة، ما عدا بعض البطون التى تسكن الأهوار، يعتقدون أنهم فلاحون وليسوا معداناً، فقد كان يسكن (الكباب) نفسها عائلتان أو ثلاث من (البو محمد)، فى حين كان الغالبية فيها ينتمون إلى عشيرة (الفريجات)، (الشغانبه) أو (الفرطوس). تعتقد هذه العشائر الثلاث

---

(١) العزيز: اسم لناحية تقع فى منتصف الطريق بين القرنة وقلعة صالح، تضم مرقد النبى عزرا الذى لا يحظى بتقدير اليهود فقط وإنما المسلمين أيضاً.

(٢) الشيخ محمد بن وادى بن منشد ولد سنة ١٨٧٢م تسلم زعامة البو محمد خلفا لأبيه الشيخ عريبى باشا صار عضوا فى البرلمان العراقى لدورات عدة، بل هو المخضرم فيه. تزوج العديد من النساء وأنجب الكثير وكما يأتى:

أ ـــ فَتَر بنت يسر بن فيصل الفيصلاوى فأنجبت كل من جاسم، صدام، يسر، فيصل.

ب ـــ سعده بنت موسى أبو تريكات الساعدى فأنجبت كل من شياع، مشتت، عبد الصاحب، جليل. الأحياء من هؤلاء مشتت وعبد الصاحب ويسكنان البصرة حالياً.

ج ـــ فتنه بنت خليفه فأنجبت كل من عباس، عريبى، سعد، عبد الله. الأحياء كل من عريبى وسعد يسكنان مدينة العمارة حالياً.

د ـــ عنيدة بنت غاجى من بيت غضب الحمداوى فأنجبت حطّاب فقط.

هـ ـــ موحه بنت فالح الصهيود فأنجبت خيون، وخليفة.

كان الشيخ محمد على جانب كبير من الأهمية سواء كان بين عشائر البو محمد التى يتزعمها أو غيرها. وحين توفى فى ٢٣/ ٣/ ١٩٧١م أقيمت له مراسيم العزاء فى ثلاث محافظات هى: بغداد، والبصرة، وميسان. (عرب الهور)

والبعض من (البو محمد) الذين يسكنون الأهوار أنهم معدان على الرغم من حقيقة أن الكثير منهم هم مزارعى شلب.

امتدت حقوق الشيوخ فى لواء العمارة الذين تتاخم أراضيهم الأهوار إلى داخل الأهوار شاملة القرى هناك على الرغم من أن سكان هذه القرى ينتمون إلى عشائر أخرى[1]. فهم يأخذون حصة من محصول الأرز، وعندما يكون هناك أحد ـ وفى الحقيقة لا يسمح لأحد بذلك ما لم يدفع مقابل هذا الحق ـ مُعيّن من قبل الشيوخ فهو يجبر السكان على بيع السمك له فقط، لهذا الشخص المخول بشرائه من قبل الشيوخ. إنهم يصادرون القصب الجاف لبناء مضايفهم وبيوتهم وفى بعض الحالات يفرضون جبايات على الجاموس، ويتمادى وكلاؤهم طبعاً بفرض ضرائب إضافية لمنفعتهم الشخصية. يتذمر أهل القرى من هذا العُرف ولكنهم يقبلونه.

بالمقابل يتولى الشيوخ ووكلاؤهم حفظ الأمن ويحقون الحق بين القبائل كما يفهمونه. إن ما يرعب سكان الأهوار هو أن يجدوا أنفسهم مطلوبين لمحاكم حيث يتطلب منهم ذلك أجوراً ثقيلة للمحامين ورشاوى، وعليهم البقاء بعيدا عن ديارهم قدر استمرار نظر القضية. وفى حال إدانتهم فهم ربما يسجنون فى المدن البعيدة، بعيداً عن أحبتهم. إنها فكرة مرعبة لهم ما دام أكثرهم لم يسبق له الابتعاد عن ملاذه فى الأهوار أكثر من بضعة أميال. ربما فرض الشيوخ عليهم غرامات، ربما جلدوهم وحتى حبسوهم لمدة فى القرية، لكن هذه الإجراءات تتم فى المضايف المحاطة بكل ما هو مألوف لهم وبحضور أهليهم وأفراد عشائرهم. البعض منهم يعاقب بجريرة، فى الحقيقة، لا يستحقها.

---

(١) يؤكد هذا الإجراء حقيقة أن نظام المشيخة هو نظام اقتصادى قبل أن يكون نظاماً عشائرياً وإحساساً بالانتماء.

إن (صدّام) هو ابن عم لـــ (مجيد) وعادة ما يمنح الشيخ مثل هذه المناصب لواحد من أخلص أتباعه أوعبيده. وكل العبيد فى العراق هم أحرار من الناحية القانونية ولكن رجال العشائر مازالوا يعتبرون الرجل عبداً ما دام أجداده من العبيد. هذا لا يعنى أنهم يسيئون معاملتهم أو يحتقرونهم. إن العديد من العبيد منطوون ضمن أتبـــاع الـــشيخ وللبعض منهم سلطة عظيمة وجاه وغالباً ما كنت أسمع ذكرهم بشىء مـــن الحـــسد. والبعض منهم يعدّون أخوة بالتبنى للشيخ أو لأبنائه. إن الكثير منهم، وهو يحمل دمـــاً عربيا، غالباً ما يصعب تمييزه من رجال العشائر المحليين فى اللون والمظهـــر الخـــارجى. وعلى الرغم من شيوع زواج العربى من امرأة زنجية[١]، غير أن العبد لا يمكنـــه لمـــس الحرة إطلاقاً، وللثأر لهذه الإهانة فان ذويها سيفتشون عنه ويقتلونه حتى لو تزوجهـــا شرعاً.

لقد أدركت أن (صدّام) بغيض إلى أبعد الحدود، فهو مستبد ومتغطرس ويـــصبح مزاجه منفلتاً لا يمكن ضبطه حين يُستثار، وقد اشتكى القرويون استغلاله لموقعـــه إلى أقصى الدرجات ليثرى، لكن أيّا منهم كان يفعل الشىء نفسه لو أصـــبح فى موقعـــه. لكنهم يعترفون بكرمه ويعجبون بقوة شخصيته، وهو مسلٍ وله حس فكاهة ربما كان مفرطاً. فذات مرة هزأ بجيرانه حين أجبر رجال مشحوفه على الغنـــاء لمقطـــع ســـهل التذكر وهم يجتازون القرية التى شيّعت منذ عهد قريب جداً أخـــاً لرجـــل لا يطيقـــه (صدّام) والتى كان النواح والعويل يرتفعان فى أوجهما منها، فصدح رجال المسحوف و(صدّام) وسطهم: "يحرق الله أخاك، الذى مات البارحة، أنت ابن كلب"[٢].

(١) يسموّن المرأة الزنجية وصيفه أو دعيّه.

(٢) أغنية صدّام: إنها أغنية مرتجلة، (كيّف) فيها صدّام مجموعة كلمات وطوّعها مع لحن شائع، هذا هو التفـــسير، ربما كان الوحيد الذى يبرر عدم تذكر أحد لها من الذين عاصروه. هذا بالإضافة إلى أن ترديدها يُعد مشاركة فى التجنى على هذا الميت وأفراد أسرته، لذا امحّت آثارها من الذاكرة.

وفى النهاية فشل فى تحقيق غايته بسبب تماديه، فقد مرّ مركب شراعى محمّل بالتمر خلال (الكَباب) فى طريقه من القرنة إلى العمارة. خرج (صدّام) من مضيفه وأمر، على نحو حاسم، مالك المركب بالتوقف وإعطائه ثلاث عبوات[1]، قبل أن يواصل سيره. فأجاب الرجل إنه سيكون من دواعى سروره أن يعطيه ما يشاء كهدية ولكنه سوف يُذم لو أنه أعطاها رغما عنه، اندفع (صدّام) إلى داخل مضيفه وجلب بندقية وأطلق فوق رأس الرجل بقليل. اشتكى الرجل (لمجيد) الذى بادر إلى عزله مَخزيّاً فى اليوم التالى. لقد قابلته عدة مرات بعد ذلك، كان فى فقر مدقع ولكنه لا زال حسن الوفادة ومرحباً كما كان فى (الكباب).

تبعد (بو مغيرفات) حوالى ميلين عن (الكباب)، لقد انطلقنا إلى هناك من مضيف (صدّام) عبر ممر مائى يجرى كأنه واحد من الطرق السريعة **highway** بين القريتين. سألت (صدّام) إن كانت هذه الممرات عبر جزر القصب طبيعية أم تعمّد الإنسان فى صنعها، فأوضح أن المعدان يسوقون جاموسهم عبر القصب حين ينخفض مستوى الماء مكوّنين بذلك ممراً يبقى مكشوفا فيما بعد من خلال رواح ومجىء المشاحيف. جئنا على حوالى اثنتى عشرة جاموسة مغمورة وسط الممر المائى فنغزها الرجل الذى تولى التجذيف فى المقدمة بالمردى لزحزحتها لكنها لم تبد سوى قليل اهتمام حتى عندما سحج المشحوف مؤخراها. سألت:

"هل تصل أقدام الجاموس إلى قاع الماء فى كل مكان هنا"؟

"ليس فى كل مكان، لكنها يجب أن تقف على قوائمها فى الماء لتأكل، بالإضافة إلى ذلك إن الجاموس يجب أن يكون فى الماء، كذلك القطيع الذى اجتزناه تواً. أحياناً، حين تكون مناسيب المياه عالية جداً، يضطر الجاموس إلى البقاء فى منصاته أمام البيوت

---

(١) عبوة تمر: هى وعاء من خوص النخيل يُصنع خصيصاً لحفظ التمر يسمونه (حَلالين) مفردها (حَلاّنه). تسمى هكذا مادام فيها تمر، أما إن كانت فارغة فهى (خَصّافه) جمعها (خصاف).

لكن الذباب يقلقه ويفقده راحته. وإذا لم يستطع الجاموس إن يرعى يصبح أمر جمع العلف الكافى له شاقاً على أهله، فتبدو حياة المعدان كما لو أنها مقتصرة على قطع (العنكَر) طوال اليوم حتى المساء وجلبه إلى الجاموس".

علمت أن الجاموس حين يرعى، فإنه يأكل (الكَاط) و(الكولان) و(لسان الثور) بالإضافة إلى (السجل)، وهو نوع من الأعشاب، وأنواع أخرى مختلفة من الحشائش التى تنمو فى المياه الضحلة على طول القنوات المائية.

كان عدد البيوت فى (بو مغيرفات) ثمانية عشر تحلّقت حول بعضها على امتداد جزر القصب المحتشدة أمامها. رسونا عند أكبر ضفة وكانت سوداء زلقة وقد اعترش فيها النبات المتسلق[1] وولجنا عبر شق ضيّق إلى داخل البيت. ثمة رجال موجودون فى الداخل، اضطربوا وهم يفسحون المجال لبعضهم فى فرش البسط وتوزيع المخدات.

"أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً (صدّام) أهلاً وسهلاً (صاحب)".

قال ذلك مضيفنا (صُحين) والذى يعنى مصغّر صحن. تجمّع الكل للمصافحة. وككل المعدان كانت (دشاديشهم) إما بيضاء أو داكنة باستثناء الأطفال فبإمكانهم لبس (دشاديش) ملونة مرحة. كان داخل البيت مشابها لذاك الذى كنت فيه بالأمس باستثناء فارق واحد مهم والذى يحمل دلالة أوضحها لى (صدّام). كان المدخل فى الجدار الذى يواجه جهة الشمال إشارة أن البيت هو (رَبْعَه)، وهذا يعنى ضم وتوحيد للجزء المخصص للسكن الخاص مع مأوى الضيف تحت سقف واحد. بإمكان الغريب الحلول فى أى مكان بين المعدان كما هو الحال مع العشائر الأخرى ويتناول طعامه متى ما حلّ أو أن يقضى ليلته ولا يمكن أن يُرفض مطلقاً. وفى حالة وجود مضيف فان المتوقع أن يذهب الغريب إليه إلا فى حالة وجود أصدقاء له فى القرية. وفى حال خلو القرية من مضيف فالمتوقع أن يذهب إلى (الرَبْعَه). بإمكان أى شخص أن يحّول بيته إلى

(١) النبات المتسلق: يسمونه (حلبلاب).

ربعه أو بناء مضيف، ولكن عليه أولاً تحقيق المنـــزلة التي تؤهله لذلك. حكوا لي فيما بعد عن شاب جمع ثروة في البصرة وحين عاد إلى قريته الواقعة على الأرض اليابسة ابتنى لنفسه مضيفاً. يُعَد ذلك عملاً جريئاً متواقحاً، فحين مات ابنه ثم تلته زوجته في السنة نفسها لم يفاجأ أحد من القرويين، وعلقوا على ذلك قائلين: "لم يكن والده صاحب مضيف ولا حتى (ربَعْة)، فإذا كان لابد من بناء مضيف فعليه الذهاب إلى (السيّد) ليبارك مثل تلك المغامرة. إما أن يفعل ذلك وإلاّ فالنحس سيكون محتوماً".

ذُكرت الضيافة العربية فحكى (صحين) حكاية جاء فيها: إنه قبل بضعة سنين، زار ثلاثة معدان من (الكبور)، وهي قرية قريبة من (بو مغيرفات)، البصرة. كانوا رجالاً في مقتبل العمر ولم يسبق لأحد منهم أن غادر الأهوار من قبل. كانوا يسيرون في الشارع الرئيسي في المدينة مرتبكين حائرين بل وحتى مرعوبين فهم لا يعرفون أحداً فيها، وكانوا جائعين جداً ويبحثون عن مضيف! فجأة خرج رجل مرح ذو بطن كبيرة إلى الشارع وصاح:

"أهلاً وسهلاً، ألف مرحباً، تعالوا من هنا".

قادهم الرجل إلى غرفة كبيرة حيث جلس عدد كبير من الناس على كراس يأكلون على موائد صغيرة.

"استريحوا. ماذا تشتهون؟ مرق، خضار، سمك، لحم، حلوى؟ هل تشربون (الشربت)؟ فقط قولوا وسأجلب لكم ما تأمرون. أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً".

اعتقد الشبان الثلاثة أن هذه طريقة غريبة في السلوك، فمن سمع عن مضيّف يسأل ضيوفه ماذا يأكلون؟ ولكنه على أية حال رجل طيب ومن الواضح أن هذه طريقة (الحضر) [١] في الكرم. قالوا:

"إننا نرغب في كل ما عرضت".

---

(١) يطلق أهل الأهوار والأرياف بشكل عام كلمة (حِضرى) جمعها (حَضَرْ)، على ساكن المدينة الذى لا يعرف طباع وعادات أبناء العشائر.

"جيد، جيد، مرق، سمك، خضروات، دجاج، هل هذا كافٍ؟ وبالطبع هناك حلوى وشربت، لحظة واحدة من فضلكم".

التفت أحدهم إلى الآخر وقال:

"والله، إن هؤلاء (الحضر) ناس طيبون، فأين يمكن أن تجد ضيافة كهذه فى الأهوار؟ ماذا عن أهلنا حين حذّرونا من أهل المدينة بأنهم قوم سيئون"؟

جاء (مضيّفهم) يحمل العديد من الصحون المليئة بالطعام والتى غطت المائدة، وجلب لهم ماءً ليغسلوا أيديهم ولكنهم رفضوا أن يصبّ لهم على أيديهم بنفسه.

"الآن، هيا، كلوا، خذوا راحتكم".

فأكلوا وأكلوا كأنهم لم يذوقوا طعاماً كهذا أبداً.

"دعونى أجلب لكم المزيد من المرق، دعونى أجلب لكم دجاجة أخرى".

"شكراً، شكراً، ما أروع هذا الرجل"! صرحّوا بذلك وهو يجلب لهم المزيد من الطعام. وأخيراً أكدوّا له أنهم اكتفوا. وبعد أن غسلوا أيديهم جلب لهم شايا وقهوة ثم نهضوا للانصراف قائلين:

"جزاك الله خيراً".

"قف، لحظة، فى الحقيقة جزاكم الله انتم خيراً، أين نقودى؟ ديناران، هذا ما تدينون لى به"!

"ماذا تعنى؟ تطلب منا مالاً؟ هذا مضيفك، ونحن كنا ماشين وأنت الذى دعوتنا للدخول".

"كلاب، أعطونى مالى، معدان كلاب، لصوص، انتظروا حتى استدعى الشرطة".

أجبروا فى نهاية المطاف على دفع دينار ونصف بالقوة. لم يتبق لهم ما تستقلّهم به حافلة، فلم يجدوا بداً أن يمشوا حتى القرنة. قال أحد المستمعين لـ (صحين): "نحن معدان، ما الذى نعرفه عن المدينة"؟

قال (صحين):

"حدث أن كنت فى البصرة ذات مرّة، الناس فى كل مكان، والسيارات، والآلاف منها الواحدة تلو الأخرى. هل صحيح أن لا مضايف هناك، فأين يذهب الغريب؟ عليك أن تدفع مقابل كل شيء كما هو الحال فى مقاهى المجر".

دارت أقداح الشاى وحضر عدة رجال آخرون من القرية مزاحمين فى الجانب الذى كنا نجلس فيه من (الربَعْة). وفى الجانب الآخر منها كان النسوة يطبخن الغداء. أخبر (صدّام) (صحين) أن (بو مغيرفات) يجب أن تساهم بحمل مركبين من القصب لغرض بناء مضيف (مجيد) الجديد، فبدأت الاحتجاجات على الفور واحتدت المناقشات فى تعيين من يقع عليه عبء هذين الحملين. كان حشداً أشعث وفظاً وكان الأطفال فيه صاخبين كمسنيهم. أما (صدّام) الذى كان يداعب خرزات مسبحته الكهرمان فقد أضاف بهدوء:

"أريد هذه الكمية غدا".

كان هذا من شأنه أن يستثير فورة غضب جديدة قوطعت بوصول الغداء المكوّن من أرز مسلوق ودجاجتين.

(بو مغيرفات) قرية (للفريجات) و(صحين) كان (الكَليط) [١] أو الزعيم لهذا البطن من عشيرة (الفريجات) الذى يسكن هنا، وهو موقع وراثى مهم. كان فى نحو الأربعين من عمره ويمكن تمييزه من خلال إحساسه بسلطته. كان اصغر من كثير آخرين، ولكنه متين البنية وكان الرجل الوحيد الذى لم يُستثر خلال مناقشات ما قبل الغداء. كان ذا لحية صغيرة مقصوصة عند نهاية حنكه وله شارب تقليدى قصير. جلب (حافظ) [٢] أخاه الأصغر، الذى كان بعمر حوالى الثمانية عشر عاماً، الطعام من شابين آخرين.

---

(١) الكَليط qalit، هكذا وردت فى النص فضلا عن العديد من الكلمات التى آثر المؤلف كتابتها كما يسمعها. وهى تعنى رئيس فخذ وأقل رتبة من رئيس العشيرة العام. و(كليط) لغة تعنى المتربع أو الجالس على الفراش.

(٢) حافظ بن كاظم بن صنيّع الفريجى، من أصدقاء الرحالة الإنكليزى غافن يونغ، توفى فى ١٩٦٦م عن عمر ناهز ٣٥ عاماً فى نوبة مرض مفاجئة.

قبل عام فى أثناء حراسة ليلية لمحصول الشلب، سمع (حافظ) ما اعتقده خنزيراً فأطلق النار وذهب ليستطلع الأمر فوجد جثة لامرأة أصيبت فى رأسها. كانت المرأة (فريجية) أيضاً من قرية قريبة[١]. وافق أهل المرأة المقتولة أخيراً على قبول الديّة والتى قدرت وحسمت بالنساء. إن الديّة بين (الفريجات) تقدر بست من النساء[٢] تتصدرهن واحدة للزفاف تعرف بـ (الفجريّة) وعادة ما تكون عذراء فى عمر يؤهلها للزواج بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة. أما الخمس الأخريات فكل واحدة منهن تسمى (تلويّه) (مجموعهن تلاوى). يجب أن تكون (الفجريّة) من عائلة القاتل أو ـ فى حالة عدم وجود أخت أو ابنه له ـ من أقرب الناس إليه. وتزوّج دائماً إلى واحد من إخوة الضحية أو أبناء عمّه. للعائلة المفجوعة حق اختيار عدد (التلاوى) الذى يطلبونه أو ربما قبلوا المال بدلهن. ويحدد المبلغ بحوالى خمسين ديناراً لكل واحدة لأول (تلويتين)، ومبلغ عشرين ديناراً لكل واحدة من الثلاث الأخريات. ينحصر المال والنساء المدفوع لأهل الضحية فى الفخذ الذى ينتمى إليه القاتل. وحين أبديت استغرابى من أن ست نساء ثمن غير متكافئ مع حياة واحدة قال (صدّام):

"إن الديّة بين (البو محمد) من عائلات الشيوخ هى خمسين امرأة، فضلا عن سبع سنوات عقوبة[٣].

---

(١) لم تكن المرأة (فريجيّة) بل كانت من عشيرة (البو زيد) واسمها عِزَل، لا أحد يتذكر بقية اسمها، متزوجة من رجل اسمه فهد السويعدى. أصبحت عملية موتها المفاجىء عن طريق القتل الخطأ أشبه بالدعاء أو الأمنية لكل شخص مكروه يستاؤون منه فيقولون: (جيلة عِزَل) والجيلة هى الطلقة.

(٢) لا تنفرد عشيرة (الفريجات) فى هذا الأمر، بل تشاركها كل عشائر الجنوب مع فوارق بسيطة.

(٣) سبع سنوات نفى للقاتل عن المقاطعة التى يسكنها. من الجدير بالذكر أن ما يدعيّه (صدّام) حق لكنه رمزى ولا ينفذ، فقد قتل (شلوله بن عصمان الفيصلاوى) وهو من شيوخ (البو محمد) على يد رجل (فريجى) بالخطأ، ولم ينته (الفصل) كما وصف (صدّام).

إن الكلمة العربية المقابلة لثمن الدم هى (فصل) ولكن كلمة تعويض هـــى أدق تعبيرا، فدرجة الجرم لا تؤثر على مبلغ (الفصل) [١]. لقد سمعت عن واقعـــة حيـــث طولب ودفع (فصلها)، وهى واقعة قتل، غير أن القتيل كان قد جُرح قبـــل عـــشرين سنة!! من المؤكد أن ذوى القتيل يرفضون (الفصل) ويكون دأبهم أن يأخذوا بثأرهم. يقدر الفصل بالاستناد إلى ميزان متنوع لأى ضرر، فالعين تساوى نصف الحيـــاة[٢]، والسن يحسم بامرأة واحدة وهكذا. وتدفع المبالغ (كفصل) لكل الأصابع باســـتثناء، لسبب ما، الإصبع الوسطى! يدفع للصفعة على الوجه حين تكون على مـــرأى مـــن الآخرين. قال لى (صدّام):

"إذا تعمّد شخص قتل كلب يؤويه شخص آخر فسيكون حالـــه حـــال القاتـــل لإنسان عمداً وعليه أن (يفصل) بثلاث نساء".

انتابنى الفضول لمعرفة جذور (البو محمد)، فأوضح لى (صدّام) انه قبـــل حـــوالى أربعة عشر جيلاً مضت قتل رجل من عشيرة (زبيد عزّه) يدعى (محمد) ابن عمٍ لـــه، فهرب مصحوباً بابنته (باشه) بحثا عن ملاذ آمن إلى (الفريجات). عاش معهـــم قرابـــة خمسة عشر عاماً وأحبّ ابنة شيخ (الفريجات) الفتاة الجملية وتدعى (محنّاية)، وأخـــيراً وافق شيخ (الفريجات) على تزويج ابنته إلى (محمد) شريطة أن يقوم (محمد) بتزويجـــه (باشه). وافق (محمد)، لكن شيخ (الفريجات) استبدل (محناية) بابنة أخرى لـــه هـــى (الكوشه) وقد كانت قبيحة خرقاء. جُلبت (الكوشة) فى ليلة زفافها إلى (محمد) الذى

---

(١) كلام منطو على سوء فهم كبير، فهناك بالإضافة إلى الفصل ما يسمونه (نكال) وهو زيادة فى مبلغ (الفـــصل) أو عدد نسائه إذا ثبت الإيغال فى الجرم أو الخرق لـــنن الدفاع عن النفس أو الأخذ بالثأر. وهناك ما يسمونه (حطام) وهو العمل الشائن الذى لا دية لهُ.

(٢) الأضرار الجسمية الدائمة تسمى (عضاب) وتقدر تبعاً للعضو المتضرر ودرجة الضرر ولكنها فى الغالب تحسم بنصف دية القتل.

أعدّ وليمة تخللها الغناء والرقص كما جرت العادة وسلمّت إليه في بيته. وحين أميط اللثام اكتشف (محمد) الخدعة، لكنه بدل أن يرفضها، قبل بها زوجة له مصرحاً:

"الحمد لله، هذه هي التي من نصيبي".

أنجبت (الكوشه) ولدين، سعد وعبود اللذين انحدر منهما فرعي عشيرة (البو محمد) العظيمة (العمله) و (البو عبود). وأضاف (صدّام):

"فنحن (آل بو محمد) لنا كلمة المؤاخاه في المعارك هي: (أنا اخو باشه) [1].

وهذا التآخي كما هو حال العديد من العادات الأخرى قد نشأ كما هو واضح مع البدو في الجزيرة العربية حيث أن الرجل هناك حين يدخل معركة ما فهو يتنخى باسم أخته أو باسم بعيره المفضل.

دخل (سيّد) قبل أن نغادر. كان في أواسط عمره امتلأ ذقنه بشعر خشن. كان يقطع القصب الطرى لذا فهو يرتدى (دشداشه) قديمة ممزقة. نهض الجميع وانحنى رجال مشحوف (صدّام) وقبلّوا يده. هناك أعداد كبيرة من (السادة) في جنوب العراق كما هو الحال في أرجاء الوطن العربي. هناك القليل من القرى في الأهوار لا تتفاخر فيها ولو عائلة واحدة على الأقل بانحدارها من سلالة النبي (ﷺ). وهناك قرى صغيرة كان سكانها من (السادة) وقد قابلت العديد من المعدان البدائيين ممن يدعون بهذا الانتماء. يبدو أن الحاجة قليلة هناك إلى تقديم ما يدعم هذا الادعاء، ففي قرية لـ (الفرطوس) بقيت عند عائلته تدّعي أنها من (السادة) لكن عدداً من الناس قال لي:

"إنهم ليسوا (سادة) على الإطلاق ونحن نعرف من أين جاءوا، فمنذ عهد قريب صبغ الرجل العجوز كوفيته باللون الأخضر". على الرغم من ذلك فهم يخاطبونه

---

(١) ولا تقتصر هذه الكلمة على أوقات الحروب بل يقولها الإنسان في عدة مناسبات منها سماعه لخبر سيئ أو سقوط شيء ثمين من يده أو تعثره في السيّر.

بكلمة (مولانا) وهى الصيغة التى اعتادوا عليها مخاطبة (السيّد). ربما على مدى سنوات لم يكلف أحد نفسه عناء سؤال هذه العائلة عن حججها.

بُنيت ربعة (صحين) فوق جزيرة افترضتُ أنها إما جزيرة طبيعية أو أنها أرض لقرية قديمة، لكننى لاحظت، حين غادرنا، أنها مكوّنة من طبقات متناوبة من تراب وقصب. إنها فى الحقيقة من نوع قصبة البردى نفسه التى كونت الأساس والقاعدة لبيت (الزاير) فى (الكَباب) ولكن بشكل أكثر اتقاناً. تبدأ طريقة الإنشاء بخطوة أولى هى تطويق منطقة معينة من الماء، من الاتساع بحيث تكفى لبيت وفناء، بسياج من قصب ربما يصل ارتفاعه إلى عشرين قدماً ثم تحشى هذه المساحة بالقصب والبردى داخل السياج، وحين يرتفع هذا الكدس عن سطح الماء يتم بعدها تكسير القصب المكون للسياج وليّه فوقه. ثم يقوم المعدان بوضع أكوام أخرى من البردى على قمة الكدس ويطأونه ليشتد ويتراص قدر الإمكان. وبعد اقتناعهم بمتانة الأساس يباشرون بناء البيت من خلال دفع القصب ليشكل أعمدة (شِباب) كل على حدة فى أرض الجزيرة قبل أن يربط بشكل حزام. إذا غمرت المياه أرض البيت بسبب غرقها أو بسبب ارتفاع مناسيب المياه فحينئذ يكتفى صاحب البيت بإضافة عدة حزم من القصب. تدعى هذه الأرض (جباشه).

ولكى يحصلوا على جزيرة أطول عمراً يغطى المعدان الأساسات بالطين المأخوذ من قاع الماء. يقومون بهذا الإجراء عندما يكون الماء فى أقل منسوب له فى الخريف وحيثما يكون الماء ضحلاً. يغطون الطين بطبقة إضافية من البردى. (تصبح (الجباشه) فى هذه الحالة (دبن). وإذا حصل أن غادرت العائلة ما بنته من (دبن) وتركته غير مأهول مدة تزيد عن سنة يخسرون حينها حق امتلاكها ويصبح بإمكان أى عائلة أخرى استخدامها. وعبر السنين يأخذ تناوب طبقات الطين والقصب بتشكيل جزيرة كتلك التى يقف بيت (صحين) فوقها.

فى طريق عودتنا إلى (الكَباب) طارت مجموعة من (الخضيرى) من بين القصب قريباً منا، لسوء الحظ لم أكن أتوقع حاجتى للرمى فلم أعبئ بندقيتى. كان من الواضح على (صدّام) إصابته بخيبة أمل عندما عدنا ذلك المساء لذا عرضت عليه البحث عن هذا الطير.

"طيب، سوف أرسل معك (عجرم) فهو يعرف أين يجدها" وقال لـ (عجرم) ونحن نبتعد مجدفين:

"تأكد من أن الانكليزى سوف لن يقلب المشحوف، فهو غير متعوّد عليه".

كانت ملاحظة غير ضرورية ما دام (عجرم) قد عرف نقص المهارة لدىّ.

"إلى أين أنت ذاهب يا (عجرم)"؟

"نحن بصدد صيد البط".

"حاولوا ذلك بطرف (البركَه) هناك الكثير منها". بعد برهة قال (عجرم):

"هل بندقيتك جاهزة؟ فهذا هو المكان".

فى الحقيقة كانت هناك كمية كبيرة من البط عند خليج صغير كثيف، ولكنه شديد الحذر. كنا ملازمين لحافة القصب وكانت حركتنا بطيئة جداً ونجحنا أخيراً فى تعقب مجموعة صغيرة من (الخضيرى) وأسقطت اثنين منها بإطلاقة واحدة لكنى أخطأت فى الإطلاقة الثانية. جدف (عجرم) باتجاههما والتقطهما. قال: "انظر، هناك المزيد قادم".

حلق الكثير من (الخضيرى) نافراً من صوت الإطلاقات فأطلقت باتجاه واحد منه وأسقطته على مسافة منّا فى جزيرة قصب. خلع (عجرم) (دشداشته) وقفز إلى الماء وتخبط بين تشابك القصب. لم أفاجأ حين عاد خالى اليدين. كان يخوض فى الماء صعوبة منخفض الصدر ثم تسلق المشحوف، ولو قدر لى محاولة ما فعل (عجرم) فمن المؤكد أنى سأقلب المشحوف رأساً على

عقب، لكنه حتى لم يهزّه! لم يكلف نفسه عناء ارتداء (دشداشته)، بل التقط مجذافه واتجه نحو ممر مائى آخر! كان جلده الذى لم تعتمّه الشمس أبيض كبياض جلدى.

اصطدنا اثنين من طيور (الخضيرى) قبل عودتنا إلى (الكَباب) حيث تنتظر خارج المضيف مجموعة صغيرة من الرجال والنساء، من بينها فتاة بملابس سوداء تحمل طفلاً بين ذراعيها وقد غطته بـ (شيلتها). أوضح (صدّام): "هذا الطفل المسكين مصاب بحروق سيئة. إنهم بانتظار الدواء، هل بإمكانك مساعدتهم"؟

كشفت الفتاة عن الطفل وقدمته إلىّ، كان صبياً بعمر سنة واحدة تقريبا. غُطى صدره المحترق وبطنه ورجله وذراعه الأيسر بروث الجاموس الجاف".

"متى حصل هذا"؟

"الآن، قبل دقائق".

أجابت الفتاة وأكملت:

"كنت أطبخ أرزاً للعشاء والماء على النار. غادرت المكان للحظة فقلب القدر. (صاحب) انه طفلى الوحيد، الله يباركك يا (صاحب) أنقذه، الله يحفظك".

قال (صدّام): "لقد تزوجت قبل سنة".

أخرجت صندوق الدواء من المضيف لأن الرؤية كانت أفضل فى الخارج. طلبت من الأم أن تجلس على الأرض وتمسك بالطفل الذى كان ينتحب بنعومة، ثم، وبكل ما استطعته من حذر أزلت الروث الجاف. وبدأ الطفل بالرفس والصراخ فبادر الأب الشاب بالقرفصة بجانبى وأمسك بساقيه. كانت الحروق واسعة جداً وقد انكشط الجلد فى عدة مناطق متفتتا كأنه ورق لف كاشفاً عن اللحم. وفى مناطق أخرى انتشرت بقابيق مرعبة. مسحت الجلد بمرهم الفايوليت برقة فوق كل الجلد المحروق.

"لاتضعى أى قماش فوقه الآن، وحينما تجف الحروق تماماً لفيها بهذه".

وناولتها قطعة كبيرة من الشاش بالإضافة إلى الأسبرين الذى أوصيتها أن تذيبه فى الماء وتعطيه للطفل ليشربه. ركبوا مشحوفهم وانصرفوا إلى بيتهم. سأل عدة آخرون عن دواء، أحدهم مصاب بخمج فى قدمه، واشتكى آخران من الصداع، وآخر من البواسير. وسألنى العطار الذى سبق لنا زيارته عن دواء لعينيه المتقرحتين. كان الظلام قد حلّ تقريباً عندما انصرف آخرهم.

كان الخضيرى الذى تناولناه على العشاء مدهشاً. انقسمنا فيما بعد إلى فريقين، كل فريق من خمسة لاعبين ولعبنا (المحيبس) أو اصطياد المحبس. يكون الفريق الذى بحوزته المحبس جالساً فى صف وقد غطيت أيديهم بعباءة ثم يواجههم أحد خصومهم محاولاً معرفة من الذى يحمل المحبس وفى أية يد مضمومة. وكمحاولة لزعزعة الثقة فى خصومه كان هذا اللاعب مستمراً فى الهذر وبصوت عالى النبر:

"رأيته فى يد فلان".

كنت لا افهم إلا القليل من هذا الصراخ، لذا فقد وجدت اللعبة مملة بشكل لا يطاق، بينما اهتاج الآخرون لشدة استمتاعهم. لقد لعبت لعبة صيد الخاتم فى عدة مناسبات وفى العديد من القرى وكانت تنتهى نهاية لا تتغير تقريبا كما هو الحال الآن، اتهامات بالغش، وعلى العموم بخسارة فى المزاج.

أخيراً التفت إليهم (صدّام) قائلاً، ولم يجانب الحق فى ذلك:

"إن الإنكليزى تَعِبٌ ويريد أن ينام".

❁ ❁ ❁

الفصل الثامن

عبور الأهوار الوسطى

غَنِّ... فروحى مترعة بالحزن، وصوتك خفــق.
النوارس التى تاهت وَبَنَتْ أعشاشها بين القبور

فى صباح اليوم التالى وإيفاءً بوعده، بدأ (صدّام) معى فى عبور الأهــوار باتجــاه الفرات. مازال الوقت مبكراً، فلم يمض على شروق الشمس أكثر من ساعة. كان ثمة موكب من المشاحيف يغاد القرية لجلب الحشيش، فى مقدمة كل واحد منــها رجــل أمسك فالته وقد ارتفع الجزء الحديدى ذو الأشواك إلى الأعلى. كنت و(صــدّام) فى مشحوف واحد فى حين كان (صحين) فى مشحوف آخر. وفى كل من المشحوفين تولى التجذيف ثلاثة رجال. كانوا جميعاً مسلحين بالبنادق. لا يحبذ الرجال فى الأهوار المرور بمقاطعات العشائر الأخرى وهم عُزّل.

حين تركنى الآخرون عند الفرات شعرت بوحدة موحشة فلا أحد معــى يعــتنى بأشيائى ولا أحد يقدّمنى للآخرين حين أصل إلى قرية جديدة. لقد حاولــت إقنــاع (عجرم) برفقته لى متعهداً له أننا سنعود لــ (الكباب) خلال ستة أسابيع، لكنه رفض.

"إنه خائف" صرّح (صدّام) لى وأضاف:

"لا أحد سوف يذهب معك، فالمعدان جاهلون. إنهم يعيشون هنــا فى الأهــوار كجواميسهم وهم مرعُوبون من الحكومة. لقد قابلت الإنكليز وعرفتهم أناس طيبون، لكن المعدان تنتابهم الظنون والشكوك إزاء الغرباء، فقد اعتقد (عجرم) أنك ربما هربت به أو ربما زججته فى الخدمة الإلزامية".

لم يخطر لى على بال أنى سأواجه صعوبة فى العثور على رفيق لذا أشعر الآن أنى مثبط فاقد لهمتى. قال شاب صغير فى نحو الخامسة عشرة من عمره كان يسيّر مشحوفه بجانبنا:

"خذنى معك (صاحب) أعطنى مالاً وخذنى معك، لم أعد بحاجة إلى إرهاق نفسى بقطع الحشيش طوال اليوم فى ماء بارد".

"لا، لا تأخذه، إنه سيئ، إنه كسول، خذنى أنا".

صرح بذلك شاب آخر.

"هراء، فكلاهما سيئ، خذنى أنا، فبإمكانى الغناء والرقص، سوف أسليك".

قال ذلك صبى فى نحو الثالثة عشرة وهو يجدف فى الجانب الآخر منّا، كان أفطس الأنف وبفم كبير وعينين ضاحكتين ونحيل جداً.

قال لى (صدّام):

"إنهم يمزحون فقط" ثم التفت إلى صبى:

"هيا، (حلو) (١)، غنِّ".

"لا أعرف كيف أغنى يا (صدّام):

"هيا، غنّ، (حلو)، دعنا نستمع إلى حين ذهابك إلى جزر القصب".

وصاح (صحين) من مشحوفة:

"غنّ، (حلو)".

قال (صدّام) انه يمتلك صوتاً حلواً مستخدماً للتعبير عن حلاوة الصوت Sweet كلمة اسم الصبى نفسها.

ابتسم الصبى ابتسامة وقحة ثم بدأ الغناء بادئاً بطبقة عالية نقية:

---

(١) حلو بن شذر بن مهودر الفريجى، توفى سنة ١٩٨٥م.

كَـــالوني العـــــرب عنّــــك ظـــالم مـــــن زغـــر ســـنّك
هجـــــرك عَــــذبّتْ حـــالى اللّــــــه ينـــــتقم منّـــــك

كان للأغنية نغم فاتن وبإيقاع مرح وسريع. بيّن (صدّام) بشكل سريع موجز أن الأغنية أُلفت جول واحد من شيوخ ما وراء دجلة من قبل زوجته التى كان يعاملـــها بسوء ثم طلقها. ربما كان (صدّام) خائفاً من افتراضى أن الأغنية تخاطبه هو مباشـــرة، والتى ربما كان فعلها أوقع.

تدوم الأغنية دارجة معروفة فى الأهوار مدة ستة أشهر ثم يملّها الناس ويتحولـــون إلى غيرها. وعادة ما يكون هناك ست أغانٍ فى الوقت نفسه، ولكن هذه الأغنية كانت أفضلهن. وخلال سنتين تاليتين كنت اسمعها أينما وليـــت وجهـــى فى الأهـــوار، فى الأعراس، فى الأمسيات حين يرتجل رجال الأهوار فى رقصهم، وحين التوجه إلى المجاهل كما نفعل الآن.

"استمرْ، (حلو)، غنّ أغنية ثانية".

وغنى (حلو) أغنية ثانية. انتظرتْ عدة مشاحيف لكى نلحق بها. لابد أن عددها كان اثنا عشر مشحوفاً أو خمسة عشر بسبب ارتطامها مع بعضها حين كانـــت تمـــر بجانبنا عبر الممر المائى. كان هناك صبيان يجدفان فى المؤخرة منذ البداية. لقد لاحظـــت فيما بعد أن المعدان يفعلون ذلك حين يكون اثنان بمفردهما فى المـــشحوف. يتوقـــف (حلو) عن الغناء فى كل مرة يصرخ مستمعوه:

"هيا، (حلو)، أغنية أخرى".

ثمة فتاة جميلة ذات أربعة عشر عاماً تجلس وحدها فى أحد المشاحيف وقد انزلقت عباءتها السوداء على كتفيها. حين دفع صبى طرف مشحوفها بيده مرســـلاً إيـــاه إلى القصب، التفتت إليه مغضبة. لم أستطع سماع ما قالتـــه، لكـــن الآخـــرين أفحموهـــا بضحكهم فلم تنبس بكلمة. وفى زورق آخر كانت هناك فتاة أصغر تجدف مع أخيها

جالسة خلفه كما تفعل النساء دائماً. سألت عما إذا كانت المرأة تسهم فى قطع الحشيش فردّ (صدّام):

"نعم، ولكن فقط فى حالة كون العائلة قليلة العدد".

أخيراً انحرفت المشاحيف باتجاه القصب، الواحد تلو الآخر. صاح (حلو) مازحاً وهو يغادرنا:

"ألا تريدنى معك، (صاحب) "؟

فسحة واسعة من المياه بعرض نحو ميلين، امتدت أمامنا. كان سطحها المتلألئ الزرقة متلاطم الموج بخفة بفعل النسيم، قال (صدّام) إنها تُعرف (بالديمه). لدى المعدان اسم خاص لكل مساحة من المياه المكشوفة حتى إن كان اتساعها لا يزيد على (بركة)، ولكل ممر ولكل جزيرة قصب، لكن تسمياتهم على العموم مقتصرة على ما يجاور بيوتهم.

"نستدير أم نتقدم"؟

سأل (صدّام) و(صحين) بعد تمعن فى البحيرة والسماء لعدة ثوان، فقلت:

"نتقدم، يجب أن نستغل الريح ونذهب معها، سوف نكون بخير".

حلقت ثلاثة نسور فوقنا فى سماء صافية. راقبت مجموعة كبيرة من البط تطير فى الجانب القصى من البحيرة. كان بعضها يحوم بارتفاع عال واستطعت تمييز المجاميع التى اقتربت منّا. كانت من الطيور (الخضيرى)، و(البربش) بينما كانت البقية ما بين (الحذاف) الشتوى و(الحذاف) الصيفى يغط ويرتفع فى تشكيلات صغيرة متقاربة فوق رؤوس القصب. كانت خوافيها مترجرجة البياض حين تستدير بحركة موحّدة. تساءلت ما الذى يزعجها حتى لاحظت زورقين فى نهاية الممر البعيد قرب القصب. سألت إن كانوا بصدد صيدها لكن (صحين) وبعد لمحة متمنعة باتجاههم أجاب:

"لا، إنهم يصيدون السمك بالزهر، إنهم من (الكبور)، من القرية التى سوف نتغذى فيها، جَدّفْ بقوة نريد أن نعبر البحيرة قبل اشتداد الريح".

كنا فى منتصف الطريق حين صاح (صحين):

"جهّزْ بندقيتك، (صاحب)".

وأشار إلى يسارنا، حيث عدة مئات من طيور (دجاج الماى) مكتظة ملتفة على بعضها. وحين تابعنا المراقبة شاهدنا نسراً يطير منخفضا فوقها ثم ينقض عليها، لكنها تبعده بضرب وجه الماء بأجنحتها بحيث يرتفع الرذاذ من الموجات المتكسّرة.

اشتدت الريح حين استدرنا باتجاه (دجاج الماى) وأخذ الموج المتلاطم يصفح جوانب المشاحيف. انقض النسر مرتين أو ثلاثاً قبل أن نصل إلى تجمع (دجاج الماى) الذى لم يعرنا أى اهتمام حتى ونحن على بعد أربعين ذراعاً عنه. أطلقت بكلتا ماسورتى البندقية عليه، فتفرق الجمع وارتفع من الريح تاركاً خطاً معتماً من أجسادها الطافية. حين كنا نلتقط الميت منه كان الآخرون يتابعون المصاب منه والذى يغوص حين يقترب منه المشحوف. كان (صحين) واقفا فى مقدم المشحوف يلتقطها واحداً تلو الآخر بفالته ما أن تظهر ثانية على سطح الماء طاعنا الطير الذى تصله الفاله، وراميها باتجاه الذى يبعد قليلاً. ما أن يلتقط الطير حتى يناوله إلى رجل تولى عملية التوجه إلى مكة (المكرمة) مردداً:

"بسم الله، والله اكبر".

وهو ما يشبه الدعاء يجعل عملية أكل هذا الحيوان حلالاً للمسلمين وإلاّ، فالمعدان يعدونها غير صالحة للأكل شرعاً ويرمونها جانباً. شرعاً، يجب أن تحتفظ الطيور بشىء من رمق الحياة حت تقطع حناجرها، وهؤلاء الرجال لا يدققون بكشل تفصيلى.

"هل هذا الطير ميّت"؟

سأل رجل وهو ينتزع طيراً كان رأسه تحت الماء مدة عشر دقائق!

"لا، طبعاً لا، هيا عَجّلْ واذبحه".

إن الميتة، ولحم الخنزير، والدم محرمات غير صالحة للأكل لدى كل المسلمين، وهنا أيضا محرمات تختلف من مكان إلى آخر وأحيانا من عشيرة إلى أخرى. فعلى سبيل

المثال بعض المسلمين لا يأكلون الطيور ذات الأرجل الغشائية، وفى العراق لا يأكل الشيعة الأرانب بينما يأكلها السنّة. يأكل المعدان (الهليجى) و(الوردة)، ويحرّمون (نعيج الماى)، يأكلون (المنيجلى) و(الصلندە) و(الرخيوى) و(الزركَى) و(crana) ويحرمون (درويش على)، ياكلون الـ (dabchick) ويحرمّون أنواعا أخرى من (البريزجى) و(الغوصه) ولا يأكلون (الجرّى catfish).

حين جمعنا كل طيور (دجاج الماى) أوصى (صدّام) الطاقم بالإسراع لأن المياه تسربت إلى المشحوف الذى كنت فيه بسبب ثقل مسافرين اثنين فضلا عن صناديقى. كنت سعيداً حين وصلنا مأمننا فى جزيرة قصب حيث التحق بنا مشحوف (صحين) وحسبنا صيدنا فكان ثمانى عشرة (دجاجة ماى). قال (صدّام) بقناعة واضحة:

"سيعطينا هذا غداءً وفيراً".

بعد مدة وصلنا (الكبور) حيث انتشرت غمامة شاحبة فى السماء وصفرت الريح خلال رؤوس القصب وانقلب الجو إلى برد قارس. تشبه (الكبور) (الكباب) ولها الحجم نفسه. ذهبنا باتجاه اكبر البيوت الذى كان مدخله على قمة منحدر زلق اسود بارتفاع خمسة اقدام وفى داخله تحلق طفلان حول موقد صغير. سألهما (صدّام):

"هل والدكما هنا فى البيت"؟ أجاب الأكبر:

"نعم، ذهب تواً إلى العطار" والتفت إلى أخيه قائلاً:

"اذهبْ بسرعة وأخبر (علوان) (١) أن لدينا ضيوف".

على الرغم من لبسى قميص وسترة وكنزة وسروال من قماش قطنى إلا أنى كنت أشعر بالبرد بمرارة، وكنت سعيدا إذ ألفيتنى قرب النار. كان ابن (علوان) طويلاً نحيفاً فى نحو

---

(١) علوان: اعتاد الأبناء حتى الصغار منهم مناداة آبائهم وأمهاتهم بأسمائهم، يصل الأمر أحيانا إلى تصغير الاسم، هذا ما ورد على لسان ابن علوان فهو يأمر أخاه مردداً اسم أبيه بلا كنية ولا لقب. وعلى قدر ما يبدو هذا الأمر منافياً للذوق العام إلا أن له وقعاً ساحراً على أذن من لم يعتد على ذلك، خاصة على شفاه صغار الأطفال. أما علوان هذا فهو كما أكدَّ لى أحد معارفه، عليّان بن عليجم النصراوى، متوفى منذ زمن طويل.

السادسة عشرة وكان كل ما يرتديه هو (دشداشة) قطنية مهلهلة. ذهب إلى النهاية الأخرى للبيت وأحضر (المداد) والمخدات التي سلمتها له فتاة. قال لـ (صدّام):

"دعني أنزل أشياءكم" .

"لا، سوف نذهب إلى (أبو شجر) ما أن نأكل".

"كيف يمكن؟ ابقوا الليلة هنا، إن الجو لا يصلح للتنقل أبداً، لقد مضى وقت طويل دون أن تشرّفنا".

ارسل (صدّام) أحد رجال مشحوفه لجلب اثنتي عشرة (دجاجة ماى) وأعطاها للشاب.

وصل (علوان) خلال بضع دقائق، رجل في منتصف العمر ودود. ناشدنا أن ننزل أشياءنا وأن نمضى ليلتنا عنده، لكن (صدّام) أصرّ على الرحيل، ثم سأل:

"هل مازال المعدان في (أبو شجر)"؟ أجاب (علوان):

"نعم، تأخر الفيضان هذه السنة، فلم يتحركوا حتى الآن".

جلب عدة الشاى معلقاً:

"لقد اصطدتم الكثير من (دجاجي ماى)". حين أخبره (صحين) بشأن النسر، قال (علوان):

"لقد عششَّ أحدها في القصب هذه السنة ليهاجم كل من يستخدم الممر المائى القريب والأولاد يذهبون دائما هناك لجمع الحشيش، لذلك أشعلوا النار في القصب واحرقوا عشه".

حين كان (علوان) يحدثنا كانت أصابعه تداعب سلسلة طويلة من تسع وتسعين خرزة سوداء. إنها المسبحة الدينية[1] في حين أن المسبحة ذات الثلاث والثلاثين خرزة

---

(١) المسبحة الدينية **religious rosary** هكذا سمّاها المؤلف على الرغم من أن اقتناء المسابح ليس بالضرورة نتيجة توجهات دينيّة، ولا علاقة لعدد خرزها بنوع مهمتها. إن كان حجم الخرز كبيرا مال العدد للانخفاض.

كهرمانية اللون، للعبث بها فقط. يحمل معظم الناس خرزاً كهذه فى جيوبهم ويعبثون بها بشكل لا متناه حين لايكون لديهم شيء آخر يفعلونه. رمى (صدّام) مسبحته إلىّ وحين حاولت إرجاعها فيما بعد قال:

"لا، احتفظ بها، إنها لك، عندى غيرها الكثير فى (الكباب)".

ومنذ ذلك الوقت تمكنّت منى تلك العادة.

أكلنا تسع (دجاج ماى) فى الغداء. كان طعم اللحم لذيذاً يشبه طعم البط، لكن إحساسى بالتشابه قد يأتى عن جوعى وإحساسى الشديد بالبرد. وعلى الرغم من اعتراضاتى استمر (صدّام) و(صحين) بتزويدى بالمزيد من قطع اللحم من طبقيهما. بعد ذلك صببنا المرق فوق الأرز وحين أتينا عليه نقعّنا ما تبقى من أرز بالدهن الحر. لقد وجدت صعوبة فى أكل هذه الخلطة بأصابعى لكن ما شفع لى أن الآخرين أيضا كانوا يأكلون بشكل غير أنيق وبعثروا كمية من الأرز يجب أن تكنس حين ترفع الصحون. كوّم (علوان) بقايا الأرز وشظايا أحد الصحون وجلب أحد أبنائه مزيداً من الدهن الحر ثم جلسوا فى زاوية من الغرفة. وبعد المزيد من الشاى ركبنا مشحوفنا متمنين الخير لمضيفنا ولكن لا يجرؤ أحد على شكره على الطعام لان ذلك من غير المألوف ولم يسمع به أحد.

ارتحلنا على طول ممرات جرداء سهل تمييزها عبر القصب الذى نزعت قشوره الريح واشرأبت فوق رؤوسنا النفاشات فى أعاليه. كان شاحباً على صفحة سماء أكثر شحوبا يتساوق كبيارق فى عاصفة هوجاء. غنّى أحد رجال المشحوف أغانٍ شعبية بتشجيع من (صدّام)، كان صوته قوياً أجشّ وقد برزت حنجرته بينما احتقن وجهه بشكل منذر بخطر! بدت الأغانى لا نهائية وبلا إيقاع واضح. ولكى أقدرّ تلك الأغانى وأعرف قيمتها كما يفعل الآخرون كان من الضرورى معرفة كلماتها وفهمها، الأمر الذى تعذّر علىّ.

بعد ساعة ونصف وصلنا (أبو شجر)، جزيرة من أرض جرداء معتمة باتساع ثلاثمائة ذراع وربما كانت بعشرة أقدام ارتفاعاً على أعلى نقطة فيها، أُحيط شاطئها بتكاثف لأجمات

القصب. أقيم فوقها بين ثلاثين وأربعين بيتاً بتشكيلات متقاربة كيفما اتفق على طول حافة الماء. انتصب الجاموس حيث وجد فسحة له، وأحيطت البيوت بما يشبه الأسوار لتمنع احتكاك الجاموس بالجدران. كان سكان (أبو شجر) من (الشغانبه)(١).

رسونا عند أحد البيوت بعد مناقشة لأيها أكثر ملاءمة. خرج رجل وصبي مرحبان بنا وساعدانى فى إنزال أشيائى إلى الجرف. لم يكن بمعيّة الآخرين شيء سوى بنادقهم، وأنزلنا أيضا المجاذيف و(المرادى) مادام ــ بعد مران مقنع ــ بإمكان أى عابر من هناك أن يأخذها بطريقة! لم تكن (المرادى) غير جذوع القصب، ولكن الجيد والمناسب منه ليس سهلاً العثور عليه، فضلا عن أن المرء يعتاد على استخدام (مرديّه) الخاص. أما المجاديف التى تشبه المجرفة فهى من ألواح خشبية سُمرتُ إلى قطع من الخيزران من النادر أن تُعوّض بأشياء محليّة.

وكما هو معتاد فقد ازدحم البيت على الفور. سألنا مضيفُنا بضعة أسئلة لكن الآخرين اكتفوا بمراقبتنا بهدوء بعيونهم الداكنة. تحسست ريبتهم وشكهم، مَن هو؟ ومن أين أتى؟ لماذا جلبه (صدّام) إلى هنا؟ وحين أخذنى (صدّام) ومضيّفنا ــ فى الوقت المناسب ــ فى جولة حول الجزيرة، ارتفع لغط الحوارات خلفنا.

كانت التربة سبخة ولا شيء ينبت فيها ولا أثر لوجود حصًى أو قطع صخور. والحقيقة أنى لم أر شيئاً منها فى الأهوار. ومن خلال رؤية أجزاء من طابوق وكسرٍ فخارية هنا وهناك فى الجزيرة يمكن عد (أبو شجر) أرضاً لمدينة منسيّة. قال (صدّام):

"يقال إن ثمة ذهباً مدفونا فى هذه الجزيرة وقد فتش المعدان عنه منذ مدّة. انظرْ، هل ترى أين حفروا"؟

وأشار إلى حفر ضحلة وأضاف:

"لم يجدوا شيئاً".

---

(١) الشغانبه: لم أعثر على معلومات مهمة عن هذه العشيرة برغم الجهود التى بذلتها.

قاطعه المضيّف:

"فى العام الماضى، وبينما كانت عائلة من (الشغانبه) تحفر حفراً للبيت فى (العكر) وجدوا جرتين مليئتين بقطع من العملة".

سألت: "أين هى (العكر) "؟

"هناك، إلى الغرب، إنها جزيرة تشبه هذه حيث يسكن العديد من (الشغانبه)".

"ما الذى جرى لقطع العملة"؟

"لاأدرى، أتوقع أنهم خبأوها لكى لا يستحوذ عليها الشيوخ".

قال (صدّام):

"قبل عدة سنوات حين كنا نبنى مضيفى فى (الكباب) وجدنا تمثالاً حجرياً مثل شكل امرأة يمكنك رؤية ثدييها وهو بهذا الطول".

وأشار بيده إلى ما يقدر بتسع بوصات.

"هل مازلتم تحتفظون به"؟

"لا، أخذه (مجيد) "!

فى أثناء وجودى فى الأهوار لم أحاول أبداً جمع أشياء ذات طابع آثارى، ولكن ذات مرة أُعطيت ختماً حيثياً[1]، وفى مرة أخرى قطعة رقيقة من الرصاص مغطاة بخربشات تكشف عن شخصيات فينيقية، قال الرجل الذى أعطانى إياها إنها جزء من قرص أسطوانى كبير كانوا قد أذابوه ليستخدموه ككرات رصاصية لبنادقهم! وفى مناسبة ثالثة أخذنى أحدهم بسريّة تامة إلى بيته حيث عرض علىّ تمثالاً صغيراً من الطين المفخور لكلب حفر أسفله، صنع فى اليابان!



---

(١) الحيثيون: Hittite شعب هندو ـ أوربى استطاع ملكهم مورسيليس الأول احتلال بابل سنة ١٥٩٥ ق. م.

كانت الشمس منخفضة وقد هدأت الريح، وكان القصب اللامتناهي يوحي بالكآبة من بين النور الباهت. وفي مواقع عديدة إلى الشمال والشرق لاحت غيوم كثيفة من الدخان حيث يشعل المعدان القصب طمعاً في نماء جديد (للعنكر) لجاموسهم.

سألني المضيّف:

"هل سمعت عن (الحفيظ) من قبل"؟

"نعم، ولكن قل لي عنها المزيد".

أشار إلى الجنوب الغربي، وقال:

"(الحفيظ) جزيرة ما هناك، فيها قصور وأشجار نخيل وحدائق من الرمان، والجاموس فيها أكبر مما لدينا، ولكن لا أحد يعرف أين هي بالضبط".

"هل رآها أحد"؟

"كثير، ولكن الذي يرى (الحفيظ) يجُن، بعدها لا أحد يفهم كلماته. أحلف (بالعباس) إنها حقيقة رآها واحد من عشيرة (الفرطوس) قبل سنين حينما كنت طفلاً. كان يبحث عن جاموسة ضائعة، وعند عودته كان كلامه مشوشاً فأدركنا أنه رأى (الحفيظ)".

علّق (صدّام):

"بحث (صهيود) [1] شيخ (البو محمد) العظيم عن (الحفيظ) بواسطة أسطول من المشاحيف في أيام العهد العثماني، لكنه لم يجد شيئاً. يقال إن الجن تستطيع أن تخبئ الجزيرة عن أي شخص يقترب منها".

---

(١) صيهود بن منشد: ولد على الأغلب في بداية القرن التاسع عشر، من كبار شيوخ البو محمد دارت في أيامه معارك مع عشيرة بني لام. قاد حملة لمعرفة سر الجزيرة الموهومة الحفيظ، مات خلالها حين غصّ في شربة ماء على إيشان في الهور يسمى داور. ومن الجدير بالذكر أن صيهود هو أبو الشيخ فالح بن صيهود، الرجل العملاق الذي زاد طوله على ١٩٠سم وبوزنه الثقيل جداً. إن الانكَليز أطلقوا عليه لقب هرقل العرب تشبيها له بهرقل الرومان. عرف عنه الكرم كأوضح صفة له. ولد عام ١٨٥٩م وتوفي عام ١٩٤١م. من أبرز أحفاده الذين ما زالوا على قيد الحياة الشيخ أبو ريشه بن خريبط بن فالح الصيهود.

علقت على الموضوع بالشك، لكن (صدّام) شدّد على كلماته:

"لا، (صاحب) (الحفيظ) هناك وهذا أمر لا غبار عليه، اسأل أيّاً كان، الشيوخ، والحكومة، فالكل يعرف (الحفيظ)".

عدنا على مهل إلى القرية على حافة الماء حيث الأصداف القوية البيضاء تغطي الأرض بأطوال تراوحت بين نصف البوصة والبوصة. لقد كانت فارغة ولكن السؤال: هل هى خاصة بقواقع المياه العذبة التى تحمل الطفيليات فى الصيف مسببة البلهارزيا؟ إن هذه الديدان الدقيقة المسطحة تعيش فى الماء فى الفصل الدافئ. وإذا ما سنحت الفرصة لها فإنها تخترق الجلد البشرى وتجد طريقها إلى المثانة حيث تتكاثر مسببة نزفاً دموياً وألماً حاداً، تطرح بيوضها أخيراً خارج الجسم من البول، وعندما تكون جاهزة للبدء فى دورة حياتها مرة أخرى. إن البلهارزيا هى كارثة الأهوار، ويعانى جميع المعدان منها كعاقبة محتومة لطريقتهم فى الحياة.

هاهن عدة فتيات يجلبن الماء وهن يحملن الجرار الفخارية على رؤوسهن. إنهن لا يبعدن عن حافة الماء إلا بضعة أقدام قبل ملء هذه الجرار من صدر الشاطئ، المكان الذى يستخدم كمرحاض عام، فلابد إذاً ـــ والحال هذه ـــ أن تحوى الجرار لعينات من الجراثيم. إن كل شخص فى الأهوار مصاب من الناحية النظرية بالدوسنتاريا وبعدد من الأمراض المستوطنة، ولكن فى الحقيقة أغلب المعدان اكتسبوا مناعة. وعلى أية حال فإن أشعة الشمس القوية من المحتمل أن تفتك بهذه الجراثيم. وعلى المستوى الشخصى، وجدت أنه من غير العملى أخذ الاحتياطات باستثناء تجنب الخوض فى المياه قريباً من القرى فى الصيف. لقد أكلت طعامهم وشربت الماء نفسه الذى يشربون ونمت فى أغطيتهم، وعلى طول الوقت نهشنى البعوض والذباب والبرغوث نفسه. وطوال كل السنوات التى قضيتها هناك عانيت مرة من متاعب فى تجاويف أنفى، ومرة من دوسنتاريا معتدل شفيت منه بعد أربعة أيام، عدا ذلك لم أعان شيئاً أسوأ من بعض الصداع.

من غير المجدى القلق من احتمال الإصابة بالأمراض، ولكن فى بعض الأحيان أجد صعوبة فى منع نفسى من الإحساس بالغثيان من الماء والطعام. لقد أصابنى هذا الغثيان فى مناسبتين وكلتاهما فى منتصف الصيف حين كنت ارتحل على ظهر جواد بين المزارعين شمال الأهوار. كنت فى المناسبة الأولى أتبع سدّة بزل واطئة لعدة أميال تنتهى عند قرية كانت وجهتى إليها. كان عمق الماء فيها نحو قدم أو قدمين ويجرى ببطء. اجتزت كلبا ميتا يرقد فيها وعلى مقربة منه رقد عجل جاموس ميت. كان الجلد قد انسلخ فاضحا الضلوع. كانت رائحتها مروّعة. كانت حافة السدّة قذرة قرب القرية بسبب أن العرب يتغوطون قرب المياه لكى يتمكنوا من الاغتسال بعد ذلك. يقع المضيف عند حافة السدّة والماء هناك راكد تحت طبقة من مادة غروية خضراء إلى الحد أنى ظننت أنهم لن يشربوه.

وصلت ما بعد منتصف نهار بائس من شدّة الحرارة فسقونى ماءً من (حِبّ) عند نهاية المضيّف، كان بارداً منعشاً. حضر إلى المضيف كثير من الناس ما أن سمعوا بوجودى، كان بعضهم ميالاً ومحباً للاختلاط فقط، بينما رغب آخرون فى العلاج الطبى. وبعد المجاملات التقليدية خرجت من المضيف إلى الظل عند أحد جدرانه حيث أجريت عملى، زرق الإبر وإعطاء الأدوية الأخرى. كان ثمة نسيم خفيف لكن الجو حار بشكل لا يطاق لان دلاجة الحرارة فى الصيف فى تلك السهول ترتفع إلى أكثر من ١٢٠ فهرنهايت[١] فى الظل. كنت بحاجة إلى شرب المزيد من الماء، لذا أعطيت (طاسة) إلى طفل لكى يجلب لى شيئاً منه. رأيته يذهب إلى السدّة فصحت بنفاد صبر:

"لا، ليس من هذا المكان القذر، اجلبْ لى ماءً من المضيف".

وهو ما فعله بعد أن رمقنى بنظرة دهشة. فيما بعد، شاهدت (الحِبّ) وهو يُملأ مرة أخرى من السدّة فانتابتنى التعاسة من أننى قبلت البقاء يوماً آخر.

---

(١) ١٢٠ فهرنهايت ما يعادل ٤٨,٨م.

وفى المناسبة الثانية كنت ثاوياً عند أحد أصدقائى من الشيوخ. كنت قد وصلت قريته الليلة الماضية، بكَّر حشد المرضى الاعتيادى عند الصباح. كان الجو حاراً بشكل خانق ورطباً وقد شحّت فيه نسمة واحدة، فحتى وأنا جالس لا تنم عنى حركة واحدة كان العرق يتصبّب مغطياً وجهى وجسدى. لقد ذبح الشيخ العجوز المضياف شاةً لإطعام ضيوفه المتقاطرين الذين زادوا على المائة. دخل أربعة رجال، من بينهم رجل أسود ضخم، مترنحين إلى الغرفة منحنين تحت وطأة حمل صينية نحاسية بعرض أربعة أقدام وقد علاها تل الأرز تربعت فوقه الشاة المسلوقة بلسانها المتدلى خارجاً وبعينيها المشبعتين بالماء. كان العرق يتصبّب منهم وهم يحملون هذه الصينية متقطراً عبر أنوفهم وأذقانهم مستقراً أخيراً فوق الأرز، وأنا أعلم أنهم حملوه على هذه الشاكلة وقطعوا به مسافة مائة ذراع أو أكثر. قال الشيخ وهو يصبّ الدهن الحر فوق الأرز:

"أهلاً وسهلاً بضيوفى، اليوم يوم عيد".

ثم قال وأنا أجلس قرب الصينية:

"والآن يا (صاحب) على قدر ما تحبنى بكثرة، سوف تأكل بكثرة"!



الفصل التاسع

فى قلب الهور

سقف بيتى (باريّه) وقـــدماى فـــوق
أخرى، ولأنى أجهل فقه المخمل ترانى ألمع
مثل (الليط).

أفلت الشمس تواً حين عدنا أنا و(صدّام) ومضيّفنا إلى البيـــت. أدّى (صـــحين) صلاة المغرب. أكثر الرجال المسنين بين المعدان الذين غالباً ما يكونون (زوّار) يؤدون الصلاة بانتظام، وقليل من الآخرين، كما هو الحال مع (صحين)، يحلون الأمـــر حـــلاً وسطاً بأدائهم صلاة الصبح والمغرب[1]! ومع هذا فالغالبية منهم لا يصلّون أبداً. وحين يصلّون يضعون أمامهم أولاً لوحاً مربعاً صغيرا من (التربة) الطاهرة فى كربلاء يلامس جباههم حين يسجدون. تحفظ هذه (التربة) دائماً فى سلة صغيرة معلقة فى الجدار.

أعاد (صحين) (التربة) إلى السلة ما أن أنهى صلاته ثم أذكى النار بإضافة أقراص (المطّال) وقال لى أن اقترب لأتدفأ. جلب طفل فانوساً لايعدو أن يكون قنينة مُلئت إلى المنتصف بالنفط تتخللها فتيلة من قطعة قماش ممزق تمرّ خلال عنق الزجاجة وقد ثبتت بقطعة تمر مهروس. كان ثمة رجلان يتحدثان إلى بعضهما فى البيـــت المجـــاور، كنـــت

---

(١) ما دامت عملية ترك الصلاة ليست ناشزة على سكنة الأهوار كما يدّعى المؤلف، فالأولى إذاً تركها أن يؤدى بهذا الشكل المنقوص. أعتقد أن أمر الصلاة التى يؤديها المسلم الشيعى قد اختلط على المؤلـــف ولم ينتبـــه إلى إمكانية أداء صلاة الظهر والعصر يفصل بينهما زمن قصير، وكذلك الأمر مع صلاتى المغرب والعشاء.

أستطيع سماع كل كلمة يقولانها، فجدران البيتين لايزيدان عن (باريه) واحدة لكل منهما ولا يبعدان عن بعضهما أكثر من قدمين. لقد وجدت للتو أن ليس لهؤلاء الناس أية خصوصيات فى حياتهم ولا يتوقعون غير ذلك، فقد تقبلوا الحقيقة التى تؤكد أن ما يهمَ أحدهم يهمّ البقية جمعاء. فإذا حصلت مشّادة بين أفراد عائلة فسرعان مايهرع جيرانهم على الفور عارضين النصح وهم على الحياد وبذلك يضيفون مزيداً من الأصوات المرتفعة إلى الجلبة الأصلية. إن الطريقة الوحيدة للدخول فى حوار خاص هى الذهاب فى مشحوف مع شخص ما، وحتى لو حصل هذا فسرعان ما يُعرف موضوع الحوار بسبب الحب للبحث والتحقيق الذى ينتاب كلا المتحدثين وبسبب العجز عن الاحتفاظ بسر.

بدأ الوافدون بالوصول بعد العشاء. حين يبدو أن لامجال حتى لمجرد طفل، يحشر اثنان أو ثلاثة أنفسهم حشراً بخطوات صعبة ويندسون فى الحشد. إن جدران (البوارى) تنبعج إلى الخارج قليلاً لتسمح لنازل آخر. لم تعد هناك من فسحة سوى للموقد. فى الوقت الذى غنّى فيه أحد رجال مشاحيفنا رفع الكل أصواتهم مطالبين غيرهم بضرورة الاستماع! فرّق مضيّفنا السجائر على الموجودين، ورغم صغر سنهم لا يتردد الأطفال عن التدخين ما أن يجدوا بقية. أُعد المزيد من الشاى ووُضع المزيد من (المطّال) فوق النار المتوهجة التى انبعثت منها أعمدة الدخان الأزرق، وتفرقت عبر البوارى فوق رؤوسنا. لاح كل شىء بدائيا غير مريح ولكنى شعرت بقناعة.

كنت نصف نائم مضغوطاً فى زاوية حين تفرقوا أخيراً، ثم تجمعوا فى الخارج على مقربة من امرأة (تقمّط) طفلاً صغيراً بجانب جذوات محتضرة لموقد آخر. أعدنا ترتيب (البوارى) والبُسط المهلهلة. سحبت بطانيتى من حقيبة سرجى. جلب المضيّف فرش النوم من النهاية الأخرى للبيت واضطجعنا جنبا إلى جنب لننام، فى حين جلس هو بجانب النار لحراستنا. ثمة نتوء قاس فى الأرض يوخز جانبى، وطفق البعوض يحاول بعناد اختيار وجهى ودَبَّ

البرغوث تحت (دشداشتي). نبح كلب وتحركت جاموسة مستفزّة قلقة بضعة أذرع بعيداً عن رأسي ثم غفوت ولم أستيقظ حتى استيقظ رفاقي عند الفجر.

كانت الرياح قد سكنت في أثناء الليل وكان الصباح مشمساً رائقاً وغادر الجاموس للرعي من تلقاء نفسه. إن المعدان المستوطنين، بالمقارنة مع المعدان الرّحل لايتعمدون رعي جاموسهم بل يُترك حراً في مجيئه ورواحه حسب مشيئته. كان (صدّام) و(صحين) يتناقشان داخل البيت حول قضية عبور بحيرة (زجري) أو تجنبها فرجوتهم الذهاب إلى (زجري) التي أرغب برؤيتها. قال (صدّام):

"ما كنت تتمنى ذلك لو صادفتنا الريح هناك. هذه البحيرة الكبيرة خطرة جداً. فوجئت مجموعة (الزوافيف) في طريق عودتها من (الكَبور) بعاصفة في (الديمه) العام الماضي، فغرق ثمانية أشخاص ومشحوفان. لقد سبق لك رؤية (الديمه) لكنها لا تشبه (زجري)".

وانضم (صحين) إلى حوارنا قائلاً:

"نعم، (صاحب) البحيرات خطرة، نحن نعيش هنا ونعرفها، فقبل أربع سنوات في مثل هذا الوقت من السنة غرق رجلان، أما الثالث فقد نجا حين تسلق جزيرة قصب صغيرة طافية، بقي متمسكاً بهذه الجزيرة خمسة أيام قبل أن يُعثر عليه. رأى مشاحيف تمرّ هناك مرتين لكنهم لم يسمعوا صراخه. لقد كان على وشك الموت جوعاً وبرداً".

بعد أن تناولنا إفطارنا، اكتفى مضيفنا وابنه بمراقبتنا ونحن نعيد أشيائي إلى المشحوف ولم يتدخل أبداً لمساعدتنا. حين علقت على هذا الأمر معبراً عن استيائي، وضّح لي (صدّام) ما استغلق عليّ، إن المضيّف يجب أن يساعد ضيفه على إدخال حاجاته إلى البيت، وليس العكس، الأمر الذي قد يبدو وكأن المضيف يستعجل مغادرة ضيوفه.

ثم قال:

"سوف نمر بــ (زجرى) مادمت راغباً فى رؤيتها وسوف نقضى ليلتنا عند (بنى عمير) (١) فى (الرملة)، ولكن، إذا هبّت الريح فسوف نختار طريقاً أطول".

وصلنا البحيرة بعد رحلة استمرت ساعتين على طول سلسلة من ممرات مائية صغيرة لا تكاد ترى وسط قصب شاهق. حين رأيت المياه المكشوفة أمامى تتلألأ تحت أشعة الشمس أصبت بخيبة أمل لأول وهلة لأن البحيرة بدت ليست أكبر بكثير من (الديمه) التى قطعناها بالأمس. ثمة جدران من قصب يلى المياه المكشوفة، وكنا فى منتصف الطريق هناك حين أدركت انه نتاج لعدد هائل من الجزر الصغيرة الطافية من القصب، وكان بين الكثير منها مسافات متباعدة. تقع (زجرى) نفسها وراء هذا الطرف من الجزر. لا أستطيع الحكم على اتساعها فيما إذا كان ثلاثة أو ستة أميال من بين خشب قاع المشحوف. كان النسيم رقيقاً جداً لكنهم أوقفوا التجديف وظهرت عليهم إمارات القلق. كان نفاد الصبر يعترينى لأنى لا أستطيع إدراك كيف يمكن لهذا الهدوء أن يكون مضللاً خدّاعاً.

بعد أربعة سنوات عند أعلى الفيضانات صادف عبورى لمساحات واسعة لمياه الفيضان، بلغ اتساعها اثنى عشر ميلاً وبعمق ستة أقدام غطت الصحراء على طول الحافة الغربية للأهوار. لقد بدأنا عند الفجر وكانت البحيرة هادئة هدوء الموت ولم يكن حتى اختلاج للريح. كنت وقتها قد حصلت على طرادتى الخاصة بى، وعند وسط هذه البحيرة هتف (عمارة) أحد رجال طرادتى الخاصة بى، وعند وسط هذه البحيرة هتف (عمارة) أحد رجال طرادتى الأربعة بصوت خائف:

"رحماك ربى، هل تسمع"؟

---

(١) بنى عمير أو العمايره: إحدى عشائر بن خيكان. من العشائر التى أقلقت راحة المحتلين من عثمانيين وإنكليز فى هور الحمّار. تسكن هذه العشيرة فى الجانب الشمالى من هور الحمّار فى المنطقة الواقعة بين البدو عيّاش وآل حول.

فأصغيت وسمعت الريح قادمة باتجاهنا من الشمال عبر ماء ساكن، وأمامنا، استطعت تبين خط لأشجار النخيل، ربما كان يبعد عنا مسافة ستة أميال، وقد كان دليلنا للقرية التى نقصدها. كان القصب قد اختفى من ورائنا ولم نعد نراه، ثم صاح أحد الأولاد باهتياج:

"انظرْ، هناك (عانيّه) [1]، الحمد لله، أسرعْ (صاحب)، أطلقْ النار لجذب انتباههم".

كانت الطرادة نصف غارقة حين وصلت (العانيّه) فتولى الملاحون نقل صناديقى على متنها وقطروا الطرادة الفارغة. حين وصلنا القرية بعد مدة، كانت الأمواج الكبيرة تتكسر عند الشاطئ وكانت أشجار النخيل تنحنى تحت وطأة الريح العاتية".

الآن، وأنا انظر إلى مياه (زجرى)، ناشدت الآخرين أن نمرّ خلالها. قال (صدّام):

"حسنا، سوف ندور حول الحافة لكى نلجأ إلى القصب فيما لو هاجت الريح، إنها أبعد لكنها أكثر أمناً".

كنت قد افترضت أن (زجرى) مثل (الديمه) لها حدود معلومة من جزر القصب الراسخ، ولكن حين كنّا نجتاز مجموعة طافية من الجزر إلى مجموعة أخرى، أدركتُ أن ما يظهر وكأنه حدّ هو فى الحقيقة سلسلة أخرى من الجزر خبّات خلفها المزيد من المياه المكشوفة والمزيد من الجزر. كان الماء، وهو بعمق ثمانية إلى عشرة أقدام، رائقاً شفافاً جداً، امتدت تحت سطحه كتل من أعشاب لها هيئة المطاط كأنها أعشاب البحر تتأرجح مع حركة التيار. إنه نبات الحورية الشائك الأوراق الذى يسميّه المعدان (السويكه). يقول المعدان عن هذه القيعان إنها أماكن تكاثر السمك المفضلة. ظهر عدد من طيور (نعيج الماى) مبتهجاً تحت أشعة الشمس القوية يسبح حثيثاً مبتعداً ويدير مناقيره الصفراء الكبيرة باتجاهنا وهو يراقبنا. ناشدنى (صدّام) أن أطلق عليها

---

(١) عانيّه: Sailing Boat: نوع من المراكب الكبيرة تستخدم الأشرعة.

النار مادام المعدان يستفيدون من جلود أكياس مناقيرها لطبولهم، لكنها ظهرت ساخطة على نحو مضحك لذلك تذرعت، لكى أمنحها الحياة، أن الإطلاقة سوف ترعب (الخضيرى) المستقر فى الخطوط المعتمة فى الماء هناك. طار (الرخيوى) محدثاً ضجيجاً من بين مجموعة قصب إلى البعيد خافقا بجناحيه بتثاقل بينما تدلت أرجله الطويله خلفه. قال أحدهم:

"لو أنك اصطدته لأطعمتنا جميعاً، إنه مكتنز كخروف لحمه رائع أيضاً".

حلقت عدة نسور أمامنا وقد صفت أجنحتها. دائماً ما تحوى سماء الأهوار نسوراً وعقباناً كما هو الحال فى أفريقيا.

وصلنا إلى خليج صغير عند النهاية القصيّة لـ (زجرى) وكانت هناك ثلاثة مشاحيف يقود كل منها شاب صغير، وعلى مقربة منهم طفا السمك فوق سطح الماء. اقترح أحد رجال مشحوف (صحين) التقاط هذه الأسماك، لكن (صحين) رد بنزق:

"لا تكن أحمق، نحن لا نعرف هؤلاء الناس ولا نريد أن نغضبهم، لنطلب منهم وأنا على يقين أنهم سيعطوننا قسماً".

قال لنا الشبان الصغار إنهم من (الرمله) القريبة من الفرات وأعطونا ست سمكات بوزن رطلين لكل واحدة. يدعى هذا السمك (البنى) ويميل لونه إلى الاصفرار ولا يشبه بقية الأسماك ويكون بلا مجسات. يصيد المعدان السمك عن طريق السم[١] فى الشتاء وفى الربيع قبل أن ترتفع مناسيب المياه فى الأهوار. إنهم يستخدمون (الداتوره **Datura**) وهو ذو خاصية تخديرية يجلبونه من العطار ويجعلونه بشكل كرات بعد مزجه بالطحين وذورق الدجاج أو يحشرونه فى سمك الأنهار العذبة[٢]. إن الزهر يخدر السمك فيرتفع إلى السطح وبذلك يسهل جمعه. استعمل هؤلاء الشبان أسماك الأنهار العذبة.

---

(١) يسمّون السم المستعمل لصيد السمك (زَهَرْ).

(٢) سمك المياه العذبة: **Fresh – Water Shrimps**، يسمّونه روبيان وهو سمك صغير جداً ولا يأكلونه.

حين سألت (صدّام) فيما إذا كان المعدان يصطادون بالشباك قال:

"لا، مطلقاً، (البربره) فقط هم الذين يصطادون بالشباك، أما ابن العشيرة فيصطاد بالفالة[١]".

"مَن هم (البربرة) "؟

"إنهم (البربرة) [٢]! ناس من درجة أدنى يصطادون السمك بالشباك. إنهم يعيشون بين العشائر وهم كثير بين (البو محمد)".

أنشد (صدّام) بيتاً من أغنية[٣] تبيّن حقيقة (البربره)، فهم مثل (الحيّاك) والعطارين المتجولين والحدادين و(الحيساوية) [٤] والصابئة، خارج حدود المألوف ولا ينسجمون مع أعراف ابن العشيرة بسبب انشغالهم بالكسب التجارى. فبين المعدان أنفسهم كما هو الحال بين كل العشائر العربية. تُعدّ الثروة المحروزة بالجهد القليل والتجارة نشاطاً محتقراً. إن منزلة الرجل تعتمد بشكل عام على شخصيته، وفضائله ونسبه.

ما أن غادرنا (زجرى) حتى ألفينا أنفسنا فى جزر قصب كثيفة. كانت المياه ضحلة على طول المسافة الممتدة قبل (الرملة). لذا وجد الرجال صعوبة فى تسيير المشحوف. كانت (المرادى) هشّة سهلة الانكسار، وحين حاولت الدفع بواحد منها انكسر عند أول محاولة، لكن هؤلاء الرجال يلقون بثقل أجسامهم عليها فيجبرون

---

(١) لقد طرأ تغيير على هذا العرف الرائع، فابن الأهوار لم يكن يصطاد من السمك إلا ليأكل، وكانوا يستهجنون الصيد الكثير. أما الآن فإن تجاوزات كبيرة حصلت ولم يعد احد يتورع عن الصيد بأية وسيلة كانت.

(٢) البَرْبَرة: لم أجد ما يميزهم عن بقية سكان الأهوار سوى امتهانهم صيد السمك لغرض كسب العيش حالهم فى هذا الحال (الحيساويه) الذين يزرعون الخضراوات الأمر الذى يمجّه زراع الحنطة والشعير والأرز. وقد اشتهر من البربرة عائلة أو عشيرة (عبودة) و(بيت شذير).

(٣) استطعت الحصول على أغنيتين لابد أن (صدّام) استعمل إحداهما وهما:

١ ــ البربره هالكاولية لاوليد ولا بنيّة والكاولية هم الغجر.

٢ ــ جبير البربره راحوا يدفنونه الجصانة جبيرة وماجله عيونه. والجصان: نوع من السمك الكبير و(ماجله) أى أكلت.

(٤) الحيساويّة: ومفردها (حيساوى) و(حَساوى) هو من امتهن زراعة الخضر كالطماطم والخيار وغيرها.

المشاحيف على الحركة للأمام قدماً واحداً فى كل دفعة. إن (المرادى)، وهى عبارة عن قصب عملاق بطول أربعة وعشرين قدماً، يستعمله الشيوخ لبناء مضايفهم، لاتتوفر إلا فى مناطق معينة من الأهوار. وعادة ما يحمل المعدان (مرادى) احتياطية، لكن فى الغالب بإمكان الرجال استعمال (المردى) الواحد مدّة شهور. حين خطوت إلى المشحوف بشكل أخرق ذلك الصباح هشمت ثلاثة منها.

حين وصلنا (الرملة) أخيراً، كنا فى الجانب الآخر من الأهوار. على الرغم من أن القصب والبردى ينموان بالقرب من القرية والرجال يقطعون المسافات فى المشاحيف جيئة وذهاباً فهناك أشجار نخيل تخللت البيوت وامتدت كذلك فى السهول المكشوفة وراء القرية[١]. حللنا فى أحد المضايف واصطحبنى مضيفنا فى نزهة على الأقدام حول القرية التى قطعتها قناة عميقة مليئة بالمياه انتشرت عبرها القناطر من جذوع النخيل. اجتزنا دكان العطار اللائذ خلف كوم من (البوارى) ثم توقفنا على مبعدة يسيرة لمراقبة عائلة كانت تعمل فى حياكة هذه (البوارى). جلس رجل متصالب الساقين على الأرض بجانب كوم من القصب الجاف، كل قصبة بطول ثمانية أقدام بسمك إصبعى الوسطى. كان يشق القصب بسكين معقوفة قبل أن يرميه باتجاه امرأة تولت عملية تطويعه بيد هاون خشبى مستخدمة النهاية الثقيلة للدق وممسكة بالجزء الثقيل المتصالب فوقها[٢]. كانت تسحق حوالى عشرين قصبة فى كل مرة واضعة إياه بجانب بعض باتجاه واحد. ثم تولّى ولد حياكتها على هيئة عظام سمك (الرنكَة)[٣]. كانت أبعاد (البارية) ثمانية أقدام بأربعة تقريباً، وكما قال مضيفى فإن حياكة (البارية) الواحدة تستغرق قرابة ساعتين وتدر خمسين فلساً.

---

(١) لم أستطع إدراك سبب استغراب المؤلف من وجود النخيل هناك مادامت تلك الأرض هى أرض النخيل. قد يكون سبب هذا الاستغراب هو معاملة المؤلف للنخيل معاملة القصب والبردى اللذان لاينموان فى الممرات والمناطق التى تكثر فيها حركة المشاحيف.

(٢) يد الهاون هذه التى يستخدمونها لسحق القصب يسمونها (مدكَك).

(٣) لم استطع العثور على ما يؤيد وجود مثل هذه السمكة **herring** فى العراق.

ثم ابتعدنا أكثر باتجاه السهل المكشوف. كانت الأرض المغطاة بهشيم الحشائش تشير إلى أنها كانت مغمورة بالفيضان كما يشير وجود التبن إلى الحصاد، أما الآن فهى صلبة حديدية وقد انتشرت فيها آثار حوافر الجاموس كأنها قوالب جصيّة. ركبت طيور (الططيوى) الريح صائحة وسرعان ما حطت ثم طارت. وطارت طيور (الرخيوى) و(البيوضى) ما أن وصلنا فى حين طاف صقر، صافاً مرّة وخافقاً مرّة بضعة أمتار عن سطح الأرض. تعتّم الأفق البعيد بصنوف أشجار النخيل الدالة على القرى على طول الفرات. أشار فيقى إلى رابية صغيرة قائلاً:

"هناك، كان للأتراك مدفع حين قاتلونا، وقد ضربوا قريتنا بالقنابل وقتلوا جميع الناس".

ربما كان هذا فى أثناء حملة تأديبية قدمت من البصرة بسبب المتاعب التى تثيرها تلك العشائر للأتراك.

عدنا إلى المضيف قرب الغروب. كان الضيوف قد ذهبوا متذرعين بتعبنا الذى عانيناه فى أثناء رحلتنا، وبحاجتنا إلى النوم. فى مكان ما تناهى إلىّ صوت امرأة تنوح على وليدها الميّت، لقد استمرت ساعة بعد ساعة دون توقف مرددة كلمات:

"يمه الولد يا ابنى".

كان حزناً فاجعاً انهمر بغزارة على تلك الليلة ولم يجد له متنفساً.

ربما يغادر الآخرون غداً، ويتركونى وشأنى.



الفصل العاشر

الخلفيّة التاريخية

حين غرق المشحوف ــ مــشحوف آدم ــ
مالت حواء عليه كقصبة غضة، قالت وهــى
تربت بيدها المبتلة: سينسينا الماء الجنة.

على حافة الأهــوار بــدأ التــاريخ البــشرى فى العــراق... ومــن الأزمنــة السحيقة المظلمة انحدر قوم متقدمون فى وعيهم الاجتماعى والثقــافى مــن الــسهل الواسع المرتفع فى إيران واستقروا علــى دلتــا الفــرات حيــث بنــوا فى الألــف الخامس قبل الميلاد بيــوت القــصب وصــنعوا الــزوارق واصــطادوا الــسمك (بالفالة) والشباك. لقد عاشوا هناك كمــا يعيــشون اليــوم فى بيئــة لاتختلــف إلا قليلاً عن بيئتهم الحالية. وبعد ألف وخمسمائة ســنة لاحقــة تــشربوا مــع جــنس آخر قدم من الأناضول. (جلب القادمون الجدد جاموســهم الــداجن الأليــف)(*) ومعرفتهم بالصناعات المعدنية وفــن الكتابــة. خلّــف كــل جــنس فى فخارياتــه المتميزة وثائق الأرض، ولكن بطريقة ما بقى الإنــسان حيّــاً فأوجــد الــسومريون مدهم على أرضٍ لقرى قديمة دفنت تحــت أقــدام مــن الغــرين مــنمين، ربمــا، حضارة العالم الأولى.

(*) بدت هذه المعلومة غريبة لأن الجاموس لايعيش فى المناطق الباردة.

وبمرور القرون سقطت سومر[١] لتزدهر بابل[٢]. وفى عام ٧٢٨ ق.م سحقت القبائل الآشورية[٣] بعرباتها التى تجرها الخيول وبأسلحتها الحديدية الآموريين[٤] ودمرّوا بابل وأحالوها إلى قاع صفصف. وبسبب الفتوح والحروب التى أرهقتهم فقد دمرهم الميديون[٥]. وفى عام ٦٠٦ق . م زُلزلت نينوى[٦] ، المدينة الآشورية الجبارة وأصبحت خرابا وقفراً وملاذاً للوحوش تركن إليها.

نهضت بابل من جديد بقيادة الكلدانيين[٧] واستمرت صامدة بعد نينوى بسبعين

---

(١) سومر Summer: مملكة قديمة فى جنوب وادى الرافدين. طوّر شعبها حضارة رائعة فى حوالى ٣٥٠٠ قبل الميلاد. كان السومريون مهرة فى الصناعات المعدنية والفخار وابتدعوا طريقة فى الكتابة عرفت باسمهم. أدمجت سومر مع المملكة البابلية فى ٢٢٠٠ قبل الميلاد.

(٢) بابل Babylon: العاصمة القديمة للمملكة البابلية، تقع أطلالها على الفرات جنوبى بغداد بحدود ٥٥ ميلاً. أنشئت قرابة الألف الرابع قبل الميلاد. عُرفت بعمرانها الباذخ وجنائنها المعلقة التى تعد من عجائب الدنيا السبعة.

(٣) آشور Assures: مملكة قديمة فى شمالى وادى الرافدين تقع بصورة رئيسية بين دجلة والفرات، عاصمتها الأولى آشور وأصبحت نينوى عاصمتها فيما بعد. اتسعت رقعة الدولة الأشورية لتصبح إمبراطورية فى ١٩٥٠ ــ ١٧٥٠ ق.م ومن ثم بدأ نجمها بالأفول حتى سنة ١٥٠٠ ق.م. ثم استعادت قوتها وذروة مجدها فى عهد سرج الثانى، وسنحارب، وآشور بانيبال. سقطت هذه المملكة على يد الميديين فى ٦١٦ ــ ٦٠٦ق.م.

(٤) الآموريون Amorites: بدو ساميون عاشوا فى الصحراء السورية. انتقلوا إلى وادى الرافدين فى نهاية الألف الثالث ق.م وأسسوا سلسلة من الممالك فيها.

(٥) الميديون Medes: شعب هندو ــ آرى سكنوا الأجزاء الغربية والشمالية من الهضبة الإيرانية، وكانت عاصمتهم هى اكبتانا (همدان) فى نحو ١٠٠٠ ق.م تحالف الميديون فى ٦١٢ ق.م مع الكلدانيين Chaldaens وتسببوا فى خراب نينوى Nineveh وسقوط الإمبراطورية الآشورية.

(٦) نينوى Nineveh: عاصمة الدولة الآشورية منذ نهاية القرن الثامن ق.م شيدت مدينة نينوى ومعبدها الرئيسى المكرّس للآلهة عشتار على ضفة نهر دجلة بالقرب من مدينة الموصل الحالية فى شمال وادى الرافدين. دمرها الميديون فى ٦١٢ ق.م.

(٧) الكلدانيون: Chaldaens: قبيلة آرامية سميت كذلك نسبة إلى كلدو والتى بما انتقلت إلى جنوبى وادى الرافدين فى القرن العاشر ق.م وفى ٦٢٦ ق.م أسس الكلدانيون تحت حكم (نبوبولاسر) السلالة البابلية الجديدة وجعلوا بابل عاصمة لهم، وفى ٦١٢ ق.م أطاحوا بنينوى مع حلفائهم الميديين. وتمتاز مدة حكم نبوخذ نصر (٦٠٤ ــ ٥٦٢ ق.م) بنشاط عمرانى وعلمى عظيمين. وقام بطرد المصريين من سوريا واحتل القدس وقام بترحيل اليهود إلى بابل. احتل الملك الاخمينى كورش الثانى (Cyrus 2) مدينة بابل فى ٥٣٩ ق.م وهذا يحدد نهاية السلالة.

سنة حتى دمارها النهائى على يد كورش[1] الذى أحرق جنائن (نبوخذ نصر) المعلقة. وغزا العراق أيضاً، خلال الألفى سنة نفسها، الكوتيون[2] المتوحشون الخارجون على القانون والكيشيون[3]. والحيثيون الذين عزلوا بابل، والميثانيون[4] الذين جلبوا معهم آلهة غريبة من الهند، ومن ثم شعب عيلام[5].

بعد أن استولى (كورش) على بابل فى سنة ٥٣٩ ق.م وقع العراق تحت إدارة أجنبية لما يزيد على الألف عام، فمرة يصبح مقاطعة مهمة لإمبراطورية ومرّة أخرى منطقة حروب لقوى متصارعة كالفُرس والإغريق والسلوقيين[6] والفرثيين[7] والرومان

---

(١) كورش Cyrus: (٦٠٠ ــ ٥٢٩ق.م) ملك بلاد فارس للمدة من (٥٥٠ ــ ٥٢٩ ق.م) تزعّم سلالة حكم. استحوذ على بابل وسوريا فى ٥٣٩ ق.م.

(٢)الكوتيون Guti: قبيلة غير معروفة من جبال زاجروس غزت بلاد مابين النهرين فى نحو ٢٢٠٠ ق.م وتسببت فى سقوط سلالة أكد Akkad. توحدت القوى بقيادة اوتوحيكال حاكم الوركاء لطردهم فى حوالى ٢١٢٠ ق.م.

(٣)الكيشيون Cassites: قبيلة من أصل قوقازى توجهت إلى وادى الرافدين من جبال زاجروس الإيرانية فى الألف الثانى ق.م، أقاموا سلالة لهم بعد الحملة الحيثية فى حوالى ١٥٩٥ق.م تسببت فى سقوط سلالة بابل الأولى.

(٤) الميثانيون Mittanians: وهم الحوريون Hurrians: جماعات مجهولة الأصل ويعتقد أنهم جاءوا من المرتفعات الواقعة شمال شرق الهلال الخصيب بين بحيرة أرومية وجبال زاغورس. غزوا شمالى بلاد الرافدين وسكنوها ومنها اتجهوا إلى سورية وأسسوا إحدى الممالك القوية هناك. نجحوا فى تأسيس مملكة قوية لهم فى مملكة ميتانى سنة ١٥٠٠ ق.م التى امتد سلطانها إلى البحر المتوسط وضمت بلاد آشور عاصمتها واشوكانى يعتقد أن موقعها الحالى على نهر الخابور شرقى تل حلف وحران. ومن بين المراكز الرئيسة لميتان هى أرانجا، وهى كركوك الحالية.

(٥) عيلام Elam: إقليم يقع جنوب غرب إيران على الحدود مع العراق وقد سُكن من قبل العيلاميين فى الألف الرابع ق.م، وتعد سوسه Susa المدينة الرئيسة فيه.

(٦) السلوقيون Seleucids: سموا بالسلوقيين نسبة إلى سلوقس (٣٥٦ ــ ٢٨٠ق.م) أحد قادة الإسكندر الكبير الذى أسس الإمبراطورية السلوقية، بعد وفاة قائده، احتل بابل فى ٣١٢ ق.م السنة التى يبدأ منها تقويم العهد السلوقى. وامتدت إمبراطورية سلوقس من آسيا الصغرى وبلاد وادى الرافدين إلى أفغانستان، وكانت عاصمتها فى سلوقية على نهر دجلة. احتَلّ الفرثيون عاصمتهم الأمر الذى يُعد بداية تدهورهم.

(٧) الفرثيون: Parthians: تقع أراضيهم شرق بحر قزوين. استطاع الفرثيون التوسع وامتدت أراضيهم فى عهد ميثرادايتس الأول (١٧١ ــ ١٣٨ق.م) من بابل إلى باكتريا، وافتتح طريق الحرير فى عهد ميثرادايتس الثانى (١٢٤ ــ ٨٧ ق.م) الذى أصبح على تماس مع الرومان بقيادة سولا على نهر الفرات فى الغرب.

ومرة أخرى للفُرس الذين ساروا بجيوشهم عبر أراضيه طمعاً فى كبحه أو انتزاعه من محتلين آخرين. وفى بداية القرن السابع الميلادى اندفع العرب بقوة خارج الصحراء على شكل موجات للفتوح وحرّروا العراق، فأضافوا بذلك اسما آخر لقائمة الفاتحين الغرباء.

إن الأمل فى الغنائم كان الحافز، واعتناق الإسلام، الدين الجديد، هى الرابطة التى جمعت ووحدت القبائل البدوية. إن الحكومة العربية الجديدة التى رحب بها السكان الأصليون أو نظروا إليها بلا اهتمام لاءمت الطبيعة المتوترة لهذه البلاد وتركت كل من اعترف بنظامها وأعرافها وشأنه. وبعيداً عن تحيزهم المتحدّد فى ضوء اعتناق الدين الجديد، فان العرب يعدون الإسلام تشريفاً لعرقهم ولم يسمحوا لأحد فى البداية فى اعتناق الدين الجديد مالم يكن منتسباً لإحدى القبائل العربية. يسمّى العرب المزيفون غير الحقيقيين بالموالى. يدفع غير المسلمين ضريبة خاصة، ولم يُشجَّع اعتناق الدين الجديد بصورة جماعية. خلال المائة والستة عشر عاماً اللاحقة أصبح العراق جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية العربية، أُدير بادئ الأمر من قبل مركز الخلافة فى المدينة فى الحجاز، ومن ثم من دمشق باستثناء المدّة التى حكم فيها علىّ، الخليفة الرابع، فقد كان يُدار من الكوفة. خلال تلك السنين عيّن المستوطنون العرب جماعة صغيرة من المحاربين الارستقراطيين لسياسة المدن وحكمها، وكان اغلبهم ممن خدم مقاتلاً أو موظفاً حكومياً. كانوا طغاة قساة وعاملوا السكان الأصليين بازدراء. وحين ولدت الحركة الشيعية بعد مقتل الحسين فى كربلاء عام ٦٨١م استعانت بموالى العراق بصورة خاصة مادامت هذه الحركة تعبّر عن سخطهم واستيائهم بتعابير دينية بصورة ثابتة. ومع الوقت وطّد الحكم العباسى ذريته فى العراق وبنى عاصمة جديدة ــ بغداد ــ فى عام ٧٥٠م. وعلى الرغم من إسلامية الإمبراطورية غير أنها لم تعد عربية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فحياة البلاط الفخمة التى كانت تحيط هارون الرشيد بأرديته البهية

وبآداب المعاشرة المعقدة المدروسة والطقوس والشعائر الرسمية، والمخصيين وجلادى البلاط، كانت كلها تختلف اختلافاً جذرياً عن الحياة البسيطة والقاسية التى عاشها الخلفاء الأوائل فى الحجاز.

لقد استمرت الخلافة العباسية قرابة خمسة قرون ابتداءً من أمجادها الأولى إلى اضمحلالها فى الأزمنة المتأخرة. أُعدم آخرُ خلفاء بنى العباس على يد هولاكو[1] بعد أن احتل بغداد عام ١٢٥٨م وأضاف بموته رقما اخر إلى ثمانمائة ألف جثة ذبحت من قبل المغول حين نهبوا المدينة. فى عام ١٤٠١م نُهبت بغداد مرة أخرى وهذه المرة من قبل تيمورلنك[2] اخر الغزاة المغول، وإذا كان عدد القتلى اقل هذه المرة فهذا بسبب قلة عدد السكان أصلاً. وبعدهم جاء التركمان بالخروف الأبيض أولاً ثم بالخروف الأسود ومن ثم فى سنة ١٥٠٩م جاء الفُرس لكى يليهم فى سنة ١٥٣٤م الأتراك الذين سيطروا على البلاد حتى طُردوا من قبل الإنكليز فى الحرب العالمية الأولى. ولكن ما تلا سيطرة الأتراك على العراق، فى الحقيقة، انحدار لمقدراته وثرواته، فقد كان الموظفون الأتراك القادمون من مدن صغيرة يحاولون تأكيد شكل لسطوتهم على العشائر الصعبة المراس فى هذه البقعة المعدمة من الإمبراطورية المتداعية.

منذ آلاف السنين، منذ الأزمنه السومرية كان العراق مهداً لمدنيات وزراعة مستقرة. وكان الغزاة قد نهبوا المدن وذبحوا السكان، ولكن السومريين، حتى قدوم المنغوليين، يعيدون بناءها مرّة ثانية، صانعين بذلك إسهاماتهم للحضارات التى انمحت، وفوق هذا كانوا يهتمون بالقنوات التى تجرى فيها مياه سقيهم. لكن الفرسان الصفر المتاقلين الذين بعثهم جنكيز خان من أطراف آسيا الذين لم يجدوا ما يفعلونه فى هذا

---

(١) هولاكو: Hulagu (١٢١٧م ــ ١٢٦٥م) غازٍ منغولى، حفيد جنكيز خان، اجتاح بلاد فارس ودمرّ بغداد فى ١٢٥٨م وأسقط الخلافة العباسية.

(٢) تيمورلنك: Timur – Leng (١٣٣٦م ــ ١٤٠٥م) غازٍ منغولى، استطاع احتلال سمرقند وحاول استعادة أمجاد إمبراطورية جنكيز خان فغزا التتر سنة ١٣٩٢م وبلاد الترك فى ١٤٠٢م. مات خلال غزوه للصين.

العالم، كانوا يجدون لذة فى القتل فقط، فكل آثارهم أهرام من الجماجم البشرية. وحين اندفعت أخيراً زوبعة الدمار تلك خارج العراق كانت ثمار القرون من العمل قد تحطمت بما فيها نظام الرى الذى يعتمد عليه رخاء البلد، فقد تضرر بطريقة مأساوية. الكثير من هذا الضرر قد نُظر فيه، لكن الأضرار ذات التأثير المتزايد مهملة. إن ترتيب الأولويات، بجهد دؤوب أمر مطلوب فى إزالة الوحول من قاع الجداول والقنوات وتقوية وإصلاح الضفاف وبناء الخزانات لتنظيم الفيضانات. كان عدد الناجين من الهلاك، بعد مرور الحشود المغولية، قليلاً وكانوا بروح منكسرة أوهى من أن تُصلح الضرر فتحولت الحقول إلى صحارى وتشتت الماء الثمين فى مستنقعات سبخة. ومع استمرار بعضهم بالزراعة على ضفاف الأنهار لكن العراق تحول من بلد زراعى إلى بلد رعوى وتداعت المدن التى كانت من أعظم المدن فى العالم وانتهت إلى قرى بائسة.

انحدر العرب الرحل من صحارى ما وراء الفرات إلى الريف وراحوا يرعون قطعانهم على أكوام كانت ذات يوم مدناً عامرة. فى الوقت الذى استقر فيه العرب الأصليون فى مدن وحواضر مزدهرة وقد تشربوا مع السكان الأصليين، وراح هؤلاء المهاجرون الجدد بخيامهم السود وقطعان إبلهم وماشيتهم يقسمون الأراضى إلى مناطق رعى. أُستبدل النظام الحكومى المصاغ وفق منطق الحياة المدنية بقانون الخيام العشائرى. فى مثل هذه الظروف يمكن للأمن أن يجد سبيله عبر حماية العشيرة العربية فقط، لذا فان فلاحى البلاد الأصليين المروَّعين لايجدون أمامهم سوى إلحاق أنفسهم بأية عشيرة تقبلهم. وبقبولهم بمنزلة أدنى فإنهم ينسخون عادات مَن قبلهم وتقاليدهم نفسها من ارستقراطيي الصحراء ويحاولون التشبه بصنائعهم نفسها. ومع الوقت فقد طمست المعالم القديمة وامتزج العنصران واستقرت بعض العشائر على اليابسة وهجر البعض الآخر إبلهم وحملوا خيامهم على الحمير[1].

---

(١) إشارة إلى قصر المسافات التى يجوبونها وميلهم إلى الاستقرار ضمن بقعة معينة.

لدى عرب الصحراء، الذين هجروا إلى العراق، القليل مما يشبهون به سكان العراق الأصليين لكن طباعهم وعاداهم هى التى سادت وغلبت. يمكن لشعب العراق الادعاء بفخر انحداره من السومريين أو البابليين أو الآشوريين الذين غزت جيوشهم مصر، ومن الفُرس الذين تبعوا كورش أو قاتلوا تحت لواء (داريوس)[١] أو (أحشورس)[٢]، أو من الفرثيين الذين أبادوا الجموع الرومانية. وبدلاً من ذلك نجدهم يتباهون بأهم بدو مؤصلون. لقد مرّ الاسكندر[٣] فى هذا الاتجاه ومازال سحر اسمه سائداً فى أواسط آسيا ماكثا فى الجبال والسفوح حيث يقسم الرجال هناك أهم ينحدرون من سلالة جنوده، لكنه على أية حال، منسى فى العراق. حين كنت أسمع المسنين وهم يتحلّقون حول المواقد ساردين حكايات أسطورية عن الشجاعة والكرم لا يأتون على ذكر الإسكندر ذى القرنين ولا الخلفاء الذين حكموا بغداد فى الأزمنة البهيّة، بل كانوا يقصّون حكايات عن رعاة رثّين من صحارى الجزيرة العربية!

إن عرب الصحراء هم دائماً مشاريع شقاء وشدّة، فلا راحة ولا رخاء، هناك الترحال الطويل المرهق والكدح برؤوس شامخة.

"إننا بدو".

هكذا يصرخون مفتخرين ومبتغين حريتهم فقط. إهم صبورون على الألم وغالباً ما يكونون شجعاناً يعيشون على الغارات أو صدّها وهو ما ترتبه السنن التى عادة ما

---

(١) داريوس: لعل المؤلف يشير إلى عموم داريوس **Darius** فهناك شخصيتان بهذا الاسم هما داريوس الأول أو دارا الأول (٥٥٠ ــ ٤٨٦ق.م) ملك فارس يُعرف بالكبير، وداريوس الثالث (٣٨٠ ــ ٣٣٠ق.م) ملك فارسى، هزمه الإسكندر فى معركة آسيوس عام ٣٣٣ق.م.

(٢) أحشورس **Xerxes** أو أحشويرش: (٥١٩ ــ ٤٦٥ق.م) ملك فارسى غزا بلاد اليونان عام ٤٨٠ق.م.

(٣) الإسكندر **Alexander**: الإسكندر الكبير أو المقدونى (٣٥٦ ــ ٣٢٣ ق.م) ملك مقدونيا وابن فيليب الثانى اجتاح بلاد فارس، واحتل مصر وأنشأ مدينة الإسكندرية ووصل بجيوشه إلى البنجاب حيث رفض جنوده التقدم أكثر فعاد إلى بلاد بابل حيث مات فيها سنة ٣٢٣ ق.م.

تكون متعلقة بالشهامة، ويكتسبون المفاخر وعزة النفس الشرسة فى المخاطر والشدائد ولايشكّون مطلقاً بتفوقهم على سكان القرى والمدن. إنهم يطلقون على أنفسهم (أصلاء) مستخدمين الكلمة نفسها (أصيل) كما اعتادوا على وصف نقاء دمائهم. إنهم فى الحقيقة ينحدرون من أنقى عرق فى العالم، على مدى قرون من المصاهرة بزواج ابن العم من ابنه عمه كما هى عادهم. لقد سلموا من الانحلال التناسلى من خلال بيئتهم حيث الأصح هو الذى يبقى على قيد الحياة، أما الآخرون فيُجتثون بلا رحمة. ومنذ صغرهم يعتادون الجوع ويتضورون حيث تشح الأمطار ـــ وهى غالباً ما تشح ـــ فيهملون ظمأهم عادّينه ألماً يومياً تافهاً، وأحيانا يحصل خطأ فى حساباهم لذا فهم يموتون. وعلى مدى أشهر الصيف يعانون الحرارة التى هاجمهم كأنها هَبَّة من فوهة فرن. وتعدّ هذه الأشهر موسماً مقتياً بالنسبة للرعاة، ولكن فى الشتاء، الجو سيء أيضا بسبب الريح الثلجية التى تندفع عبر رمال جرداء، والأمطار المندفعة التى تنقعهم حد العظم[1]. يجلسون على الأرض خلال ليالى الشتاء الطويلة ملتفين بخرقهم قد أخذهم السهر متيبسين لايقوون على أى حركة. أما ما يخص طعامهم فهو طاسة من لبن الإبل صباحاً ومساءً، هذا إذا حالفهم الحظ. وهناك دائماً هديد الغارات والخوف من الأخذ بالثأر والعداوات والموت المفاجئ.

إن الحياة البدائية التى يحياها البدو تسمح لهم ببعض الممتلكات، ولكن أى شيء غير ذى فائدة يُعدّ عبئاً وعائقاً لهم. فكل مقتنياهم هى ملابسهم التى يرتدون، وأسلحتهم وسروجهم، وعُدة للقهوة وأعمدة وخيام من شعر الماعز، فضلا عن ماشيتهم التى هى خيرهم وسعادهم والمسؤولة عن حلّهم وترحالهم والتى يعانون من أجلها ما يعانون من مشقة بابتهاج. إنهم ذوو شموخ ويفتخرون بشخصياهم إلى حد

---

(١) بدت المعلومة غريبة لان المؤلف إنما يعرض لتجربته التى قضاها فى الربع الخالى من الجزيرة العربية المعروفة بشحة الأمطار.

كبير، وذوو أنفة لا يقبلون زعامة كل من هبّ ودبّ، ويفضلون الموت على أن يلحق بهم عار. إنهم أكثر الناس تشاوراً وديمقراطية بينهم، ومع ذلك يقيّمون النسب باعتزاز، وقد حرصوا لقرون على نقاوة دمائهم بخناجرهم. يمنحون شيوخهم قدراً من الاحترام على قدر رفعتهم فى النسب وينصرفون عن كل مَن لم يستطع إثبات تلك العراقة فى النسب. قائد العشيرة أو زعيمها هو الأول من بين مجموعة رجال متساوين. إنه لا يملك خدماً ولا يدفع لحاشية لإمضاء رغباته أو إحراز التأثير لسلطته. يطيعه أفراد عشيرته ويتبعونه مادام يحظى باحترامهم، وهو يديرهم ماداموا طوع أمره، وما أن يغضبهم حتى يتحولوا عنه منصرفين إلى غيره من عائلته ويتركوا خيمة ضيافته فارغة. لا سبيل لإخفاء أمر بينهم ماداموا يعيشون بهذه الحميميّة وهذا التقارب بينهم فى الصحراء، فكل نأمة هى تحت المراقبة وكل كلمة محلقة فوق الرؤوس. يعرفون كل شاردة وواردة، والقيل والقال متأصل بينهم، والسؤال، ما الأخبار؟ يلى التحية بينهم. إذا تميّز من بينهم رجل بمحمدة ساروا وراءه فى مخيمهم مرددين، اللهم بيّض وجه فلان ابن فلان. وإذا تميز أحدهم بمذمّة وفعل قبيح دفعوه أمامهم مرددين، اللهم سودّ وجه فلان ابن فلان، ليصبح منبوذاً بعدها. إنهم مغرمون بالصيت والسمعة الطيبة لذلك يتمادون فى كسبها وتبدو أغلب أفعالهم مقصودة تمثيلية بالنتيجة. وعلى الرغم من غيرتهم من بعضهم إلا أنهم شديدو الولاء لباقى العشيرة، ويعدّون خيانة الصديق أسوأ ما يرتكبه الإنسان من فعل مشين، أسوأ حتى من القتل، مع أن استخفافهم بحياة الإنسان يصل حد طعن راعٍ أعزل برمح طلباً للثأر. وفى الوقت الذى يكونون فيه غير عابئين ولا مكترثين لمعاناتهم الشخصية ومعاناة الآخرين إلا أنهم لا يتعمدون أن يكونوا قساة أفظاظا. ما أسهل أن يُمس كبرياؤهم فيسارعون إلى دفع تلك الإهانة سواء كانت حقيقة أم متخيلة. ولكنهم فى العادة فكهين وبقلوب مفتوحة طيبة.

لديهم بعض التناقض فى شخصياتهم، فهم مهذارون فى طبيعتهم ولكنهم حذرون ويحافظون دائماًعلى وقارهم ويجلسون ساعات بصمت فى المناسبات الرسمية. وفى

الوقت الذى لا يكترثون بجمال الطبيعة يشغفون بالشعر. غالباً ما يكونون كرماء بشكل غير عملى، فهم على أتم الاستعداد لمنح (دشداشتهم) الوحيدة لأى شخص يطلبها. إن كرمهم أسطورى ويعقد اللسان، فما الذى يمكن أن يقال عن رجل يذبح أعز وأثمن إبله لغريب قادته المصادفة لخيمته؟ ولكنهم فى الحقيقة بخلاء شحيحون ككل الساميين فى حبهم للمال. متدينون حقيقيون ويرون آلاء اللّه فى كل شيء، فعقولهم لا ترقى إلى الشك به فضلاً عن التجديف أو الكفر. وهم ليسوا متعصبين بطبيعتهم وليسوا مؤمنين بالقضاء والقدر من دون مشاركة فعّالة لأفعالهم. فهم يكدحون فى حياتهم القاسية إلى الحدود القصوى مهما كانت النتائج ومن ثم يذعنون لأقدارهم بوقار لأنها مشيئة الله.

❁ ❁ ❁

إن الأهوار نفسها، بمتاهاتها المضللة من القصب، حيث لا يمكن لأحد الحركة إلا بالزورق لابد أن تمنح ملاذاً لشراذم الناس المهزومين ومركزاً للخروج على القانون والعصيان منذ أزمنة مبكرة. لقد هُزِم سرجون، الملك الآشورى العظيم على يد الكلدانيين الذين عاشوا هناك، وبعد عشر سنوات أخضع سرجون مصرَ واستولى على المملكة اليهودية، ثم عاد ليسكب معركة فى الأهوار فى نحو ٧١٠ ق.م ووثّقها بالطنوف والأفاريز التى زيّنت قصره فى خُرساباد[١]. ثم انتقم شرّ انتقام وأجلى الكلدانيين الى سوريا مستبدلاً إياهم بأسرى حيثيين من جبال الشمال.

وبعد نحو ألف سنة، أصبحت الأهوار المعقل المحصّن القوى للزنج الذين هدد عصيانهم الخلافة العباسية. لقد اُستخدم عدد هائل من الزنوج من ذوى الأصول الأفريقية لتجفيف المستنقعات حول البصرة وكانوا يُعاملون معاملة وحشية قاسية مما

---

(١) خرسابد khorsabad: عاصمة سرج الثانى ملك آشور. مدينة مربعة لها قلعة تطل عليها منصة على جانبى السور الشمالى الغربى، بُنى فوقها القصر والمعابد والزقورة. لم يكتمل بناء المدينة حيث هُجرت بعد وفاة سرج.

جعلهم يثورون ويقتلون حراسهم ويبثون الرعب فى المناطق المجاورة. كان من الممكن قمعهم بطريقة وحشية إن لم يجدوا قائداً بكفاءة عالية، فقد انتصروا تحت قيادة (على بن محمد) (١) ذى الأصل الفارسى مدة أربع عشرة سنة من سنة ٨٦٩م وحتى سنة ٨٨٣م ساحقين الجيوش المتتالية التى كان يرسلها الخليفة لمقارعتهم. ثم اندفعوا ليعزلوا البصرة واستولوا على الأحواز فى جنوب غرب بلاد فارس حتى وصل نهبهم وسلبهم إلى مشارف بغداد نفسها، فلم يفصلهم عنها سوى عشرين ميلاً. ولكن فى نهاية الأمر بدا الفارق عظيماً جداً. رفض على بن محمد الاستسلام وهُزم جيشه أخيراً وحُمل رأسه باحتفال بهيّ إلى بغداد.

وفى القرن السابع عشر بدأ النموذج العشائرى يأخذ شكله الحالى فى الأهوار وما يحيط بها، فاتحاد عشائر (المنتفك) (٢) العظيم الذى هيمن على أسفل الفرات مدة تزيد على ثلاثمائة سنة كان قد تشكل هناك حين نزح لاجئ من مكة اسمه (منتفك) حسماً لنزاع، ثم قُتل عقوبة له على جرم. كان (بنى مالك) (٣)، الذين عرّف نفسه إليهم، قد هاجروا إلى الصحراء مستصحبين معهم ابنه الرضيع حيث ترعرع الطفل ونما، وبعد مدة قادهم رجوعاً إلى الفرات ليسحقوا أعداءهم. ذاع صيته وتأثيره فاعترفت بقيادته كثير من العشائر. كان بعضها بدواً رُحلاً ذوى أملاك فيما كان الآخرون رعاة

---

(١) على بن محمد بن احمد بن على بن عيسى بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب (عليهم السلام). جاء إلى العراق من قرية فى الرى اسمها أورزنين، ادعى النسب العلوى فالتفت حوله مجموعة من الناس. تنقل فى عدة من حواضر إسلامية، استقر فى البصرة أخيراً سنة ٢٥٤هـ. انتهت ثورته بمقتله وذلك فى سنة ٢٧٠هـ. من الواضح أن الرجل ليس فارسياً من تسلسل نسبه.

(٢) المنتفك: اسم كان يطلق على محافظة ذى قار الحالية. وهو اتحاد لمجموعة عشائر ينتهى نسبها إلى أصل واحد أكثر سكناهم فى (الغموكَة) و(الدوّاية) و(كرمة بن سعيد). أما أمراء المنتفك فيهم آل السعدون.

(٣) بنى مالك: قبيلة كبيرة ترجع فى أصولها إلى مذحج، قحطانية النسب من العرب الصرحاء وهى متعددة البطون كثيرة الفروع نزحت من اليمن على أثر انهيار سد مأرب وتدفق سيل العرم واستقرت فى أرض العراق. أما التسمية فهى نسبة إلى شيخهم وجد القبيلة الأكبر مالك الأشتر بن حارث بن جذيمة بن سعد بن مالك بن النخع.

مشكوكاً فى نسبهم وكان الكثير منهم يزدرى المعدان. وفى أعلى مراحل قوقم كـان اتحاد (المنتفك) يشكل ولاية مستقلة قادرة على مقارعة الحكومة العثمانية كند كفء. ونزولاً إلى أسفل الفرات كوّن (بنى أسد) (١) لأنفسهم الأراضى التى يستوطنوها الآن حول (الجبايش) وكانوا أيضاً مصدر تعب للأتراك أيام ذروة قوقم. فى المـدّة نفـسها كان (بنى عمير) يستوطنون غرب القرنة فيما تسيطر عشيرة (كعـب) (٢) الآن علـى شرق الأهوار. أسّس محمد وولداه ابنا المرأة (الفريجيّة). حكمهم وسلطتهم على دجلة لتشمل مزيجاً من عشائر تُعرف الآن جميعاً بـ (البو محمد). أما فى أقصى الشمال فـإن (لام) قد أسّس (بنى لام) العشيرة التى تمتهن الرعى وذات القوة العظيمة الـتى تقـدر الآن بمائة ألف.

كانت دماء الكثير من الأصول التى سكنت العراق لآلاف الـسنين قـد نجـت وبقيت على قيد الحياة فى مكان منعزل فى الأهوار، لكن دستور عرب الصحراء كان هو المثل الأعلى والغاية التى سادت حياة معدان وشكّلت النموذج الكامل لسلوكهم ابتداءً من الضغائن والعداوات والثأر وانتهاءً بعاداقم وطرق سلوكهم بأدق تفاصيلها.



(١) بنى أسد: قبيلة ضخمة تسكن جنوب العراق فى الجبايش وما حولها. يمتد اسمهم إلى ما قبل الإسـلام، كـان سكنهم القديم بين الحلة وواسط وكان مركز إمارقم مدينة الحلة وفيها كونوا لهم كياناً خاصا مستقلاً.

(٢) كعب: من القبائل العدنانية التى سكنت مدينة العمارة منذ عهد بعيد، ومن المدن التى اشتهرت بسكن كعـب فيها مدينة الحويزة.

الفصل الحادي عشر

الفوز بالقبول

معافى... آمن وجميل قلبي، كتربيته أكفكم
على شغافه

تغفو (الجبايش) على الضفة الشمالية من الفرات حيث يعمق النهر ويبطؤ جريانه ويتسع ما بين شاطئيه إلى مائة ذراع. وتمتد على الضفة نفسها منه بساتين نخيل كثيفة إلى عدة أميال، بينما تقابله على الضفة الأخرى مستنقعات نما فيها القصب على شكل أجمات كثيفة بدت الأرض خلفها مستوية قد فرشت بالأسمنت وقد تقاربت فيها أعمدة المصابيح، ومركز للشرطة ومستوصف صغير ومدرسة وناد وبيوت للموظفين الحكوميين. كان بعض هذه الأبنية جديداً ولكنها تبدو جميعاً وكأنها مهجورة خربة.يمكن أن يكون وقعها المتنافر مع ما يحيطها مستساغاً لو أن هذه المباني قدمّت مستوى من الراحة وازدهاراً مهماً أعلى مما هو موجود فى القرى المجاورة! كان من المفروض أن تكون على درجة عالية من النظافة مادامت مبنية بين المروج ومسطحات الزهور، ولكنها، كما توقعت، كانت محاطة بسور مهلهل من القصب وبكسر القناني الزجاجية والصفائح الصدئة ومزق الجرائد، ولم تزد رائحتها على رائحة البالوعات.

اشتمل السوق على صف من الدكاكين أحسن حالاً بقليل من الأكشاك يقع فى طرف أرض مستوية، وانتصب جسر من الخرسانة فى الطرف الآخر، ظلّ الغرض من إنشائه غامضاً مادامت نهايته تفضى إلى بركة مياه عميقة. أشرف المدير، الذى كان

يعمل نجاراً قبل أن يصبح موظفاً براتب شهرى، على بنائه بشكل شخصى. كانت (الجبايش) مكاناً جميلاً وهى تشرف بواجهتها، التى تبعد قليلاً، على حافة الماء، وكانت واجهات المبانى الحكومية تحتجب بشبكة من الجزر الصغيرة ظللتها أشجار النخيل المنتصبة بين القنوات التى انتشرت فيها نباتات تشبه أوراقها قدم الغراب(١). احتمت البيوت القصبية بظلال النخيل وقد تناثرت بينها عدة مضايف، جاءت إقامتى فى واحد منها.

زرت (الجبايش) بعد عدة أيام من مفارقتى (صدّام) والآخرين فى (الرملة) لغرض عرض رسالة على المدير من وزير الداخلية تسمح لى بزيارة أى مكان أرغب. إن كل مقاطعة أو لواء فى العراق يُدار من قبل متصرِّف، يُقسم بدوره إلى قضاءين أو ثلاثة وهذه تدار من قبل قائمقام، وتقسم إلى عدة نواحٍ تدار من قبل مدير. (الجبايش) تعدُّ ناحية تابعة لقضاء (سوق الشيوخ) التابع للواء (المنتفك) ومركزه (الناصرية).

ما أن وصلت (الجبايش) حتى زرت المدير الذى دعانى للعشاء معه فى النادى. كانت البناية من الطابوق العادى الذى يشير فى مثل هذا المناخ إلى انه حار فى الصيف وبارد رطب فى الشتاء. وقفت خلف سياج من (البوارى) تحت أشجار زينة ذابلة بسبب نقص المياه! كانت الكراسى الحديدية مطلية باللون الأخضر وقد انتصبت عدة موائد حديدية مدوّرة فوق مساحة من ثيّل ذابل. سبقنى اثنان أو ثلاثة من الموظفين بينما وصل الباقون فيما بعد، كنت قد قابلت معظمهم صباح هذا اليوم. جلسنا حول الموائد وقُدم إلينا الشاى من قبل رجل عجوز يرتدى سروالاً خاكياً ممزقاً فضفاضاً لا يناسب حوضه، وجاكيتة ضيقة جداً. جلب أحد المعلمين مذياعاً من داخل البناية، ثبّت مستقبله الهوائى وبقى يعبث بأزراره للساعات الأربع أو الخمس التى قضيناها فى النادى، وفى خضم الموسيقى والأغانى القادمة من كل أنحاء العالم والذبابات العرضية فى.

(١) النبات الذى تشبه أوراقه قدم الغراب هو، على الأغلب، الكَاط.

الجو كان الآخرون يتناقشون حول مبالغ حصصهم وشؤون السياسيين العرب وفضيحة حدثت منذ مدة قريبة فى دوائر الدولة فى الناصرية. كنت لا أرغب فى الخمر فاستعضت عنه بعدد لا حصر له من أقداح الشاى وهو الشراب الوحيد المتوفر بعد الخمر. شرب مضيفيّ، الذين لم يشاركونى تحاملى على الخمر، باعتدال وتناقشوا بحدّة وبدا عليهم أنهم نسوا دعوتى على العشاء. كان ثمة موّلد خلف سياج القصب يطلق صوتاً مكتوماً مصباحاً يتيماً عارياً فوق رؤوسنا هوجم ضوؤه من قبل أصناف مزعجة من الحشرات لتتهافت على الموائد. ثمة خلل فى اعتدال الكرسى الذى جلست عليه أضاف لى سأماً غير ما كنت عليه من عدم الراحة. كان الليل قد انتصف حين تذكر المدير أن يأمر بالعشاء! غير أن طول مدة الانتظار لم تحسّن (الكباب) والأرز!

أغلب هؤلاء الموظفين كانوا قد ولدوا فى مناطق مختلفة ضمن بقعة تمتد إلى مائة ميل مركزها (الجبايش) لكن تربيتهم علمتهم ألاّ يشعروا أنهم فى بلدهم إلا حين يكونون فى المدن. يحلمون، وهم فى هذا الجو العشائرى الموحش كأنه المنفى، بالانتقال إلى المدن ويقضون وقتا طويلاً يخططون له. وماداموا هناك فإن نشاطهم يقتصر على الحركة فى مساحة لا تتعدى بضع مئات من الأذرع تتضمن بيوتهم، ودوائرهم والنادى. خلال السنوات التى أمضيتها فى العراق لا أتذكر أنى قابلت موظفاً لديه استمتاع حقيقى بوظيفته أو أى عاطفة تجاه الناس القرويين الذين وُظّف من أجلهم. ويصل الأمر إلى أكثر من هذا، فقد سألنى أحدهم كيف أستطيع العيش بين المعدان، مضيفاً أنهم ليسوا أحسن من الحيوانات المتوحشة.

لايجد هؤلاء الموظفون متعة فى الريف أيضاً، ففى كردستان كنت قد أمضيت يوماً من الصيف الماضى عند ضابط شرطة عراقى[1] شاب فى منطقة تعدّ من أجمل ما رأيت.

---

(١) يقصد المؤلف هنا (عربى).

كان هذا الضابط قد نقل لمدة شهرين إلى تلك المنطقة التى تقطنها عشيرة ريفية، وترتفع فيها الجبال إلى نحو ثمانية إلى عشرة آلاف قدم فوق غابات البلوط وتتخللها المنحدرات الخضراءُ والجداول المتلألئة من المياه الباردة المنحدرة إلى أسفل الوادى باتجاه جبال أرجوانيــة أوطــأ منها. كانت هناك وعول ودببة فى القمم، والجو مثالى. حين زرته كان فى خيمتــه يجلــس بجانب المذياع وقد ملأ مطفأته بأعقاب السجائر، قلت له بحماسة:

"أنت فتى محظوظ لكى تعيش هنا".

فانفجر صائحاً:

"محظوظ! والله لولا هذا المذياع لذهب عقلى، فما الذى يمكن أن يفعله إنـسان متحضّر هنا، فى تلك البقعة الفظيعة؟ لم يمكث الرجل الذى سبقنى أكثر من أسبوع ثم فرّ من هنا، لقد (دفع) فنقلوه، أما أنا ففقير لذا لا أستطيع أن أحذو حذوه، فتجـدنى جالساً هنا أستمع إلى إذاعة بغداد".

(الجبايش) والقرى الملحقة بها على طول الفرات مأهولة من قبل (بـنى أسـد)، العشيرة العربية التى تأرجح تاريخها بين النصر والهزيمة والتى اندفعت باتجاه الأهوار قبل ثلاثة قرون. وفى ذروة قوتهم كان قد انضم إليهم الكثير من الناس الضعفاء وأغلبـهم ليسوا من أصول عربية، باحثين عن الحماية وأضافت مشايعتهم (لبنى أسد) قـوة إلى قوتهم. لقد شنوا من مكامنهم فى الأهوار حروباً متقطعة ضد الأتراك حالف غالبيتـها النجاح. وحتى بعد الحرب العالمية الأولى، استمروا فى إثارة المتاعـب إلى أن هـزمهم الإنكليز وعزلوا شيخهم[١] سنة ١٩٢٤. ومنذ ذلك التاريخ بدأت عـرى العـشيرة بالانحلال. الزراعة فى (الجبايش) قضية لا يمكن التنبؤ بها دائماً. فى السنوات الحاليـة، تعتمد العشيرة التى يربو عددها على العشرة آلاف، بصورة مضطردة علـى حياكـة

---

(١) شيخ بنى أسد الذى عزله الإنكليز وأُبعد إلى الهند لمدة سنتين هو سالم الخيون، وكان من الشيوخ الذين طمحوا بعرش العراق. توفى عام ١٩٥٤م.

(البوارى). يميز (بنى أسد) أنفسهم عن المعدان حتى بعد مضى ثلاثة قرون علـيهم فى الأهوار. فهم يربّون الأبقار ويزدرون تربية الجاموس.

ما أسعدنى وأنا أغادر (الجبايش) التى بدا جوها باعثاً على العزلة والضيق طائفـاً باتجاه الشرق وصولاً إلى حافة الصحراء فى (الخميسيّة) حيث عدت أدراجى من هناك مرة أخرى. وصلت إلى قرية عند الصباح وتغديت هناك ومنها أخـذنى مـضيفى إلى القرية المجاورة. مهما كانت حالة الفقر لأهل البيت، وهناك من هم فقراء بحق، إلا أنى أنزل عليهم على الرحب والسعة، لكنى قوبلت على مدى شهر بالطريقة المقيّده المرتبكـة نفسها. كنت مراقَباً خلالها بصمت تحيطنى وجوه محدّقة متفرسة. لا توجد عزلة وسريّة هنا، فكل حركاتى وسكناتى ملاحظة، فحتى حين أذهب لقضاء حاجتى يتبعنى أحـد الـصبية لحراستى من الكلاب. أكاد أتخيل تخمينهم وتفكيرهم الذى يبدأ حال مغادرتى الغرفة:

"ما الذى يريده؟ لماذا جاء؟ فلا أحد من أهل المدن يرغب أن يكون هشاً للبعوض ويأكل طعامنا ما لم يكن يمتلك سبباً معقولاً. لابد أن الحكومـة هـى الـتى أرسـلته ليتجسس علينا ليحسب شبابنا وليعاين جاموسنا".

إن مضيفىّ لطفاء دمثون ولكنهم حريصون على التخلص منى، ويعاملوننى علـى أنى (نجس). يحترم الشيعة شعائر الطهارة كواجب دينى، والمتزمت فيهم لن يـشرب فى الإناء نفسه الذى شرب منه كافر. ومادام هؤلاء الناس غير صارمين وفيهم ليونـة فى عاداهم الدينية الأخرى، يأتى تزمتهم هنا بشكله الاستثنائى أمراً مختلفاً ومتعمداً بعض الشيء. لقد تساءلت بوصفى نصرانى وأوربى، هل بإمكانى تكوين علاقة طيبة معهـم، الأمر الذى أتوق إليه؟ حتى صادف حلولى فى (ربعة) فى إحدى القرى الكبيرة فى منطقة (عميرة) فى طريقى إلى الشمال حيث (الفرطوس). كان صاحب (الربعة) غائبـاً عـن البيت فاستقبلنا شاب حسن الطلعة. عاد الرجال الذين أوصلونى إلى هنا إلى قراهم ما أن شربوا الشاى. عاد مضيفى واسمه (عبد) التى تعنى اختصاراً (عبد الله)، عند المساء.

"ما الذى تحويه تلك الصناديق"؟

"أدوية".

"هل أنت طيب"؟

"عندى دراية بالدواء".

"هل تستطيع الختن"؟

لم يسبق لى إجراء تلك العملية لكنى كثيراً ما راقبت إجراءها فى المستشفيات وبين أهالى العشائر، لذا سنحت لى الفرصة أن أجيب: نعم.

ـ "هل تستطيع خت ولدى (خريبط)؟ لقد مضت سنتان على إجراء آخر ختان، وأريد لابنى أن يختن ليتسنى له الزواج".

أشار إلى الشاب الذى سبق له استقبالنا، المشغول الآن بإعداد القهوة. أدركت الموقف بسرعة فوافقت على إجراء العملية فى الصباح.

الختن، وعلى الرغم من عدم ذكره فى القران الكريم يُعدّ أمراً إجبارياً للمسلمين متبعين سُنَة النبى (ﷺ) الذى خُتن بالاستناد إلى عادة العرب. لا يحق لغير المختون أن يحج بيت الله الحرام فى مكة المكرمة. تؤجل العملية حتى سن بداية الرجولة، كما هو الحال فى حالة هذا الشاب، ونادراً ما تُجرى قبل سن الحلُم. إنها تُجرى من قبل مختصين يجوبون القرى متنقلين من قرية إلى أخرى فى فصل الصيف[1]. عادة ما يكون أجرهم ديكاً، وغالباً ما يزيدون ذلك إلى ربع دينار. كانت نتائج أعمالهم التى تسنّى لى رؤيتها مروّعة، فهم يستخدمون شفرات حلاقة قذرة وقطعاً من خيوط ولا يستعملون المضادات الحيوية. وبعد انتهاء العملية ينثرون الجروح بمسحوق خاص مُعّد من القلف المجففة لضحايا سبق لهم إجراء هذه العمليات، ومن ثم يربطون الجروح بقوة بخرق. يكتسب الناس الذين يعيشون تحت ظروف كهذه مناعة ضد التلوث، لكنهم

(١) يسمونهم (مطهرجية) مفردهم (مطهرجى).

لا يستطيعون مقاومة مثل هذه الإجراء، فتمتد مدة شفاء المختونين إلى شهرين يعانون خلالها آلاماً مبرحة. جاءنى رجل يطلب علاجاً بعد عشرة أيام من ختانه، وعلى الرغم من كونى متمرساً تماماً للمناظر غير السارّة والروائح الكريهة، بيد أن العفونة أجبرتنى على التقيؤ، فقد كان (عضوه) وكيس الصفن وما بين فخذيه، كلها متقيحة وقد انسلخ الجلد عنها، وكان الصديد يقطر إلى أسفل رجليه. عالجته أخيرا بالمضادات. وعلى الرغم من العار الاجتماعى الذى يلحقه عدم التختن إلا أن بعض الأولاد يرفضون إجراءه. وفى حالات أخرى لا يسمح الآباء لأبنائهم بإجراء العملية بسبب عدم وجود من ينوب عنهم لرعاية الجاموس. ويؤكد بعضهم الآخر على أنهم خُتنوا من قبل الملائكة عند ولادتهم، المعتقد الموجود فى مصر أيضاً.مؤخراً زرت قرى الـ (السواعد) [١] و(الكولبة) [٢] على وجه الخصوص حيث سمعت أنه من النادر أن تجد مَن هو مختون الأمر الذى يبدو صعب التصديق بين المسلمين.

فى الصباح، اقترح عليَّ (عبد) إجراء العملية فى الخارج لكى لا تتلوث الغرفة بالدماء. انتظر حشد صغير من الناس موزعين بين الجاموس فى المنصة التى تتقدم البيت والتى لا تعد مثالية لإجراء العمليات، وحضر عدد من أقران (خريبط) لمؤازرته فى محنته كما افترضت. اخترت صبيا عليه إمارات الذكاء ليكون مساعداً لى. أحضر (خريبط) (جاون)، قَلَبه وجلس عليه.

طمحت فى عملية أولى نموذجية. ومن خلال المعاينة رأيت أن لـ (خريبط) قلفة متصلة. هيّأت الحقنة لغرض التخدير الموضعى لكن (خريبط) قال فى الحال:

"لم هذا"؟

---

(١) السواعد: من العشائر التى ينتهى نسبها إلى يعرب بن قحطان. اشتهرت منطقة (المشرَّح) بسكن السواعد فيها بعد أن خاضوا عدة معارك مع بنى أسد وأجلوهم عنها.

(٢) الكَولبة: ليسوا عشيرة مستقلة كما فهم المؤلف بل هم بطن من (البردراج) العشيرة التى ينتهى نسبها إلى جدهم الأعلى درّاج السيلاوى العذارى.

فأوضحت له أن من شأن هذه الحقنة إيقاف أى إحساس بالألم.

"لا، لا أريد أى حقنة، فقط اقطعْ".

لا شئ يمكن قوله لتغيير رأيه. تساءلت بعدها، هل يعانى من التوتر كما أعانى على الرغم منه أنه لم يبد أى دليل عليه؟ فى الوقت الذى كنت أجرى العملية، وقد استغرقت منى وقتاً، جلس (خريبط) ساكناً تماماً، وبعد أن انتهيت قال شكراً، ثم انتصب واقفاً. ألقى مساعدى الكلابات التى كان يحملها على الأرض، دفع فتى جانباً، وجلس على (الجاون) قائلاً:

"الآن جاء دورى".

أدركت مصعوقاً أن أقران (خريبط) التسعة قد حضروا ليُختنوا. كان أصغرهم بعمر الخامسة عشرة بينما كان أكبرهم فى الرابعة والعشرين. علمت فيها بعد أنهم شفوا تماماً بعد بضعة أيام. من الواضح أن مسحوق السلفونامايد والبنسلين أكثر فعالية من مسحوق القلف! وصلت الأنباء بمرور الوقت إلى القرية المجاورة، وحين ذهبت إلى هناك، وجدت عدداً لا حصر له من الأولاد بانتظارى.

عاجلاً أو آجلاً سيبقى القليل من هؤلاء الناس ممن يسمح للختانين المحليين أن يختنوهم. يفضّل معظمهم انتظار زيارتى لقريتهم أو يقدمون ليجدونى فى مكان ما. وفى أحد الأيام المضنية اصطف مائة وخمسة وعشرون ولداً وكنت فى عمل شاق جداً من الفجر حتى منتصف الليل. إنهم مقتنعون أن رائحة تحميص الخبز أو أى رائحة تلهب جروح المختون، لذا نجد عادتهم سد مناخرهم بقطع قماش وتعليق رؤوس البصل حول أعناقهم، هذا طبعا إذا وجدوه عند عطاريهم، وعليهم آلا يأكلوا السمك، واللبن الخاثر و(الركى)، وعليهم ألا يشربوا سوى رشفات من الماء حتى يشفوا. انتهز أصحاب مهنة الختن فرصة تلك الأوهام ليجعلوا منها أعذاراً جاهزة لعجزهم. وحين يعانى البائسون من الفتيان من صعوبة فى المشى نتيجة الألم المبرح، مباعدين ما بين سيقانهم، يوضح هؤلاء بإيجاز شديد:

"طبعاً، هؤلاء الأغبياء الحمقى لم يحتاطوا بما فيه الكفاية فى سدّ مناخرهم، لابد أنهم استنشقوا رائحة تحميص الخبز أو ربما شربوا الكثير جداً من الماء".

لم يزر أى طبيب المعدان أبداً، وإن حصل وذهبوا إلى المستوصف المحلى فى (الجبايش) فعليهم أن يدفعوا مالاً مقابل العقاقير التى حسب ما أكدوا لا تنفعهم. يزداد عدد العمليات التى أجريها يومياً أينما أكون، ومن الآن فصاعداً لن يمرّ يوم علىّ فى الأهوار دون أن أعالج أحدهم. يصطف أحيانا ستة أشخاص، وأحيانا مائة وأكثر وغالباً ما أكون نائماً حين يصل أول مريض فأستيقظ على أثر هزة، ربما عن طريق رجل عجوز ينحنى قريبا منى هامساً أن لديه سعالاً. لا يعانى أغلبهم أسوأ من البرد أو الصداع أو الإمساك والجروح الثانوية والرضوض. إن أمر هؤلاء هيّن رغم أنهم يأخذون منى وقتاً، لكن هناك مَن هم مرضى بشكل حقيقى وربما على وشك الموت. أستطيع مساعدة بعضهم، وأعجز عن مساعدة بعضهم الآخر ممن يجب أن أتلقى تدريباً طبياً مكثفاً وخاصاً لتتسنى لى العناية بهم.

كانوا يعانون من التراخوما ومن أمراض عيون أخرى، والجرب والبواسير، والحصى والديدان المعويّة من مختلف الأنواع، والدوستاريا المتمورِّ والعصوى، البلهارزيا، والبجل، هذا هو النزر اليسير من شكواهم. البجل واحد من أكثر الأمراض شيوعاً، وربما كان أكثرها وطأة. إنه يشبه السفلس ولكنه غير تناسلى، شكل من الانعراج ومعد بدرجات عالية. إن القروح التى قد تحدث فى أى مكان على الجسد تكون واسعة الانتشار وأحياناً تتنتن بشكل فظيع. عادة ما أشعر بالغثيان حين يكون هناك مثل هؤلاء المرضى فى الغرفة. ما من شك أن عدة حالات من التى اعتقدت أنها بجل كانت سفلساً حقيقياً، لكن حقن البنسلين فعالة لكلتا الحالتين. أما السيلان فغير معروف، فعلى مدى سبع سنين لم أعالج سوى ثلاث حالات وأصيبوا كلهم فى العمارة. أكاد أقف عاجزاً أمام البلهارزيا التى يعانى منها الجميع، فدورة الحقن تستغرق شهراً، الوقت الذى لا يمكن أن أقضيه فى مكان واحد. لقد عالجت رجال مشحوفى ولكن الإصابة

تعاودهم دائماً. وهناك أيضاً الحصبة الوبائية والجدرى والنكاف والسعال الديكى، وهناك فى عام ١٩٥٨م وباء الأنفلونزا الآسيوية التى أصيب بها اغلب المعدان. لقد أنقذت تطبيباتى وعقاقيرى الكثير ممن يعانون ذات الرئة كعاقبة للأنفلونزا. وعلى الرغم من أننا محاطون يوماً بعد آخر بالمصابين الذين تتطلب حالاتهم أدوية، فقد كنّا أنا ورجال مشحوفى نهرب بطريقة ما، من أجل سلامتى، بسبب رعبى من الإصابة به فى الصيف وتحت مثل هذه الظروف.

قابلت مذهوشاً القليل من حالات الإصابة بالملاريا وكان معظمها قد أُصيب خارج الأهوار. ومن ناحية أخرى فان الكثير من المعدان يعانون من الحمى المتواترة الخفيفة، وعدد كبير من الأطفال يعانون من تضخم الطحال. إن هيمنة البعوض هناك ـــ من نوع الأنوفيلس ـــ تجعله ناقلاً للملاريا، والنوع الخبيث منه ـــ أنوفيلس أستيفنسى ـــ يعد نادراً نسبياً فى الأهوار.

وهناك الحوادث أيضاً، فبعض الضحايا يصابون بالحروق على نحو مرعب عندما تحترق بيوتهم، وهناك كثرة من الأطفال الصغار يقلبون قدور الماء المغلى على أجسادهم. وجُلب لى العديد من الرجال ممن قطعت أجسادهم الخنازير الوحشية حين هاجمهم أحيانا وهم يتصيّدون أو يقطعون الحشيش أو يحصدون محاصيلهم. أصيب أحدهم بعدة جروح فى ذراعيه وفخذيه وبجرح بعمق ثلاث بوصات فى بطنه فاندلقت أمعاؤه. ولحسن الحظ لم تكن هذه الأحشاء مثقوبة، لذا عملت على إرجاعها وأخطت الجرح. ويا لدهشتى، عاش هذا الرجل. وفى إحدى المرات أُستدعيت إلى بيت لأعاين صبى بترت البندقية ذات الصنع المحلى[1] نصف يده حين انفجرت. كل ما استطعت فعله هو بتر ثلاث أصابع محطمة تماماً. وفى مناسبة أخرى، أيقظنى شابان خلال الليل وقادانى إلى مسيرة ثلاث ساعات إلى قريتهم. وصلنا عند الفجر فوجدت أباهم يتلوى

---

(١) البندقية ذات الصنع المحلى يسمونها ماطليّة وجعازة.

على الأرض وقد غطى عينيه بيديه. قال لى أولاده إن إحدى عينيه قد فقدت نورها على أثر لطمة قبل سنين. يبدو أن الضغط الداخلى للعين يجبر كرتها الميتة إلى خارج محجرها، وعليه فكل ما يمكن فعله هو إزالة تلك الكرة. لدىّ بعض المعرفة عن تشريح العين تعلمته من سلخ بعض الحيوانات التذكارية. حقنت الرجل ببعض المورفين وعملت على استخراج كرة العين إلى الخارج فى حين تولّى أولاده الأمساك به أرضاً. وعلى الرغم من حقنة المورفين فقد كان الرجل يئن ويتلوى فانتابتنى رعدة. عندما أفاق من إغماءته أفاد أن الألم أخف بكثير. بقيت معه لليومين التاليين، وحين رأيته بعد نحو ستة أشهر أخرى كان قد شفُى تماماً.

ولكن كان هناك الكثير مما لا أستطيع معه حتى المحاولة، وصادفت الكثير من الهزائم، ومازال يراودنى بكثرة وجه طفل صغير مات بالدوسنتاريا. غالبا ما يكون صعباً علىّ جداً إقناعهم أن لا حيلة بيدى، فهم يستقدموننى ربما من مسافات قصيّة جداً لأن ثمة رجل عجوز يحتضر بالآم السرطان، أو فتاة تكاد تلفظ رئتيها نتيجة السل، واثقين أن بإمكانى معالجتهم، متوسلين بشكل كبير يثير الشفقة:

"أعطنا دواءً (صاحب)، أعطنا دواء".

وهناك من تتوفر فرصة شفائهم ما إن يذهبوا للمستشفى فى العمارة أو الناصرية، ولكنهم مرعوبون من المستشفيات ونادراً جداً ما يوافقون على ذلك.

قد يستاء الأطباء فى (المجر) و(الجبايش) و(العمارة) من نقص مؤهلاتى، لكنهم لا يبدون استياءهم أبداً. وبالمقابل فقد ساعدنى العديد منهم بالنصيحة والأدوية. لقد وافق وزير الداخلية فى بغداد على إجراءاتى الطبيّة فى الأهوار لكنه حذرّنى فيما لو مات أحدهم نتيجة إسعافاتى وأراد ذووه خلق المشاكل، فلا شيء يمكن أن ينقذنى من المقاضاة الجنائية. إنها مغامرة أقدم عليها برغبتى. لقد عالجت الكثير من الناس وماتوا، فلم يدّع أحد بعد ذلك أنى قتلتهم.

❁ ❁ ❁

الفصل الثانى عشر

بين الفرطوس

داود لــ (فوّاده):
محض هراء هذا الأفق، والهيكل فيكم وَهمّ
العزلة (فالسلف) يشكّ بزاويتى. هنــا...
وأشار إلى رأسه... قطب الملكوت.

غاصت أرضية البيت الصغير، الذى أقمت فيه فى (الجبايش) بعد أن غادرت قرية (عبد)، تحت ثقل المرضى، وأنهيت معالجتهم وقدماى غاطستان فى المــاء إلى كــاحلىّ. طمأننى أنها ليسا قضية مهمة ولكنه، مع ذلك كان يهبّ لنجدتى عندما أتحرك.

وفى القرية المجاورة (مبرد) المكونة من أربعين بيتاً أو خمسين، انتصب كل واحــد منها فوق (دبن) وقد توزعت البيوت على جانبى قناة انتشرت بينها الممــرات المائيــة الضحلة. مَرّة أخرى، تجمع حشد صاخب بشكل خاص، جاهدت فى سبيل معالجتــهم مدة ثلاث ساعات حتى حلول الظلام. كانت إقامتى عند رئيس القرية الرجل العجوز غير الجذاب المدعو (محسن) فاستعنت بأبنائه لمساعدتى لكنهم فضلّوا لعب دور الحمقى وضايقونى بطلبهم أدوية لا حاجة بهم إليها. كانوا نسخة مصغرة لوالدهم لطول الأنف نفسه وعيونهما المتقاربة وأصواتهما العاوية. وأخيراً بعد أن شبعوا من طعامهم تمامــاً، أعطيت لأكثرهم إصرارا حبتين من الكينين ليمضغهما، وفى الحال سمعته يتقيأ خلــف البيت. كانت حالة مزاجى لا تسمح بانتظار العشاء ساعات، الذى حين جاء أخيراً، لم

يتعدّأ رزاً بارداً متكتلاً وطاسة قذرة من (الروبة). بعد ذلك انتظرت، وهذه المـرّة أن يعد (محسن) الشاى، الذى لم تظهر عليه إشارة أنه سيعدّه. التفت أحد أولاده فجـأة صائحاً:

"بويْه، ما هذا"؟

اندفع خلال الباب وسمعته يصرخ:

"حريق، حريق".

ازدحمنا خلفه شاقين طريقنا بصعوبة بين الجاموس.

كان أقرب بيت لنا، الذى يقابل الريح، مشتعلاً. كنت أراقب فرأيت النـار تمـسك بكامل السقف وشعلتها البرتقالية ترتفع وهى تزأر ناشرة الشرر وسط العتمة. انحـشرنا فى أحد الزوارق واندفعنا باتجاهها. وقبل أن نصل كانت قد أمسكت بالبيت التـالى وحملـت الريح العاصفة شرر كليهما ملقية به على البيوت الأخرى. جاءت أنواع مـن الـزوارق وتقاطعت على الماء الذى عكس اللهب. كان أصحاب البيتين يندفعون إلى داخل وخـارج البيتين قاذفين بأى شىء تصله أيديهم إلى المشاحيف المنتظرة، ثم يسرعون عائـدين لإنقـاذ شىء آخر. كانت النساء تعولن والرجال يتصايحون والكلاب تنـبح، وتملّـك الجـاموس الرعب فشق طريقه خلال العتمة وقد اختلطت أصوات الجلبة بخوار الجـاموس المرعـوب بفرقعة النيران. ما أن ترجلّنا من مشاحيفنا حتى أمسكت النار بالبيت الثالث. اندفعت امرأة مذهولة، اجتازتنى وهى تحمل طفلاً بين ذراعيها بينما تعلّق طفل آخر بأذيال ثوبهـا وهـو يصرخ. سلّمت الطفل الذى بين يديها إلى فتاة كانت فى مشحوف ودفعت الآخر إلى جانبها قبل أن تسرع عائدة، ظهرت ثانية بعد ثوان وهى تحضن (لحف).

اصطدمتُ عند مدخل أحد البيوت برجل عجوز وفتى يجاهدان بحمـل كـيس حبوب. ساعدهما فى جرّه إلى أحد الزوارق ثم جلبنا كيساً آخر. كان هناك المزيد من الأكياس وكانت جميعاً ثقيلة. اشتعل البيت المجاور من أوله إلى آخره. ومـن الـصور

الظلية التى عكستها النار، رأيت امرأة تحدّق فى سقف أحد البيوت المشتعلة وهى تلطم صدرها. انهار السقف وتطاير الشرر إلى الأعلى فشق عدة أناس طريقهم خلال المـاء.
كنّا بصدد رفع كيس آخر إلى الخارج حين صرخ أحدهم:
"إنه يحترق".

فرأينا السقف أعلى رؤوسنا قد اشتعل. بلغت الحرارة مستويات رهيبة بسرعة وانطلق اللهب بأقصى سرعة اتجاهنا. لم يعد هناك غير كيس واحد فقط، ولكن لا يمكننا البقاء.

"تعالوا".

صرخ الرجل العجوز، فقفزنا إلى الماء وخضنا فيه إلى البيت المجاور. ولكى يمنعوا النار من الإمساك بالمزيد من البيوت، بدأ الناس بقذف الماء على السقوف، ولكن الواضح أن ذلك لن ينقذها.

اثنا عشر بيتاً هى حصيلة الحريق فى (مبرد) تلك الليلة، أضفى آخرها، الذى اتَّقد كأنه المحرقة، على عتمة الماء لوناً أحمر وذهبياً. عبرنا إلى الجانب الآخر وراقبناه وهو يحترق. كانت الليلة شديدة العتمة والنجوم باردة وواضحة وتثلجت الريح بعد زوال حرارة اللهب. وفى مكان آخر اتقدت كومة الرماد حين أُثيرت بالنفخ الخفيف لبعث الحياة فيها. كان الرجال المستثارون بواقعتهم يتكلمون بجلبة عن صنائعهم فيها، وندبت امرأة، على مسافى منهم، نائحة على البيوت والأشياء المنهوبة.

قدم غريب وقال:
"تعال معى لشرب الشاى (صاحب)".

حين عدت إلى بيت (محسن) وجدت عنده العائلة صاحبة أول بيت التهمته النار، كان الأب قد فقد كوفيته، أما (دشداشته) البيضاء فقد صفعتها النار بشكل سطحى. جثا رجل معروق ضئيل القامة بشعره الرمادى ووجهه المغضن وسنّه الأمامى المكسور

قرب الموقد مع ولديه، أكبرهما بعمر السابعة عشرة، حروق كتفه خطيرة. وفى الطرف القصى من الغرفة كانت امرأة عجوز شمطاء، ربما كانت جدة الولدين، تندب بصخب، بينما جلست المرأة الأصغر بصمت وقد افترش حجرها طفل وجلس آخران بجانبها. أما (محسن)، الذى قدّم الشاى أخيراً، فقد قال:

"من حسن الحظ أن النار لم تضطرم حين كان الجميع نياماً، فهذا ما حدث عند (السادة) الشهر الماضى حين احترقت زوجة (سيّد) وابنه حتى الموت".

قال الأب انه وولده كانا فى البيت المجاور حين اندلعت النار:

"أنقذنا الأطفال ومن ثم حاولت جلب بندقيتى، لقد كانت بين الوسائد ولم أعثر عليها، حدث هذا حين أمسكت النار بـ (على)، كل شئ ضاع، البندقية، ثمانية دنانير فى صندوق، الفراش، الملابس، كل شيء وكل الحبوب، كل شيء. هذه ليست المرة الأولى التى يحترق فيها بيتى، هذه الليلة ضاع اثنا عشر بيتاً، كما ترى. الحمد لله". قالها باستسلام.

ناحت الجدّة العجوز طوال الليل ولم يلتفت إليها أحد. نام الرجل مع ولديه بجانبى، شاركنى أحدهما بطانياتى. لقد سلِم الجاموس والمشاحيف فى الأقل، وهما ما يهم فعلاً. فالعائلة سوف تبنى بيتا جديداً ما أَن تبرد الأرض فهناك وفرة فى القصب المناسب القريب، وسوف يمدّ الآخرون فى القرية أيديهم بالمساعدة بالحبوب والفرش، وسوف ينقذون أوانيهم وقدورهم. أما الخسارة الحقيقية فهى البندقية. فى الصباح، أعطيتهم قدراً من الدنانير لمساعدتهم فى هذا الغرض.

❁ ❁ ❁

استغرق الوصول إلى (العويديّة) ساعتين، وهى قرية صغيرة (للفرطوس) حيث كنا أنا و(دوكَالد ستيوارت) السنة الماضية. ولكى نصل إليها فقد جذفنا عبر بحيرة صغيرة مطوقة بالقصب الشاهق، ثم سرنا عبر ممر مائى واسع وضحل. وقبل أن يلوح لنا أول

بيت عبر القصب تناهت إلينا عبر الماء أصوات القرية التى لايمكن أن نخطئها. لقد كانت همهمة لعدة أصوات، والإيقاع الكسول للنساء وهن يهرسن الشلب، ونخر الجاموس، ونباح الكلاب، والأصوات الحادة المتميزة لصياح الديكة. كانت القرية مبعثرة بين جزر القصب وقد انتصب المضيف الصغير لـ (جاسم الفارس) فى النهاية القصيّة للقرية، قائماً فوق (دبن) ارتفع قليلاً عن مستوى الماء وقد مال هيكل البناء برمته نحو اليسار. وقف (جاسم) بنفسه، رجل طويل ونحيف بـ (دشداشته) البيضاء، عند مدخله، وقد دخل قلبى ما أن رأيته. له وجه طويل مغضن وأنف مستقيم وفم مكتنز وعينان حميمتان. أسرع (فالح)، ابنه الأصغر الذى استضافنا قبل سنة، بإحضار البسط والمخدات. هو الآن فى نحو الخامسة عشرة يعطى انطباعاً بالفظاظة، كان يعانى من تلوث فطرى فى رأسه المغطى بعناية وقد رأيته مؤخرا فقط حين طلب منى علاجاً. هذا التلوث شائعٌ تماماً بين الأطفال ويزول تدريجيا حين يبلغون الرابعة عشرة، لكن الكثير منهم يبقى أقرع بشكل دائم نتيجة له.

أقمت مع (جاسم) قرابة الأسبوع وشعرت حالاً كأنى بين أهلى عند (الفرطوس) الذين عاملونى كواحد منهم. هنا، ومنذ البداية، كنا نشرب بالقدح نفسه[1]. عند الصباحات والمساءات، كان (فالح) يجدف بى بنفسه ويأخذنى إلى البرك القريبة بحثاً عن البط الحذر جداً، لذا يتوجب علينا الاقتناع بـ (دجاج الماى) أو(الزركَى) و(الهليجى) وهي أصناف يأكلها المعدان. لقد جرّبت (الهليجى) الذى أثبت لى انه لذيذ كالسمك تماماً، فما أن تناولت لقمة واحدة، لم يغب طعمه عن فمى لساعات.

ذات الصباح، سرنا أنا و(فالح) وابن عمة له اسمه (داود) [2] إلى البرّ الرئيس. خلّفنا القصب وراءنا فظهرت لنا بقعة مترامية الأطراف تهاوى فيها البردى مغطياً

---

(١) إشارة إلى تساوى نمط حياة المؤلف مع حياة المعدان الذين يعيش معهم، والى عدم شعورهم بالاشمئزاز بسبب نصرانيته.

(٢) داود بن هاشم بن جايان الجعارى، يسكن الآن نهر العزّ فى محافظة ميسان.

الكثير من الأميال المربعة، بينما اشرأب النماء الجديد خلال الأعشاب الشاحية المهشمة للسنة الماضية، لكنه لم يكن من الارتفاع بحيث يحجب النظر حتى من خلال قاع المشحوف. كان المكان عاجا بالطيور، وثب (Snipe) إلى الهواء بجانبنا وطار متعرجاً، بينما حلقت أسراب من Small Waders) الصغير بعيداً. لم استطع تحديد مجموعة من الطيور المخوضة انتشرت بين طيور الـ (Ruffs) و(الكَصكَص) و(avocet) و(redshank) و(curlew)، كانت تأكل فوق بقعة من الوحول المكشوفة. وكان هناك أيضاً (مغيرفى) و(صلنده) و(بيوضى) و(زركى) و(رخيوى). وفجأة سمعنا صراخاً للبط من بعيد فقد كان هناك صقر يصطاد فوق الحشائش بينما حامت النسور عاليا فوقنا. دفع (فالح) و(داود) مشحوفنا بكل ما يستطيعان من قوة بـ (المرادى) قدر إمكانهما، ثم شمّرا عن (دشداشتيهما) وعقداهما حول خصريهما وخاضا فى بقعة من طين رقيق القوام دافعين المشحوف الصغير.

رجونا الوصول إلى البرّ لكن عدة أميال من الطين الجاف فصلتنا عن السهول العظيمة المفتوحة حيث تسكن قبائل رعاة (المنتفك) فى خيامها السود. "العرب"[١]، سمّاهم (فالح)، ووعد أن يأخذنى هناك فى وقت آخر ثم قال:

"سوف نزور (محسن بن بدر)". [٢]

ثم أردف:

"إنه كبيرهم، وهو صديق والدى، فقد خبّأه والدى حين كان الإنكَليز يبحثون عنه، ألم تسمع بـ (بدر)؟ فما زالت العرب تقول، كريم مثل (بدر)، وابنه يشبهه فى ذلك، عد إلينا حين ترتفع مناسيب المياه وسنذهب إليه".

---

(١) يسمىّ أهل الأهوار العشائر التى تعتاش على تربية الأغنام والرعى فيها (عُروبيّه) مفردها (عُرْبى).

(٢) محسن بن بدر الرميّض الذى يعدّ والده، بدر الرميّض، (١٨٥٠م ــ ١٩٤٠م) من أوضح شيوخ بنى مالك، عرف بكرمه وشجاعته. أجبر الانكليز على عقد معاهدة صلح وفق شروطه بعد أن أتعبهم بغاراته المتصلة عليهم.

فى طريق عودتنا، أطلقت النار على عـدة مـن طيـور purple gallinule التى أصرّ (فالح) على أنها رائعة عند الأكل. إنها تشبه (دجـاج المـاى) فى الـشكل والحجم، وهى تطير من القصب وأرجلها الطويلـة تخـطّ تحتـها. هـذه الطيـور، فضلا عن (الحذّاف) الذى يصل فى الربيع، الطيور الوحيـدة الـتى تـصلح للأكـل فى الصيف.

سألنى (داود)، الذى كان يتكلم قليلاً بحياء: إن كـان بإمكـانى أخـذه معـى إلى العمارة حيث السجن الذى ينـزل فيه والده، مضيفاً:

"لقد خدم والـدى شـيخ (العيـسى) فى (الـصيكَل). وذات يـوم أرسـله الشيخ لإلقاء القبض على ثلاثة من (آل أزيرج) الذين كـانوا يـسببون المـشاكل. جلبهم والدى إلى الشيخ الذى جلدهم بدوره. بعد ذلـك هاجمـه هـؤلاء الثلاثـة وضربه أحدهم بهراوة على رأسه فخرّ والدى مغمى عليـه. وحـين اسـتفاق مـن غيبوبته تناول بندقيته وأصاب الرجل الذى ضربه وقتلـه. وبـدلاً مـن أن يحمـى والدى، فان الشيخ لعنه الله، سلمه إلى الحكومـة الـتى حكمـت عليـه بالـسجن عشر سنوات، فجئنا أنا وأمى للعيش مع خـالى (جاسـم). لقـد انقـضت سـت سنوات على ذلك والآن أرغب فى رؤية والدى".

كان (داود) فتى غريب الأطوار، فعادة ما يكـون مبتـهجاً ومليئـا بـالثرثرة، ثم ينقلب إلى الاكتئاب الصامت. عندما سمع خاله (جاسـم) أنـه سـيذهب معـى إلى العمارة قال إنه سعيد لذلك وأضاف:

"إن داود مخلص لأبيه، وهو لم يره منذ سجنه، وحـين حـدث ذلـك امتنـع عن الكلام والطعام عدة أيام. وحدث مرة أخرى فى العام الماضـى أن بـدا غريبـاً جداً ولا أحد يعلم ما الذى يقلقه، كان يهيم فى المكان مردداً:

"داود ميّت".

"ما كان ليشفى إن لم نضطر إلى أخذه إلى مقام (فوّاده) (١)".

كل مساء يجدّف الرجال والفتيان باتجاه مضيف (جاسم) تاركين مشاحيفهم عند مدخله منظمين جلستهم إزاء جدرانه. فى البداية كنا نكتفى بالكلام بغير ما كَلَفه، لكن (جاسم) اقترح ذات يوم أننا يجب أن نغنى:

"إى والله، غناء ورقص".

ووافق الجميع هاتفين:

"لنمتع أنفسنا، أين (خيّال) (٢)؟، فقد عاد اليوم من (مبرد)، أين الطبول؟ سوف نرى الرجل الإنكَليزى كيف يسلى المعدان أنفسهم. اذهبْ يا (فالح) وهات الطبول والدفوف، اذهب يا (داود) وارجع بـ (خيّال)".

---

(١) (فوّاده): العلوية المبجلة (فوّاده) بنت سيد نور بن سيد محسن الأخرس بن سيد فرج بن سيد تركى. ينتهى نسبها إلى الأمام موسى الكاظم ـ عليه السلام. هاجر جدها السيد تركى من منطقة الهندية فى الفرات الأوسط وسكن جنوب العراق، منطقة هور الحمّار ثم هاجر والدها السيد نور مع أولاده الأربعة وابنته (فوّاده) إلى منطقة البو صالح (ناحية الإصلاح حالياً) ضمن محافظة ذى قار وذلك فى عام ١٩٠٠م تقريباً. ولدت العلوية (فوّاده) فى أواخر القرن التاسع عشر، ومنذ طفولتها وشباها كانت على جانب عظيم من التدين والورع. تزوجت من أحد السادة إلا أنها لم تنجب فسرعان ما توفى عنها زوجها لتعود إلى بيت أبيها عاكفة على عبادة الله سبحانه. قتل شيخ عشيرة هناك ففر القاتل وعائلته ليلوذوا فى حمى بيت السادة أهل العلوية (فوّاده)، فبادر ذوو القتيل وخاصته إلى محاصرة البيت الذى خلا من إخوة العلوية ورغبوا فى اقتحامه بُغية إدراك ثأرهم غير أن العلوية (فوّاده) حالت دون ذلك ولم تسلّم دخيلها فوقفت سدا منيعا أمامهم فى باب الدار متصدية للرصاص الذى صدته عباءتها، فلما رأى أهل القتيل ذلك انصرفوا واستطاعت العلوية حماية دخيلها، فذاع صيتها على أثر ذلك بين الناس الذين رددوا: إن العلوية قلبت الرصاص طينا. أعتقد أن لهذه الواقعة وغيرها من الكرامات سواء أثناء حياتها أو بعد وفاتها الأثر العظيم فى تبجيل الناس لها ومن ثم زيارة قبرها بعد وفاتها سنة ١٩٣٠م الواقع فى المنطقة نفسها التى عاشت فيها. بعد تهافت الناس على زيارة قبرها شيد ذووها بناءً من الطين أولاً سرعان ما استبدل بالطابوق فيما بعد.

(٢) خيّال: لعله حيال وهو عم ياسين الشغانبى أحد المجدفين للمؤلف.

عاد (فالح) بطبلتين وجلب آخر دفين. الطبول عبارة عن أوان خزفية تشبه فى شكلها الفازات المتدرجة، بطول حوالى ثمانى عشرة بوصة وثمانى بوصات لأوسع نهايتيها، وتغطى بجلد رقيق. أما النهاية الأخرى فمفتوحة. كان (خيّال) الذى وصل الآن، بعمر (داود) و(فالح). غنّى عدة أغنيات يصاحبه (فالح) فى العزف على الطبلة. جدف الآخرون، وقد أغرهم الأصوات، باتجاه المضيف فامتلأ تماماً بعد احتشاد الناس بسرعة. لـ (خيّال) صوت عذب ويحفظ الكثير من الأغانى، كان بعضهما بإيقاع مبتهج ومرح ولا يزيد بعضها الآخر على النواح المنغم. قام (فالح) و(داود) وستة شبان آخرون مكونين حلقه صغيرة، وجُرّ اثنان آخران نحيفان لهما هيئة شيطانية إلى وسط الحلقة وهما محتجان وطلُب منهما الرقص. كانا أخوين، أكبرهما فى الثالثة عشرة. أخذ (خيّال) إحدى الطبلتين وأخذ (فالح) الأخرى وشرعا بمداعبتهما مستخدمين أطراف أصابعهما للنقر عليهما بسرعة، وقد كان الإيقاع مشوشاً بينما ضرب شابان آخران على الدفين. أما الآخرون فقد شبك كل واحد منهم كفيه مع بعضهما وراحوا يطقطقون أصابعهم ضاربين الأرض بأعقاب أقدامهم اليمنى.

رقص الأخوان فى البداية ببطء وكسل وقد راحا يؤرجحان جسديهما رافعين أذرعهما والتف جسداهما وتفتلا وراحت أقدامهما تتحرك بسرعة إلى الأمام وإلى الجانبين وإلى الخلف بينما راح الآخرون يغنّون بلا تقيّد. لقد وصل الرقص إلى ذروته. فجأة وقف الولدان مباعدين ما بين أقدامهما قاذفين بجسديهما إلى الأمام والى الخلف بما يشبه الطعنات بينما انتابت جسديهما رعدة كما لو أن كل عضلة تجتاز التشنج إلى الأخرى، ثم وبشكل عرضى، توقفا، ابتسما لمشاهديهما وجلسا.

لكن جلوسهما لم يطل، فمرّة بعد أخرى يُطلب منهما إعادة الرقص منوعين فيه قليلاً. من الممكن تلمس وضوح المحاكاة الجنسية فى رقص الأخوين، غير أنها لم تصدمنى بفحشها. ولكن فيما بعد عند المساء، أدّى الأخوان محاكاة تجديفيّة غير محتشمة وغير منسجمة مع صلاة المسلمين، فحينما كان الحاضرون يؤدّون الصلاة قام أحد الأخوين بإيماءات وحركات إيحائية حلف عجيزة الآخر المرتفعة. لقد اعتدتُ على التمسك بالأعراف السلوكية بين المسلمين، لذا فنظرت بقلق إلى أحد (السادة) الموقرين الذى جلب ولديه اليافعين لأختنهما عند الصباح. لكن الثلاثة كانوا يؤدّون صلاتهم على أتم وجه[١].



(١) لم يشر المؤلف فيما إذا كان الوحيد الذى رأى هذا التجديف، أو أن السيدّ وولديه أو غيرهم رأوه كذلك ورضوا به. وعلى العموم فهو سلوك صبيانى متماد لا يمكن القياس عليه لتكوين فكرة عامة كما أوحى المؤلف بذلك.

الفصل الثالث عشر

ضغائن فى الأهوار

يا موت... امنح ذاكرتى فتات الحياة. آه!
تذكرت أن لى أمنية.

وفى الأمسية التالية حين حلّ الظلام جلسنا أنا و(داود) فى المضيف مع ستة مرضى كانوا قد قدموا للعلاج وأمضوا ليلتهم هنا. ومن خلال مدخل المضيف، أستطيع رؤية المواقد التى تُشعل لتحمى الجاموس من البعوض، والحجب الكثيفة من الدخان الواطئ المنساق فوق الماء. بدأ البعوض بالظهور، فاستطعت التخيّل، بسبب تقارب جزر القصب، أن البعوض سوف يجعل من هذا المكان غير صالح للسكنى فى الصيف حتى للمعدان أنفسهم. كنت قد اعتدت سماع الإيقاع المتناغم لنقيق الضفادع ولم أعد أكترث له، لكنه تغيّر فجأة إلى تكرار لنغمة واحدة متطفلّة استطاع الآخرون تمييزها فقال (داود):

"إن حيّة أمسكتْ ضفدعاً، فالمكان يعجّ بها، وقد قتلنا إحداها فى سقف المضيف عما قريب".

واستمر الصوت المثير للشفقة مدة طويلة.

بعد سنتين كانت فى المضيف نفسه فى أثناء الصيف محاولاً تحريك الهواء قليلاً بـ (مهفّة) قصبيّة[١] حين أحسستُ بشىء ما خلفى. كنت على وشك وضع يدى

(١) مَهَفَة قصبيّة: Reed Fan: تصنع المهفة من سعف النخيل وليس من القصب. هذا ما ألفته، ثم بعد السؤال عرفت أن ثمة مهفة تصنع من البردى فى الحقيقة لكن الجزء الذى يمسك منها هو قصبة صغيرة.

على مصدر هذه الحركة حين أوحت لى غريزتى ألاّ أفعل. قلبت جسدى إلى الأمام وحدّقت إلى أسفل فرأيت حيّة بلون فاقع وبطول قدمين فضربتها بمقبض (المهفة) وقتلها.

إن الأفاعى شائعة لاسيما فى الصيف، ويؤكد المعدان أن أخبث نوع سام هو (العربيد) الذى يبلغ طوله عادة أربعة أقدام وبجسد غليظ، أسود مشوب بحمرة باهتة. لقد صادفت حالة واحدة فقط نتيجة عضة حيّة فى جنوب العراق كانت خلال مأدبة فى رمضان الذى توافق حلوله فى الصيف تلك السنة. فقد نوى رجل هو وابنته بعمر الرابعة عشرة زيارة (الجبايش) لبيع جبن من صنع بيته هناك، ولكى يتجنبا الحرّ، خرجا متوجهين إلى المشحوف عند آخر عتمة قبيل الفجر. داست الفتاة على حيّة وهى تنزل إلى المشحوف فعضتها فى قدمها وماتت خلال نصف ساعة. لقد اسوّد وجهها، وحين نقلوا الجثة انسكب دم أسود من فمها وانفها. لقد وصلت إلى تلك القرية بعد ذلك مباشرة. يعتقد المعدان بشكل راسخ بوجود نوعين من الأفاعى وكأنهم غير مكتفين بما هو موجود من الأفاعى الحقيقية: (العنفيش) و(الآفة). يُعدّ الأول مكسواً بالشعر بينما للآخر أرجل. يقال إن كلا النوعين يقطن قلب الأهوار وهما قاتلان.

بعد أن رفع (فالح) أطباق العشاء دخل رجل بوجه طويل نحيل وقد غطّت يده اليسرى خرقة منقوعة بالدم، كان قد جرحها وهو يجمع القصب. كان لون عينيه بلون الكهرمان الغامق وقد أضفى عليه الحول لإحدى عينيه مسحة الشؤم. كان قادماً من (الكَبيْبَه) قرية الفرطوس الكبيرة التى تبعد مسافة ساعتين فى الطريق إلى (الصيكَل).

قبل سنين، كانت (العيسى)، العشيرة الرعوية نفسها التى أقمنا فى مخيماتها أنا و(دوكالد ستيوارت) عند حافة الصحراء، قد حظيت بالسيطرة على (الصيكَل) القرية الكبيرة فى الهور ذات الحقول الغنية بزراعة الأرز من حولها. ومن هناك استحوذوا على (الكَبيْبَة) وبنوا وحصنّوا فيها حصناً صغيراً من اللبِن حتى ثار (الفرطوس) من أهل

(الكَبيبة) واستعادوا حريتهم فيها. كنّا أنا و(دوكَالد ستيوارت) قد مررنا بها بعد سنة من ثورة (الفرطوس). كان رجال مشحوفنا وهم من (العيسى) قد احتفظوا ببنادقهم معـدّة وجاهزة للإطلاق وكانوا لا يتبادلون التحية مع سكان القرية بسبب الثارات بينهم.

الرجل الذى داويت يده فى مضيف (جاسم) واحد من أبرز قادة تلـك الثـورة فسألته عن طبيعة المعركة، فقال بحماسة:

"لا حقّ لـ (العيسى) بـ (الكَبيبة)، فهم ليسوا معداناً، إنهم رعاة من البادية، و (الكَبيبة) فى الهور، إنها تعود لـ (الفرطوس) وقد بنى أجدادنا (دبنها). ومنذ استيلاء شيوخ (العيسى) على (الكَبيبة) بدأت المشاكل وهجر أغلبنا القرية وابتنينا لأنفسنا بيوتاً فى أماكن أخرى. لماذا يجب علينا مغادرة أوطاننا"؟

أضاف آخر:

"نعم، لماذا حقيقة؟ الله يلعن (العيسى)".

"وهكذا قررنا القتال. لقد طوّقنا الحصن فى اليوم الثانى عشر من شهر (كـصيّر)[1]. كانت قد مضت ثلاث ساعات على مغيب الشمس وكان القمر مضيئاً. نحـن نعـرف أن هناك ستة رجال يقودهم (فليّج)[2]. أوفدنا رجلاً مسنّاً اسمه (زايـر علـى)[3] ليخـبرهم بضرورة الاستسلام، لكنهم صرخوا بأننا معدان، كلاب أبناء كلاب، وإذا حصل أن اقتربنا قتلونا فى الحال، فهجمنا من كل الجهات بمشاحيفنا وقد هزجنا (أنا أخو عَلْيّهْ)".

---

(١) كصير: هو شهر شعبان يسمونه كذلك بسبب إحساسهم بسرعة انقضاء أيامه وهم يستعدون لاستقبال شهر رمضان الكريم الذى يتحمّل فيه المسلمون عناء الجوع والعطش.

(٢) فليّج العيساوى: اسمه بالأصل (فلك) أى الأمر العظيم الخطير، يُصغر إلى (فليّك)، كما هى عادة أهل الأهوار، ويبدو أن الكاف ثقيلة فأصبح فليّج. علماً أنه ليس عيساويا كما أكد الرجل المسن عماره بن ميسن بن رمَيِّس الفرطوسى، بل (ساعدى) غير أنه كان (حوشى) عند شيوخ العيسى، وكان شجاعاً كما وصفه قاتلوه.

(٣) زاير على الفرطوسى من بيت عبود، متوفى منذ زمن طويل، أوفده الفرطوس، كما أكد لى الكثير، لأنه عُرف بكونه رجلاً خيّراً وعلى دراية بالأعراف العشائرية.

كان مستمعوه منحنين إلى الأمام مفتونين بحكاية حرب عشيرتهم التي سمعها أغلبهم مرات لا حصر لها.

"كان بحوزتهم بندقية رشاشة ترمي حممها كالحالوب قاطعة القصب من خلفنا. الحمد لله، كان العبد الذى تولّى أمرها لا يتقن التصويب جيدا وإلاّ قُتل أغلبنا تلك الليلة. ترجلّنا من مشاحيفنا واندفعنا باتجاه الحصن، قتلنا اثنين قبل أن ندخله وقتلنا اثنين آخرين بخناجرنا. كنا مزدحمين فى غرفة أسفل الحصن حين أطلق أحد الرجلين المتبقيين من (العيسى) وأصاب أحد رجالنا فى انفه، فصرخ المصاب".

"لقد أصابنى من أعلى".

"فسارعنا إلى إطلاق وابل من الرصاص عبر السقف وقتلنا رجلاً آخر. لم يتبق غير (فليّح) فناديناه أن يستسلم لكنه رفض. كان شجاعاً بحق. تسلق بعض (الفرطوس) إلى أعلى باتجاهه فأطلق عليهم النار وقتل اثنين منهم، كانا أخوين. ثم هبط هازجاً بكلمة نخوتهم وسقط كأنه المنخل من رصاصنا. كان ابنه الصغير معه فطلب منا الرحمة فأبقينا على حياته فقد كان لا يساوى القتل وهو الآن فى (الصيكل) مع شيوخ (العيسى). مات اثنا عشر رجلاً من (الفرطوس) فى هذه المعركة(١).

---

(١) قتلى الفرطوس الاثنا عشر كما سطعت بهم ذاكرة الرجل المسن عماره بن محيسن بن رميس الفرطوسى هم:

١ ــ قاسم بن خشين بن خفى الفرطوسى.
٢ ــ صال بن ضهد بن رميْح الفرطوسى.
٣ ــ داموك بن كريم بن زغير الفرطوسى.
٤ ــ جاسم بن لازم بن نصر الفرطوسى.
٥ ــ فالح بن صالح بن حديّد الفرطوسى.
٦ ــ جاسم ابن جابك بن شندى الفرطوسى.
٧ ــ موسى بن عبد الحسن الفرطوسى.
٨ ــ محيسن بن جابر بن عساف الفرطوسى.
٩ ــ حسن بن حمينة الشويلى.
١٠ ــ مخيط بن مكراز بن شاوى الفرطوسى.
١١ ــ كريم بن مناحى بن جبر الفرطوسى. وغاب عن ذاكرة عماره اسم الرجل الثانى عشر.

علماً أن زعامة المعركة كانت بيد آل سعودى من الفرطوس.

أما قتلى العيسى كما أكدّ عماره بن محيسن فهم فضلا عن فليح:

قاسم الازيرجاوى ــ وأخوه شنيشل الأزيرجاوى وطاهر السمح وهو من عائلة شيخ العيسى مزيد بن حمدان.

وما أن توقف الرجل عن الديث حتى وثب (فالح) فجأة ضارباً الأرض بقدمه مترنماً:

يا أم كريم كُفّى عن العويل،

لان كريم خاض غمار الحرب(١)

وبثانية، هبّ البقية وقوفاً مرددين كلمات (الهوسة) وهم يضربون الأرض بأقدامهم دائرين فى حلقة.

ركض (فالح) وما أسرع أن عاد ببندقيته. أطلق منها عدة عيارات بشكل متقطع خلال السقف. انضممتُ إليهم وأطلقت عشر إطلاقات من بندقيتى. اندفع المزيد من الناس إلى داخل المضيف وهديرهم يتعالى أكثر فأكثر. وأخيراً توقفوا منهكين وأرسل (جاسم) (داود) ليجلب المزيد من السكر والشاى من العطار. سألت من يكون (كريِّم) (٢) هذا؟ فقالوا إنه الرجل الذى قتُل وهو يتولى عملية قيادة (الفرطوس) باتجاه الحصن.

بعد ثلاث سنوات، ذهبت للإقامة مع (العيسى) على البر، وعند الغروب رأيت الهلال الذى ينهى شهر الصيام الطويل، رمضان. تجمعت العشيرة المتناثرة فى اليوم التالى لتقديم الولاء لشيخهم وليتناولوا طيب الطعام فى خيمة ضيافته العظيمة. ومن الفجر بدؤوا يتقاطرون خلال السهل، ركب بعضهم خيولاً، وسار بعضهم الآخر على الأقدام وكل مجموعة تحت لوائها القرمزى. وأخيراً حين تجمعوا رقصوا رقصة الكر والفر على ظهور الخيل بينما كان المترجلون يهزجون دائرين مطلقين النار من بنادقهم مترنمين:

---

(١) أصل الهوسة بلهجتها: يا أم كريّم لا تبجين كريّم طاح بشاطى الملعب.

والملعب، كما يشير إليه الكثير من الموروث الشعبى، هو ساحة المعركة. علماً أن ابرز الهوسات التى ردها الفرطوس الغائرون على العيسى، والتى أكدت معنى الملعب أيضاً: احنا الحطينا بشاطى الملعب وأمناه.

و: يالحطيت بشاطئ الملعب ما تحماه.

(٢) كريّم بن مناحى بن جبر الفرطوسى أحد قتلى الفرطوس الاثنى عشر.

سوف نعود إلى المياه المكشوفة[١].
سوف نذهب ونعيد أمجاد (فليّج)
فتذكرت الليلة التى سمعت فيها عن موت (فليّج) من فم أحد قاتليه.

❁ ❁ ❁

تركت (جاسم) عند بواكير اليوم التالى. جاء معى (داود) واثنان من أتباع (جاسم) مسلحين ببنادق (لى أنفيلد) متبعين طريقا ضيقاً بين قصب شاهق حيث سدت نباتات (الشنبلان) ونباتات أخرى الطريق حتى بدا كأنه ممر مكسو بالطحالب. عانى رجال المشحوف مشقة دفعه خلال هذا الكم الهائل من النباتات. وفى هذه المرّة مررنا بـ (الكبيبة)، القرية الكبيرة المكونة من مائة بيت ووصلنا إلى سلسلة من البرك الصغيرة التى تمتد خلالها حقول الأرز إلى الغرب من (الصيكَل). وإلى الشرق من القرية، هناك بحيرة باتساع ثلاثة أو أربعة أميال تفصل الأهوار عن البر الرئيسى، تمتد فى هذا الفصل من السنة فقط خمسة عشر ميلا فى أراضى (آل أزيرج)، ثم فيما بعد عند ذروة الفيضانات سوف ترتبط مع الغمر الذى يغطى الكثير من الصحراء.

إن (الصيكل) أكبر قرية أراها حتى الآن، مقسومة بممر مائى فسيح امتدت على كلا جانبيه مساحة طويلة ضيقة من الأرض اليابسة حملت عدداً من المضايف والدكاكين، فى حين بُنيت بيوت القرية البالغة أربعمائة أو خمسمائة، بنموذج المعدان، على (الدبن). يطل على مدخل القرية الغربى حصن بُنى بالطابوق بشكل سريع من قبل (العيسى) حين كانت القرية تحت تهديد (البو محمد) فقد أظهرت جدرانه شقوقاً وصدوعاً عميقة. وفى الجهة المقابلة للضفة الجنوبية بناية ذات سقف مسطح معدّة كذلك للدفاع فى حالة الحرب بغرفها المبنية حول فناء صغير. وعلى بعد ثلاثين ذراعاً،

---

(١) هوسة العيسى ضد الفرطوس: نرد للبركَة وثار فليّج ما ننساه.

على لسان من أرض يابسة يتوغل فى البحيرة، يقف مضيف مهيب بإحدى عشرة (شبّة). كلتا البنايتين تعودان إلى (عبد الله) [1] عمّ (مزيّد) وممثله فى (الصيكَل). يعيش الشيخ (مزيد) نفسه مع عشيرته فى البر الرئيسى، وكل الموجودين من (العيسى) فى (الصيكَل) هم بعض أفراد عائلته وأتباعه، وما عداهم من سكان القرية من (الفرطوس) و (الشغانبة) وبعضهم الآخر من (البو محمد) و(آل أزيرج).

إن (عبد الله) متغيب حالياً، لكن ابنه (طاهر) [2] موجود فى البيت، وهو شاب فى السادسة عشرة من عمره وعلى دراية جيدة بطباع العرب فى الصحراء. لقد اقتادنى إلى المضيف حيث جلس عدة رجال مسلحون ملتفون بعباءات داكنة. إنهم مجموعة من (العيسى) جاءوا فى زيارة من الخيام فى البر الرئيس. عاد قريبا (جاسم) (الفرطوسيان) اللذان لا يكنان الود لـ (العيسى) حالما انهيا شرب القهوة، إلى (العويدية)، بينما كان (داود) آمنا بما فيه الكفاية فى (الصيكل) ما دام والده (هاشم) لا ينتسب إلى (الفرطوس) بل إلى (جاره) [3] وهى عشيرة صغيرة مبعثرة جماعات صغيرة جداً بين قرى الأهوار. سوف يكون فى خطر إذا مرّ بين (آل أزيرج) عبر البحيرة لأن والده قتل واحداً منهم الآن، وهو يشعر أن عبد الله قد خان والده، جلس (داود) بصمت مكتفياً بمداعبة مسبحته غير مبد أى استجابة لمحاولات (طاهر) الوديّة.

أُطلق سراح (هاشم) أخيراً وذهب ليعيش فى (العويدية) حيث ذهبت للتعرف عليه. لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات التى قابلتها من المعدان جاذبية. يبدو أكبر من عمره البالغ أربعين عاماً لان عشر سنوات فى السجن قد شيبت شعره وغضنت وجهه. وعلى الرغم من فقره كان يصرّ على استضافتى وأعلمنى الكثير عن المعدان

(١) عبد الله (عم مزيّد): لم أستطع ـ للأسف ـ الحصول على معلومة تخصه.

(٢) طاهر بن عبد الله العيساوى، صاحب مضيف فى الصيكَل، متوفى منذ زمن بعيد.

(٣) جاره: Jara، هم الجعاعره، مفردهم جعارى، عشيرة لم أستطع العثور على معلومات مهمة بشأنهم.

وعاداهم. ما يزال ثأر (آل أزيرج) يطارده لأن رجال العشائر لا يعدّون السجن عقوبة كافية للقتل، فلا يُحسم فى نظرهم إلا بقتل آخر أو (فصل). إن عشيرة (هاشم) قليلة العدد ومتفرقة، لذا هى أعجز من أن تنهض بأعباء (الفصل) الماديّة، هذا إذا قبل (آل أزيرج) بـــ (الفصل). على كل حال هو آمن من الانتقام ما بقى بين (الفرطـــوس) فى (العويدية)، ولكنه، ويا لسوء الحظ، أُقنع بمغادرتها.

حين كان (هاشم) ما يزال سجيناً، أعطى أخو زوجته (جاسم بن فـــارس) ابنتـــه (ابنة هاشم) إلى واحد من (البو محمد) منتزعاً منه خمسة وسبعين ديناراً مهراً لها. وكما هو معتاد، أنفق (جاسم) جزءاً من المبلغ فى تجهيز اللحف والمخدات وبقية تجهيـــزات البيت من الأثاث لتنتقلها إلى بيتها الجديد. وبعد إطلاق سراحه، طالب (هاشم) ببقية المبلغ، فاوضح له (جاسم) أنه صرف بقية المبلغ فى دعم عائلة (هاشم) فى أثناء مـــدة سجنه. وبناء على العرف العشائرى يحق للأب استرجاع ابنته المتزوجة حـــتى بـــرغم إرادتها وحتى لو أنجبت أطفالاً، ولكن عليه قبلاً إرجاع مبلغ المهـــر كـــاملاً. مـــارس (هاشم) هذا الحق برغم أن ابنته قد رزقت بطفل. وحين طالب زوجها بـــالمهر الـــذى دفعه قال له (هاشم) أن يسترده من (جاسم). ولان الزوج لم يصل إلى حل مقنع مـــع (جاسم) فقد التجأ إلى الحكومة التى أرسلت شرطيين اقتـــادا (هاشـــم) إلى العمـــارة للتحقيق معه. وسواء كان الأمر نتيجة نحس الأقدار أم مدبراً، فان الشرطيين كانا من (آل أزيرج) فاحتال ذوو القتيل معهما لكى يجلبانه عبر أراضيهم. احتج (هاشم) بقوة حين سمع بالطريق المزمع المرور خلاله لكنه أذعن حين أكدا له أن لهما عملاً يجب إنجازه فى الطريق وأنه سوف يكون آمناً تماماً معهما.

نزلوا لتناول الغداء عند نقطة الشرطة فى سوق (الطُوّيل) ثم خرجا كما لو أنهمـــا بصدد إكمال رحلتهما إلى العمارة. كان ثمة حشد بانتظارهم. وفى تلك اللحظة ظهـــر اخو القتيل وخطا إلى الأمام وأطلق النار على صدر (هاشم) من مسدس كـــان قـــد

استعاره من الشيخ. استلّ (هاشم) خنجره ولكنه انهار. وبعد أن أطلق المهاجم إطلاقتين أخريين ولاذ بالفرار تظاهر الشرطيان بملاحقته. اضطجع (هاشم) حيث سقط نازفـاً حتى الموت ولم يقترب منه احد. وبعد ساعة رجع الشرطيان ليحملاه إلى داخل مركز الشرطة. كان ما يزال حيّا ومحتفظاً بشعوره لذا اتهمهما بقتله ومن ثم مات.

رأيت (داود)بعد ستة أشهر من مقتل والده، كان قد ابتاع لنفسه مسدساً وكان عازماً على الذهاب وحده لأراضى (آل أزيرج) بحثاً عن قاتل والده. لم يكن (داود) ذا شخصيّة مستقرة ويبدو أن الصدمة شوّشته. حين حاولت نصحه بالعدول عن الذهاب إلى هناك وحده، كان يردد جملة واحدة فحسب لا معنى لها:

"مات (داود) قبل عشر سنوات".

ولم أره بعد ذلك أبداً.



الفصل الرابع عشر

العودة إلى الكباب

أنزّ شهوة... كطير فاجأته الذكورة وتنساب روحي خلف أقواس الأنوثة الزلقة أخطو بجرأة عرّاف معصوم، أستشرف حدّ النشوة، وقبلاً أستشرف تخوم الانتهاء. مقيت... أعرفه ذاك الانتهاء فأستقيم.

أخذني (طاهر) في المساء إلى البحيرة بطرادته في جولة انسقنا خلالها في بيئة مبهجة أثبت لي فيها انه رفيق رائع. كان برفقته فتى صغير اعتاد الصمت، يرتدي عباءة بحواش ذهبية. اعتقدت أنه أحد أقارب (طاهر) بيد أني علمت فيما بعد أنه ابن (فليج)، الطفل نفسه الذي كان بمعيّة والده حين قُتل في معركة (الكبيبة). حين عدنا إلى المضيف مع الغسق، كانت حشود الخفافيش تطير أسراباً إلى خارج القرية باتجاه الأهوار. تختبئ أعداد منها في سقوف المضايف ملطخة المضيف بفضلاتها. العصافير أيضاً تؤذي المضايف من خلال قطعها حبال القصب حول (الشباب)، لماذا وكيف تفعل ذلك؟ هذا ما لم أستطع معرفته. في السنة التالية جلبت معي بندقية هوائية[1] من بريطانيا، كانت نافعة جداً كمادة استهلال بين الغرباء المتمسكين بالشكليات. وما أن قدمتها حتى انتشر الصخب شاملاً حتى أشد اللحى بياضاً مطالبين بتجريب الإطلاق منها. إنك تستطيع عادة أن تنجح في كسب ود الناس من خلال مساعدتهم في قتل شئ[2].

---

(١) بندقية هوائية: air rifle لعل المؤلف يقصد هناد بندقية صيّد الطيور.

(٢) جملة أراد منها العمومية والإطلاق فلا تعني بالضرورة سكنة الأهوار، وهي على العموم نزعة غريبة بعض الشيء.

وفى بواكير الصباح التالى ذهبنا أنا و(داود) إلى (العكر). حين كنا نجـــذف عـــبر البحيرة الفضية، كانت طيور (grey terns) الرشـــيقة، كأنهـــا طيـــور (الزيطـــة)، والمكسوة بقطرات المياه المتلألئة، وأعداد من البط المتجمعة لغرض هجرتها الربيعيـــة، تطير فى طريقنا. خلفنا فى (الصيكل)، كانت المشاحيف تتهادى بنعومة وبلا ضجيج بين البيوت التى بدأت تستيقظ من نومها وأخذت تغرق تدريجياً وراء الأفق حتى لم يبد منها غير مضيف (عبد الله). ثم وجدنا أنفسنا فى عالم مغلق من الأهوارحيث النماء اليـــانع للقصب المشرئب من بين القصب الهشيم. وبعد ساعتين كنا على نحو مفاجئ وســـط مياه مكشوفة توسطتها جزيرتا (العكَر). تعود أكبرهما لـــ (الشغانبة) وهى مكونة مـــن مائة وخمسين بيتاً تقاربت حتى لم يعد يُرى ما بينها، أما الصغرى التى تبعد نحـــو مائـــة ذراع عن الكبرى وبمساحة تكفى لثلاثين بيتاً فتعود لبعض (البو محمد). كلتا الجزيرتين تدينان بالولاء لـــ (مجيد الخليفة). ترجلّنا عند شاطئ عبر سياج منخفض فوق كومـــة بردى منقوعة بالمياه. وفى (ربعة) كبيرة، استقبلنا (يونس) [1] الرجل ذو البنية الهزيلـــة والوجه الذى ينم عن ذكاء وتهذيب، وبرغم طبيعته المحافظة إلا انه بدا ودوداً.

كانت (الربعة) مزدحمة جداً، جلس فى موضع الشرف منها (سيّد) شـــاب مـــن (القرنة). وبينما كان بصدد جمع الأموال لغرض بناء جامع فى (القرنة)، استغل (السيّد) الفرصة لتحذير مستمعيه أن يوم الحساب قريب. أدركت امتعاضه من تطفلى، بعدها مباشرة سأل، كيف يأمل مستمعوه النجاة وهم يسمحون للكفار بتـــدنيس بيـــوتهم؟ اكتفى (يونس)، الذى كان يعدّ القهوة، بالصمت. وحين أصبحت القهوة جاهزة وقف (يونس) و(الدلة) بيده، التفت إلى (السيّد) وقال:

"أنا معيدى بسيط ولست عالم دين، وقد ظهر لى أن الإنكليز أطهر منّا. بعـــضنا قابلهم، وكثير سمع عنهم منذ سيطرتهم على هذه الأرض بعد أن طردوا الأتراك. إنهم

---

(١) يونس بن حاجم الشغانبي، توفى نحو سنة ١٩٧٨م.

لا يكذبون ولا يأخذون الرشاوى ولا يضطهدون الفقراء[١]، أما نحن ـ المسلمين ـ وكما تعرف جيداً، نفعل كل هذه الأشياء. هذا فضلا عن نقطة جوهرية هى أن هذا الانكليزى ضيفى".

ثم التفت إلىّ وقال:

"أهلاً وسهلاً صاحب، الضيوف فى بيتى يشربون فى الفنجان نفسه، هذه عادتى، وهؤلاء الذين يرفضون، فعليهم الانصراف".

جاء باتجاهى وأعطانى قهوة فى الفنجان الوحيد الذى يحمله، وحين اكتفيت، صبّ ثانية وناول الرجل الذى بجانبى. شرب الكل باستثناء (السيّد).

وفيما بعد، جاء (سيّد) من (العكر) نفسها، رجل فقير لا تتعدى حياته قطْع الحشيش لجواميسه ويبدو كأى معيدى معوز آخر باستثناء كوفيته الخضراء. جلس بجانبى وسألنى عن صحتى عدة مرات. توقعت أنه قد سمع بما وقع لابن عشيرته بسببى، وكنت قلقاً أن يطالب بتعويض أو ترضية. قال (السيّد) لـ (يونس) بعد العشاء:

"لقد سمعت أن (صاحب) يحب الغناء والرقص، دعنى أريه كيف يرقصون فى الحجاز، أرض أسلافى".

ثم بدأ بدوران رائع على قدم واحدة يختلف تماماً عن طفرات المعدان غير المقيَّدة. لقد أعجبت إعجابا شديدا بتلك الإيماءة فى الوقت الذى جلس (سيّد) آخر وقد أشاح بناظره وهو يدمدم مداعباً مسبحته. لقد كان (السيد) الوحيد الفظّ الذى صادفته، فالكثير منهم يبدو متحفظاً عند المقابلة الأولى، ولكن بمرور الوقت يتخلّون عن هذا التحفظ وأصبح عدة منهم أصدقائى الحميمين. جلب بعض (السادة) المتميزون نساءهم لغرض المعالجة لدىّ، وأبناءهم لختانهم، وهى الشعيرة الدينية التى ربما فضلوا، رغم كل شئ، مسلماً من أتباعهم لإنجازها.

---

(١) من الواضح أن يونس إنما يستعرض الأحوال الاجتماعية السيئة إبان العهد الملكى الجائر.

اقترح (يونس) فى صباح اليوم التالى أن نشاهد حفلة عرس فى (ربعة) كبيرة فى النهاية البعيدة للقرية والتى دعوا إليها (ذكر بأنثى) [١] مشهور من (المجر). سمعنا لبعض الوقت أصوات بعيدة لغناء وطبل. لبس شاب ثوباً نسائياً قرمزياً بشراشيب من اللؤلؤ المزيف وأقراطاً ذهبية ثقيلة، تدلّى شعره المسرّح والمعطّر إلى كتفيه. حشا منطقة الأثداء ووضع المساحيق على وجهه. لقد ظهر كفتاة مثيرة وتصرف بطريقة العاهرة المتصنعة المتكلفة، وكانت قدرته على الرقص مؤكدة. لقد وضع زوجاً من الصنوج فى كل يد وهى إشارة إلى الراقص المحترف مادام لا يستخدمها أحد من شباب القرى حتى إن تمتع بقدرات على الرقص. ومما يثير الغرابة، أن إيماءاته الجنسية كانت أقل وضوحاً من أولئك الفتيان الذين شاهدهم فى (العويديّة)، فكان أغلب رقصه عبارة عن عرض جمناستيكى من طراز بهيج. إن التعليقات التى سمعتها لم تترك مجالاً للشك فى ميوله الأخرى!

لا أثر لامرأة منفلتة بين العشائر، ولا عاهر ولا غيرها، فدليل تافه هو كل ما يُتطلب لوصم الفتاة والتشهير الدائم بها، والإشاعة كافية عادة ليبادر ذووها إلى قتلها بلا رحمة لكى يستردوا شرفهم. إن واجب إنجاز هذه المهمة يقع على عاتق أخيها الذى لا يمكن له أن يبقيها على قيد الحياة ويأمل أن يبقى ضمن عشيرته. وعليه، فالشاب لا يمكن أن ينام مع امرأة أو يلاطفها حتى يتزوجها. يجد الشباب الذكور إرضاءهم الجنسى مع بعضهم[٢]، ويكونون كتومين وحذرين فى إبداء أى إشارة غير اعتيادية فى

---

(١) ذكر بأنثى **dhakar binta** هكذا وردت فى النص.

(٢) يبدو المؤلف هنا غير معقول تماماً لعدة وجوه أولها، كيف استطاع التوصل إلى مثل هذه المعلومة فى مجتمع يتكتم أشد التكتم على العلاقات الجنسية الاعتيادية فما بالك بالشاذ منها؟ ثانيها أن قوماً بمثل هذه الحديّة والقسوة التى وصفها المؤلف نفسه فى ما يخص الشرف، كيف يتسنى لهم أن يكونوا لوطيين سواء كانوا سلبيين أم ايجابيين؟ لا أدعى انه مجتمع مثالى فى هذه النقطة فهو كأى مجتمع آخر، يحرم فيه الاختلاط بين الجنسين، قد يصادف إرضاءً مثلياً، ولكن ما يؤاخذ عليه المؤلف هو هذا الإطلاق والعموميّة.

سلوكهم الخارجى. إن (الذكر بانثى) هو لوطى محترف فى المدن، والمعدان يخاطبونه على هذا النحو، لكنى لم أسمعهم أبدا يناقشون اللواطة سواء كانت فكرة أو إشارة محددة لأى رجل أو شاب فى مجتمعهم[١]. وباختلاف معنا[٢]، يرجع شباب المعدان إلى الاستمناء بشكل واسع وقد يصل الأمر أيضاً إلى إرضاء حاجتهم مع الحمير.

صحبنى (يونس) بعد الرقص إلى فسحة حيث مشحوفه الذى أُعيد طلاؤه. لايدوم القار أكثر من سنة حتى يتصدع ويسقط فى الماء. قد تُرأب هذه الصدوع مؤقتا بتسخين القار بمشعل من قصب. يؤكد المعدان أن طلاء المشاحيف بالقار فى الجو البارد لا يدوم كما يدوم حين تطلى فى فصل الصيف. سُحبت العديد من المشاحيف إلى داخل السياج، خارج الماء. كان أحدها مقلوبا وقد أنهى أربعة فتيان صغار تكسير القار وإزالته من قعره وجوانبه. أذاب أكبر الصبية قاراً جديداً فى وعاء معدنى على نار صغيرة. كانت رائحة القار الدافئ تفوح من الفسحة المفروشة بكاملها بألواح المشاحيف المحطَّمَة. صاح الفتى:

" (على) [٣]، إن (يونس) هنا".

فظهر رجل مسّن بـ (دشداشة) قذرة من أحد البيوت. سال (يونس):

"هل أنجزت مشحوفى؟"

فأجاب (على):

"لا، ليس بعد، لكن إنجازه لن يطول، فـ (الفروخ) على وشك تقشيره".

إن (فروخ) هى التعبير الاعتيادى فى الأهوار لصغار الأطفال[٤].

فرش (على) (بارية) بإزاء جدار بيته وقال:

---

(١) ها هو المؤلف يعترف بانعدام أى إشارة للموضوع، الا يُعد ذلك دليلاً على ندرته؟

(٢) يقصد المؤلف هنا المجتمع الأوربى الغربى عموماً.

(٣) على أبو محارب الحجاوى من بنى منصور، متوفى منذ زمن طويل.

(٤) الكلمة العامية: فرخ وفروخ للجمع تطلق على جميع الأطفال دون سن الشباب أو البلوغ وليس للصغار منهم كما أشار المؤلف.

"اجلسْ، خذ راحتك ريثما ننتهى".

ونادى أحد الصبيّة:

"(حسن)، ابنى، اذهب وقل لهم أن يعدّوا الشاى".

فقلت إننا شربنا قبل قليل شايا فى بيت (يونس)، وشربنا أيضاً عدة أقداح فى الحفلة الراقصة، لكنه أصرّ:

"لايهمّ، اشرب المزيد".

وذهب لتفحص المشحوف.

إن الألواح الخشبية المعروضة مليئة بالشقوق والتصدعات. اختار (على) قطعاً صغيرة من الخشب من تلك التى على الأرض وبدأ بترقيقها وبريها بواسطة فأس ومن ثم سمرها فى أسوأ الشقوق. ثم قام الولد الأكبر بغرف بعض من القار المغلى بمغرفة وصبّه فوق قعر المشحوف ثم قام (على) بفرشه بسمك ربع بوصة. ظهر المشحوف كأنه جديد بعد أن انتهى، أسود، ناعماً لامعاً.

جاء (على) وجلس بجانبنا وأشعل سيجارة:

"انتظرْ قليلاً وبإمكانك أخذ مشحوفك".

وأرسل (حسن) بطلب المجاديف. لاحظت أن كل المشاحيف توثق فى الليل بعيداً عن البيوت على نحو مائة ذراع خارج (البركة). أوضح (يونس) أن هذا الإجراء لكى يبعدوا المشاحيف عن متناول الجاموس الذى يأكل القار! وهى عادة الجاموس فى بعض القرى ولا أثر لها فى قرى أخرى. يسأل المعدان حين يصلون إلى قرية غريبة فيما إذا كان جاموسها يأكل القار. أما جواميس (العكَر) فسمعتها سيئة فى ذلك!.

قالوا لى إن القار يأتى من مدينة (هيت) على الفرات قرب بغداد. لقد سبق لى أن كنت هناك وشاهدت أحواضاً صغيرة حيث يبقبق القار المذاب إلى خارج الأرض. يُرسل بعد تبريده على شكل قطع صغيرة صلبة تشبه حصى تعبيد الطرق. لا أثر للخشب الملائم لصناعة المشاحيف فى جنوب العراق، ويفضل بناة المشاحيف خشب

التوت من كردستان العراق لأضلعها، أما الألواح فيستخدمون خشباً مستورداً لهـا. هناك حرفيون فى هذه الصنعة، مثل (على)، فى الكثير من القرى الكبيرة فى الأهـوار وحولها. وفى (الهوير) على الفرات، التى تبعد بضعة أميال عن (الجبايش)، فـإن قريـة كبيرة بكاملها تعيش على هذه الصناعة، ولا تكتفى بصناعة المشاحيف فقط بل وسفن بساريتين. (حجى حميد) [1] الذى يعيش هناك، هو أشهر هؤلاء الحرفيين، تصل سمعـة طرادته إلى كل أنحاء جنوب العراق، لكن عمل آخرين غيره هو تقريباً ذو سمعة طيبة. يستطيع سكنة الأهوار إخبارك مَن الذى صنع الطراده بإلقاء لمحة عليها.

إن سكنة (الهوير) مسلمون، ولكن فى مكان آخر، أغلب بناة المشاحيف صابئة. وعلى الرغم من ورود ذكرهم فى القرآن الكريم ثلاث مرات مع النصارى واليهـود كأهل كتاب، فإن الصابئين الذين يُعرفون بـ (صَبّه) على العموم محتقرين ولا أحد من المسلمين يأكل أو يشرب معهم. يحرّم دينهم البتر والجدع وبالتالى فهـم لا يختنـون. يستخدم المسلمون مصطلح (صَبّى) للازدراء بأى شاب لم يخضع لعملية الختـن. مـن السهل تمييز الصابئة من خلال لحاهم الطويلة وكوفياتهم البيضاء المنقوشة بـالأحمر [2]. كل ما موجود منهم عدة آلاف فقط يتوزعون فى بغداد، والبصرة، وسوق الـشيوخ والعمارة وهم معروفون بمهارتهم فى الصياغات الفضية. يعيش الصابئة علـى شـكل عائلات منعزلة فى قرى المسلمين حول الأهوار، وأفنية البط هى علامات البط الداجن، بل البرّى فقط. يعتمّد الصابئة عن طريق الانغمار فى الماء كل يوم أحد وكـل وقـت يتعرضون فيه للتدنيس، وإلاّ، فإنهم ينتهكون حرمة شعائر طهارتهم. لهذا السبب عُرفوا

(١) حجى حمّيد: حميد بن سعودى من بيت مصارع، توفى سنة ١٩٨٦م تقريباً. وقد عُرف بالكرم فهو فضلا عـن إبداعه فى مهنته كصانع مشاحيف وطراريد كان صاحب مضيف. لقد أعجب به المؤلف أيما إعجاب حتى قال له انك تعادل (ركّى) صاحب معمل البنادق البريطانية المعروفة.

(٢) لم تعد هذه ميزة لهم فالكثير من المسلمين فى عموم العراق يرتدون كوفيات بمثل هذا اللون. راجـع هـامش رقم (١) من الفصل الثانى.

من قبل بعض الأوربيين غير الدقيقين فى معلوماتهم بأنهم نصارى يوحنا. إنهم فى الحقيقة وثنيون على الرغم من تبجيلهم الكائن الأسمى. تحوى ديانتهم، كما فهمت، عناصر مانوية(١)، ولغتهم الرسمية هى الآرامية.

غالباً ما يصنع الأطفال فى الأهوار أطوافاً(٢) من حزم البردى ينتقلون من مقدمها إلى مؤخرتها دائرين حول القرى على هذه الأطواف البدائية. رأيت مرة نوعاً مدهشاً من الزوارق يسمى (زْعيْمَه) فى فرع من فروع الفرات بعد (سوق الشيوخ). تصنع (الزعيمه) من القصب وتطلى من الخارج بالقار، يبلغ طولها عشرة أقدام وقدمين ونصف فى أوسع عرض فيها. قال لى صاحبها أن (الزعيمه) لا تدوم أكثر من سنة ولا يمكن تجديد طلائها بالقار ووصف لى كيفية بنائها. يأتى أولاً بست حزم قصبية، كل حزمة بست أو خمس قصبات، ويحدد طول القصب طول (الزعيمة) المنوى بناؤها، وتثبت هذه الحزم بإحكام إلى بعضها، كل حزمة بجانب الأخرى لتشكيل القعر، تاركاً ما مقداره ثمانى عشرة بوصة من كلا الطرفين سائباً يميلهما إلى الأعلى، ثم يحنى خمس قصبات طويلة على شكل حرف U، ثم يُدخل الوسط بين الطرفين السائبين للقعر فيشدهما إلى القعر نفسه. ويعيد ما فعله فى الطرف الآخر نفسه بالتناوب حتى ينتهى بناء الجوانب والنهايات لهيكل (الزعيمة). يُصلّب هذا الهيكل بربط عدد من الأضلع من خشب الصفصاف. تثبت حزمة من قصب قليل، الواحدة تلو الأخرى، على طول دواخل (الزعيمة) مغطية النصف العلوى من الأضلاع ومكونة الأرضية الداخلية.

---

(١) المانويّة: دين أوجده مانى (٢١٦ ــ ٢٧٦م) رجل فارسى اعتقد أن الوجود يدار بواسطة قوتين متنازعتين هما الخير والشر ممتزجتين حاليا، لكنهما ينفصلان فى المستقبل ويعودان إلى عالميهما. يتوجب على أتباع مانى الوصول إلى هذا الفصل من خلال الحياة الزاهدة. انتشرت المانوية على نطاق واسع فى آسيا وحوض البحر المتوسط لكنها اضمحلت فى الغرب فى القرن السادس الميلادى على الرغم من كونها ديناً رئيساً فى الشرق حتى القرن الرابع عشر الميلادى. ساهمت المانوية فى إثارة العديد من البدع فى الديانة المسيحية.

(٢) يسمونها (شاشه) جمعها (شاشات) وهى وسيلة سريعة الإعداد لمن يرغب البقاء طافياً، أو لعبور نهر إذا كان لا يجيد السباحة أو حين يتعذر الحصول على مشحوف.

وأخيراً تُحشر ثلاثة عصى قوية فى عرضها لتشكيل مقعد المجدف وتمتّن نهايتها فى مكانها الملائم بكتل من القار. أصبحت (الزعيمة) جاهزة الآن لأن تطلى بالقار من الخارج. يمتلك المعدان، بما فى ذلك أكثرهم فقراً، فى هذه الأيام مشاحيف من الخشب، ولكن فى الماضى، حين كانت وسائل المواصلات ليست بمثل هذا الشيوع وتصعب عملية الحصول على الخشب، فإن الكثير من سكان الأهوار يقتصر استخدامه على هذا النوع من الزوارق. وهناك زورق دائرى يسمى (كَفّة) شائع الاستخدام حول بغداد، وأقصى مكان رأيته فيه فى الجنوب كان أسفل الكوت، فقد رأيت واحدة فى منطقة (شيخ سعد).

من (العكر)، قررت العودة إلى (الكباب) حيث أستطيع بسهولة إرسال (داود) إلى العمارة. انضم إلينا اثنان من أبناء عمومة (يونس) كاد أحدهما أن يقلب المشحوف بطريقة خرقاء حين قفز إلى خارجه. لقد استمتعت بسماع الآخر يسأله:

"هل أنت (عُربى) هل أنت كردى؟".

ملمحاً إلى أنه لا يمكن أن يكون معيدياً. على طول الاتجاه إلى (بومغيرفات) كان طريقنا مثقلاً بجزر القصب. وبعد انطلاقتنا مباشرة اجتزنا عائلة مرتحلة. راح غلامان يستحثان ست جاموسات على السير متبعين أثر بلم يجدف فيه رجل كهل وصبى آخر مُطلقاً صرخات غنائية لتشجيع الجواميس على الاستعجال فى السباحة[1]، بينما جلست امرأة وثلاثة أطفال كان أحدهم عاريا تماماً إلاّ من طوق فضى حول رقبته عند مؤخرة البلم مع عجلى جاموس وقطة صغيرة وعدد كبير من الدجاج. أثقل مقدم البلم وارتفع بأشيائهم المتضمنة بنية البيت المفككَة، (بوارى)، جرار ماء، وأوعية الطبخ، وأكياس حبوب وفرش نوم. وقف كلب على قمة هذا الكوم بين أرجل ممخضة اللبن ونبح فى وجوهنا حين جازيناهم.

---

(١) يسمى هذا الغناء (شَلى) والفعل منه (يشلِى)، والجدير بالذكر أن لكل نوع من الحيوانات طريقة خاصة فى الشلى.

انتظر (صدّام) بعد أن سمع بوصولي إلى (العكَر) ليرحب بعودتي إلى (الكَباب).
سألت عن صحة (عودة)، ابن (صدّام) فقال:

"يقبّل يديك، لقد ذهب إلى دكان العطار، وخلال دقيقة سيكون هنا".

ما أن رسا مشحوف حتى وصل أول مريض، كان يئن ويتلوى في قعر مشحوف من ألم شديد في كليتيه على شكل تقلصات. توقعت أن يكون الألم نتيجة حصاة. ولغرض إزالة ألمه وإراحته دعكت جانبه بلطف بمرهم كابسكيوم فازلين. وحين توقفت التقلصات صرّح الرجل أني شفيته، لذلك أحسست أني طبيب دجال غير اعتيادي! لقد أصبح دوائي الحرّاق شائعاً لكل سكان الأهوار تقريباً، حتى الأطفال الصغار الذين يعانون بين وقت وآخر من الآلام التي يسمونها (خاصره). أراني طفل في الثانية عشرة من عمره، ذات مرة، بعض الحصى، كان أكبرها بحجم حبة البزاليا، ألقاها خارج جسده عن طريق البول. وفي مناسبة أخرى طلب (سيّد) شاب من المرموقين، دوائي الحرّاق موضحاً أنه يعاني من (الخاصرة) بين وقت وآخر، فأعطيته قليلاً منه في علبة كبريت فارغة محذراً إياه أن لا يقرّبه من عينه وأن يغسل يديه بعد استعماله. وبعد مرور عشر دقائق عاد (السيّد) يهذي بكلام غامض، فقد مسح، لسبب لا يعرفه إلا هو، عضوه الذكري بالكابسكيوم فازلين. كان يرقص لاوياً قسمات وجهه من الألم قاسماً أن الألم سيقتله، فلم أزد على اقتراحي بضرورة غسل كامل جسده بالماء والصابون. رأى أحد رجال مشحوفي أن مأزق (السيّد) مضحك بشكل لا يمكن مقاومته، فاقترح عليه أن يذهب ويبرد عضوه مع زوجته!

وفي صباح اليوم التالي، بالضبط قبل بزوغ أي نور، هزني (داود) ليوقظني قائلاً أن ثمة غلام[١] جريح جلبه أهله. قام رجل وامرأة بتمديد ولدهما وهو بعمر الثانية عشرة في الغرفة، وقد مُزقت (دشداشته) المقلمة بالأزرق والأبيض ونقعت بالماء وقد غطت خرقة اصطبغت

(١) الغلام: خلف بن حويد بن كَبان الشعيبي الفريجي، توفي في منطقة نهر العَز في محافظة ميسان سنة ١٩٩٥م تقريباً.

بلون الدماء نصف وجهه الأسفل. كانت عيناه الواسعتان السوداوان فى وجهه الشديد البياض، تتفرسان بى. أجابونى حين سألت ما الذى حدث:

"عضّه كلبنا".

كان الغلام يرتعش فدثرته ببطانياتى وأشعلنا ناراً لتدفئة بعض الماء ثم أزلت العصابة عن وجهه. كان خده ممزقا وقد مالت قطعة من النسيج كاشفة عن أسنانه الخلفية، وكانت هناك عضات أخرى فى ذراعه وكتفه. لم ينطق الغلام بكلمة مكتفياً بمراقبتى بعينيه غير الطارفتين. نظفت وطهرت الجروح ونثرت فوقها مسحوق السلفونامايد، ومن ثم، وبكل ما لدىّ من حذر، أعدت قطعة النسيج إلى مكانها وزرّرت الجرح. أشاح بوجهه جانباً لكنه لم يبك مطلقاً. وحين انتهيت همس لى:

"شكراً يا صاحب".

وكانت أول كلمة ينطقها. حقنته بالبنسلين وحرصت على توفير جلسة مريحة له قرب النار.

عاد (صدّام) حين كنا نشرب الشاى، وقال الأب الذى قدم من قرية فى الأهوار إلى جهة الشرق وتسمى (الدْوب) أن ابنه ذهب خارج الغرفة قبل ذهابه للنوم:

"فوثب كلبنا المتوحش الضخم عليه قابضاً على ذراعه، هاهى آثار أسنانه، ثم طرحه أرضاً محاولاً اقتناص حنجرته، الحمد لله أنه أخطأها وإلا قتله، لكن الذى حمى ولدى هو خده. لم يصرخ الطفل أبداً. الحقيقة يا (صدّام) أنى خرجت لأستطلع ما الذى يقلق الجاموس فوجدت ابنى يجاهد من أجل حياته. إن الله رحيم. كنا قد سمعنا أن الرجل الإنكليزى فى (الكباب)، لذا وصلنا هنا عند الخيط الأول للفجر. لقد قتلت الكلب قبل مغادرتى البيت".

كنت قلقاً أن يكون الكلب مصاباً بداء الكلب، لكن الأب أكدّ أنه لم يغادر (الدبن) المعزول. أخذوا الطفل عائدين بعد الظهر بعد أن وضعت فى يده الصغيرة ديناراً ثمناً لـ (دشداشة) جديدة. اندمل الجرح جيدا، وعلى الرغم من وجود ندبة

هلالية الشكل على خده لكنها لم تجعل شكل فمه شاذاً. يؤكد المعدان أن الكلاب لا تعضّ النساء والفتيات مطلقاً ومن المؤكد أنى لم أصادف حالة كهذه.

عقد (صدّام) العزم على أن يرينى أمسية لا تنسى حين علم باستمتاعى برقصهم. فبعد أن تناولنا وجبتنا جلب الطبول والدفوف مباشرة ودفأها على نار لكى يشتد الجلد. وما أن سمعوا النقرات الأولى لغرض تجريب الوقع حتى هبَّ الناس من القرية. حضر (عجرم) ووالده و(حلو) [1]الصغير مع أخويه الأصغر والأكثر احتيالاً منه. كان صوتاهما حادين صاخبين سرعان ما رافقاه مترنمين:

كالولى العرب عنك ظالم من زغر سنك

بهجرك عذبت حالى الله ينتقم منك

وصل (صحين)، رئيس قرية (بومغيرفات)، أيضاً، مع أخيه (حافظ) ومجموعة كبيرة من أفراد قريته تشمل شابين يدعى أحدهما (ياسين) [2] والآخر (حسن) [3] أصبحا فيما بعد من رجال مشحوف.

وكان هناك شاب (فرطوسى) أيضاً يتيم ومعدم جداً اسمه (داخل) [4]، كثير التشاجر مع الكل بالتعاقب، وبالنتيجة فهو ينتقل من قرية إلى أخرى بحثا عمن يستخدمه راعياً، لكنه كان مفتوناً بالفضول غير المتحشم لذلك يعامله الناس بطريقة ساخطة. كان هائماً بحب أخت (وادى) [5] الشاب المبتهج ذى الأربعة عشر عاماً

---

(١) حلو بن شذر بن مهودر الفريجى من بيت زباط. مات قتيلاً بسبب منازعات عشائرية فى سنة ١٩٨١م.

(٢) ياسين بن عناذ بن جثير الشغانبى. قتل بسبب نزاع مع آل ازيرج سنة ١٩٧٣م تقريباً.

(٣) حسن بن مناتى بن لهَيد الفريجى قتل اثر نزاع عشائرى مع عشيرة الشّدة سنة ١٩٩٥م.

(٤) داخل بن لازم بن خلف الفرطوسى. أمه فريجية لذا كان يمضى معظم أوقاته مع أخواله الفريجات، قتله الفرطوس بسبب نزاع سنة ١٩٧٨م تقريباً.

(٥) وادى بن طعيمه بن مدلول الفريجى، يسكن حالياً محافظة ميسان، منطقة نهر العز. أما أخته التى تزوجها داخل فيما بعد فهى واجدة بنت طعيمة بن مدلول، توفيت سنة ١٩٨٨م تقريباً.

الذى كان يجلس بجانبه. بقليل من التشجيع، نهض (داخل) وبدأ يرقص. كان وجهه وحركاته تثيران الضحك بسبب تعاسته ونقمته. لقد كان نجم الأمسية فقد رقص عدة شباب من بينهم (عجرم) ولكن (داخل) كان الوحيد الذى تعالت صيحات الحشد له:

"مرة ثانية".

"مرة ثانية".

بعدها أصرّ (حسين) أبو (عجرم) على الرقص، لقد كان راقصا مشهوراً أوان شبابه، لكنه الآن مجرد مثير للضحك لغرابة ما يفعل، فقد كان يتقافز هنا وهناك كفيل السيرك إلى أن ناداه (صدّام):

"اجلسْ يا (حسين)، دع (داخل) يرقص ثانية".

فى تلك الأمسية، جلس بجانبى عدة أشخاص لم أستطع تمييزهم وأعربوا عن عظم سعادتهم لعودتى مرة أخرى. لقد أمضيت معهم ليلتين فقط قبل أكثر من شهرين، لكنهم جعلونى الآن أشعر كأنى عشت معهم سنين.

انتهت الحفلة قبيل الفجر، وحين خرجت، كان ثمة ضياء باهت متردد فى جهة الشرق. وفى عتمة الجهة المقابلة استطعت سماع وقع المجاديف وأصوات منادية لبعضها البعض وهم يعودون إلى بيوتهم. أمر مستحيل ألاّ استجيب لهؤلاء الناس الحميمين.



الفصل الخامس عشر

فالح بن مجيد

فى الموجِ تذكرةٌ يفهمها الجدبُ وعُــرىَ
الظمأ فيها الشّاك فى استقامةِ خطّ الحــب
خذْ من صبر الموجةِ مرايا وانظر...

(مجيد الخليفة) هو شيخ (البو محمد) فى منطقة (المجر) فضلا عن أنه الحاكم المطلق للكثير من أرياف الهور. يقضى (مجيد) أغلب أوقاته فى بغداد بوصفه نائباً فى البرلمــان تاركاً شأن إدارة مقاطعاته لابنه الأكبر (فالح). لقد كنت فى الأهوار قبل ســنة مــن مقابلتى له وسمعت أنه عاد قريباً من بغداد حين كنت فى طريقى إلى (الكبــاب) وقــد ذهب (صدّام) وكبار رجال القرية بناء على دعوته لهم وليقــدّموا لــه احتــرامهم. اعتقدت أنه يتوجب علىّ زيارته أيضا، لذا توجهت نحوه ذات صباح، يقود مشحوفى (ياسين) و(حسن) الشابين من قرية (بومغيرفات) الذين مرَّ على بقائهما معى مدة ستة أشهر. كان مشحوفنا يعود لــ (ياسين) الشاب ذى الستة عشر عاماً، الطويــل وذى البنية الرشيقة كأنه رياضى، له وجه جذّاب عريض يشوبه أثر لدم منغولى، أما (حسن) فهو فى مثل سن (ياسين) نفسه، لكنه أقصر منه، وأكثر امتلاءً، وصياد مــاهر يمتلــك بندقية مخيفة من النوع الذى يُعبّأ من الفوهة مصنوعة محلياً ذات ماسورة مربوطة بسلك نحاسى. أقنعته بترك تلك البندقية قائلاً إن بإمكانه استخدام بندقيتى. ومن بين هــذين الاثنين، يبدو (ياسين) الشخصية الأكثر هيمنة والأفضل تجديفاً. وعلى الرغم من كونه ليس أكثر من شاب صغير إلا أنه يرى فى نفسه مهارة استثنائية حتى بالمعايير المعيدية.

ينقسم (المجر)، وهو فرع من دجلة، بعد مدينة (المجر الكبير) إلى فرعين هما (العَدل) و(الوادية) وكلاهما يتشتتان فى الأهوار بعد نحو ثمانية أميال بعد أن يفقدا الكثير من مياههما فى قنوات إروائية. لقد تتبعنا واحداً من هذه القنوات حتى التحقنا بـ (العَدل)، حيث تقوم قرية (مجيد). ربط (حسين) حبلاً بمقدم المشحوف وبدأ بجرّه[1] ضد التيار وتولّى (ياسين) إدارة دفته بمجدافه عند مؤخرته. اجتزنا سلسلة من القرى، وفى نحو الساعة العاشرة وصلنا قرية تشرف عليها بناية من الطابوق بسقف مسطح، دائرية وكبيرة تصدّعت جدرانها وتعرّت بفعل الجو. إنها بيت (مجيد) الخاص. انتصب بعدها مضيف قديم خرب مائل نحو أحد جانبيه. من الواضح إنه لم يبن مضيفه الجديد بعد رغم تكدس أكوام القصب قريباً منه. تسكّع حشد من الرجال فى الخارج حيث كان (مجيد) يجرى مقابلة داخل المضيف. تقدّم رجل باتجاهنا وقادنا إلى الداخل. نهض (مجيد) من مجلسه وصافحناه. يبدو أقل من متوسط الطول بسبب بنيته الثقيلة ومنكبيه العريضين جداً. كان ذا قوة هائلة عند شبابه لكنه هرم بسرعة فى أواسط عمره، أما الآن فترهلت بطنه فى طيات وبدا يتهادى فى مشيته. فوق رقبته الغليظة والقصيرة، انتصب وجهه المليء بالعروق والمغطى بهلب فضى. كانت عيناه، بصغرهما وتأطرهما باللون الأحمر، حادتين وشهوانيتين، يبدو كما لو أنه نهض تواً من سريره ولا يمكن التنبؤ بمزاجه. أمر بإحضار كرسيين، كأنهما صندوقين بمساند للذراع مصنوعين من خشب الصنوبر ومفروشين بمخمل أزرق وقد وضعا بحيث واجه أحدهما الآخر فى المضيف. دعانى (مجيد) للجلوس على أحدهما وجلس هو على الآخر. كان المضيف مزدحماً، لذا تمنيت لو كان جلوسى على الأرض كى لا أُنافى الذوق ولا أُحرج.

وبعد أسئلة شكلية عن الصحة عاد (مجيد) للاهتمام بمشاغله اليومية. إنه يتعامل بمقدرة عالية وبسرعة مع كل قضية ولكنه يبدى القليل من الاهتمام بمشاعر الآخرين،

---

(١) يجرى هذا التدبير حين تكون المياه ضحلة فى القنوات والأنهار الصغيرة وفى بعض مناطق الأهوار فى أثناء انخفاض مناسيب المياه، حين يلامس أسفل الزورق قاع النهر.

فما أن يعترض أحدهم حتى يخرسه بحملقته. جلس كاتبه، الرجل المتوسط العمر المكسو وجهه ببثور الجدرى وذو الطريقة الخانعة المذعنة فى التعامل، إلى جانبه مدوناً قراراته[١]. يلبس الكاتب، مثله فى ذلك مثل (مجيد)، (زبون) ثقيلاً من صفوف معتم وعباءة بنيّة، ومع ذلك كانت عباءة مجيد من نسيج راق إلى أبعد الحدود ورقيقة كنسيج العنكبوت. تعود جميع الأراضى إلى (مجيد) لذا فهو، بالنتيجة، غير متحيِّز فى حكمه، لكنه قلق فقط بشأن ضمان أعلى محصول ممكن. كان بخيلاً بشكل معروف، وهو أيضاً إقطاعى يقظ، يعرف كل ركن وزاوية من ممتلكاته، ولديه خبرة نصف قرن فى الحكم على مستوى المياه الذى يقرّر الخير والازدهار، وهو يعرف بالضبط متى وأين يبنى سداً ومتى تنقص المياه وكميتها.

تعترينى الدهشة لرؤية الأنهار العميقة، التى يصل عرضها إلى خمسين ذراعاً، تنهار عند الفيضان وبالإمكان أن تُسد بلا شيء أكثر من الأغصان المقطوعة، والقصب والتراب. إن المطلوب هو جهد إلزامى عظيم ليس فقط لبناء سدود كهذه بل لتنظيف القنوات وتقوية الضفاف كذلك. وككل العرب، فإن هؤلاء المزارعين يمتلكون إحساساً جمعيّاً تعاونياً قليلاً. فإذا ما تُرك الأمر لهم، فإنهم سوف يتكلمون ساعات قبل الاتفاق على إنجاز أى عمل مهما كان حيوياً وأساسياً! وحين يأتى اليوم الموعود، فإن عدداً قليلاً منهم يحضر، وينصرفون بعدها مثبطى الهمة[٢]. يعرف (مجيد) ما هو العمل المطلوب فيعطى أوامره وفقا لذلك ويجبرهم عليها، وإذا حاول أى رجل التملّص أو الإهمال فى مهمته فسوف يُطرح أرضاً ويُجلد.

---

(١) ملّة حميد بن بديّر بن حمداوى من أهالى الصويرة، متحالف مع عشيرة البيضان، لا أحد يتذكر تاريخ وفاته.

(٢) لا أحد يشك فى صدق هذا القول مادامت المعايير التى تقدر الجهود ضائعة، فسيكون أمراً منطقياً إحساس الفلاح العراقى بالضياع فى ذلك العهد مادام نتاج جهوده المضنية يذهب إلى غيره من الإقطاعيين. ولكن، على الرغم من هذه الحقيقة المرّة، فإن ما يقوله المؤلف بشأن تقاعس الفلاح العراقى فيه الكثير من الصحة.

إن شريحة من الموظفين وأهل الفكر من أهل المدن، على العموم، معادون للشيوخ حاسدون لثرواتهم ومهتمون بشأن تدمير قوتهم السياسية. حين يتكلم هؤلاء بألسنة ذربة عن مصادرة أراضى الشيوخ وتوزيعها على الفلاحين يهملون عادة حقيقة مهمة هى أن العراق لا يمتلك أى مؤسسة للرى قادرة على أن تحلّ محلهم. إن الكبار من شيوخ لواء العمارة عادة مبتزون ومستبدون، لكن معظمهم، مثل (مجيد)، فلاحون من الدرجة الأولى وعلى علم بمتطلبات مقاطعاتهم منذ الطفولة. الأفضل هو أن يشعر الإنسان بالحب نحو الأرض، شعورا يغوص عميقاً ويتقدم كل اهتمام شخصى. إذا ما أُستبدل الشيوخ بموظفين من بغداد أو الموصل فسيحتاجون إلى سنين ليكسبوا الدراية بتفاصيل الزراعة نفسها فى تلك المنطقة، هذا إذا اقتنعوا بالبقاء هناك. إن نجاح أو فشل الحاصل لا يؤثر عليهم بشكل شخصى، وعليه فمن المؤكد أنهم سيجربون منح المياه، ليس للفلاح المحتاج إليها أكثر، بل للذى يدفع أكثر.

"أتريد ماءً؟ ماذا ستعطينى؟ نصف دينار؟! لماذا جئت هنا وضيّعت وقتى؟ اخرج".

من السهل تخيّل المشهد. يكمن الحل فى عدم طرد الشيوخ، بل فى التأكد من أنهم أعطوا للفلاحين حصة أكبر من المطلوب وبعض الأمن والسلام فى تواجدهم على أراضيهم.

بعد ثلاث ساعات فى المضيف، بدأ الحاضرون بالتناقص. كنت ضجراً وجائعاً وكان المضيف نصف ممتلئ حين دخل الخدم بصينية مملوءة بدجاجة محمصة، وسمكة مشويّة، وأرز وخبز ومرق. وبناء على أمر من (مجيد)، وُضعت الصينية أمامى على منضدة كسيحة. وبعد أن غسلت يدىّ، دعانى إلى البدء بتناول الطعام. لقد توقعت أن يأكل معى، لكنه لم يبد أية إشارة لالتحاقه بى، عندها طلبت أن توضع الصينية على الأرض لكى يستطيع (ياسين) و(حسن) الأكل معى، فقال بفظاظة:

"لا، لا، كل حيث أنت، لا تهتم لأمرهما، سوف يتناولان طعامهما لاحقاً".

فأصررت على تفضيل الأرض كما هى عادتى فى الأكل مع رفاقى. فقال لى: "لا، لا، إبدأ حيث أنت".

والتفتَ لمحادثة شخص آخر. هذه ليست طريقة فى معاملة ضيف، فشعرت من هذه اللحظة أن الغضب أخذ بتلابيبى، لذا تناولت لقمة واحدة من الأرز ونهضت طالباً الماء لغسل يدى. نظر الجميع إلى (مجيد) الذى سألنى ما الأمر. فأجبته:

"لا شيء، شكراً جزيلاً، لقد شبعت".

"ها، دعوه يأكل على الأرض إذا كان راغباً فى ذلك".

شكرته مرة أخرى مؤكداً له أنى تناولت ما فيه الكفايه من الطعام وذهبت إلى مقعدى. أما (حسن) و(ياسين) فقد استفادا من زهدى فى الطعام فأبليا بلاءً حسناً! غادرنا بعد ذلك مباشرة.

لم أذهب بالقرب من (مجيد) مرّة أخرى لأكثر من سنة. وفى المرة التالية استقبلنى بشكل مختلف تماماً، فقد أصرَّ على أن أمضى ليلتى عنده وأكل معى وكان لطيفاً كمعوم العرب مع ضيوفهم. توقفت بعد ذلك فى مضيفه فى عدة مناسبات مسلماً عليه ومقدماً له احترامى برغم عدم اسلتطافى له.

وفى طريقنا إلى (الكباب) فى ذلك الصباح كنّا قد اتفقنا على قضاء الليل فى مضيف (فالح) على (الواديّه). لقد كان مضياقاً معى فى السنة الماضية ورجانى أن أعود غير أنى لم أفعل لأنى فى الحقيقة قد حُذّرت من الشيوخ كافة من قبل مجموعة أشخاص التقيت بهم عند (دوكَالد ستيوارت) فى العمارة. إنهم لم يصلوا إلى هنا ولم يستوضحوا الأمر بشكل جيد، لذلك أطلقوا أحكامهم وسط بيوتهم الفظة الطنانة فى المدينة. بعد استقبالى من قبل (مجيد) شعرت بدوام قلة الرغبة بزيارة ابنه واقترحت العودة مباشرة إلى (الكَباب)، لكن (ياسين) قال:

"لا، دعنا نقضى ليلتنا عند (فالح)، فهو مختلف".

بعد ساعتين استطاع (فالح) أن يشعرني بالراحة في مضيفه قائلاً:

"حداني الأمل أنك سوف تعود، لقد سمعت وما زلت عن إنجازاتك من المعدان، إنهم يفضلّون تطبيبك لهم، وأنا على يقين أن القرويين هنا سيحضرون لغرض الدواء. لقد رأيت الأهوار، دعنا الآن نرى شيئاً عنك، هل اصطدت خنزيراً في المدّة الأخيرة؟ ماذا؟ ولا واحد؟ انتظر فقط حتى ترتفع مناسيب المياه فنذهب لمطاردها معاً".

كان مشغولاً بمتابعة إزالة عوائق جريان المياه وتقوية ضفاف القنوات قبل الفيضان. أقمت مدة أسبوع سعيداً بهذه المناسبة لغرض عقد المقارنة بين الفلاحين والمعدان. كنّا نبدأ رحلة صباح كل يوم في طرادة (فالح) ونعود بعد الظهر متناولين غداءنا في قرية ما في الطريق. وكما قد توقع، فكثير من المرضى يحضرون كل يوم إلى مضيفه، وكنت أعالجهم قبل مغادرتنا أو بعد عودتنا. وفي قرية (زاير محيسن) قابلت (مناتي)، الرجل الذي شقت آليته الخنزيرة. لقد صدمني ما آل إليه من نحول وانحناء حين رأيته وتذكرت الكلمات التي صرخ بها الرجل العجوز:

"هذه الخنزيرة أتت على (مناتي)".

"هذا شاب جيّد".

قال (فالح) وهو يشير إلى واحد من شابين كانا يساعدان (زاير محيسن) في إعداد الغداء، ثم أكمل:

"إن والده (ثكَب) (١) لا يستطيع العمل الآن و(عمارة) هو المتكفّل بالعائلة، إنهم فقراء جداً".

ثم سأل (فالح) (عمارة):

"أليس صحيحاً أنك سُميت (عمارة) لأن أمك ولدتك هناك في السوق"؟

فأجاب (عمارة):

---

(١) ثكَب بن جلاج الربيعاوي الفريجي، ولد نحو سنة ١٨٩٠م وتوفي في (رفيعه) سنة ١٩٥٧م.

"نعم، صحيح، لكني لم أذهب للعمارة منذ ذلك اليوم".

كان ذا بنية نحيفة ووسيماً بشكل لافت للنظر، رشيقاً وهادئ وذا طبيعة ارستقراطية. أما الشاب الآخر فعلى عكس (عمارة)، أخرق وبعيداً عن الوسامة ولكنه طيب بشكل واضح. سمّاه (فالح) (سبيتي) [1] وقال لي إن والده عطار، مضيفاً أنهم ذوو سعة وكرماء جداً. ظهر (سبيتي) راضياً مسروراً لهذا الإطراء. وجدت كلا الشابين وعدّة آخرين من القرية نفسها التي تبعد نحو خمسة أميال ينتظرونني خارج مضيف (فالح) لكي أختنهم، وحين سألت (عمارة) كيف سيعودون إلى بيوتهم بعدها؟ قال:

"سوف نبقى هنا حتى يخف الألم ويتوقف النزف، عندها سوف نعود".

وهذا ما فعلوه.

في مضيفه الخاص، يحافظ (فالح) على هيبته بوصفه شيخاً، شاعراً بأهميته، ولكنه في القرى يبدو ودوداً رافعاً للكلفة. كان الدفء الذي يحييه به كل القرويين واضحاً. يتراكض الأطفال أمامنا متصارخين:

"فالح قادم".

وحين نصل، يناشدنا آباؤهم بإصرار على تشريف بيوتهم. يكون شديداً لمناسبة ما، وحتى بلا رحمة، لكنهم يحترمونه أكثر لشدته، ولم أسمع مطلقاً بحكم من أحكامه تجاوز الصواب. يتصرف على وفق تصورهم المثالي للشيخ، نبيل المولد، إنه الزعيم الذي يعجبون ويثقون به ويخافون منه. يحسد الكل مهارته مع البندقية على ظهور الخيل ويتمنونها، ويستطيع قيادة مشحوف بسهولة ولا يشبهه في ذلك الكثير من الشيوخ. وفيما يخص الشيخين، (مجيد) و(محمد العريبي)، فما زالا مؤثرين مثيرين للرهبة مع تقدم عمريهما، باقيين على قيد الحياة من أزمنة قاسية وأكثر نشاطاً. أما بقية

---

(١) سبيتي بن لازم بن صويح الوزوازي، أحد رجال مشحوف المؤلف، علماً أنه تولى التجذيف بالرحالة غافن ماكسويل صاحب كتاب «قصبة في مهب الريح». يسكن حالياً في محافظة ميسان.

الشيوخ فأغلبهم، خاصة الشباب منهم، سمان بأجساد مترهلة وكسالى. إنهم قلقـون على الدوام على صحتهم مجربين دوماً أى أدوية متاحة. (جاسم بن محمد العـريبى) [١] هو الوحيد الذى يُعدّ كفئا لـ (فالح) لكنه ميّت الآن، لذا يقول الناس:

"إن الوحيد المتبقى هو (فالح)".

حين عدت إلى (الكباب) بعد أسبوع، اشتريت لنفسى مشحوفاً واسعاً وأكثر ثباتاً من كثير من المشاحيف. دفعت عشرة دنانير ثمناً له. يبدو جديداً تقريباً وبحالة جيـدة. قال (ياسين):

"الآن، أنت واحد منّا. فى هذا المشحوف سوف نأخذك إلى حيث تودّ الـذهاب، سوق الشيوخ، والكوت، والبصرة، وأى مكان".

عدنا فيه إلى قرية (فالح) بعد ستة أسابيع لاحقة، وحين رسونا سألته بغرور:

"ما رأيك بمشحوفى الجديد"؟

"لا بأس به، ولكن انتظر حتى ترى ما الذى انتظرتك لأجله".

أعطى أوامره إلى خدمه الذين ذهبوا وعادوا يدفعون طرادة جديدة تماماً، شديدة السواد متلألئة، ونحيلة وعالية المقدم. كانت تنـزلق باتجاهنا خلال الماء.

"وصلت البارحة من (الهوير)، إنها لك، أمرت ببنائها لك".

---

(١) الشيخ جاسم بن محمد بن عريبى بن وادى وأمه فَتَر بنت يسر بن فيصل الفيصلاوى، ولد سنة ١٨٩٥م وهو أكبر أولاد محمد بن عريبى وأكثرهم شجاعة وجرأة، امتاز بجمال الملامح ونعومتها... تزوج ثلاث نساء:

١ ــ خالدية بنت عصمان بن يسر الفيصلاوى وأنجب منها حطاب، وكريم، وبانى.

٢ ــ حسن بنت حميدى بن خفى الظالمى وأنجب منها عزيز وفالح الذى يتزعم بجدارة عشائر البـو محمـد، والذى يتميز ببسـاطته وحميميته.

٣ ــ طُلَيّعَه بنت فالح الصيهود وأنجب منها فيصل يسكن البصرة حالياً.

مات عام ١٩٤٣م فى أحد مستشفيات البصرة وأحيط هذا الموت بالكثير من التقوّل الخطير آثرت عدم ذكره هنا لأنه لا يُعد شيئا حاسماً ونهائيا. المهم أن موته كان كارثة حقيقية حلت بعشائر (البو محمد) التى نعته بحـزن شديد وراح الشعراء والمغنون يتبارون فى رثائه.

وأضاف (فالح):

"ربما يستهويك أن تفكر أنك واحد من المعدان، لكنك فى الحقيقة شيخ، هذه الطرادة جديرة بك".

هتف (ياسين):

"اللّه، ما أجملها! إنها واحدة من طراريد (حجى حمّيد)، وهى من أحسن ما بنى، لا مثيل لها".

كان لا يقرّ لى قرار، حاولت أن أعبرّ عن شكرى، لكن (فالح) وضع يده على كتفى قائلاً:

Sahib Inta Sahibi، (صاحب) أنت صاحبى[١].

فى تلك الأمسية، اقترح (فالح) حاجتى إلى شابين آخرين مثل (ياسين) و(حسن) ليكتمل طاقمى. إن أى رجل أكبر منهما سناً أو متزوج لن يرغب فى مغادرة عائلته شهوراً بلا انقطاع. حضر (عمارة) و(سُبيْتى) صباح اليوم التالى، حين سمعا برغبتى، ليعرضا خدماتهما. سألتهما عن المدة التى شفوا خلالها فقال (عمارة):

"ما أن انتهيت، فلا شئ بعدها، ذهبت لقطع القصب بعد ثلاثة أيام، وهذا ما فعله الآخرون".

يتمتع (عمارة) بفتنة هادئة تجعله جذاباً جداً، لكنى أتساءل بشك إن كانت لديه قوة ليجدف فى طرادة لرحلات طويلة. طمأننى (حسن)، الذى ينتمى إلى (الفريجات) أيضاً، أنه أقوى مما يبدو. ينتمى (ياسين) إلى (الشغانبة)، و(سُبيْتى) إلى عشيرة غامضة لم اسمع عنها أبدا[٢]. قلت لـ (عمارة) و(سبيتى) أن بإمكانهما الالتحاق بنا، وبقيا معى

---

(١) هكذا وردت فى النص.

(٢) ينتمى سبيتى إلى عشيرة تسمى الوزاوزة وهى على ما أكد أكثرهم، فرع من عشيرة الباوية العشيرة العراقية ذات الجذور القديمة فى العراق وهم من صلب قبائل ربيعة العدنانية واتخذوا من محافظات العراق موطناً لهم من بينها محافظة ميسان.

حتى غادرت العراق. على الرغم من أنه أصغر من البقيـة، إلا أن (عمـارة) كـان الشخصية الأقوى، يطيعه (سبيتى) منقاداً ونادراً ما يعترض (حسن) علـى قراراتـه. (ياسين) فقط هو المتمعض أحياناً من قيادته وميّال إلى أن يجد نفسه الرجل المنعزل عن المجموعة. تعلّم (عمارة) و(سبيتى) بسرعة مساعدتى فى التطبيب، وكان (عمارة) يحقن الإبر أحياناً. لم أكن أدفع لرجالى أجراً منتظماً قائلاً لهم إنى أردهم رفاقـاً لى وليسـوا خدماً مستأجرين. لقد كسوهم، وفى الحقيقة، أعطيتهم أكثر مما كانوا يأملون. وفيمـا بعد، حين تزوجوا، ساعدهم فى مهور زوجاهم. حين كانوا يُسألون، ما الذى أعطاكم إياه الرجل الإنكليزى؟ يجيبون باعتداد:

"لا أجر لنا، نحن نرافق (صاحبنا) للمتعة، وهو سخي ويعتنى بنا".

فى تلك السنة، قطعنا بطرادتنا الأهوار الوسطى وارتحلنا منحدرين أسفل الفرات إلى القرنة، ثم عدنا إلى (الصيكل) وأقمنا مرّة أخرى مع (العيسى) فى البر، وزرنـا (آل أزيرج) الذين لم نرغب بهم ولا بشيوخهم. وكررنا الزيارة لـــ (جاسـم) وأتباعـه (الفرطوس) حيث وجدنا (داخل) الشاب الذى أمتعنا برقصه فى (الكبـاب). إنـه لا يزال معدماً، لكنه الآن أكثر نحولاً وهزالاً، ومن الواضح أنه يُحتضر مـن البلـهارزيا ومضاعفات مختلفة. وبعد نقاش طويل بدا لا نهائيا، أقنعته بالذهاب إلى البصرة للعلاج، كانت عيناه تدمعان حين غادر. أرسلته إلى هناك ومعه رسالة إلى صـديقى (فرانـك ستيل) (١) الذى كان نائباً للقنصل.

بدأ الصيف وتحلقت غيوم البعوض فى الأهوار فوق رؤوسنا حتى فى النهار حـين كنا نمرّ بالممرات الصامتة بين جزر القصب الشاهق. وفى الليل يأكل بنهم من أجسادنا العارية لان الجو كان حاراً بحيث لا نستطيع أن نتغطى حتى بأخف الأغطية. كنا سعداء بمغادرة الأهوار والارتحال بدلاً من البقاء فيها متنقلين بين قرى منطقة (المجر) متعـرفين

---

(١) فرانك ستيل **Frank Steele**: لم أستطع العثور على أية معلومة تخص هذا الرجل.

على أصدقاء جدد من بين الفلاحين. ولكن، بغض النظر عن مدى طول رحلتنا طويلة كانت أم قصيرة، كنا دائماً نعود فى نهايتها إلى مضيف (فالح). ومن عادة أى شخص يرى طرادتنا، حتى (فالح) نفسه، الانتظار على الضفة ليرحب بنا. وبين الحين والآخر نعود متأخرين فى الليل أو فى ساعات الصباح الأولى، فننام فى المضيف الفارغ فيجدنا (عبد الرضا)، الرجل العجوز المسؤول عن القهوة، حين يأتى إلى المضيف عند الفجر فيسرع بإخبار (فالح) بأن أصدقاءه هناك.

لا يشبه بقية الشيوخ، فـ (فالح) يكره حياة المدن ونادراً ما يزور بغداد أو العمارة. يقيم أحيانا بعيداً عن مضيفه ليلة أو ليلتين مع أقاربه فى (المجر)، واغلب الأحيان مع (محمد) [1]، أخو مجيد الأصغر، الذى كان، على الرغم من فقره، مبسوط اليد ومن أكثر الناس جدارة بالحب. وكان (عباس بن محمد) [2] البدين بشكل مرضى ذو البنية الغليظة، وبعمر العشرين، أقرب أبناء عمومة (فالح) إليه وأكثرهم أثره عنده. لقد مضّيت عدة ليال مع (محمد) حين كنت أرافق (فالح). كنا ننسحب، بعد العشاء فى المضيف، إلى غرفة خاصة فى بيته. كان أتباعه عبارة عن مجموعة من الموهوبين فى الغناء والرقص، وقد اعتاد صبى منهم على وجه الخصوص محاكاة موظفين محليين، وهم يتمتعون بقضاء ساعات فراغهم هناك، بعبارات منطوية على مبالغة مجفلة[3].

يصبح الهور القريب من بيت (محمد) فى فصل محدّد مأوى مفضلاً للخنازير التى تدمر حقول الأرز فى أثناء الليل. طاردناها أنا و(فالح) فى مشحوف صغير على طول سدّة تشطر جزر القصب. وذات يوم قتلت سبعاً وأربعين منها، وفى آخر، قتلت اثنين وأربعين. هذه الخنازير من صنف واحد كالخنازير البريّة الأوربية والهندية، لكنها هنا

(١) محمد بن خليفه بن وادى بن منشد أحد أربعة أخوة لمجيد لأمه وأبيه، فهناك أخ غير شقيق لمجيد اسمه محمد أيضاً.

(٢) عباس بن محمد بن خليفه بن وادى، ولد عام ١٩٣٠م ، يسكن فى بغداد، منطقة الحسينية حالياً.

(٣) إنه جبر بن سلمان المشتتاوى، متوفى منذ زمن طويل، هذا ما أكدته ذاكرة الرجل المسنّ دهيش بن نافل الحميداوى، أحد دوافيع فالح بن مجيد الذى يسكن مدينة الثورة حالياً.

تبلغ حجما استثنائياً. قست اثنين منها كمعدل، فكان عرض كتفيهما سبعاً وثلاثين بوصة. كم تأسفت لأنى لم أقس واحداً كبيراً بحق. فى النهار تلازم الخنازير النوم فوق أعشاش من الحشائش مشبعة بالماء، تبنيها عادة على الضفاف الواطئة التى تحاذى السدود. وهذه الأعشاش، التى يصل عرضها أحيانا إلى ستة أقدام، عبارة عن أكوام عظيمة من البردى وأعشاب أخرى تقطعها وتحملها بأفواهها إلى مسافة بضعة أذرع عادة. وحين تطغى مناسيب المياه فى الأهوار تتحرك الخنازير متجهة إلى خارجها لتنام، على الأغلب، فى بساتين النخيل المهملة وفى الأراضى ذات الأشجار الخفيضة المتقاربة الشائكة التى رأيت فى إحداها أيضا ذئباً وثلاثة جراء. كنّا أنا و(فالح)، إما أن نُكره هذه الخنازير على المشى سائرين خلفها، وهو أمر مثير لكن حظنا فيه قليل فى الفوز بقتلها، أو نسوقها إلى الخارج، إلى الأراضى المكشوفة ونطلق عليها النار من على ظهور الخيل.

توجّبَ علىّ المغادرة أخيراً كما خططت لذلك فى الخريف إلى جبال شمالى الباكستان. كان (عمارة)، و(سبيتى)، و(ياسين) و(حسن)، الذين بدأوا يُسمّون أنفسهم رجالى، معى عند آخر ليلة لى مع (فالح) فى قريته. وعند العصر، خرجنا خارج المضيف بحثاً عن جو ألطف، وجلسنا على الحشائش. إن ريح الأربعين يوماً التى هبّت خلال حزيران (يونيو) لم يسبق لها مثيل فى حرارتها، والآن، لا أثر لأى حركة للهواء. ما إن غربت الشمس حتى عاودت الثعالب عواءها الجماعى الغريب من وراء منخفض النهر. طلع البدر وطارت الخفافيش طيرانها القلق حائمة فوق رؤوسنا. أكلنا بطيخاً وعنباً من بستان أحد (السادة) وشربنا (نومى البصرة). خرج (عبد الرضا) من المضيف والدّلة فى يده، قال لى: "لن نشرب مثل هذه القهوة أينما ذهبت، اشربْ المزيد مادمت تستطيع".

وقال (فالح):

"لا تمكث بعيداً عنّا مدة طويلة".

❁ ❁ ❁

الفصل السادس عشر

مصرع فالح

مُستباح... مُرٌّ فمي، عَتّمه عُرى (الكَاهن)
فى ليل الكوفيات السود، ياليل، أحُزنــك
أحلك من حزنى؟

هبَّ ابن (عبد الرضا) الصغير على قدميه وهو يصيح:
"أهلاً وسهلاً (صاحب)، أهلاً وسهلاً".
وهزّ نائماً آخر:
"هيّا، استيقظْ، لقد عاد الإنكليزى، اذهبْ وأخبرْ (فالح)، أنا ذاهــب لإحــضار والدى"..

نام عدة أشخاص فى المضيف فاستيقظوا الواحد تلو الآخــر مــرتبين عبــاءاتهم وكوفياتهم. وحين تقدموا نحوى مسلمين عليّ عرفت أنهم جميعاً من أتباع (فالح).

"أهلاً وسهلاً (صاحب)، أهلاً وسهلاً. إنه يوم عيد، لقد غبت عنا طويلاً".

كانت مغادرتى فى الأسبوع الأخير من تموز (يونيو) ١٩٥٢م، والآن وقت العصر من شباط. بدت تلك الشهور السبعة طويلة، قطعت فيها ممرات مرتفعة خلال الثلوج فى الهندوكوش[١] للوصول إلى البحيرة الباردة الزرقاء فى كورم بار[٢] حيث ينبع نهــر

---

(١) الهندوكوش: Hindu Kush: سلسلة جبال فى قلب آسيا تمتد إلى نحو ٥٠٠ ميل مــن شمــال وســط أفغانستان إلى بامريس Pamirs وكاراكورام Karakoram، أعلى قمة فيها هى (ترج مِر) وتعلو نحــو ٢٥٢٦٣ قدماً.

(٢) كوررمبار korombar: لم أعثر على أية معلومات تخص هذه المنطقة أو المدينة.

جترال[١]. لقد أشرفت على واكاند[٢] من خلال ممر بوروجل[٣] ورأيت من بعيد ومضة نور حيث الأوكسوس[٤]. لقد نمت على أنهار الجليد عند سفح (ترج مِر) حيث العتمة تجلل البيوت القذرة بين بساتين التوت وحيث يعيش بقايا الكفار السود[٥] عند حدود نورستان[٦]. والآن، وأنا أعود مرة أخرى إلى المضيف (فالح) على حافة الهور، أشعر كأنى أعود إلى وطنى.

ها هو (عبد الرضا) الأثرم المحدودب الظهر ينطق مسرعاً:

"ذكرك فالح البارحة، متسائلاً عن موعد عودتك. (صدّام) كان هنا منذ بضعة أيام قادماً من (الكَباب) وهو أيضاً يسأل عنك، أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً، إن اليوم يوم عيد".

جلسنا حول موقد القهوة ونهض الجميع حين جاء (فالح)، عانقنى طويلاً وقبّلنى على خدىّ وسألنى كيف كانت أحوالى:

"لماذا تأخرت كل هذه المدّة؟ لقد توقعنا قدومك فى الشهر الماضى، أليس كذلك يا (عبد الرضا)؟ على كل حال، إنه لأمر رائع أن نرى عودتك الآن، سوف يُسعد المعدان عندما تصلهم أخبار عودتك. كثيراً ما يسأل (عمارة) و(سبيتى) عن عودتك، سوف يكونون هنا حال علمهم بوصولك".

---

(١) نهر جترال **Chitral**: لم أعثر على معلومات لهذا النهر رغم الجهد.

(٢) واكاند **Wakand**: لم أعثر على معلومات لهذا الإقليم أو المدينة.

(٣) بروجاس باس **Porogil Pass**: لعله ممر خيبر الذى يقطع سلسلة جبال الكوش الهندية والتى تمتد إلى أفغانستان.

(٤) أوكسوس **Oxus**: أو **Amudarya** أموداريا: نهر بطول ١٣٥٠ ميلاً ينبع من سهول **Pamirs** بامريس المرتفعة التى تغطى معظم أراضى طاجيكستان، ماراً بجبال الهندوكوش مشكلا الحدود الروسية الأفغانية ويعبر أوزبكستان إلى مصبه فى بحر الأورال.

(٥) الكفار السود **Black Kafirs**: قوم منعزلون غريبو الأطوار يسكنون منطقة نورستان.

(٦) نورستان **Nuristan**: منطقة فى شمال غرب أفغانستان جبل سكنتها من الكفار السود.

بعد أن شربنا القهوة قال:

" (صاحب)، من الآن فصاعداً لم تعد ضيفاً، وعليه فلن يكون المضيف محلاً لإقامتك، أنت واحد من العائلة، وعليك أن تأتى لتسكن بيتى".

التفت إلى أحد الرجال وقال:

"(جاسم)، خذْ حاجيات (صاحب) إلى هناك".

كان بيته مكوناً من طابق واحد مبنى بالطابوق المفخور موضعياً، وحين وصلناه قال (فالح):

"هذا هو بيتك، أهلاً وسهلاً، ادخلْ".

ولجنا إحدى الغرف، عُلّقت على أحد الجدران صورتان مزخرفتان لفارسين هما على والحسين (عليهما السلام)، من قديسى الشيعة، مقطّعين أعداءهما إرباً وسط برك من الدماء، وهناك صورة كبيرة أخرى لـ (مجيد) بإطار ذهبى. غُلفت الأفرشة بنسيج حريرى أحمر وأخضر مع مخدات ووسائد بمختلف الألوان حيث انتشرت فى أرجاء الغرفة. كان مظهر الغرفة واسعاً ومريحاً يختلف تماماً عن (الديوانيات) التى أُحجز فيها أحياناً، وهى بيوت من الطابوق تُعّد لاستقبال الضيوف بناها أثرياء الشيوخ فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة لتلائم الموظفين العراقيين والزوار الأوربيين، تقفل عادة حين لا يحتاجها أحد فتكسو أرضيتهَا وأرجاءها طبقة غليظة من التراب، وتنتشر فيها ثقيلة بمساند للذراع أعقاب السجائر. ثمة كراسٍ ذات طراز عراقى تقليدى مكسوة بمخمل داكن مرصوفة بشكل ثابت مع امتداد الجدران، فصلت كل كرسيين عن الكرسيين اللاحقين منضدةٌ صغيرة محشورة بينهما. هناك، خلف الشبابيك المقفلة، يجرى الشيخ حواراته الجادة مع الزوار فى حين يبتعد الآخرون إلى مسافة معينة لا يجرؤون على تخطيها.

أقام (عباس)، ابن عم (فالح) والأثير عنده، مع (فالح) وكان متلهفاً للعودة إلى بيت أبيه (محمد) فى (المجر). التفت (فالح) إلىّ وقال:

"سوف نذهب غداً للصيد، ألا ترغب فى ذلك؟ سوف نجرب عند حافة الأهوار من أجل صيد البط، وربما وجدنا بعض الخنازير. والآن، (عباس) لا يمكنك الذهاب إلى البيت الآن لأن الرجل الإنكليزى وصل تواً ويريد أن يصطاد معنا غداً. دعنى أرسل أحدهم حالاً لجلب بندقيتك، بإمكانك العودة غداً مساءً إلى بيتك، لم العجلة؟ فأنت غير متزوج"(١).

ولسوء الحظ، تحايل (عباس) على نفسه كى يقتنع.

كان إفطارنا بيضا مقلياً وأرغفة من (السيّاح) وحليب جاموس ساخن وحلو، وانطلقنا فى صباح مشرق شديد البرودة. عاينّا خيول (فالح)، العربيةٌ الأصليةُ الشاحبة اللون، فألفيناها مغطاة ببطانيات مشكَلة المقادم. وبعد زيارة تقليدية للمضيف، ذهبنا إلى حيث ينتظرنا رجال المشحوف بجانب طرادة (فالح).

قال (فالح):

"حسناً يا (دعبّر) (٢)، هل نجد بطاً فى صدور (الخرّ)"؟

صرّ (دعبّر) ــ وهو رجل كهل أشيب ومن أكثر الذين يثق بهم (فالح) من أتباعه ــ بأسنانه وقال:

"الله أعلم، ربما وجدنا القليل، ولكن يبدو أنه غادر فى الوقت الحاضر نتيجة ارتفاع مناسيب المياه. سيكون هناك الكثير من (دجاج الماى).

نزلنا أنا، و(فالح) و(عباس) فى الطرادة بينما نزل (عبد الواحد)، ابن (فالح)، فى المشحوف وانطلقنا جميعاً إلى أسفل النهر. جلس (عباس) فى وسط الطرادة بينى وبين

(١) معلومة غير دقيقة من المؤلف فقد كان عباس بن محمد حينها متزوجاً من إحدى بنات فالح بن مجيد نفسه واسمها أمل وأمها جريّة بنت حمود، والسبب فى وجود عباس ليلة الحادث فى مضيف (فالح) لمصالحة زوجته واستئذان أبيها فى إرجاعها إلى بيت الزوجية.

(٢) دعيّر بن موزان بن نصر الله، لا أحد يتذكر تاريخ وفاته.

(فالح). أسقط حزام عتاده على سجادة أسفل الطرادة أمامى فلاحظت عدة إطلاقات نوع (L.G) منتشرة بعشوائية بين بقية العتاد. أوضح (عباس) أن (عبد الواحد) أعطاها إياه ليملأ بها حزامة فقلت:

"إنها فقط للخنازير، إكراماً لله لا تستعملها لصيد البط وإلاّ قتلت شخصا ما".

ولكى أثبت له وجهة نظرى، قطعت إحدى هذه الإطلاقات وعرضت عليه الكرات السبعة الكبيرة، ثم دسستها فى جيبى. اقترحت على (فالح) أن يحذّر ابنه، ففعل.

انتقل كل واحد منا فى مشحوف صغير مع رجل لقيادته عند حافة الأهوار ودخلنا فى القصب. ذهبت باتجاه لمطاردة الخنازير، فى حين ذهب البقية للبحث عن البط. كانت مناسيب المياه مرتفعة، لذا فمن الواضح أن الخنازير قد ارتحلت عن الهور إلى الأرض اليابسة. كنت أستطيع سماع إطلاقات رفاقى، وحين عدت إلى نقطة التقائنا كانوا قد سبقونى إليها. لم يعثروا على البط لكنهم اصطادوا بعضاً من (دجاج الماى). سألنى (فالح) عن رغبتى فى الاستمرار أو الانتظار لتناول الغداء، فقلت أن لا فرق عندى. فقال:

"لقد اصطدت تسع (دجاجات ماى)، أفضّل أن أتمهن عشراً. الغداء لن يكون جاهزاً فى أقل من ساعة أخرى، لذا هيّا بنا نستمر".

رافقتهم هذه المرة.

شكّل سيرنا خطاً، يبعد كل مشحوف عن الآخر حوالى سبعين ذراعاً وكان تجديفنا قريباً من الشاطئ موازياً له خلال كتل البردى المتناثر. كان (فالح) و(عباس) عن يمينى و(عبد الواحد) عن يسارى. وبشكل عرضى طارت مجموعة من (دجاج الماى) ودارت باتجاه الريح فوق رؤوسنا. لقد أصبت واحدة وتوقفت عن التقاطها حين سمعت صوتاً جلياً واضحاً لإطلاقة باتجاهى جاءت من ميمنتى، فصرخت:

"إكراماً لله، انتبه لمكان تصويبك".

وبعد قليل رأينا مشحوف (فالح) ساكناً فى بقعة ما من المياه المكشوفة على بعد خمسين ذراعاً من جزيرة قصب. لم يأخذ الأمر من رجل مشحوف سوى نظرة واحدة حتى قال:

"أُصيب فالح".

وجذف باتجاهه باهتياج شديد.

كان (فالح) ساقطاً إلى الأمام وقد سنّده (دعيّر)، عيناه مغلقتان، مغمى عليه، وتوضحت لطختا دم فى واجهة (دشداشته) البيضاء. انحنيت باتجاهه قائلاً لرجل مشحوفى أن يحفظ توازنى بجانبه. تحسست رسغه، وبالكاد سمعت نبضه، ففككت أزرار (دشداشته)، كان الدم يسيل من ندبة زرقاء فوق حلمة ثديه الأيسر. من الواضح أنها نتاج لكرة عتاد كبيرة.وصل (عبد الواحد) وسأل ما الذى حدث؟ قال (دعيّر) وقد نطق لأول مرّة مشيراً إلى أقرب جزيرة قصب:

"إنه عباس".

نظرت باتجاه إشارته فلم أرَ أثراً لأى مخلوق.

انفجر الأربعة الباقون فجأة بتوجع وحشى مرددين بصوت يعلو أكثر فأكثر:

"يا يابه... يا بويه".

بينما راحت المشاحيف الثلاثة تهتز كأنها أطواف صغيرة. التفتُ إليهم بغضب وصرخت:

"اخرسْ، لا جدوى من الجلوس هنا للعويل، يجب أن نوصله إلى الشاطئ. (دعيّر)، احمله أنت وسوف نجدف من كلا الجانبين وندفع مشحوفك".

توقفوا عن العويل فجأة، فانطلقنا.

يبعد الشاطئ ثلاثمائة ذراع، كنت أستطيع رؤية قرية صغيرة[1]. سرد (دعيّر) ما حصل:

---

(١) القرية الصغيرة هى (الصَخين)، أما البركة التى وقع فيها الحادث فهى (الصَنْدليّة).

"كنّا بصدد الاقتراب من بعض (دجاج الماى)، ولم يكن ثمة أحد نراه ثم انطلق طير (الزركَى) من هذا القصب، كان عباس فى الجانب الآخر من جزيرة القصب فأطلق النار بشكل أفقى باتجاهنا، لقد سمعت الإطلاقة تصيب (فالح) فصرخ:

"عباس، قتلتنى".

ثم نهض (عباس) واقفاً، فاستطعت رؤيته من فوق القصب وقال:

"والله، لا أدرى إنكم هنا". "ولم أره منذ تلك اللحظة".

كانت المياه عميقة، وكان من المؤكد غرق (فالح) بعد إصابته لو أن (دعيّر) لم يحافظ على توازن المشحوف. حين وصلنا الشاطئ قابلنا رجل مشحوف (عباس)، كان وحيداً.

"أين عباس"؟

"لقد أمرنى بإيصاله إلى الشاطئ ثم فرَّ هارباً".

ما زال (فالح) غائباً عن الوعى وبالكاد كنت أسمع نبضه. توّجب علينا نقله بالسرعة الممكنة إلى بيته ومن ثم إلى (المجر) ومن هناك إلى البصرة أو العمارة بالسيارة لإجراء عملية نقل الدم. أرسلت رجل مشحوف (عباس) راكضاً إلى القرية ليجلب مشحوفاً أكبر. خطر لى أن (فالح) يجب أن يبقى دافئاً لذا أرسلت رجلاً آخر إلى القرية ليجلب الأغطية. أما (عبد الواحد) فكان متصنّما محدّقا بانبهار فى والده سائلاً المرّة تلو الأخرى:

"هل سيموت؟ صاحب، هل سيموت"؟

"إن شاء الله سيعيش، لكن إصابته خطيرة".

فانفجر (عبد الواحد) بشكل هستيرى:

"أين (عباس)؟ إلى أين ولّى؟ والله إن مات (فالح) لأقتلنه. (صاحب)، أنت صديق (فالح) يجب عليك مساعدتى للعثور عليه وقتله، من أين بدأ هربه هذا البغيض"؟ ثم راح فى نوبة بكاء متشنّج.

لا أعرف من أين ظهر طفلان صغيران، كان الرعب بادياً عليهما. وقفا بعيداً عنّا يراقباننا. ناديت أكبرهما قائلاً له أن يذهب إلى القرية لاستعجال المشحوف فركض الاثنان معاً. لم يكن بإمكانى التفكير فى شيء آخر مطلوب عمله، فاكتفيت بالنظر إلى (فالح) وسط يأس قاس، وإلى (دعيّر) الذى ما يزال يحمله. كانت الدموع تجرى على وجه الرجل العجوز.

بدأ توافد الرجال والنساء راكضين عبر الحقول. كانوا يقفون هنا وهناك مجموعات صغيرة. قال لى أحدهم إن المشحوف الكبير قد وصل إلى النهر من القرية، ولغرض كسب الوقت اقترح أن يبقى (فالح) فى المشحوف نفسه المضطجع فيه حتى صدور النهر. تولّى دفعه اثنان متقدمين بصعوبة خائضين خلال المياه الضحلة. وأخيراً وصلنا إلى المشحوف الأكبر الذى سرّتنى رؤيته بالسجاد الذى غطى أرضيتهُ والمخدات. حين بدأنا برفع (فالح) فتح عينيه وقال بوضوح:

"انتبه، البندقية محشوة".

ثم أغمض عينيه مرة أخرى ورقد ساكناً جداً. نقلناه بحذر، جلس (دعيّر) خلفه ليتولّى إسناد رأسه ثم أحطناه بأغطية ثقيلة، عرض عدة رجال عباءاتهم.

قفز رجل إلى مؤخرة المشحوف لتوجيهه بينما ربط آخر حبلاً فى مقدمته وتولّى آخران قطره ضد التيار. تبعناهما أنا و(عبد الواحد) مشياً على طول الضفة التى كستها شجيرات الشوك الميتة. كنا قد تركنا أحذيتنا فى الطرادة، إن قدميّ باقيتان على صلابتهما بعد سنين من المشى حافياً فى الصحراء، لكن (عبد الواحد)، الذى ربما لم يخط بقدم حافية فى حياته، يمشى ببطء وصعوبة ويتعثّر. فتح (فالح) عينيه محاولاً الكلام آمراً الرجال بالكف عن القطر، جثوت بجانبه فهمس:

"أين (عبد الواحد) "؟

"إنه قادم".

"قلْ له، قلْ له عنى، (صاحب)، يجب أن يأخذ (عباس) إلى والده، ويجب عليه ألاّ يتركه حتى يوصله مأمنه عند والده (محمد). بغض النظر عما سيحدث لى عليه أن يراعى أن لا شئ يمسّ (عباس). هذا أمرى، قل له أن يذهب هناك الآن".

أغمض عينيه مرة أخرى فأومأت إلى الرجال أن يعاودوا القطر. من المحتمل أن يكون (عباس) أمامنا، راكضاً بيأس إلى البيت.

انتشر خبر الحادث بين السكان فى أثناء حركتنا البطيئة ضد التيار، وخفّت إلينا مجاميع صغيرة من ناس يلفهم الوجوم مسرعة من قرى مختلفة، ما أن يصلوا إلينا حتى يقذفوا بأنفسهم، صارخين، فى الماء، ويقفوا هنا ليضعوا الطين على رؤوسهم وعلى ملابسهم المبتلة بينما راحت النسوة يمزقن ثيابهن ويلطمن على صدورهن. كن ينتحبن وهن يسرن خلفنا:

"(فالح)، بويه... بويه".

رقد (فالح) فى قعر المشحوف ببياض وجهه الشديد إزاء (دشداشة) (دعيّر) الداكنة. لم يمض سوى أقل من أربع وعشرين ساعة من عودتى وعلى استقباله لى فى بيته. لم يع عقلى، كأنه مخدَّر، ما حدث بشكل تام. الآن فقط أدركت أن ثمة حادث أصاب (فالح) بشكل سيئ واقتنعت أنه يُحتضر. وفيما يخص البقية فان انتحابى مثلهم سيبدو مفهوماً ومثيراً لعطفهم لكن مانعاً عميق التأصل حرّم علىّ تلك الراحة. فأنا الذى شاركتهم فى الكثير طواعية، لا أستطيع المساهمة الآن فى التعبير عن مشاعرى فى كارثتهم.

وأخيراً، وصلنا عند العصر إلى قرية (فالح). جلبوا سريراً ووضعوا (فالح) فوقه ونقلوه إلى بيته وسط حشد مذهول وشقوا طريقهم إلى داخل الغرفة ليبقوا هناك واجمين. كان العويل فى الخارج يرتفع وينخفض موازياً لخفق كسول ثابت يشبه صوت النقر المكتوم على الطبل، كان هذا الصوت لطم النساء ذا الإيقاع المتناغم على الصدور العارية. فتح (فالح) عينيه وحدق فى السقف، كانت العلامة الوحيدة على

الحياة فى وجهه الذى لاح، نتيجة كثرة النـزف، شاحباً معدوم الحس كأنه قناع. استعطفنى الناس أن أعطيه دواءً ورفضوا تصديق أن لا حيلة لى معه. أخذت (عبد الواحد) جانباً وناشدته أن الأمل الوحيد لنجاته يكمن فى أخذه إلى حيث يمكن أن تُجرى له عملية نقل الدم، وان أى دقيقة تأخير تضييع لفرصة نجاته. وافقنى لكنه لم يفعل شيئاً، فى حين وقف الآخرون حول السرير قائلين دون أن يخفضوا أصواتهم:

"من الواضح انه يحُتضر، نعم، إنه ميت تقريباً".

"والله، إن (فالح) لا يستحق أن يموت هكذا".

وبصوت أقرب إلى الهمس، طلب (فالح) ماءً، وحين صبوه فى فمه لم يكد يبلعه فسال عبر ذقنه ليبلل (دشداشته).

وصل أحد أبناء عمومته المدعو (حَطّاب) [1] ولحسن الحظ كان ذا شخصية حازمة وقد اعتاد أن يُطاع فتولى أمر العناية بـ (فالح) فى الحال، فحمله إلى الخارج، إلى طرادته الخاصة وانطلق معه إلى قرية والده (حمود) [2] فى (المجر)، فتبعتهم فى مشحوف ثقيل وبطيء وسرعان ما سبقونى. وحين وصلت إلى (المجر) كان (فالح) قد نقل إلى ديوانية تعود إلى (حمود) الذى ذهب يهاتف (مجيد) الموجود فى بغداد. كان طبيب المنطقة ضمن الحشد فى الممر فسألته ما رأيه، فهزّ الطبيب رأسه وقال إنه خائف أن يكون (فالح) يحتضر، واتفق معى على أن الأمل الوحيد فى أخذه مباشرة إلى البصرة، أقرب مكان لعملية نقل الدم.

صاح أحدهم:

"أين الرجل الانكَليزى"؟

دخلت الغرفة بعد أن أُخبرت أن (فالح) يسأل عنى، وذهبت إلى حيث يرقد.

---

(١) حطاب بن حمود بن خليفه، يسكن حالياً منطقة الحريّة من بغداد.

(٢) حمود بن خليفة بن وادى، ولد فى سنة ١٩٠٠م وتوفى فى بغداد سنة ١٩٦٦م شيّخه مجيد بن خليفة على منطقة الواديّة.

حركّ عينيه ونظر إلىّ لكنه لم يتكلم، لم تكن الغرفة تحوى غير عائلته. وبرغم ارتباكى بسبب إحساسى بالتطفل، بقيت واقفاً بجانب سريره. انتظرنا لمدة بدت لنا زمناً طويلاً، وبدأ حلول الظلام فجلبوا مصباحاً نفطياً فانطلق هسيسه فى إحدى زوايا الغرفة مضيئا بوهج قاس.

عاد (حمود). يبدو أن إبلاغ (مجيد) بالواقعة قد نزل عليه كالكارثة لذا ظهر (حمود) مذهولاً شديد الاضطراب، وقال:

"يجب نقل (فالح) إلى بغداد حالاً، هذه أوامر (مجيد)، لقد أرسلت بطلب ثلاث سيارات".

كنت على يقين أن (فالح) لن يبقى على قيد الحياة مطلقاً محتملاً رحلة على طريق بغيض وعر بطول مائتين وخمسين ميلاً فى الظلام، فناشدت (حمود) قائلاً:

"خذه إلى البصرة، وبإمكانك أن تطير به من هناك فى الصباح إذا كان (مجيد) مصرّاً، أتوسل إليك أن تأخذه إلى البصرة، إنها ثلاث ساعات فقط، هناك بالإمكان إعطاؤه الدواء الذى يحتاج، لا تذهب حتى للعمارة، بل إلى البصرة مباشرة".

لكن (حمود) قال ببساطة:

"سوف نذهب للعمارة أولاً، ومن ثم سوف نرى".

وصلت السيارات، وحُمل (فالح) إلى مؤخرة إحداها، وحشر كل واحد من أفراد عائلته نفسه، رجالاً ونساءً ممن وجد له مكاناً فى السيارتين الأخريين وانطلقوا مسرعين. جدفت أنا و(دعيّر) فى الظلام عائدين إلى قرية (فالح). تكلمنا قليلاً، لكنى أتذكر ما قاله:

"حدث كل هذا ببساطة لأنه يريد اصطياد (دجاجة ماى) أخرى. حياة (فالح) بـ (دجاجة ماى) "!

توقف لبرهة ثم أردف:

"مكتوبة يا (صاحب)".

ظهر الأمر لى قضاءً وقدراً، وليس صدفة، قد رسما الحادث وإلاّ فما الذى دعا (عباس) أن يخلط خراطيشه ويعبئ بندقيته بحشوة لقتل الطرائد الكبيرة ويطلق، فى الوقت نفسه، باتجاه (فالح)؟ لماذا توجّب على إحدى كرات الحشوة أن تصيبه من مسافة سبعين ذراعاً؟ حين خلعت ملابسى فى بيت (فالح) فى الغرفة نفسها التى نمت فيها الليلة البارحة، تحسست فى جيبى الكرات الحديدية السبعة للحشوة التى كنت فتحتها هذا الصباح.

ذهبت إلى (المجر) فى الصباح الباكر لليوم التالى، ومن هناك استأجرت سيارة إلى البصرة. سمعت هناك أن (فالح) قد نقل بالطائرة إلى بغداد. قال لى البعض إن حالته أحسن فعاودنى الأمل. أبرقت إلى صديق وركبت قطار المساء ووصلت إلى بغداد فى الصباح التالى. قابلت صديقى فى محطة القطار وطفنا بسيارة أرجاء المدينة بحثاً عن بيت (مجيد)، فأرشدنا شرطى إلى موقعه، مضيفاً، كفكرة خطرت له متأخرة:

" لكن (مجيد) ذهب إلى النجف ليدفن ابنه الذى توفى أمس".

وهكذا سمعت نبأ وفاة (فالح).



الفصل السابع عشر

مراسيم الحداد

سوى أغنية... ما علمتنى أنثاى أرددها... لأمنح التراب لذتــه الأخــيرة لــذّة الانحلال... تراب فى تراب.

عثرنا على البيت بسهولة. كان قصراً منيفاً فى ضواحى بغداد(١). قرعت الجرس، أخذنى أحدهم إلى الداخل. فى غرفة صغيرة جلس كل من (عبد الواحد) و(خلف) أخو (فالح) الأصغر منه. حيّيتهم وجلسنا بانتظار (مجيد) الذى سرعان ما جاء. كانت عيناه حمراوين بسبب البكاء وكست وجهه معالم الأسى. وبعد التحيات الشكلية دعــانى إلى الجلوس بجانبه على أريكة وسألنى عن موعد وكيفية وصولى وهى أسئلة تقليدية مألوفة تقتضيها التقاليد العربية. عبّرت عن مواساتى فالتفت (مجيد) وقال ببساطة متناهية:

"(صاحب)، أعلمُ أنك صاحبه".

ثم لفنا الصمت. وبعد برهة دخل خادم بالقهوة، وبعد أن شربت سألنى (مجيــد) مرة أخرى عن أحوالى، وخيّم الصمت مرة أخرى. أن أكون بجانب رجــل عجــوز محزون ومصدوم قوّض موت ابنه آماله وطموحاته أمر فوق طاقتى علــى الاحتمــال. انتظرت برهة أخرى وطلبت منه السماح لى بالانصراف. فقال:

"اذهبْ بأمان الله".

(١) بيت مجيد فى بغداد يقع في منطقة البتاويين فى الباب الشرقى. وقد استغل البيت مرة كمبنى لمديريــة الجنــسية العامة قبل أن تنتقل إلى مبناها الحديث فى ساحة الخلانى.

فأجبته:

"ابقَ بأمان الله وحفظه".

كانت قد أمطرت حين غادرت البيت واستمرت تمطر طوال اليوم.

بعد شهور قابلت طبيباً انكليزيا متخصصاً بالقلب يعمل فى بغداد لصالح الحكومة العراقية[1] كان فى البصرة حين نقلوا (فالح) إليها. بعد سماعه لنبأ الحادث حضر على الفور إلى المطار، وبعد أن فحص (فالح) أراد أن يجرى له عملية على الفور ليلطف ضغط الدم الناجم عن خثرة حول القلب، لكنه أُخبر أن (مجيد) أعطى أوامره بضرورة نقل ابنه إلى بغداد. حاول الطبيب أن يوضح انه طبيب أخصائى بأمراض القلب ويعالج المسؤولين الحكوميين وهو الوحيد فى كل البصرة مؤكداً لهم أن الفرصة الوحيدة لإنقاذ حياته هى بإجراء العملية حالاً، لكنهم رفضوا. ثم قال لى أن لا شىء، فى الحقيقة، يمكن أن ينقذ حياة (فالح)، فقد أوضح تشريح الجثة أن الكرة الحديدية كدمت القلب وقطعت الأوتار الكبيرة وأضعفت الرئة. لقد كان منذهلاً من طول المدّة التى عاشها (فالح) بعد إصابته قائلاً لابد انه كان قوياً بشكل استثنائى.

بعد ثلاثة أيام عدت إلى قرية (فالح) للمساهمة فى مراسيم العزاء فوصلت قبيل العصر. ما زالت ثمة مسافة عن القرية حين تناهى إلى سمعى عويل النساء واللطم الإيقاعى لهن. احتشد عدد كبير من المشاحيف على طول الضفة بينما احتشد جمع كبير خارج المضيف. ثُبتت عدة رايات فى المدخل وراحت طياها الحمراء الطويلة وزخارفها الفضية فوق سواريها المثبتة بموازاة الجدران القصبية تلمع تحت أشعة شمس ربيعية. خيّم الصمت والظلام داخل المضيف الذى جلس فيه كثيرون تلفّهم عباءاتهم الداكنة بلا حركة حول الجدران. همس لى أحدهم:

(١) الدكتور الانكليزى: هو الدكتور كيرنل اوكنلى، على حد لفظ الشيخ خلف بن مجيد.

"ذاك (مجيد)، هناك".

خطوت فى المضيف للسلام عليه، صافحته وبحثت عن مكان. تزحزح بعض الغرباء ليفسحوا لى مجالاً. تعرفت على عدد منهم ولكن ليسوا كثيرين. هناك سادة بكوفياهم الخضراء، وعلماء دين من كربلاء والنجف متلفعين بالسواد بعمائم صغيرة بيضاء وسوداء ملفوفة بإحكام، وشيوخ عشائر من مناطق بعيدة كالكوت والناصرية مع أتباعهم، ورؤساء قرى ورجال مسنين ورجال من المدينة، وتجار من (المجر) والعمارة والبصرة، وكان هناك الكثير من أبناء عشيرة (مجيد). وضع فتى علبة سجائر أمامى. نهض (عبد الرضا) من قرب الموقد حاملاً دَلّة ذات مصب أعقف وقدّم لى قهوة. قال رجل أو اثنان يجلسان بالقرب منى:

"مسّاكم الله بالخير، (صاحب)".

ثم سكن الاهتياج الصغير الذى سببه وصولى.

تكلم بعضهم بضع كلمات مع جاره بصوت منخفض بشكل عرضى، فى حين جلس الجميع صامتين تقريباً مداعبين مسبحاهم أو مدخنين. نهض ستة أشخاص واتجهوا الى (مجيد) وودّعوه متمنين له الخير وغادروا المضيف. تقاطر آخرون، أحيانا اثنان أو ثلاثة معاً وأحيانا عشرون مرّة واحدة، يسلّمون على (مجيد) كما فعلت، وتُقدم لهم السجائر، والقهوة وأقداح الشاى. وقبل أن تغادر أية مجموعة، يهتف الأرشد فيها أو الأكبر سناً:

"الفاتحة"(١).

---

(١) لا يهتفون بكلمة الفاتحة منفردة، بل ترد الجملة على الشكل الآتى "رحم الله والديه اليقره الفاتحة" أو "رحم الله والديكم الفاتحة" وهذه الصيغة تختلف اختلافات بسيطة فى عموم العراق.

فيبادر الآخرون إلى تلاوة آيات فاتحة القرآن الكريم وقد بسطوا أيديهم تضرعاً وابتهالاً. أستطيع سماع المشاحيف وهي ترسو أو تُدفع بعيداً عبر الجانب القصبي الآخر من الجدار. فوق، وبين (الشباب) القصبية العظيمة راحت العصافير تزقزق، واستطالت ظلال الأشياء عند المدخل. غادر المزيد من الناس ووصل القليل فظهرت فراغات بين الجالسين واتسعت حول الجدران.

عوّدتني سنين الممارسة في الجزيرة العربية على الجلوس على الأرض، ولكن حين نهض (مجيد) عند الغروب مغادراً المضيف كنت متيبساً وموجعاً. استعد الآخرون لصلاة المغرب فذهبت لأجد (دعيّر) وسألته عن المدّة التي يمكن أن أقضيها وتكون إقامة صحيحة. فقال:

"الكل يعرف أنك صديق (فالح) واعتقد أنهم يتوقعون امتداد إقامتك ليومين آخرين. تعال الآن واجلس مع بعض من أصدقائك".

وقادني إلى ملاذ قصبي[١] طويل بُني خلال الأيام القلية الماضية. اتكأت الشمس، كرة برتقالية لّماعة، على خط الأفق أمامنا، ووراء بستان النخيل حيث ذهبنا أنا و(فالح) للصيد أوّل مرّة.

جلس عدد من أتباع (فالح) داخل الملاذ متحلقين حول نار صغيرة وقد صبغوا كوفياتهم بلون أزرق داكن[٢] إشارة للحزن والحداد. رحبّوا بي بطريقة حميمة وصبوا لي المزيد من القهوة. إن العرب لا يضعون سوى قطرات قليلة في الفنجان لذلك شربت عدداً لا حصر له من الفناجين ذلك اليوم. من

---

(١) الملاذ القصبي الطويل a long reed shelter يسمونه صوباط ويبنى بشكل سريع وبلا حرص على التفاصيل الكثيرة التي ترافق بناء البيوت والمضايف، أي للحالاتالطارئة، يفكك ما أن ينتهي مبرر إنشائه.

(٢) المادة التي يصبغون بها كوفياتهم باللون النيلي الداكن هي: صبغ الدودة.

الشاطئ المطعون بحمرة الشفق من وراء النهر، انطلقت الترنيمة المسائية القصيرة لعواء كل الثعالب مرّة واحدة، مرتعشة، مرتفعة مرة ومنخفضة عبر الأراضى المصغية لتخفت نهائياً عبر صيحات معذّبة.

سألت ما الذى حدث لـ (عباس)، فأجاب (دعيّر) بازدراء:

"لقد ذهب إلى (قلعة صالح) ليضع نفسه تحت رحمة الشرطة وما يزال هناك، (طركاعة الطاحت عليه)".

"وماذا عن (محمد)، أبوه؟".

"هو الآخر ذهب إلى (قلعة صالح) وطلب المساعدة من الحكومة. يقولون إنه وكّل محامياً".

قال آخر:

"محامٍ؟ سوف لن ينفعه المحامى كثيراً. إن (مجيد) يتميّز غيظاً لأن (محمد) ذهب إلى الحكومة. فى الحقيقة انه لمخز أن يفعل ذلك".

وقال آخر:

"نعم، يتوجّب على (محمد) جلب ولده (عباس) هنا ويسلمه بيد (مجيد)، إن فعل ذلك فسوف يعفو عنه. أما الآن فمن المؤكد أنه سيقتله".

قال (دعيّر):

"إنهم حمقى جداً وستكون هناك مشكلة كبيرة".

وقال أحدهم:

"يقول (مجيد): إن (عباس) أطلق النار على (فالح) متعمّداً بسبب نزاع حول الحراثة".

فأجابه (دعيّر):

"أنا أعلم أنه فعل ذلك حقاً".

ما يزال نحو ثلاثين رجلاً حين عـدت إلى المـضيف لا أعـرف أحـداً منـهم، غير أن أحدهم سألني:

"هل أنت الرجل الإنكليزى صديق (فالح) "؟

وحين أجبته:

"نعم".

قال:

"أهلاً وسهلاً بصاحب (فالح)".

وسأل آخر فيما إذا كنت معه حين أطلق (عباس) النـار عليـه ومـا الـذى جرى، وبينما كنت أخبرهم، جُلب العشاء فأكلنـا بـصمت كمـا هـى العـادة. عدنا لحديثنا بعدها حتى جلب الخدم فـرش النـوم الـتى رتبـت حـول جوانـب الغرفة.

عمّت الحركة المضيف مبكراً، فقد استيقظوا الواحـد تلـو الآخـر متوضـئين ومؤدين صلاة الفجر ثم نظموا جلستهم إلى الجدران. طـوى الخـدم فـرش النـوم ونقلوها. أُعدّت القهوة وشربنا وقام شاب صغير يحمل طبقاً كـبيراً مليئـاً بأرغفـة الخبز، أسقط واحداً أمام كل منّا. أكلنا الخبز مـع أقـداح مـن الحليـب الحلـو الساخن. نهضنا وما أن دخل (مجيـد) بـصحبة (خلـف)، ابنـه الأصـغر و(عبـد الواحد) وبقية آخرين من عائلته، حيّانا وجلس فى نفس مكـان اليـوم الـسابق فى حين انتظمنا فى جلستنا مرّة أخرى مـستندين الى الجـدران. وصـل الزائـر الأول بعد ذلك مباشرة وبدأ المضيف يمتلـئ. ظهـر (مجيـد)، الـشاحب وغـير حليـق الوجه وعليه إمارات التعب الشديد وقد تهـدّلت بطنـه العظيمـة أمامـه، رجـلاً عجوزاً كسيراً مليئا بالمرارة، فانفجر:

"لماذا (فالح) بالذات؟ لماذا (فالح)؟ يا رب، لم يبق لى أحد".

فتذكرت أن أكبر أبنائه (خريبط)[1] قتل قبل ثلاث سنين. فحاول الذين بجانبه طمأنته ومواساته:

"لديك (خلف) و(عبد الواحد)".

لكنه بكى:

"لا، ليس عندى أحد، لم يعد لدىّ أبناء، أرضى، ما الذى سيحدث لأرضى بعد موتى؟ ما الذى سيحدث لأرضى الآن و(فالح) قد مات"؟

وصل معزون آخرون، رد (مجيد) تحيتهم ثم غاص فى صمت طويل متأمل.

انطلقت جلبة كبيرة خلفى لأصوات رجال يتصايحون واصطدام مشاحيف مع بعضها على ضفة النهر، كان مصدرها مجموعة كبيرة من الرجال المسلحين يسيرون خلف رجل طويل وبدين بعباءة من شعر الإبل الفاخر مذهبة الحافة عند الصدر. همس رجل من أهل المدن:

---

(١) خريبط بن مجيد بن وادى بن منشد، ولد نحو ١٩٠٣م وقتل فى ظروف غامضة سنة ١٩٥٠م. كان شاعراً شعبياً مجيداً. سجن مدة بسبب قتله لزوجة أبيه (شريفه بنت سلمان العلياوى المحمداوى). ينسب له الأبوذية الآتى، نظمه فى السجن:

إبـاب السجن خـل أكـنس وعـاده رمـاح بـصدر عـدوانى وعـاده
كـل رجـل العليـه موتـع وعـاده مـن أمـوت هـدال مـا يـبجن عليّـه

وبعث خريبط للفريجات ببداية قصيدة لغرض إكمالها من قبلهم فقال:

خريبط خربطاها ولج العمارة

فأجابه ناصر بن فرج الله الشعيبى الفريجى من قصيدة طويلة:

صكر وانخر على الصيده وأخذ ثاره
صكر وانخر على الصيده ولكنه العدوان
يالعدّه الحكومة بسيرة النسوان
صيتك وصل لندن وعكب هندستان
وعد شاه العجم هالشاعت أخباره

"مَن هذا؟"

فأجابه الذى يجلس بجانبه:

"سلمان بن مطلك"[١].

كنت قد سمعت عن (سلمان)، الشيخ الأساسى لـ (آل أزيرج) [٢]، زراع الأرز، والذى تحاذى أرضه أرض (مجيد) ولكن لم يسبق لى مقابلته حين زرتهم. كان وجهه شاحباً ومترهلاً ويبدو ناعماً كونه يعيش حياة سهلة، ويقضى معظم وقته فى بغداد كالكثير من الشيوخ الأثرياء. جلس بجانب (مجيد) وجلس أتباعه تبعاً لمنزلتهم، فأهمهم أقربهم لـ (سلمان) و(مجيد) وهكذا. وضع كل واحد منهم، تحت عباءته خنجراً فى حزامه، ومُلئ الحزام العريض المتقاطع الآخر بالعتاد. قُدمت لهم القهوة والشاى ثم غرق المضيف بالصمت. صاح (سلمان) بعدها:

"الفاتحة".

فتلا وأتباعه سورة الفاتحة[٣].

---

(١) مطلك بن سلمان بن منشد المذكور، وليس سلمان بن مطلك كما أشار المؤلف، أحد أبرز شيوخ آل أزيرج، توفى سنة ١٩٥٤م، زعامة آل أزيرج الآن لحفيده الشيخ محمد بن جثير الذى يسكن بغداد منطقة الأورفلى.

(٢) آل أزيرج: تنتمى هذه العشيرة إلى حمّير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. كانت فى حلف مع المنتفك وجاءت من الغراف واستقرت على جانب دجلة الأيمن. سبب مجيئهم هو تعزيز لقوات الشيخ محمد المانع رئيس عشائر المنتفك. كانت مهمتهم عرقلة سير السفن المارة فى دجلة واحترازا من الهجوم المفاجئ الذى قد تتعرض له إمارة المنتفك من بنى لام. استقروا فى المجر الصغير (الميمونه). تنقسم أراضى آل ازيرج اليوم إلى ثلاثة أقسام هى: أم كعيده، والهدام، والخمس. وتقع جميعاً ضمن محافظة ميسان.

(٣) أورد المؤلف سورة الفاتحة المباركة، ولم أجد ضرورة لذكرها.

كنت أمنّى نفسى بقدوم الغداء لكى يتسنّى لى تمديد ساقىّ حين انطلق وابل من الرصاص وأصوات عويل هستيرى[1] من مجموعة أخرى وصلت للتو. ومن فتحة الباب لمحت راية إحدى العشائر وحشداً من الناس وقد لطخوا رؤوسهم وثيابهم بالوحل. قال أحدهم لـ (مجيد).

"هؤلاء من الكباب".

كان عددهم يتراوح بين الأربعين والخمسين من (الفريجات) من (بومغيرفات) ومن (الكَباب) أيضا. واحداً تلو الآخر يسلّمون على (مجيد) ثم ينسجون. لقد عرفت أغلبهم. بعد قليل جاء صوت إطلاقات أخرى وعويل لمجموعة كبيرة غير متوقعة وصلت من (العكر) وقد تلطخوا أيضا بالوحل. لقد فات وقت طويل على منتصف النهار حين جاءت ثلاث مجاميع أخرى لعشائر معزية قبل أن يخبر أحد الخدم (مجيد) أن الغداء جاهز. كان عدد المدعوين إلى الغداء بين أربعين إلى خمسين رجلاً فى كل مرّة، يسيرون بطريقة الرتل إلى الملاذ الذى كنت فيه الليلة البارحة حيث عرضت أطباق كبيرة جداً مليئة بالأرز ولحم الضأن. ما أن تنهى كل مجموعة طعامها حتى يعاد ملء

---

(١) لم يكن عويلاً فى الحقيقة، بل أصوات ترديد (هوسه) أو رقصة الحرب **dance of war** كما سماها المؤلف، مع العلم أنها لا تجرى للحرب فقط، بل لمناسبات أخرى كثيرة سواء كانت سارة أم محزنة. ومن الجدير بالذكر أن أشهر مهوال للفريجات آنئذ هو عمير بن مكنزى. لقد ارتجل قائلاً، مخاطباً مجيد بمناسبة وفاة ولده فالح:

انت الربد المتفلش كل حديد   وانت دوم الدوم يسعه حدّك يا مجيد

انت كوت املس يا بعد امى الجديد   اليصعد خايف والظل حارت بيه

شبهّه بالقلعة حديثة البناء التى لا يمكن تسلقها بسبب ملاسة جدرانها. وقال أيضاً:

أنت أسد وابن أسد وأنت الضيغمى   وأنت للعدوان ماعون الشرى

أنت صل أركط الجاسك يبتلى   أنت المفتر على الكل وتلم بيه

شبّهه بالأفعى الرقطاء التى تتسور على كل الكائنات وتقتلها. وقال:

أنت سور النه وذره وحمى الدهر   وأنت بالعدوان حطيت القهر

أنت سن البنعتونك بالبحر   مفلش ميال التمشى وتردم بيه

شبّهه بالسن الصخرى الذى يحطم السفن العملاقة المارّة فوقه.

الأطباق مرّة أخرى وتُدعى مجموعة أخرى. أكل الجميع، المعزون داخل المضيف ورجال العشائر فى الخارج[1].

وبعد ذلك رقصوا (الهوسه)، رقصة الحرب العشائرية. يرتجل أحدهم، من كل عشيرة أو قرية تباعاً، بضعة أبيات بمدح (فالح) بينما يهدر مستمعوه من رجال العشائر مرددين (هوسته) التى يختم بها أبياته، حاملين أسلحتهم النارية فوق رؤوسهم وهم يضربون الأرض بأقدامهم دائرين بحلقة مقلقلة حول راية قرمزية[2]. كان الرجال الذين يحملون الرايات، وهم زعماء عائلات وعشائر تمنحهم حقوقهم العشائرية حمل الرايات فى المعارك، يهزّون العصى الطويلة لها لكى تحدث الزخارف المعدنية صوتاً غير سائغ فى الأذن نتيجة لتصادمها مع بعضها. استمروا يضربون الأرض بأقدامهم بإيقاع ينسجم مع ما يهتفون به ثم راحوا يطلقون النار من بنادقهم إطلاقات مبعثرة فى البداية ازدادت حدتها كأنها فى حرب. حرّضتهم رائحة البارود الحادة المسكرّة فى مناخيرهم على بذل جهد أكبر، فصاح (مجيد) أخيراً:

"يكفى".

---

(١) حين اكتظاظ المضايف والديوانيات بالضيوف لأية مناسبة، فإن القادم الجديد يجد مكاناً فى كل الأحوال حين يقوم لهُ أحدهم، يتخلى هذا الشخص عن مكانه بحكم الإحساس أنه أقرب شخص لصاحب المضيف أو الديوانية إلى (معزّب)، أى صاحب المكان أو المضيف. فالمنتظرون فى الخارج وقوفا هم من البو محمد ومن نفس البطن التى ينتمى إليها مجيد تحديداً.

(٢) لم أستطع التوصل إلى إجماع فى ما يخص لون الراية، فقد كنت أعتقد أن للونها دلالة أو إشارة إلى عشيرة دون غيرها، غير أن أحداً من الذين سألتهم فى هذا الشأن لم يؤكد ذلك. وعلى العموم تتكون الراية من الأجزاء التالية: عصا طويلة تصل إلى أربعة أمتار تقريباً، قطعة قماش تمتد على طول الجزء الأعظم من العصا وتمتد إلى مترين أو ثلاثة عرضاً، عادة ما تؤطر حواشيها بزخرفة معينة بلون مغاير، والجزء الأخير من الراية هو الواقع فى نهاية العصا الطويلة العليا، وهو عبارة عن تجويف معدنى ضيق من الوسط مستدق الطرف بحجم الدلة متوسطة الحجم تقريباً يسمونه (دنبوكة) تتأرجح منها قطع معدنية صغيرة بحجم العملات المعدنية يسمونها (صجاميغ) تحدث خرخشة نتيجة اصطدامها بهيكل (الدنبوكة).

فاندفع أتباعه إلى وسط الحشد المتحرك دائرياً بغير انتظام قائلين:

"يكفى، الشيخ يقول يكفى".

فتزاحمنا فى طريقنا إلى المضيف مرّة أخرى.

بعد ساعات، وعند الغروب بعد مغادرة (مجيد) مباشرة، كنت أتكلم مع مجموعة من الناس على ضفة النهر فرأيت شاباً صغيراً يجتازنا مسرعاً صارخاً بشيء ما، كنت حذراً من اهتياج عام شديد. اندفع العديد من الرجال إلى بيوتهم فسألت:

"ماذا حدث؟".

فقال لى احدهم:

"أرسل (مجيد) مجموعة لقتل (محمد)".

فاعترضت:

"لكن (محمد) لدى الحكومة الآن فى قلعة صالح".

"لا، يقولون إنه عاد تواً إلى بيته فى (المجر)".

تابعت مشحوفين وهما ينسلّان ضد التيار خلال النور الخابى لقُبيل غروب الشمس يحملان المنتقمين لدم (فالح)، فى حين راحت الثعالب تصرخ بلازمتها الموصولة من الضفة الأخرى. لكن (محمد) ما زال آمناً فى قلعة صالح.



الفصل الثامن عشر

الأهوار الشرقية

فيروز أصابعي الأزرق، عامداً... متواطئ
الخبث، مع ملح الروح (يلجمني)
فأستعيذ، بطيء النبض، بمراثي الحجارة
علّها توقظ ما فاتني، وتصلب نكبتي.

أقمت ليوم آخر كما نصحني (دعيّر) ثم استأذنت من (مجيد) بشكل أصولي وغادرت باتجاه (الكَباب) مع (عمارة) و(سبيتي) اللذين التحقا بي في المضيف في الليلة الماضية. كانا متأثرين جداً لموت (فالح) وكانت دموعهما تنهمر على خديهما وهما يجدفان بطرادتنا نحو الأهوار. قال (عمارة) من بين دموعه:

"كان بمثابة أباً لنا، يسمّينا أصدقاء صديقي، ويرسل بطلبنا كلما جاء إلى قريتنا ليسألنا إن كنا بخير".

وفي السنة التالية كنت أسمع الآخرين يشيرون إلى موته بأسف في أجزاء بعيدة حتى تخوم إيران وباتجاه الفرات إلى الناصرية. كان الغرباء يسألونني ويكرمون وفادتي:

"هل أنت الصديق لـ (فالح) "؟

لم أكن أعلم اتساع ومقدار هيبته.

عزمنا على تمضية الأسابيع الستة القادمة في الأهوار الشرقية، فبتنا ليلتنا في مضيف (صدّام) حيث تصرف ابنه الصغير كمضيّف لنا بغياب والده. كانت (الكَباب) في حداد أيضا، فالرجال القليلون الذين جاءوا قليلاً ما تحدثوا وسرعان ما انصرفوا.

التحق بنا (ياسين) و(حسن) فى صباح اليوم التالى وذهبنا مباشرة إلى (البوبخيت)[١] حيث أمضينا يومين مزحومين فى التطبيب فى قراهم الصغيرة فى الهور. مررنا تحت جسر ذى عوارض يمرّ فوقه طريق السيارات المتنقلة بين بغداد والعمارة والبصرة، ووصلنا إلى دجلة أسفل (العزير) وجدفنا ضد التيار متجاوزين مرقد (العزيز) وقبته المشيّدة بالقرميد الأخضر والأزرق. شُيّد المرقد بين النخيل وأحيط بنزل متداع للزوار. إن مدينة (العزير) نفسها مدينة جديرة بالازدراء، اعتادت أن تكون محطة لوقوف اللوريات والحافلات، وبعد قليل من الأميال وراء القرية جثمت سلسلة من (الكور)[٢] لشى الطابوق كأنها مذابح الكنائس لتجعل الضفة الأخرى لدجلة تبدو منقّطة. من المحتمل جداً أن تكون هذه (الكور) هى التى شوت الطابوق الذى بنيت به بابل. من المعتاد استخدام طابوق هذه (الكور) فى ضواحى البصرة.

قطع (ياسين) تأملاتى قائلاً:

"يقولون أن سمكة قرش قبضت على رجل هنا فى النهر وقطعت جزءاً من ساقه".

اعلم أن سمك القرش يهاجم السابحين فى البصرة، لكن (الغزير) تبعد نحو ثمانين ميلا عن البصرة، ونحو مائة وخمسين عن الخليج العربى. وحين أعربت عن دهشتى، أكد لى الشبان أن (العزير) منطقة معروفة بسمك القرش. وفى وقت آخر حين كنت هناك قال لى قروى إن فى أيام والده اعترضت سمكة هائلة جداً مجرى النهر فى موسم انخفاض المياه ولم يكن بالإمكان التخلص منها إلا بتقطيعها حيث هى. وفى أثناء التجديف سألت فيما إذا كانت أسماك القرش موجودة فى الأهوار فقال (حسن) إن واحدة صغيرة منها قد اصطيدت بـ (فالة) قبل سنين. قاطع (عماره):

(١)البوبخيت: بخيت هو أحد أبناء شدود، يكوّنون مع (النوافل) و(البوغنّام) قسما مهماً من عشائر (البو محمد) هم (الشدّة)، وقد اهتموا منذ البداية بتربية الجاموس وسكنى الهور.

(٢)الكور: جمع (كورة) المعمل البدائى لصناعة الطابوق.

"هل سمعت عن الرجل الذى قتله ضبع حين كنت بعيداً عنّا؟ لقد كان نائماً فى أرض مكشوفة قرب (المجر) فهاجمه ضبع بجرأة، عثروا عليه ميتاً وما كادوا يتعرفون عليه إلا عن طريق ملابسه".

رأيت ضبعا بنفسى قبل ثلاث سنوات، ضبعاً مخططاً من أكبر الأنواع المخططة الموجودة فى إفريقيا. وكانت هناك أُسود قبل أربعين سنة فى تلك الأرجاء لكنها أبيدت عندما اقتنى رجال العشائر أسلحة حديثة فى أثناء الحرب العالمية الأولى. قال لى أحد عبيد (فالح) من كبار السن ذات مرّة عن رؤيته لثلاثة أُسود قرب (المجر)، ووصف لى آخر عملية صيد أسد شارك فيها قرب العمارة. قتل الصياد الأسد ببندقية تُعبأ من فوهتها. وقابلت شخصاً آخر رأى شبلين جلبهما مجموعة من المعدان إلى الشيخ، ويتذكر عدد من المسنين زئير الأسود فى أثناء الليل.

انعطفنا إلى ممر مائى واسع يقود إلى الأهوار فى الجهة الشرقية واجتزنا مركباً كبيراً بساريتين محمّلتين إلى ارتفاع عال بـ (البوارى) القصبية، بذل طاقمه جهداً عظيماً فى دفعه باتجاه دجلة. واجتزنا بعد قلّيل من ذلك طوفاً جانحاً مصنوعاً من القصب الجاف يبلغ طوله نحو أربعين قدماً وبارتفاع عشرة أقدام وقد هُجر إلى حين. حين ترتفع مناسيب المياه تطوف هذه الكتل القصبية وتنحدر مع مجرى الماء لتسير بعيداً ربما إلى البصرة حيث تفكك وتُباع قصباً.

كانت (بَدْعَةَ النوافل)، حيث أمضينا ليلتنا، وهى أكبر قرية رأيتها فى الأهوار، تحتوى على ستمائة وأربعين بيتاً، ولكن لا مضيف واحد فيها! إن المجاميع المختلفة للبيوت كانت قد بُنيت على طول حافة لأرض يابسة يفصل بينها الماء. أحياناً، حين تنخفض مناسيب دجلة إلى درجة قصوى، يجف الماء، لذا يغادر (النوافل) قراهم ليقيموا على طول النهر. يشكلّ (النوافل) مع جيرانهم من (البوغنّام) (١) فى الشمال،

---

(١) البوغنّام: هم ذرية غنّام بن شدّود، يكوّن هؤلاء مع (البوبخيت) و(النوافل) قسماً من عشائر (البو محمد) يُسمون (الشدَّة). راجع الهامش رقم (١) من الفصل نفسه.

و(البوبخيت) فى الجنوب، قسماً صعب المراس يدعى (الشدّة) وهم قسم كبير من القبيلة الأكبر (البو محمد). يحتفظ (النوافل) ببعض الجاموس، لكنهم يكسبون عيشهم بالاعتماد على حياكة (البوارى) والتى تصدر بأعداد هائلة. تنقل المراكب الشراعية الكبيرة، مثل الذى رأيناه، (البوارى) حين تكون المياه عميقة بما يكفى لمرورها. كان الماء خلال هذه السنة مرتفعاً بطريقة استثنائية.

أقمنا مع رئيس العشيرة[١] هناك، الرجل الذى اطعمنا بصورة سيئة، وندمت لعلاجى عدة أشخاص من عائلته!! لقد اعتبرت سكان القرية برمتهم أفظاظا جداً فغادرهم غير آسف عليهم، وهو الشعور الذى شاركنى فيه رجال مشحوف الذين دمدموا أن مضيِّفنا لم يعطنا حليبا للإفطار، بل قدحى شاى قليلى السكر مع الخبز، وقالوا:

"هذا ما يفك الريج".

وكانت توري لأنهم يقولون فى اللغة العربية:

"يفك الريج" و"يتريك".

وهما عبارتان بالمعنى[٢] نفسه. وعلى كل حال، كان صباحاً جميلاً وسرعان ما ابتهجوا. كان الهواء منعش البرودة ونقياً، مع نسيم رقيق من الشمال، وكانت الشمس دافئة بشكل مبهج، وتوزعت كتل السحاب فخطّطت السماء الشاحبة الزرقة. كنا ندفع طرادتنا على طول سلسلة من القنوات الضيقة التى تشق طريقها ملتوية فى سهل مفتوح مغطّى بهشيم الأعشاب المختلفة. تتحدَّد الرؤية فى الأهوار الوسطى، باستثناء بعض البرك العرضية، إلى بضعة أذرع فقط فى بعض الأحيان بسبب جزر القصب الكثيفة. أما هنا فإننا نستطيع مد بصرنا الى أميال بسبب جفاف الأرض

---

(١) رئيس عشيرة النوافل فى بدعة النوافل: حاولت معرفة اسم هذا الرجل إلا أن محاولاتى أخفقت.

(٢) آثرت ترجمتهما باللهجة العاميّة وذلك أدعى إلى فهم التورية.

خلال الشتاء، والآن مازالت غير مغطاة بأية مياه فأصبحت من الصلابة كأنها الفخار وشاحبة فى لونها. وفى أماكن أخرى، غطّت المياه الأرض إلى عمق عدة بوصات فكانت النتيجة وحولاً بقوام ولون الشوكولا الذائبة.

أقلقنا متعة العديد من الطيور الخوّاضة، طار البعض منها بشكل منفرد بصرخات ثاقبة، وأخرى بأسراب مزدحمة محلقة فوق صفحات الماء والبردى الحائل اللون. عرفت منها (Curlews) و(Whimbrel) أحمر الساق و(red shank) والكَصكَص و(avocet) و(ruffs) و(الكرسوع) وأنواع مختلفة من (Plover). كان هناك أيضا البط، ابتعد عنّا كثيراً قبل أن ندخل ضمن منطقته،وهناك أيضا (أبو منجل) و(البيوضى) و(المغيرفى). ذات مرّة رأينا من بعيد سرب (Cranes). يبادر (حسن) إلى هجمات متواصلة إثر كل طير يعتبره صالحاً للأكل، لكنه لا يقترب بما فيه الكفاية للرمى، ويتلقى فى كل مرة تعليقات مسفهة عن عدم أهليته بوصفه صياداً. وبينما كان (ياسين) و(سبيتى) يسيران على طول ضفتى النهر لقَطْر الطرادة، كان مردياهما محشورين فى مقدمها. كان الجدول ضيقاً جداً فى بعض أجزائه ليسع طرادة، ينعطف أحيانا بزاوية قائمة، لذا ارتأيت أن نعود أدراجنا لأن طول طرادتنا ستة وثلاثون قدماً، ولكن فى النهاية يتدبر الشبان أمرها دائماً ويسهّلون استداريها.

كنت ألبس (دشداشة) عربية، فإذا ما توجّب علىّ النزول إلى الماء لمساعدتهم، ألفّها حول خصرى. كنت أشك دائما بنوايا الرّحالة الذين يميلون إلى إظهار نزعاتهم عندما يرتدون الملابس المحلية بلا سبب معقول. ليس من السهل تدبر أمر الملابس العربية على وجه التحديد من قبل أى شخص لم يعتد عليها. لبست هذه الملابس مدة خمسة أعوام فى جنوب الجزيرة العربية ولولا ذلك لما كنت مستساغاً من قبل مرافقىّ العرب. اعتاد رجال العشائر فى العراق على منظر الملابس الأوربية، فكل الموظفين الحكوميين حريصون على ارتدائها ولا يرتدون غيرها فى المحافل العامة. كانت ملابسى

أوربية عند زيارتى الأولى للأهوار، وفيما بعد، بعد إحساسى بالقبول ارتديت الكوفية و(الدشداشة) العربية الطويلة للمزيد من الملاءمة الواضحة الصريحة، وارتديت فوقها الجاكت، وهو زى تتزايد أُلفته بين المعدان أنفسهم. تحمى (الدشداشة)، حين أكون فى مشحوف أو فى بيت، ساقىّ من الذباب والبعوض، لكنى أستبدلها بالملابس الأوربية قبل زيارة الموظفين أو الذهاب للمدينة.

إننا نجتاز الآن قسماً من (أويسيج)، وهى امتداد أرض تُغمر عند طغيان الماء فقط. تفصل (أويسيج) دجلة عن الأهوار العظيمة فى جهة الشرق مسافة عشرين ميلاً أو أكثر. ولأن هذه الأهوار على العموم عميقة جداً فلا تكون ملائمة للجاموس. يميل المعدان إلى أبناء قراهم على طول (أويسيج) أو عند مصبى نهرى الكحلاء والمشرح فى الشمال. وفى الخريف يعبر (الربيعات)، وهم قسم من (الفريجات)، دجلة مع قطعانهم العظيمة من الجاموس ويقيمون ليقضوا شتاءهم هناك. وفى الربيع يعودون ثانية عبر دجلة مقتفين أثر (الواديّة) ببطء فى جهة الشمال تاركين لدوابهم فرصة الرعى فى الحقول المحصودة للحنطة والشعير فى طريقهم الى (المجر) ويُسمح لهم بهذا الإجراء كمقابل لفضلات الجاموس التى تزيد خصوبة التربة. ثم يتجهون شمالاً إلى (الجندالة) حيث يقضون الصيف هناك بمراعٍ غنية بالنباتات التى تنمو بعد انحسار مياه الفيضانات عنها. وعليهم، من أجل هذا، أن يدفعوا للشيوخ رسوماً ثقيلة جداً.

ينتمى (عماره) إلى (الربيعات) من (الفريجات) فتوقعَ أن يجد أقاربه فى منطقة (أبو ليلة) اكبر مجمعاتهم الشتوية التى تقع أمامنا. ما أن وصلناها حتى رأينا قطعان الجاموس بحراسة بعض الصبية، ومن بينها رأيت جاموسة بيضاء تقريباً، وأُخرى رقطاء. كنت مندهشاً لحجم القطعان فسألت عن الرقم المألوف الذى يمكن للعائلة المتنقلة امتلاكه، فقال لى (عماره):

"بين العشرين والثلاثين".

لكن (حسن) أصرّ على أن أغلبهم يمتلك أكثر من هذا بكثير، وسمّى واحداً من (الربيعات) يمتلك مائة وخمسين رأساً.

"فى أى عمر تضع الجاموسة وليدها الأول"؟

فأجاب (عماره):

"عادة وهى فى السنة الرابعة". وأضاف:

"تحمل الجاموسة عجلها مدة أحد عشر شهراً، والجاموسة الجيدة تضع الكثير حتى يصل إلى خمسة عشر عجلاً".

أعرف أن البدو يقتلون عادة الولادات الذكرية للإبل حين ولادتها طمعا بالاستفادة من حليبها لأنفسهم، فسألت فيما إذا كان المعدان يفعلون الشيء نفسه مع الجاموس:

"نعم، إلا فى حالة امتلاك الرجل لعدد قليل من الجاموس، فهو يحتفظ به حتى يكبر ليبيعه. أما إذا ذبح الوليد الذكر فإنه يضع عجلاً آخر ليرضع الأنثى فضلاً عن أمه وبذلك يحصل العجل على المزيد من الحليب وينمو بشكل أفضل. ومن ناحية أخرى يلطّخ المعيدى عباءته بالمادة اللزجة التى ينزل الوليد الجديد مغطى بها ويلبسها حين يحلب أمه. أما إذا مات هذا الوليد فإننا نضع جلده المحنط[1] أمام الأم قبل أن نحلبها".

"ما السعر الذى تباع به الجاموسة"؟

"(الجَلاّبَة) يدفعون مبالغ كبيرة تصل إلى خمسين ديناراً لأنثى الجاموس الجيدة، وخمسة وثلاثين ديناراً للذكر".

إن (الجَلاّبَة) هم التجار المتخصصون الذين يجوبون بين المعدان لشراء أى عدد من الجاموس يسعه مركبهم. أتذكر أن كلمة (الجَلاّبَة) فى السودان تستعمل فقط لتجار العبيد. يشترى العطارون كذلك جلود الحيوانات النافقة فى الوباء الدورى لمرض تعفن

(١) الجلد المحنط الذى يملأونه بالتبن أو (البوه) وهو بقايا أعواد الأرز، يسمونه (بَوْ) وهى كلمة يطلقونها أيضاً من باب السخرية، على البليد الغبى.

الدم النـــزفى الذى يهلك القسم الأعظم من الماشية، ورجال الأهوار يعرفون أن هذه الجلود تحمل عدوى هذا المرض، غير أن هذا لا يمنعهم من بيعها علـــى الـــرغم مـــن اعتراضهم واحتجاجهم المهتاج إذا جلب العطار مثل هذه الجلود إلى قريتهم.

قال (حسن):

"تفشى مرض الحمى القلاعية[١] قبل عدة سنين فنفق الكثير من جاموسنا، وحتى الخنازير، فقد اعتدنا أن نجدها غير قادرة على المشى فأرجلها مصابة بشكل سيئ".

يتسع مجرى الجدول فى (أبو ليله) حتى يصل إلى ثلاثين ذراعاً. وكان قسم مـــن الجاموس غاطساً فى الماء ووقف القسم الآخر على حافته وكان العديد من المشاحيف، وأغلبها كبيرة عادة، منتصبة على الشاطئ، يجدف الأطفال من حولها فـــوق أطـــواف صغيرة مصنوعة من البردى، فى حين انتشر نحو مائة بيت على طول الضفتين. كانـــت البيوت صغيرة وأغلبها بخمسة (شباب)، زاد فى صغرها منصات[٢] الجاموس الملاطقـــة لها التى يصل طولها إلى أربعين ذراعاً. إن المنصة لا تشبه البيت فى امتدادها واستطالتها وفى كونها تأخذ شكل الخيمة ولا تُسقف بـــ (البوارى). يوضع القصب مرزومـــاً إلى بعضه لتشكيل الجدران مع ميل إلى الداخل وتشد من الأعلى عند خط التقـــاطع إلى عمود مصنوع من مزيد من القصب. يكوّم الحشيش الموطوء وفضلات الجاموس على الجدران من الخارج[٣].

توقفنا عند أحد أبناء عمومة (عمارة)، اسمه (بدّاى) [٤]، كان فى ريعان الـــشباب وطويلا. عانق (عماره) بدفء لأنهما صديقان حميمان وجلب (المـــداد) والمخـــدات.

---

(١) الحمى القلاعية: **Foot and mouth disease** مرض فايروسى على درجة عالية من العدوى يـــصيب الماشية، يشخص من خلال الحمى واللعاب المفرط والتقرحات فى الفم والأقدام يسمونه محلياً (أبو حنيجير).

(٢) منصات الجاموس: **buffalo shelters**: يسمونها (ستَر) مفردها (سِترة).

(٣) إجراء وقائى الغرض منه منع احتكاك الجاموس بجدران هذه المنصات.

(٤) بدّاى بن زاير بن عاجب بن جلاج الفريجى... يسكن فى مدينة الشعلة حالياً.

جلسنا فى الهواء الطلق فى مدخل منصه تفضى، كأنها النفق، إلى البيت. (هَبّشَتْ) أم (بدّاى) وأخته حالاً بعض الشلب قبل سلقه لغدائنا. والد (بدّاى) متوفى منذ سنتين خلت وهو الآن رب عائلة مكونة من أمه وزوجته وأخته وأخوين أصغر منه غائبين الآن مع الجاموس.

علاقة (بدّاى) سيئة مع عائلة رجل يدعى (رضيوى)[1] الذى يسكن مجمعاً قريباً بسبب أن (حسن)[2] ابن (رضيوى)، يرغب فى زوجة (بدّاى) ويأمل الزواج منها[3]. لكن (بدّاى)، أقرب ابن عم لها وله حق أولى، فأصرّ على حقه وتزوجها، فأقسم (حسن) على ان يتزوج هذه الفتاة حتى لو اقتضى الأمر قتل (بدّاى). قبل عدة أسابيع من وصولنا حصل أن تلاقى الشابان بالمصادفة وتضاربا فيما بينهما لكنهما أُبعدا عن بعضهما. أوضح كل من جلس معنا أن لا حقّ لـ (حسن) بالزواج من هذه المرأة، وقال رجل عجوز:

"إن ابن (رضيوى) يشبه أباه، وكلاهما أرعن وشرير، ألم يقتل (رضيوى) رجلين سابقاً لأنهما عارضاه"؟

أقنع (عماره) ثلاثة من كبار السن للذهاب معه إلى بيت (رضيوى) لمحاولة التأثير عليه ومحاولة تسوية الأمر وعادوا فى المساء وهم يجرون أذيال الخيبة. قال (عماره) بشكل مشمئز:

"لا أحد بإمكانه أن يفعل شيئاً معهم، ولا حتى (سيّد صروط) نفسه، فكل ما فعلوه هو تكرار: يجب على (بدّاى) أن يطلق زوجته أو يتحمل العواقب".

ثم أنذر (بدّاى) بقوله:

---

(١) رضيوى بن مجذاب الفريجى، توفى نحو سنة ١٩٦٠م.

(٢) حسن بن رضيوى بن مجذاب الفريجى، يسكن مدينة الثورة حالياً.

(٣) سوء فهم من قبل المؤلف، فقد اقتضت الأعراف أن لا يرغب رجل فى امرأة متزوجة مطلقاً، وإن حصل فهو كما يسمونه (فساد) ولا يستطيع العاشق التصريح بعشقه. وخلاصة الموضوع أن (خلف)، وهو ابن عم هذه المرأة (خليصها)، خطبها من أبيها الذى هو عمه فرفض تزويجها له لسبب ما، وفضّل تزويجها لـ (بدّاى)، الأمر الذى أغاظ (خلف) فاضطر إلى إعلان (نهوة) على ابنة عمه، لكن تلك (النهوة) لم تمنع (بدّاى) من اتمام زواجه.

"لاتقترب منهم، واحتفظ ببندقيتك قريباً منك لاسيما فى الليل، إنهم ينوون شراً"

ازدادت برودة الهواء عند غروب الشمس وتحركت آخر قطعان الجاموس بأشكالها الشبحية فى السهول المعتمة باتجاه القرية. كانت الغيوم الشفافة الغارقة فى ألوان دائمى التغير، تزحف عبر السماء، وكانت طيور البط، سرباً بعد آخر، تشق طريقها باتجاه الغرب. انتقلنا إلى داخل البيت، وامتلأ الممر الطويل بقطيع الجاموس الذى مد أجساده الثقيلة خلف قرون معقوفة ثخينة.

ينتمى (عماره) إلى هؤلاء (الفريجات) الرّحل، وقد تكفّل بى، بالإضافة إلى تزكية أدويتى، فاستُقبلنا فى بيت آخر من مجمعهم. كان هؤلاء (الربيعات) متغطرسين وشرسين بسبب عدم التصاقهم بمكان واحد ولوفرة السلاح لديهم. وليضمنوا نماءً جديداً طرّياً لجواميسهم، يعمد (الربيعات) إلى إضرام النار فى القصب الذى يعتمد عليه (النوافل) فى حياكة (البوارى) لذا فهم مكروهون من قبلهم. وهم دائماً فى ثارات وعداوات مع معدان (السواعد) الخارجين على القانون هم أيضاً الذين يسكنون قرب الحدود الإيرانية، وكل عشيرة تسرق جواميس العشيرة الثانية ما إن تسنح الفرصة.

بعد أن غادرنا (الفريجات) توقفنا فى منطقة (الترابه) وهى قرية كبيرة تشبه (البدعه) وتعتمد على صناعة (البوارى) لكن قاطنيها من (البوغنّام). كيّفت نفسى بين المعدان الرّحل على حميّة تناول الأرز و(الروبه) فقط. أما هنا، فقد اعتقدت أنهم ربما سيذبحون لنا دجاجة على الأقل، لكنهم لم يفعلوا! وحين أمضى مضيّفنا ليلته شاتماً (الفريجات)، دافعت عنهم باستماتة. وفى صباح اليوم التالى سألنا رجل من أهل الكحلاء أن نوصله، فكنا سعداء لذلك لكى يرشدنا خلال جزر القصب أمامنا، فقد سأل (ياسين) عن الاتجاهات فى الليلة الماضية، فقيل له إنكم سوف تضلون بلا دليل. يقع طريقنا بين قصب شاهق وبين برك صغيرة، وكان، فى الحقيقة، نادراً ما يُرى. أذكر من هذه الرحلة سماعى لأول مرة صوت طيور (الواغ). أمضينا أربع ساعات لكى نصل (الدبن)، القرية التى نقصدها، عند مصب نهر الكحلاء.

كان رفاقى ماهرين فى تذكر طريقهم، وفى أثناء السنوات التى قضوها معى، اكتسبوا عن الأهوار معرفة منقطعة النظير. وحتى حين يكونون فى مناطق لم يمرّوا بها من قبل، تتكفّل غريزتهم بهدايتهم. لاحظت ذلك بشكل خاص حين يستقصون، بين القصب والجزر الصغيرة على طول حافة بركة، عن مدخل إلى مصب صغير غير مميز من بين ما يقرب من مائة من مصبات أخرى تقود إلى المجهول. وهناك نوع آخر من المهارة يكتسوبها منذ الطفولة، فيمكنهم اقتفاء أثر خنزير (من حركة الماء)، ويخبرونك عن نوع السمكة من أثر حركتها فى الماء. ومن لمحة قصيرة، يستطيعون التعرف على مشحوف رأوه لمرة واحدة من قبل. لكن العجيب، مع ذلك، يأسهم من تذكر الأسماء. كنت أعانى من نفس عجزهم، وكثيراً ما أسخط حين يعجز رفاقى الأربعة عن تذكر اسم آخر مضيّف لنا.

وحين كنا نجدف، يصرخ أحد رفاقى طالباً التوقف ثم ينزل بعدها إلى الماء لكى يقتلع نبتة بردى صغيرة. إنهم يفضلون أكل السيقان البيضاء النضرة قرب الجذور، ولكن الواضح أن نباتات محددة من البردى صالحة للأكل[1]. وهم يمضغون كذلك بين الحين والآخر سيقان قصب معين وكأنهم يمضغون قصب السكر. وفى الربيع تجمع نساء المعدان حبوب اللقاح للبردى المتجمع عند رؤوسه لكى يصنعن منه حلوى صفراء صلبة مفضلة لديهم جداً على الرغم من أننى شخصياً وجدتها باهتة الطعم وغير مستساغة[2] من الكمية القليلة التى ذقتها.

أمضينا عدّة ليال فى (الدبن) منطلقين كل صباح لنجوب فى أهوار (الحويزة) ووجدنا بحيرات تشبه فى اتساعها بحيرة (زجرى) تختفى خلف جزر القصب واسعة الاتساع لكننا لم نجرؤ على المضى فيها خوفاً من العواصف المباغتة. وبينما كنا منسابين

---

(١) ثمة نبتة من القصب يعرفونها، أما كيف فلم أستطع الاهتداء لذلك، يستلونها ويأكلون الجزء القريب من الجذور الذى يكون طرياً جداً وحلو المذاق يسمونه (محداد) جمعه (محاديد)، والشىء نفسه مع نبتة البردى التى يسمونها (عكيدة) جمعها (عكَيد).

(٢) حبوب اللقاح للبردى يسمونها (نِفَاش) أما الجزء الحامل لها فهو (ضربوط) وجمعه (ضرابيط)، أما الحلوى التى تصنع منها فهى (الخريّط).

على طول ممرات غير واضحة المعالم التى تبدو دائماً كأنها جدران مصمتة من القصب، ظل دليلنا يلح عليّ أن أجهّز بندقيتى قائلاً مراراً وتكراراً:

"يستطيع قطاع الطرق قتلنا هنا ولا أحد يعلم أبداً".

إن هذه البحيرات ملاذات طبيعية للطيور الحرة، ولم أرَ مثل هذا العدد منها فى أى مكان آخر، فهى تغطى وتعتّم لون الماء لمساحات واسعة جداً، وحينما يطير ولو جزء صغير منها، تسمع ما يشبه الهدير.

ولكن على امتداد الأهوار أصبحت طيور البط والتم العراقى تتناقص سنة بعد أخرى. ففى عام ١٩٥١م رأيت أسراب البط تطير عند الغروب لكى تلتقط ما خلّفه حصاد حقول الأرز فى (الصيَكل). كانت بأعداد ذكرتنى بحشود الجراد. وحين غادرت الأهوار فى عام ١٩٥٨م لم يكن هناك ما يشير إلى كثرها. تدخل إلى العراق، فى ذلك الوقت، مليون إطلاقه (سرب) سنوياً، وأغلب الذين يستعملوها يعدّون طيراً واحداً لكل إطلاقه. وتؤخذ ضريبة ثقيلة على الصيّد من الصيادين المحترفين الذين يصطادون بالشباك مائة طير وأكثر فى كل مرّة، ويدفع هؤلاء للشيوخ عن استخدام بركٍ معينة حيث يلقون الحبوب (المستخدمة طعماً). فحول العمارة فقط يوجد الكثير من هذه البرك المخصصة لهذا الغرض.

اعتادت طيور التّم العراقى الوصول إلى الأهوار فى تشرين الأول (أكتوبر)، رمادية المؤخرة بيضاء المقدم[١]، تأتى من الشمال عائدة إلى أراضى تفقيسها فى سيبريا، فى صراخها سحر الأرجاء البريّة. تطير بتشكيلات (أسراب) لها حافات، ويتبع بعضها بعضا، ومنتظمة عبر سماء شاحبة. فكرت، وأنا أراقبها، باليوم الذى سوف تختفى فيه آخر إوزة بريّة، وباليوم الذى سوف تختفى فيه الأسود فى أفريقيا.

---

(١) هناك عدة أصناف من الاوز geese، وبيضاء المقدم رمادية المؤخرة يسموها الحويزاويّة.

كل صباح، قبل انطلاقنا، كنا نستعير إناءً للشاى وأقداحا وطبقا من مضيّفنا فى (الدبن) ونشترى شايا، وسكراً، وملحاً ودقيقاً من العطار. وحين نشعر بميل للتوقف، نختار بقعة ملائمة عند حافة البركة، نطأ القصب لكى نعدّ لنا منصة تسندنا على الماء ونطبخ وجبتنا. يشوى (حسن) ما اصطدنا من طير على نار القصب، وعلى جمره يحمّص (سبيتى) أقراص الخبز التى تكون رطبة ومليئة بالرماد، ثم نستمر بإعداد الشاى حتى ينتهى السكر، وفى أثناء ذلك كنت أراقب البط فى الجزيرة أو (الصليلكَع)[1] وهو يندفع كالسهم بعيداً. وذات مرّة لاحظت اثنين من (جليب الماى) يلعبان على مسافة مائة ذراع عنّا، لكن (حسن) حاول الوصول إلى البندقية فرآنا. لاحا واقفين باستقامة فى الماء يحدّقان فينا لثوان قبل أن يغوصا ويختفيا. أسعدتنى رؤيتهما لنا وإلاّ فمن المؤكد أن (حسن) سيحاول إصابتهما، فسعر الجلد دينار لكل (جليب ماى). اصطاد منها عم (حسن) أربعين فى شهرين.

قال لى (حسن) إن (جليب الماى) شائع جداً حول (زجرى) حيث يتناسل هناك على الجزر الطافية، مبكراً أحياناً فى شهر كانون الثانى (يناير)، لكن الغالب فى شهرى شباط (فبراير) أو آذار (مارس). بعد ثلاث سنين، أى فى عام ١٩٥٦م رغب غافن ماكسويل[2] وضع كتاب عن الأهوار، فجاء

---

(١) الصليلكَع: **kingfisher** من الطيور الصغيرة الجميلة، يهزج الأطفال حين يرونه: ياصليلكَع يابو الركَع.... أمك سوّت عصيدة.... وأبوك احتركَت أيده.

(٢) غافن ماكسويل: **Gavin Maxwell** أديب ورسام بريطانى، زار الأهوار العراقية بصحبة المؤلف عام ١٩٥٦م ولم تدم إقامته إلا أسابيع قليلة. له مؤلف عن زيارته تلك اسمه "قصبة فى مهب الريح **A Reed Shakan By the Wind**" ترجمه صادق التميمى، وكتاب آخر سمّاه "حلقة فى ماء لامع **Ring of Bright Water**" يحكى فيه قصته مع كلب ماء كان قد أخذه معه إلى بريطانيا. مات مقتولاً على يد رجل اسكتلندى عام ١٩٦٩م. فكر فى الإقامة فى الأهوار بشكل نهائى إلا أن طلبه جوبه برفض الحكومة العراقية.

معي إلى العراق وطفت به في طرادتي مدة سبعة أسابيع. كان قد رغب دائماً في الحصول على (جليب ماي) كحيوان أليف على سبيل الاستمتاع، وأخيرا عثرت له على واحد صغير من أصل أوربي، مات لسوء الحظ بعد أسبوع إبان نهاية زيارة ماكسويل. لقد كان في البصرة يتهيأ للعودة إلى وطنه حين تدبرت أمر الحصول على (جليب ماي) آخر وأرسلته له. كان داكن اللون وبعمر ستة أسابيع تقريباً، وقد ثبت علمياً أنه نوع جديد. أخذه ماكسويل إلى بريطانيا وسُمّي هذا النوع الجديد باسمه[1].



(١) سُمّي كلب الماء الأول (جَحَلَة) على اسم المكان الذي وُجد فيه، وسُمّي الثاني (مجبل) ربما على اسم الشخص الذي بعثه المؤلف إلى البصرة ليسلم كلب الماء إلى ماكسويل في مبنى القنصلية البريطانية هناك. أكدّ لي جثير بن مكنزي، أن ماكسويل كان يبكي بكاءً مُراً حين ماتت (جحلة) ثم امتد الأمر إلى ثيسيغر فقد كان يبكي كبكائه على عزيز له. لم أكن اصدّق ما يجري غير أني بكيت أيضا أو تباكيت، والحقيقة أن رغبتي في الضحك وقتها فاقت كل حد.

الفصل التاسع عشر

بين السودان والسواعد

مقدود من (حلبلاب) قلب الموجة فى
المشرّح متلهف لوجه الحصاد والجاموس.

فى الأمسيات، حين كنا نعود إلى (الدبن)، يمازحنى (عمارة):
"الأحسن لك يا (صاحب) أن تنتبه، فهناك (زايرة) تنتظرك"!

كان المضيف الذى نقيم فيه فوق هضبة صغيرة محاطة بالماء، نستطيع من خلالها رؤية الخط البعيد للقرى ولأشجار النخيل على طول نهر الكحلاء التى تعود لوكيل (محمد العريبى)، الرجل العجوز طريح الفراش الذى يعانى من مشاكل فى كليته ومات فى السنة التالية[(١)]. له أربعة من الأبناء الشباب لكنهم يُردون خائبين بشكل فظ فى كل مناسبة من قبل (الزايرة)، أمهم المسنّة ذات المهابة. كانت تندفع إلى داخل أو خارج المضيف وهى تلبس قماشاً من الجوخ الداكن بدت فيه كأنها صرّة، أو تجلس لتشرف على كل شيء. لقد أُوذيتْ طبيعتى المتمسكة بالأعراف بهذا السلوك الخارق للمألوف. والأدهى من ذلك أنها عجوز مفزعة لا أستطيع التخلص منها، فهى دائمة الظهور فى حين كنت أطبّب مرضاى، وتعرض النصح وهو أمر يحرجنا جميعاً بين الحين والآخر.

فى (الدبن)، جُلب لى طفل مشلول من الوسط إلى الأسفل، كان قد عانى من بثور حول الفم العام الماضى تركته كسيحاً. لقد صادفت كثيراً من حالات مشابهة، من

---

(١)وكيل محمد العريبى: عَزَيِّز بن كوطى بن سهر الهليجى.

المحتمل أن تكون شلل الأطفال. إن رجال العشائر طيبون بشكل خاص مع المبتلين المعاقين. ربما كانت حالات الإعاقة الشديد قليلة هنا بالمقارنة مع أجزاء كثيرة من العالم. وعلى الرغم من العمى الذى ولد به طفل آخر فى (الدبن)، إلا أنه كان ينتّقل بحرية فى القرية وحولها، ويذهب لمسافات قصيرة بمفرده فى مشحوف ليجمع الحشيش[١]. وقابلت عدة حالات: أطفالاً ورجالاً، من الصم والبكم خلال سنين وجودى فى الأهوار، كانوا سعداء وطيبين ويعيشون بشكل مثمر ضمن حياة مجتمعهم.

وذات مرّة، عند العصر، بعد أيام من مغادرة (الدبن)، وصلنا إلى قرية فى البر. كان الشيخ غائباً لتفقد مزروعاته، أُدخلناه إلى مضيفه من قبل فتى يلبس عقالاً وعباءة وفى حزامه خنجر. يبدو فى الخامسة عشرة من عمره، ذو وجه جميل لافتاً للانتباه بجديلتين على جانبى رقبته[٢]. كان المعدان فى الماضى يطيلون شعورهم على هذه الشاكلة، وما زال البدو يفعلون. انسحب الشاب الصغير بعد أن قدّم لنا القهوة. سألنى (عماره):

"هل أدركت أن (هذه) مسترجلة"؟

لقد سمعت عنهن بشكل غامض، لكنى لم أقابل إحداهن من قبل. أوضح (عماره):

"المسترجلة تولد امرأة، لكنها لا تطيق ذلك ولها قلب رجل، لذا تعيش كما يعيش الرجال".

"هل يتقبلّها الرجال"؟

"بالتأكيد، فنحن نأكل معها، وتجلس فى المضيف. وحين تموت نطلق الرصاص إكراماً لها فى الوقت الذى لا نفعل ذلك مع المرأة مطلقاً. توجد واحدة فى قرية (مجيد) قاتلت بشجاعة ضد حجى (سلمات) [٣]".

---

(١) الطفل الذى ولد أعمى فى (لندن): لم أستطع التوصل إلى أية معلومة عنه.

(٢) لم يدلنى أحد على اسمها أو أية معلومة تخصها.

(٣) طاحة بنت مولى الأزيرجاوى، عملت مختاراً لقطاع ٥٦ فى مدينة الثورة وتوفيت سنة ١٩٩٠م تقريباً.

"هل يحتفظن بشعرهن مضفوراً دائماً"؟

"المعتاد هو أن يقصص شعرهن كالرجال".

"هل تتزوج المسترجلات[١] رجالاً".

"لا، إنهن يقترن مع النساء كما نفعل".

وعلى كل حال، ففى ذات مرّة، كنا فى قرية لحضور حفل زفاف وكانت العروس فى الحقيقة مسترجلة مما أثار دهشة الجميع. لقد وافقتْ فى هذه الحالة على لبس ملابس النساء والنوم مع زوجها ولكن على شرط أن لا يُطلب منها ما يطلب من النساء! أن النساء المسترجلات محترمات جداً وأقرب مرادف لهن على ما يبدو هن الأمزونيات الموغلات فى القدم[٢]. لقد قابلت عدداً من نساء مسترجلات أخريات خلال السنوات اللاحقة. جاءنى رجل مع مَن حسبته ابنا له بعمر الثانية عشرة عاماً، يعانى من مغص، وحين أردت فحصه قال الأب:

"إنها مسترجلة".

وفى مناسبة أخرى، كنت أقف على خدمة رجل يعانى من كسر فى الجمجمة قاتَل مسترجلة أعرفها وتغلبت عليه!

وبينما كنت جالساً مع (حمود) أخو (مجيد الخليفة) فى ديوانيته، دخلت امرأة متينة البنية، فى أواسط عمرها، تلبس (جوخ) أسود شائعاً، فطلبت علاجاً. لها وجه يوقع أثرا

---

(١)ثمة لَبْس فى سؤال المؤلف وجواب عمارة، فالمؤلف يسأل عن زواج المسترجلات ولكن لم يتضح أن كن يتزوجن باعتبارهن نساء أو بوصفهن رجالاً. وكذلك جاءت إجابة عمارة، ففى شطرها الأول يقول: لا، أى لا يتزوجن لا بوصفهن نساء ولا رجالاً، ثم يكمل بأنهن ينمن مع النساء كما نفعل، وفى ذلك إشارة كاملة إلى أنهن يرتضين تمثيل دور الرجل، وأوضح مثال لذلك هو زواج مسعود العمارتلى الفنان المعروف من امرأتين رغم كونه امرأة مسترجلة، والغريب أن عمارة لم يستشهد بمسعود رغم شهرته الواسعة فى تلك الحقبة فى الأقل كتعزيز لإجابته.

(٢)أمازون amazon: تزعم الأساطير الإغريقية أن الأمازونيات، وهن نساء من عرق خراف، كن محاربات شديدات يقطعن أثداءهن اليمنى لكى تسهل عليهن عملية توتير الأقواس.

من حيرة فى النفس، ذو مسحة ذكورية، رفعت طرف ثوبها كاشفة عن عضو ذكرى كامل وبالحجم الطبيعى[١]".

"هل لك أن تقطع هذا عنى وتحيلنى إلى امرأة تامّة حقيقية"؟

علىّ الاعتراف أنه ناشدنى بعملية ليست بمقدورى. وحين غادر، سأل (عمارة) بما يشبه الرحمة والشفقة:

"هل يستطيعون إجراء مثل تلك العملية فى البصرة؟ إنه امرأة حقيقية لولا (ذلك)، يا للبؤس[٢]".!

بعد ذلك رأيت نفس هذا الرجل يغسل الصحون على شاطئ النهر مع امرأة. يبدو أنه مقبول تماماً من النساء فى البيت، فهؤلاء الناس أكثر عطفاً عليه مما نفعل نحن فى مجتمعنا[٣]، لكنهم مع ذلك قساة جداً بشكل أو بآخر.

ذات مرّة، كنا منطلقين فى واحدة من رحلاتنا حين طُلب منا أن ننتبه لوجود جثة لشابة صغيرة غارقة فى النهر، وحين عدنا فى المساء رأينا الجثة الطافية للشابة، رفض

---

(١)هو نعيّم بن غضبان من خدم بيت منشد من شيوخ البو محمد، وأمهُ هى درّيبّه وصفية حريه بنت وجر بن كباشي. ولد حوالى سنة ١٩١٢م. شديد السمرة قصير القامة نوعا. كنت أراه بكثرة فى السبعينيات وهو يتصدر النساء اللواتى يتجمعن متشحات بالسواد لكى يقدمن التعازى ليتولى نعيّم تهيئة الأهزوجة ومجموعة الأشعار التى تردد فى مثل هذه المناسبات سواء كان المتوفى رجلاً أو امرأة. مازال على قيد الحياة ويسكن مدينة الثورة. يتميز نعيّم بخفة دم وانعدام التحفظ بشكل طاغ على سلوكه، فقد حكى لى أحدهم ممن يعرفه انه وقف ذات يوم فى باب مضيف مجيد الخليفة وحين سئل عن مرامه قال بلهجته المرحة الخفيفة الأنثوية الموغلة فى جنوبيتها إنه يرجو من (بخت) المضيف وأهله أن يحبل! واغلب الظن أن طلبه هذا من المؤلف لا يعدو دعابة من دعاباته الكثيرة المنفلتة غير العابئة بشيء.

(٢)اعتاد الناس النظر إلى مثل هذه الحالة باستخفاف واحتقار واشمئزاز، أما موقف عمارة فغريب حقاً، لعله يحاكى صاحبه الإنجليزى الذى ربما أبدى ملاحظة تفيد تعاطفه معه.

(٣) يقصد المجتمع الإنكليزى أو الأوربى على العموم. أعتقد أن ذلك خال من الصحة تماماً، فالعائلة أو العشيرة التى تبتلى بمثل هذه الحالة تبدو منكسرة ذليلة يسألون الله أن يخلصّهم منه، هذا إن لم يقوموا هم بالتخلص منه. ومن ناحية أخرى فالمجتمع الأوربى تمادى فى أمر رعاية الشاذين إلى حد إنشاء الجمعيات التى تتولى الدفاع عن حقوقهم!

رفاقى لمسها أو نقلها إلى الطرادة حين اقترحت عليهم ذلك بحجة الخوف من التنجس، قال (ياسين):

"يتوجّب علينا الغسل سبع مرات[١]، وعلى أية حال هى ليست ابنتنا".

أقصى ما فعلوه هو دفع الجثة إلى ضفة النهر ورفعها إلى الجرف بالمجاذيف.

وفى مرّة أخرى وصل (سيّد) كهل مع ابنه، ابن التاسعة، الذى جرح يده جرحاً عميقاً بينما كان يقطع الحشيش. ترنح الطفل أمامى وأغمى عليه بسبب ما فقده من دماء، وحين سألت أباه، لماذا لم يسعف الطفل، اعترض أن ذلك ربما يوقع بعض الدم على ملابسه، الأمر الذى يجعله نجساً. ولحسن الحظ تذكرت فى الوقت المناسب أنه (سيّد) لأنه لم يكن ليكفينى شتمه، ولكن يجب الاعتراف أن بعضا من (السادة) أقل صرامة فى هذا الشأن.

يتفرع نهر الكحلاء من دجلة بعد بضعة أميال من العمارة[٢] ليتشتت فى الأهوار بعد مسيرة خمسة وعشرين ميلاً. يقطن القرى التى تقع فى حوضه، حيث أمضينا عدة أيام بعد مغادرة (الدبن)، الكثير من العائلات من عشائر مختلفة فضلا عن (البو محمد) التى ينتمى إليها الشيوخ الذين يقدم الكل إليهم الولاء. ويحتفظ أهالى هذه القرى بالجاموس فضلاً عن زراعة الأرز. وفى أعلى النهر يسكن (البو محمد) فى سلسلة من قرى على طول فروع مختلفة للنهر وقنواته الكثيرة جداً، يزرعون الحنطة والشعير التى يبذرونها فى تشرين الثانى ويحصدونها فى نيسان أو مايو. تنتشر قرى الكحلاء بين بساتين النخيل وبقية أشجار الفواكه الأخرى وأشجار (الغَربَ)، وهى فى هذا، لا تشبه قرى المجر حيث تقف البيوت بشكل مقفر على طول ضفة النهر فى منظر ريفى بائس. لقد تجولنا بينهم مرتحلين فى فرع للنهر لنغادره إلى آخره.

---

(١) المعلوم فقهياً أن الغسل الذى أشار إليه ياسين هو مرّة واحد يسمى غسل مس الميت، وليس سبع مرات كما أفتى ياسين الشغانبى!

(٢) يتفرّع الكحلاء من ضفة دجلة اليسرى فى مدينة العمارة نفسها، وليس بعد بضعة أميال كما أشار المؤلف.

وعلى كل فرع، يتحتّم علينا التغلب على سدّ ترابي عظيم بناه الشيوخ ليمدّ أراضيهم بالماء لزراعتهم الشتوية. يتدفق المجرى المائي الحبيس كدوران الطاحونة خلال منفذ ضيق في الوسط مشكلاً دوامات وتيارات معاكسة تمتد إلى ثلاثين ذراعاً في مجرى النهر. كان رفاقي يشقّون طريقهم قدماً أثر أخرى ومن ثم بوصة تلو أخرى فلا يزيد ارتفاع الجزء الطافي من الطرادة على بوصتين، وكنت خائفاً من جنوح الطرادة على أحد جانبيها وغرقها بالنتيجة. انحدرنا ووصلنا إلى السدّ الآخر كما لو كنّا في نهر سريع الجريان باندفاع مبهج سريع. غالباً، في القنوات الصغيرة، ما نجد المجرى مغلقاً تماماً وعلينا أن نواجه انحدار الضفة الذي قد يصل ارتفاعها إلى أربعة أقدام. إن الطرادة من الثقل بحيث لا نستطيع حملها، فنعمد إلى رش الماء على الضفة لنجعلها زلقة، ثم نرفع مقدمها ونجرها بشكل يقتضي منّا جهداً عظيماً إلى أن تستقر على قمة الضفة، ثم وبحذر، نسهّل عملية انزلاقها إلى الماء في الجانب البعيد.

إن (محمد العريبي) هو أغنى وأقوى شيوخ (البو محمد) في الكحلاء، إنه رجل عجوز موقر جداً ويعيش تقريباً ما بين بغداد والعمارة، تاركاً أكثر أبنائه إثرة لديه[1]، الشاب الغارق في الملذات والمتغطرس، مسؤولاً عن مقاطعاته. يعيش أقاربه في مستويات مختلفة من الفقر على حصص من حقول صغيرة يخصّصها لهم في اقل المناطق خصوبة. لقد أقمنا عند عدد منهم ووجدتهم مضيافين متواضعين.

في طريقنا، ونحن نغادر الكحلاء، قطعنا هوراً يعج بالخنازير وقتلت عدداً منها ودخلنا إلى فرع آخر وهو (المشرّح) النهر الذي ينحدر من دجلة شمال الكحلاء في منتصف مدينة العمارة. نحن الآن بين (السودان) العشيرة الأكثر تمسكاً بالفضيلة والأكثر سوء حظ. كانت قوية ومزدهرة في الماضي، لكن (السودان) الآن مبعثرين

---

(١)عباس بن محمد وأمه فتنه بنت خليفه أخت مجيد الخليفة، وهو أبو محمد بن عباس الشيخ الذى يسكن مدينة العمارة حالياً ويتزعم عشائر البو محمد.

وهُجرت أراضيهم بشكل كبير ويؤكدون أن مستوى المياه انخفض منذ بناء سدّة الكوت[1] على دجلة. نصب آخر شيوخهم المضخات، لكنه حين مات باعها ابنه لتغطية ديون القمار المتورط بها فى البصرة[2].

فى الطريق، استطعت عدّ ستين خنزيراً تأكل خارج جزيرة قصب. توسل بى (السودان) أن اقتلها بسبب تدميرها لمحاصيلهم الضئيلة من الحنطة والشعير التى توشك أن تنضج. نادراً جداً ما تدخل الخنازير إلى حقول الشعير إذا كانت حقول القمح قريبة. وفى هذا الفصل، تأكل الخنازير من هذه الحقول ليلاً وتنام فيها نهاراً. يبلغ ارتفاع المحاصيل فى بعض المناطق أربعة أقدام مما يجعل عملية صيد الخنازير فيها خطرة إلى حد بعيد لاسيما حين تحرّك الريح تلك المزروعات، فقد طرحنى خنزير أرضاً فى مثل هذه الظروف العام الماضى.

فى تلك المناسبة قتلت اثنى عشر خنزيراً تقريباً مطارداً إياها لإجبارها على مغادرة أجمات العلّيق على طول قنوات مياه مهجورة، مطلقاً عليها النار ما أن تلوح فى الأرض المفتوحة. جاءنى طفل بأنباء عن خنزير وُجد فى حقل الحنطة، وأشار إلى مكان معين. كانت الفجوة الفارغة واضحة فى الحقل حتى عن بعد، لكن سنابل الحنطة كانت بمستوى الصدر بحيث لا أستطيع الرؤية إلا لمسافة ذراع واحدة فقط. فجأة خفقت أذن، فقد كان هناك خنزير مضطجع فى الظل ومؤخرته باتجاهى، أطلقت النار فأصبته فى رقبته فهمد فى مكانه. قال مضيفى حين عدت إليه بعدها:

"هيا، دعنا نرجع، أمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه".

---

(١)افتتح الملك غازى ملك العراق سدّة الكويت فى آذار (مارس) من عام ١٩٣٩م.

(٢)شيخ السودان الذى يعنيه المؤلف هو صيهود العجيل، أما ابنه فهو حاتم الصيهود الذى توفى سنة ١٩٦٣م. من الجدير بالذكر أن هذه المعلومة بدت لى غريبة، فالذى أعرفه عن هذا الرجل التديّن والاستقامة كحال كل السودانيين.

وبينما كنا مغادرين، عاد الطفل نفسه مرّة أخرى بأنباء عن خنـــزير آخر:

"تعال لتطلق عليه النار، (صاحب)، لقد أتلف كل محاصيلي".

حاول مضيفي نصحي بالعدول عن رأيي، لكنني قلت:

"هذا الخنـــزير الواحد فقط لأكون بعدها معك".

مشيت ثانية ببطء فى الفجوة الفارغة الممتدة فى الحقل التى أشار إليهـــا الطفـــل وحدّقت فى قمم السنابل، فجاءت عيناى مباشرة فى عينى خنـــزير كبير. مـــا زلـــت اذكر تلك الومضة لأنيابه البيض. وقبل أن أستطيع التصويب وجدتنى ســـاقطاً علـــى مؤخرتى على بعد أذرع من مكان وقوفى. انطلقت إطلاقة من بندقيتى وأنا أتـــرنح إلى الأرض، فألفيت الخنـــزير فوقى ثانية. لقد تحسست ثقله فوق فخذى ورأيت خطمـــه الطويل وعينيه الصغيرتين الغاضبتين فوقى وتحسست أنفاسه على وجهى. وطأ صدرى بأنيابه فاتقيت الضربة بشكل غريزى بأخمص بندقيتى. ولّى الخنـــزير بعدها. جلـــست ونظرت إلى بندقيتى، كانت ثمة حفرة كبيرة فى زندها الخشبى وجرح غائر حد العظم فى أحد أصابعى كما لو كان مقطوعاً بشفرة حلاقة والماء تتدفق منه. أعدت حشو بندقيتى ونهضت قائماً. كان الخنـــزير ماشياً بهيأته الكبيرة، مبتعداً عند حافة حقـــل الحنطـــة. صحت منبهاً، استدار، صوّبت نحو صدره فتهاوى حيث كان يقف.

كنت آنئذ وحدى ومسؤولاً فقط عن نفسي، أما الآن فمعى رفاقى الأربعة وحشد من (السودان) يقتحمون بتهور حقول الحنطة التى تشمخ سنابلها وكانوا يلحقـــون الأضـــرار بالزرع بشكل أسوأ مما يفعله اثنا عشر خنـــزيراً! كان (عمارة) مسلحاً ببنـــدقيتى المعبـــأة بخراطيش كبيرة، و(حسن) حاملاً لمسدس عيار (٠,٩) ملم من نوع (براوننك) جلبته معى هذه السنة، أما (ياسين) و(سبيتى) فكانا مسلحين بخناجرهما فقط. وبعد قتل عدة خنـــازير، والنجاة مرتين بشق الأنفس، أقنعت القرويين أن من الأفضل لنا الصيد بين جـــزر الـــبردى المغمورة. قتلنا هنا ستة وثلاثين خنـــزيراً فى يومين، كنا نلاحقها بطرادتنـــا ونـــصيبها فى

الرأس بمسدس (البراوننك) وهى تسبح أمامنا أو مستديرة لمهاجمتنا، فهى لا حيلة لها فى إيذائنا ما دامت تسبح. قفز (ياسين) ذات مرّة فى مياه عميقة بجانب خنزير ضخم وأغرقه بيديه. أسف (السودان) حين غادرناهم لزيارة (السواعد).

فى طريقنا إلى قطع المزيد من الأهوار، اجتزنا هضبة جرداء سوداء ترتفع نحو ثلاثين قدماً عن القصب، كانت يوماً ما لمدينة طواها النسيان تُعرف الآن بين المعدان (إيشان الواجف **Standing Ishan**). أخذنا (السواعد) فيما بعد إلى البعيد داخل الهور، ليطلعونا على هضبة مشابهة أخرى تسمى (عُزَيْزَة) التى قدرت ارتفاعها بنحو خمسين قدماً. أتذكر رؤية (أبو عرس) فاراً وملتجئاً إليها. أقمنا لمدة أسبوع بين شيوخ عديدين فى الفروع السفلى لـ (المشرّح). لم يكن أحد منهم ثرياً، لكنهم جميعاً مضيافون حسنو الوفادة. أحدهم رجل عجوز له سحنة وثن صينى يُعرف بـ (أبو تريكات) [١]، سُمّى بذلك بسبب أنه كان يعلّق مصباحاً بعصا طويلة على مضيفه ليهدى عابرى السبيل. يفعل ذلك كل يوم جمعة، اليوم المقدس للمسلمين. هؤلاء الشيوخ طيبون وغير متكلفين مع أتباعهم، ومتى ما قدمت وجبة الطعام، يناشدون الجميع فى المضيف للبقاء والمشاركة فيها. ومع أن (عمارة) و(حسن) من (الفريجات) ولا يكنّون الحب للسواعد، إلا أنهم يعترفون بأن شيوخ (السواعد) أكثر كرماً من غالبية شيوخ (البو محمد). ومع ذلك، فحين انتقدت، فى أحد مضايف عشيرة أخرى، نقص حسن الوفادة والضيافة لأحد شيوخ (البو محمد)، عُنفت بقسوة فيما بعد:

---

(١) أبو تريكات: محمد بن موسى الساعدى أخو سعدة بنت موسى إحدى زوجات محمد بن عريبى. كان يعلق الفوانيس على أطراف أعمدة من الخشب يصل ارتفاعها إلى عشرة أمتار على مضيفه ليهتدى عابرو السبيل. ومن الجدير بالذكر أن أحد أحفاده لازال يحتفظ بهذه التريكات وبأعمدها إلى اليوم. طال عمر هذا الرجل المضياف حتى ناهز ١٠٠ سنة، له ولد واحد واسمه جاسم. والحفيد الوحيد الباقى له هو جلوب بن جاسم يسكن منطقة الشعلة وقد كان تعليقه للتريكات على مدار أيام الأسبوع وليس يوم الجمعة فقط كما سيذكر المؤلف علماً أن بناء المضيف قد استبدل بالطابوق حالياً!

"قل ما تشاء عن شيوخنا أمامنا، فنحن نقول ذلك أيضاً، فأغلبهم بخلاء، فى النزول إلى شاطئ النهر لغسل أيدينا بعد الانتهاء. لقد تبنّى رفاقى الأربعة عادة بدوية، مجهولة هنا بين (السواعد) هى النهوض معاً حين خمستنا قد انتهينا، وحين يُسألون يقولون: "هذه عادتنا".

غالباً ما نتحدى الشيوخ وأتباعهم، بعد وجبات الطعام، بمنافستهم بإطلاق النار مستخدمين بندقيتى أو مسدسى، وقد أمسكنا البندقية بيد واحدة. أصبح (عمارة) رامياً ماهراً بشكل رائع، و(حسن) و(ياسين) أصبحا أفضل من غيرهما بكثير، ولكن لا تدريب على يد أمهر الرماة يمكن أن يحسّن أداء (سبيتى) الباعث على الأسى! كانوا يضايقونه بالقول:

"صوّبْ بندقيتك على المضيف هنا، فربما أصبت هدفك عن طريق الخطأ!".

هم أنفسهم من السهل استثارتهم، لكن (سبيتى) لا يقيم وزناً لسخرياتهم، فـ (ياسين) مشاكس محب للخصام و(عمارة) نكد منقلب المزاج، لكن (سبيتى) ألطف أفراد مجموعتى وأكثرهم مراعاة لمشاعر الآخرين. كان ذكياً ومتزناً ودمث الخلق ونحن جميعاً ندين له بالكثير. أخرج عن طورى مع الآخرين مع رفاقى أحيانا، لكن من النادر حدوث هذا مع (سبيتى)، وإن حصل، أشعر بالخجل دائماً.

عدنا إلى الشرق، بعد مغادرتنا لشيوخ (السواعد) متأسفين لذلك، باتجاه تخوم إيران مسيّرين طرادتنا خلال مياه ضحلة بين البردى الذى ينمو بين جزر القصب وحافة الصحراء. يجلس (ياسين) فى المؤخرة، كما هى العادة مع (عمارة) الذى يجلس أمامه، ويحتل (حسن) المقدمة ومن خلفه (سبيتى).

وجدنا أنفسنا على مشارف قرية (السواعد) كانت بصدد الارتحال إلى موقع آخر. كانت المشاحيف الكبيرة المحمّلة بالبيوت المفككة وبمقتنيات أخرى. فى أصغر هذه المشاحيف، كانت مجموعة من الفتيان، الكثير منهم عراة، يصيحون بنبرات صوتية

خاصة لحث الجاموس السابح على المسير. هؤلاء (السواعد) ليسوا مزارعين، بل يعيشون فى الأهوار مع قطعانهم. كانت كوفياتهم حمراء اللون ولا يشبهون (الفريجات) الرّحّل فى ذلك. امتدت خلفنا مشاحيف إثر أخرى تلوح من بين القصب. ذكر رجل أن ارتفاع الماء، لاسيما هذه السنة، مرتفع بشكل لا عهد لهم به، الأمر الذى أبعدهم، بشكل سابق لأوانه المعتاد، عن موقعهم الذى يشتهون فيه إلى عمق الأهوار. ثم قال:

"ابقوا معنا هذه الليلة يا (صاحب)، فنحن على وشك نصب قريتنا على تلك الأرض اليابسة هناك".

أقيم أول بيت بأقل من ساعة بعد توقفنا. وضعت حزم القصب بشكل توازى كل حزمة نظيرتها على شكل صفين[١]، تميل كل حزمة إلى الخارج. تسلّق رجل بعدها على ما يشبه السلّم[٢] وربط الحزم مع بعضها، بمساعدة الآخرين الذين دفعوها لتكون بمتناول يده[٣]. هذه العملية سهلة مادامت حزم (الشباب) قد أُستخدمت من قبل. عندما استقرت (الشباب) فى أماكنها، ثبّت (السواعد) الأضلاع الأفقية[٤]. رموا (البوارى) فوق الهيكل وربطوها فى أماكنها المخصصة لها. يكون سمك السقف أحياناً (باريه) واحدة. كانت الأربطة كلها من القصب[٥]. وبينما كنت أتجول فى الأرجاء القريبة مراقباً بناء البيوت وتفريغ حمولات المشاحيف، دعانى معلمى الجديد إلى بيته الذى رأيته وقد اكتمل تأثيثه واكتمل الشاى، فى حين كان أرز الغداء على الموقد. كان أصغر أبنائه، بعمر التاسعة، عارياً تماماً إلاّ من عقد كبير فى رقبته تدلّى منه حجر أزرق[٦].

---

(١) يسمّون عملية غرس الحزم فى الأرض أمام بعضهما فى صفين: (تُمعضِد).

(٢) تربط ثلاث حزم من القصب على نفس الشاكلة التى نرى فيها ربط الأعمدة الثلاثة الخاصة بإنزال محركات السيارات، يسمّون هذا السلّم (طِزَل).

(٣) يسمون هذه العملية (حَنى).

(٤) الأضلاع الأفقية يُسمونها (هُطُر) مفردها (هُطار).

(٥) الأربطة من القصب الأخضر، يُسحق ويُفتل، يسمونها (بنود)، مفردها (بَند).

(٦) يسمون هذا الحجر (خِضْرِمَه)، يعتقدون أن لها قدرة على صد عين الحاسد.

يجمع هؤلاء (السواعد) الرحل البردى والكولان ونباتات عشبية أخرى، والتى تغطى معظم الهور المؤقت، كعلف لجواميسهم. بينما كنا نراقب الجاموس وهو يأكل هذه النباتات، بيّن (ياسين) أن جواميسه فى (بومغيرفات) لا يمكن أن تتناول هذه الأعشاب. أراد الكثير من (السواعد) أدوية لذا أقمنا يوماً آخر، ثم زرنا قرى لهم أخرى تبعد أولاها بضعة أميال فى داخل القصب، وكانوا أقلّ المعدان تكلفاً، لا يعكر صحبتهم سوى مذاق مائهم المالح قليلاً على طول هذه الحافة الصحراوية. يجمع (السواعد) فى البر الملح بعد تبخر الماء فى الحفر الضحلة. وأخيراً وصلنا الحدود الإيرانية التى كانت أبعد نقطة نصلها فى الأهوار الشرقية، وبعد أن قضينا ليلتنا فى مخفر صغير للشرطة، بدأنا مسيرة العودة إلى الأهوار الوسطى.



الفصل العشرون

عائلة عمارة

يا صَحَين بم ينعتك العرّافون و(الجلاّبة)؟ سمعوك تغنى حشرجة الشاطئ تقلـــدها وتتنهد من عصف الريح، قالوا: مّيت الحدقتين.. ابن الماء هذا، لِمَ يغنى؟

فاضت (أويسيج)، وحين عدنا إليها كان (الفريجات) قد ارتحلوا عنها. تـــذكرت الكم الكبير من الطيور فى شهور الشتاء حين كنّا نقحم الطرادة لولوج أرجاء معتمـــة من نباتات عشبية مختلفة، لم يبق فيها غير طيور عرضيّة رمادية المؤخرة لتفقس. علـــى طول الفرات، كان النماء الجديد للقصب فى جزره، قد ارتفع بين القصب الجاف، فى حين غطّى نبات **Water – crow foot** المعطّر المياه المكشوفة كأنه ندف الثلج.

فى (العزير)، تركنا طرادتنا واكترينا سيارة لتقّلنا إلى البصرة التى أزورها، علـــى العموم، كل شهرين لكى اجمع بريدى وللاستحمام ولشراء المزيد مـــن الأدويـــة. إن قضاء أيام فى مبنى مريح هو تغيير مرضٍ لاسيما أن أصدقائى فى القنصلية أناس طيبون معى ومع رفاقى. قال (عماره) حين عدنا مرّة أخرى إلى طرادتنا"

"ما دام (فالح) قد مات فيجب أن تبقى معى بدلاً منه، نحن لا نكسب الكثير كما تعلم، ولكن ما لدينا هو لك، سوف نترك (ياسين) و(حسن) مع عائلتيهما وسنرســـل بطلبهما حين نكون جاهزين لمعاودة رحلاتنا".

بعد أربعة أيام دخلنا فى قناة تقود إلى (رُفَيعْة)، قرية (عماره). كان التيار يسير بقـــوة، وكان الرجال، خلف الضفتين، يسوون الأرض الغائرة العمق فى الهور ويغمرون مـــساحات

شاسعة منها لزراعتها وهم مغمورون بمياه تراوحت أعماقها ما بين الركبة والحوض. خاض شاب طويل، وقد علق (دشداشته) فى عنقه، باتجاهنا وحيّانا. قال (عماره):

"هذا (رشك) (١)، أخي، عمل فى العام الماضى مساعداً للآخرين فى أراضيهم، أما هذه السنة فلديه أرض خاصة به".

غسل الشاب الطين عن قدميه وركبتيه، نزل فى الطرادة بجانب (عماره) وقبّله ثم التقط (المردى). على الرغم مما فى وجهه من حلاوة معبرة عن الحيوية، وفى الواقع عن الصفاقة، غير انه يفتقر إلى سيماء التهذيب الذى يميّز أخاه. كان أصغر من (عماره) بسنة، وبنفس طوله تقريباً ونحيلاً. من الممكن أن يكون قوياً حين يمتلئ. اجتزنا البيوت الأولى وبدأ الأطفال ملاحقتهم لنا راكضين على طول الضفتين حتى شعرت كأنى عازف على مزمار القربة! وبعد مدّة توقفنا بينما كان حشد كبير، اجتمع لمساعدتنا على الترجّل، ينتظرنا. قال (عماره) لأحدهم:

"(حسن) (٢)، اذهبْ وأخبرْ أبي أن (صاحب) هنا، وهو ضيفنا".

ثم قال لـ (رشك):

"تأكد أن (الفروخ) قد أنزلوا كل شئ من الطرادة، ولا تنس (المرادى)".

كان (ياسين) و(حسن) قد بقيا لأيام معدودة فى (بومغيرفات). مشينا باتجاه البيت (عماره) الواقع فى طرف القرية برفقة (سبيتى) وشاب آخر جاء معنا. خلف القرية، تمتد حقول الشعير المحصودة، وفى البعيد كتلة معتمة من أشجار النخيل. كان (ثكب)، أبو (عماره)، رجلاً مسنّاً بوجه غضنته السنون بعينين وديعتين هادئتين، لبس (دشداشته) بيضاء نقية وكوفية. استقبلنا بلطف واضح. حمل نفسه على الوقوف بحركة

(١) رشك بن ثكب عمل شرطياً بعد أن ارتحل وأهله إلى بغداد. الآن متقاعد ويسكن مدينة الشطة فى بغداد.

(٢) حسن بن ثكب، تطوّع فى صفوف القوات المسلحة ... وتقاعد منها برتبة نائب ضابط يسكن مدينة الشعلة فى بغداد.

بطيئة، وفى الواقع، بشكل متصلّب، حين أُدخلنا إلى بيته الصغير الواطئ السقف، ذى (الشباب) الخمسة قليلة القصب. فرش بساطاً ممزقاً على (بارية) بالية مع مخدتين. حيّتنى امرأة حيوية فى أواسط عمرها، ذات وجه عطوف باش[١]:

"أهلاً وسهلاً (صاحب). أهلاً بك فى بيتك، ألست أبو (عماره)؟ الله يحفظك".

وقف خلفها طفل وولدان وفتاة بعمر الخامسة عشرة كانت تخبئ نصف وجهها.

أرسل (عماره) (رشك) للعثور على إناء شاى، و(سبيتى) إلى دكان والده ليشترى شاياً وسكراً، حاول بعدها القبض على ديك بمساعدة إخوته الصغار وجمع من أطفال القرية. بعد أن هرب الديك من البيت، قاد هذا الجمع فى رحلة حول القرية بمطاردة عاصفة، وقع أخيراً فى زواية وذبح للغداء. قدّم (عماره) أيضاً سمكة ليست طازجة[٢]، التى لا يكترث الناس فى هذه الأرجاء من انبعاث رائحة غير مستساغة منها. خبزت أم (عماره)، واسمها (ناكه)، خبزاً فى تنور طينى دائرى لكى نأكله مع السمك، قاذفة أقراص الرطب على جدران التنور من الداخل. يمكن رؤية هذه التنانير أمام كل بيت فى قرى البر. تخبز النساء خبزهن فى الأهوار على نار يعلوها طبق دائرى خزفى[٣]. وصل (جليب)[٤] الأخ الآخر لـ (عماره)، عائداً من الأهوار. كان صبيّاً متواصل الصمت. تحمّل مسؤولية الجاموس فى أثناء غياب (عماره) معى، وعلى الرغم من أنه فى الثانية عشرة،

---

(١) أم عماره: ناكه بنت محيسن بن نادم الفريجى.. توفيت فى مدينة الشعلة ببغداد فى عام ١٩٩١م.

(٢) يفضّل بعض الناس فى عموم جنوب العراق السمك العتيق ويسمونه (غاب) ومفرده (غابّه). فبعد أن يصطادوا السمكة تُشق وتُخرج أحشاؤها، تُملح وتُعلق تحت الشمس فى الهواء الطلق، وهو إجراء الغرض منه المحافظة على السمك قابلاً للآكل نظراً لانعدام وسائل الحفظ.

(٣) الحقيقة أنه ليس خزفياً، بل طيناً عادياً يتم تجفيفه تحت الشمس يسمونه (طابك) ولا يستخدم مع دقيق الحنطة بل مع دقيق الأرز فقط.

(٤) جليب بن ثكب، يسكن مدينة الشعلة ببغداد حالياً. وقد أصبح اسمه جلوب، فقد صحّح عمارة بن ثكب لى الاسم حين نطقته أمامه.

إلا أنه يعمل من الفجر حتى الغسق فى قطع وجلب الحشيش. ساعده (رشك) فى نقل الحشيش من المشحوف إلى البيت. تُربط الجواميس عند المساء إلى أوتاد أمام البيت، فلا يمكن تركها سائبة فى الليل لئلا تهيم فى حقول الحبوب. يشتمل القطيع على فحل هائج، وثلاث جاموسات صغيرات السن، وجاموسة كبيرة مع وليدها. يحب (جليب) الجاموسات كحب (عماره) لها. قال لى بعد أن حلب إحداهن، وهو يربّت على قفا أخرى:

"انظرْ إلى هذه، إنها جميلة حقاً وحامل، لقد اشتريتها بالمال الذى أعطيتنيه السنة الماضية، قريباً إن شاء الله سنمتلك قطيعاً رائعاً".

(رشك)، من ناحية أخرى، مستمتع فقط فى حقل الأرز ومتذمر دائماً من مضى الوقت مع الحيوانات. لديه فطنه، وقليل احترام لأهله الأكبر منه. وهو مستحث ومتأثر بأقرانه، الأمر الذى قد يؤهله أن يكون طائشاً لا مسؤولاً. لكنه فى الحقول يؤدى مهمة الرجل باستغراق متحمس، وبحلول المساء يجلس إزاء الجدار مكتفياً قانعاً وهادئ البال. فى الوقت الذى كان يخبرنا عن إنجازه فى حقل الأرز، كان يحرك أصابعه كأنه لا يزال يهيئ التربة. فى سنين قادمة ستُغطى ساقاه بـ (الشرَع)، وهو حكة تتفشى خلال الصيف فى الماء حول القرى والحقول، فضلاً عن أضحل الأهوار تكثر الخنازير. لا مندوحة لمزراعى الأزر من الإصابة بها ويعانون منها بحك أرجلهم إلى حد سلخها. يدوم تهيجها عادة مدة أربعاً وعشرين ساعة، وأنا على دراية بالآثار التى تتركها كأنها الجنون لأنى غالبا ما أُصاب بها فى أثناء صيدى للخنازير.

إن الشهور العربية شهور قمرية وتأتى مبكرة عن السنة السابقة. ويعتمد الفلاحون هنا، كفلاحى حضر موت، فى تعيين مواسم زراعتهم على ظهور وأفول نجوم معينة كالثريا والشّعرى على سبيل المثال. وفى بداية كل موسم جديد، تُفصل الأرض على ضفتى (رفيعة) كلتاهما بأوتاد قصبية على شكل قطع أراض باتساعات متساوية وتجرى عليها القرعة. وعلى العموم، يجد الفلاح نفسه مع عدّة قطع من هذه الأراضى

فى مناطق مختلفة فليجأ إلى دمجها من خلال المشاركة مع فلاحين آخرين أو يفلح حصته بنفسه فى نيسان (أبريل) ويبذرون الشلب فى أواسط مايو فوق الماء الساكن. إذا استمر الماء عالياً بعد هذا الموعد، عندئذ تنمو الأعشاب الضارّة فى هذه الأرض وتوقف نمو البذور[١].

يعمد الفلاحون إلى غمر بذور الشلب قبل نثرها مدة خمسة أيام ثم يطرحونها على (بارية) تحت الشمس لمدة يومين آخرين إلى أن تبدأ بالتبرعم. إنهم يميزون بين طريقة (النثار) التى تعنى نثر البذور ثم تخفيفها، وبين طريقة (الشتال) التى تعنى زرع البذور ثم يعيدون زراعتها فى (مروز) بعد أربعين يوماً. لا يستخدم المعدان غير طريقة (الشتال) فى الأهوار، بينما يزرع (آل أزيرج) أراضيهم البعيدة عن الأهوار بطريقة (الشتال)، ما عدا القليل منها بطريقة (النثار). يستخدم الفلاحون هنا فى (رفيعة) الطريقتين معاً. يزرع (رشك)، الذى لا يساعده أحد، أربعة أخماس أرضه (نثار) وتتطلب منه جهداً اقل لكنها تعطى نصف الحاصل فيما لو زرعت (شتال). يُحصد الحاصل المزروع (نثار) فى أواسط تشرين الثانى (نوفمبر)، أما (الشتال) ففى الشهر التالى (ديسمبر).

زرع (رشك) فى عام ١٩٥٦، التى من المفترض أن تكون سنة خير، أربع (كبايل)[٢] (نثار)، وواحدة (شتال)، و(الكبالة) تقابل (٠,٦٢) من الاكر، وهذا يدّر عليه حوالى ٣٥٠٠ كغم من الأرز. يعطى لـ (مجيد) ربع حاصله، ويحتفظ بما يكفى لإطعام عائلته للسنة القادمة، ويبيع الباقى بحوالى ثلاثين ديناراً. تُجمع حصة (مجيد) نقداً، وتُجبى من القرية ككل. يأخذ (مجيد) أحياناً ثلث الحاصل المحصود، وأكثر من الربع المعتاد فى حالة الحاصل المخمّن، ويحدد الطريقة حال معرفته بمستوى ارتفاع الماء لتلك السنة. قيل لى أن حكمه دقيق بشكل عام.

---

(١) أبرز الأعشاب الضارة التى تنمو مع الرز: هى جَرْخَت. وذْنان، ودِهنان.

(٢) كبايل: هكذا وردت فى النص qabalas جمع كبالة، قطع أراض زراعية باتساعات متساوية.

يرحّب الفلاحون بزيادة مناسيب المياه كـ (آل أزيرج)، الذين يزرعون الشلب فى أرض تُروى من النهر، لكنها تنـزل نقمة على المعدان الـذين تبقـى أراضـيهم، المزروعة شلباً، تحت الماء. وبشكل معكوس، فإن انخفاض مناسيب المياه يمكّن المعـدان من زراعة أراض بشكل واسع، فى حين يُعّد كارثة بالنسبة لغيرهم. فى عـام ١٩٥١م، عام انخفاض المياه بشكل استثنائى، زرع المعدان من (الصيكل) و(العكـر) والقـرى الكبيرة فى الأهوار فى صدور (العدل)، مساحات أوسع من المعتاد، ولكن لسوء الحظ، هطلت أمطار غزيرة فى الخريف رفعت مناسيب المياه وأغرقت غالبية الحاصـل قبـل تمكنهم من حصاده. تزرع العشائر فى لواء العمارة الأرز، فقط فى الأراضى التى تُغمر بالغرين، فى حين يلجأ الفلاحون إلى حراثة الأرض فى أراضـى الفـرات أدنى سـوق الشيوخ. يقومون هنا أحيانا بزراعة الشلب تحت النخيل، فى الأراضى نفـسها الـتى حصدوا حنطتها أو شعيرها تواً.

جرح (حسن)، الطفل ذو السبع سنوات وأحد إخوة (عمارة) الأربعـة يـده فى الليلة الأولى وجاءنى لأضمدها. حتى ذلك الوقت كان يبقى صامتاً فى النهاية البعيـدة للغرفة ولا أكاد أشعر بوجوده، على العكس من أخيه (راضى) [1] الذى جلس بجانبى يتحدث بغير ما كلفة. لقد أدهشنى وضوح فقر الدم الصريح عليه والذى قالت أمـه بشأنه إنه دائماً ما يكون مرهقاً وبلا حيوية. كان لون الدم النازف من الجرح كلـون الماء العكر ولا يكاد يتميز فوق الجلد الذى لوحته الشمس. أعطيت للأم قنينـة مـن حبوب الحديد لعلاج (حسن)، وبعد مرور شهر تعرفت عليه بصعوبة، فقد كان مرحاً، طفلاً دافقاً بالحب وشغفت به جداً.

كل طموح (ثكب) هو أداء الزيارة إلى مشهد. لقد قضى وقتاً طويلاً فى الـدعاء والتأمل، مقتنعاً بترك شؤون العائلة بعهدة (عماره) الذى غالباً ما يسأل أمه النصيحة.

---

(١) راضى بت ثكب، يسكن مدينة الشعلى حالياً.

استشارنى (عماره) فى العام التالى بشأن ذهاب (حسن) للمدرسة: "يجب أن يكون أحد أفراد عائلتنا قادراً على القراءة والكتابة".

اتفقت معه على الرغم من شكى الكبير. وفى الصباح التالى أرسلناه إلى المدرسة التى عقد العزم للذهاب إليها اثنا عشر طفلاً آخر من القرية التى تبعد نحو الميلين عن المجرى الرئيس لـ (الوادية) (١). ثمة مدرسة أخرى فى (العدل) بعد قرية (مجيد) (٢)، لكن لا اثر لمدرسة فى الأهوار. كان (حسن) سعيداً بوجوده هناك وبكّر فى الذهاب صباحاً برفقة أطفال آخرين. وفى المساء عرض علىّ انجازاته بفخر. وبعدها، حين كنت فى البصرة، اشتريت له حقيبة مدرسية وكراريس، وأقلاماً ملونة، وأقلام حبر، ودواة، ومسطرة وأدوات هندسية. كان مبتهجاً وأكدّ لى ألاّ أحد من الآخرين يملك ما لديه. وعلى الرغم من ذلك شعرت بالقلق حول النتائج لأنه سوف يمضى يومه، فى السنوات الخمس أو الست القادمة، جالساً على رحلة داخل مبنى، وفى منتصف النهار يُعطى وجبة خاصة كما تصفها اليونسكو **UNESCO**. حياة مسترخية بالمقارنة مع حياة (جليب) بين جزر القصب أو مع حياة (رشك) فى حقول الشلب. ليت جزر القصب أو لحقول الشلب حصة فى حياته إذا بقى فى (رفيعة) بعد التخرج من المدرسة. أتمنى فقط ألاّ ينجرف آخر الأمر ليصبح إنسانا هامشياً فى إحدى المدن، وهو قدر الكثيرين ممن نالوا قدرا مشابهاً من التعليم فى كل مكان من الشرق الأوسط.

القليل من الشباب ممن سبق لهم الذهاب إلى المدرسة اقتنعوا بالبقاء فى قراهم، فهم يتأثرون على مدى سنوات الدراسة بمعلميهم الذين يكرهون الحياة الريفية ويشجعون طلبتهم على التفكير أن الوجود المحترم الوحيد هو فى المدن:

---

(١) المدرسة التى تبعد ميلين عن المجرى الرئيس للوادّية هى مدرسة أبو صبور الابتدائية.

(٢) المدرسة التى تلى قرية مجيد: هى المدرسة المجيدية وسميت على اسم مجيد الخليفه.

"خذنى معك (صاحب) إلى البصرة وجدْ لى عملاً جيداً هناك".

هذا ما يناشدنى به الشباب:

"أنا أكره الحياة هنا حيث نعيش كما تعيش الحيوانات، إنها حياة ملائمة لوالدىّ ولإخواتى، أما أنا فمتعلم".

أما إذا بقوا فى بيئتهم، فمثل هؤلاء الشباب سيصبحون حالاً ساخطين شاعرين بالمرارة. إن اعتقادهم بأن تعليمهم الهزيل سيتكفّل بتحقيق كل ما حلموا به اعتقاد جدير بالشفقة، فهم لا يستطيعون إدراك أن هناك مئات الآلاف من الراقين الآخرين لديهم المؤهلات نفسها. إنهم فى الحقيقة، إذا ما غادروا بيئتهم، سينتهون كبائعى صحف أو الكوكاكولا فى البصرة أو بغداد أو السرقة من السيارات أو يسمسرون لسائقى سيارات الأجرة ليبقوا على حياتهم.

جميع الآباء تقريباً قلقون بشأن إرسال أولادهم إلى المدرسة، واذكر رجلاً عجوزاً من قرية على (العدل) قال لى:

"إن لولدى عمل حكومى جيد فى البصرة. نحن فقراء كما ترى. لقد أنفقت عليه الكثير من المال لمواصلة دراسته فى العمارة مدة عشر سنوات. اعتقدت فيما بعد أنه سوف يعتنى بنا. كنّا سعداء به حين كان طفلاً، فقد كان طفلنا الوحيد، إنه الآن لا يقترب منّا مطلقاً ولا يساعدنا. التعليم شىء سيئ (صاحب)، انه يأخذ منّا أولادنا".

وهناك امرأة متقدمة فى العمر من (الكباب)، كان زوجها قد طلقها وارتحل ليعمل حارساً ليلياً فى العمارة، ليس لهذه المرأة مثل تلك الشكوى، فولدها يزورها من العمارة حيث يدرس هناك. انه يلبس سترة وبنطلونا بثقب كبير عند مقعده، يضمخ شعره بمستحضرات التلميع ويفرقه بتسريحة أوربية. وبعد أن يغادر بعد يومى الزيارة، تذهب أمه بنوبة فخر طائفة حول جيرانها مصرّحة:

"إن ابنى متمدّن، فهو يأكل بالملعقة ويبول واقفاً"(١).

يبول سكان الأرياف دائماً من وضع القرفصاء

❁ ❁ ❁

فى واحدة من زياراتنا الكثيرة لـ (الكباب) دعانا (داخل) لحفلة عرسه. اعتقدت السنة الماضية، حين أرسلته إلى البصرة، انه يتحضر، وما دام قد شفى فأنا أسرع إليه فى عدة مناسبات بين (الفرطوس) فى (العكر) وحديثاً فى (الكباب) وقد شغفت بهذا الهزلى المناكد، هذا الشاب المضحك خفيف الدم. لقد شعرت بمسؤولية نحوه فساعدته مادياً، والآن دفعت معظم الخمسة وسبعين ديناراً، مهر زوجته. إنه بصدد زواج أخت صديقه (وادى) الفتاة التى أحبها دائماً.

وصلنا إلى (الكباب) عند ظهر اليوم الذى يسبق العرس وكنا سعداء بوصولنا بسبب الحر الخانق فى الممرات بين جزر القصب المعدومة الحياة. فحتى عند الجلوس بسكون، يتصبّب العرق على جسدى فى حين يبدو رفاقى كما لو أنهم يستحمون بـ (دشاديشهم). كان الماء الذى نغترف منه للشرب فاتراً وكانت العناكب الصغيرة تتساقط فى الطرادة بأعداد لا حصر لها ويحتشد البعوض حولنا والذباب، على الرغم من انه مسالم ظاهرياً كذباب البيوت، غير أنه يعضنا بوحشية من وراء (دشاديشنا). كانت القرية، وهى ترقد خامدة كأنها مهجورة، تتميز غيظا تحت شمس الصيف. كان (صدّام) فى زيارة لـ (مجيد)، لذا أقمنا عند أحد وجهاء (الفريجات) وهو صديق لى وابن عم لـ (مجيد)، لذا أقمنا عند أحد وجهاء (الفريجات) وهو صديق لى وابن عم لـ (حسن). يسكن (داخل) فى البيت المجاور مع عائلة من (الفرطوس)، كان مشغولاً

(١) المرأة هى غنيدة بنت مزبان بن محمد الفريجى، أما ولدها فهو سيد على بن سيد جاسم من بيت سيّد هندال، متوفى كلاهما. ومن الجدير بالذكر انها إنما تقول ذلك بين أهل السلف من باب السخرية والاستهزاء لما آلت إليه الأمور وليس من قبيل الفخر كما فهم المؤلف. أكّد لى ذلك الذين يتذكرون هذا السيّد وأمه.

بتوسيع البيت من خلال إضافة (شبّتين) أخريين له. وحين انتهى من عمله نصب ناموسيّة حمراء ليقى مهجع عرسه من شرّ البعوض.

سمعنا غناءً وتطبيلاً صباح اليوم التالى من الجانب البعيد للقرية حيث بدأ (وادى) احتفال عرس أخته[1]. وعند العصر، انطلق اصدقاء (داخل) لجلب العروس فى طرادتنا. أخذ (عماره) بندقية واخذ (حسن) مسدساً ليطلقوا النار بالمناسبة. ترقّب (داخل) كما هى العادة، عودهم فى بيته. ولأنه لا عائلة له، فقد سألنى البقاء بجانبه، فجلسنا نستمع للأصوات البعيدة. توقف الغناء، ثم بدأ من جديد مما يعنى، كما قال لى، أنهم ترجلّوا وأن (وادى) الآن بصدد استضافتهم. بعد ساعة، كانت الشمس قد مالت واطئة، دَبَّ الغناء عالياً تلاه إطلاق نار مبعثر، قال (داخل):

"إنهم يضعونها الآن فى الطرادة، سيأخذونها مباشرة فى جولة حول القرية، وسيتوقفون عند بيوت مختلفة فى طريقهم إلى هنا".

أخيراً، رأيناهم قادمين على مهل باتجاهنا. كانت الطرادة التى جلست فيها العروس، ملفعة بملابسها الجديدة، محاطة بالمشاحيف، وقف فيها الرجال يهزجون وهم يجدفون باتجاهنا. تكوّمت المخدات أمام العروس والحشايا واللحف وأثاث آخر كان (وادى) قد جهزها لتأخذها إلى بيتها الجديد. كان مخوّلاً، بوصفه رئيس العائلة، فى الإنفاق سواء كان قليلاً أم كثيراً من مهر العرس حسب مشيئته. أسعدنى ظهور سخائه لأنه كان فقيراً مدقعاً.

ما أن رسوا وترجّلوا حتى أطلقتُ النار من بندقيتى. قفز (عماره) و(حسن) إلى الشاطئ. وبينما كانت العروس[2] تقاد إلى بيتها، أطلق (حسن) كل مخزن العتاد

---

(١) بدت لى هذه المعلومة غريبة ومحيّرة، فالذى أعرفه أن أهل العروس من الرجال لا يبدون معالم الفرح مطلقا إلا إذا كانت ستزوج ابن عمهم، بل على العكس تماما فهم قد يكونون مسرورين فى قرارة نفوسهم، إلا أنهم يظهرون الاغتمام نوعا.

(٢) العروس وهى واجدة بنت طعيمه بن مدلول الفريجى. انظر هامش ٥ من الفصل الرابع عشر.

المكوّن من ثلاث عشرة إطلاقة من المسدس، وأطلق (عماره) من البندقية بكل ما يستطيع من سرعة. ترجّل الجميع متزاحمين من مشحوف إلى آخر للوصول إلى الفسحة التي تتقدم البيت. ارتجل (عجرم) أبياتا ردّدها مرتين، ثم ردّد الحشد (هوسته) [١] وهم يدكّون الأرض بأقدامهم فى دائرة حولنا، ملوحين ببنادقهم وبمجاذيفهم وخناجرهم فوق رؤوسهم. أطلقنا النار في الهواء عند فواصل (الهوسات) لتشجيعهم، واستمروا (يهوّسون) حتى مغيب الشمس حيث ذهبوا لبيوتهم ليتناولوا عشاءهم[٢]. تجمّعنا مرّة أخرى بعد ذلك فى بيت (داخل) حيث غنى (حلو) وآخرون، ورقص شباب غيرهم، ووزع (داخل) السجائر والشاي.

عند منتصف الليل تقريباً، اقترحت على (عماره) أن (داخل) سيكون سعيداً لو فُضّ هذا الجمع لكى يتسنى له الذهاب إلى عروسه، فأجابنى:

"حسناً، سيذهب (داخل) عندما يكون مستعداً".

استعار (داخل)، فيما بعد، بندقية وخرطوشة واحدة واختفى. استمرت الحفلة. وفجأة، على غير توقع، أُطلقت إطلاقة من الجانب البعيد للغرفة، فابتسم الآخرون، الذين كان من الواضح أنهم بانتظارها، ابتسامة عريضة. كانت إشارة إلى أن (داخل) قد أتمّ زواجه! عاود (داخل) الظهور مرّة أخرى مباشرة بعد ذلك، أشعث، وممزق (الدشداشة) وفاقداً لعقاله!! سأله (ياسين) إن كانت العروس قد (أثبتت أنها أقوى منه)، فأجاب بسخط هزلى:

"ألم تسمع الإطلاقة"؟

---

(١) هوسة عجرم كما تحتفظ بها ذاكرة خريبط بن سفيح بن مكنزى هى (إحنا النتبارك لابن التهمل صينيته) ولا أظن أن عجرم قال صدقاً!

(٢) معلومة أخرى محيّرة أيضا: فالمفروض أن يتولّى العريس أصدقاءه ومعارفه وجيرانه وهو أمر لابد منه مهما كان معوزاً. ولو ثبت عجز العريس عن أداء هذه المهمة فعلاً فلا يتردد أحد أقاربه أو أصدقائه من التكفل بأمر العشاء للضيوف. أو على الأقل للمقربين جداً من خاصة العريس.

زرت (داخل) صباح اليوم التالى، فأخذنى إلى داخل ناموسية عرسه حيث، حسب العرف العشائرى، لابد أن تمكث العروس فيها مدة سبعة أيام. جلستُ بجانبها على كومة مخدات ولحف جلبتها معها. كانت تشبه أخاها فى ملامحه، ذات وجه جميل، فتاة ممتلئة بعمر السادسة عشرة ولم تكن خجولة على الإطلاق. رشّت ملابسى بعطر قوى بشكل خاص من زجاجة وأطعمتنى حلوى دبقة(١) فى حين كان (داخل) يُعدّ الشاى. ما أن انتهت أيام العسل السبعة حتى بنى (داخل) بيتاً صغيراً فى القرية واستقر فيه. كانت زوجة صالحة بمزاجها الهادئ وبعملها الدؤوب الشاق وباقتصادها فى الإنفاق. أنجبت بنتاً فى السنة الأولى، ثم ولداً فى السنة التالية. متى ما زرتهم، اعتاد (داخل) على تقديمهما لى بزهو عال، يعطينى أحدهما لحمله لكنى لم أكن أهتم بصغار الأطفال.

توقفنا عند قرية كبيرة للمعدان قرب صدور (العدل) فى طريق عودتنا إلى (رفيعة)، حيث ترك أب طفله قبل عدّة أيام مع أمه العجوز العمياء وذهب إلى دكان العطار، وعندما عاد وجد أن ابنه قد سقط فى الماء وغرق. ما زالت مراسيم الحداد(٢) قائمة فى بيته، قريباً من المكان الذى أقمنا فيه. كانت المشاحيف تعبر مليئة بالرجال والنساء، وليس بكليهما معاً مطلقاً، فى حين كان العويل يشبّ وينخفض. توقف شابان ليحدثانا، كنّا قد اصطدنا خنزيراً معاً فى الماضى. جلسا يتحدثان بغير ما كلفة إلى أن قال أحدهما للآخر:

"هيّا، الأفضل لنا أن نذهب إلى هناك".

---

(١) أغلب الظن أنها حلوى مصنوعة داخل البيت عمادها التمر مع بعض المطيبات كحبة حلوة والهيل والأرز المحمص المطحون طحناً خفيفاً يسمونها (هيس) مفردها (هيسه)، وان لم تكن فهى على الأرجح أصابع العروس وهى قطع أسطوانية بطول حوالى ثلاثة بوصات تلون بألوان عدّة يشترونها من العطار.

(٢) من الواضح أن الطفل صغير جدا وإلا ما كان ليغرق، فالسباحة من أولى المهارات التى يكتسبها المعدان. وعليه فمراسيم العزاء فى هذه الحالة يسمونها استخلاف، والاستخلاف يختلف عن الفاتحة فى عدم وجود السرادق أو الصوابيط وتبهت فيه معالم الحزن من لطم وبكاء وتندر فيه وجبات الطعام. يقام الاستخلاف فى حالة موت الصغار وأحيانا المتخلفين عقلياً أو حين موت شخص فى مكان بعيد ويعجز أحد ذويه عن الوصول إلى هناك حيث تقام الفاتحة فيعمد إلى إقامة الاستخلاف.

نهضا وودعانا، وبلا سابق إنذار انفجرا بعويل عال مستمر. وفى مناسبة، بقيت مع (الفرطوس) حين أخذنى (فالح) و(داود) و(خيّال) للصيد على مبعدة من قرية (جاسم الفارس). قابلنا مشحوفاً قادماً من (الكبيبة)، وسمعنا أن شابا صغيراً، صديقا لهم، قد مات هذا الصباح، فانخرط الثلاثة فى بكاء هستيرى إلى أن قال (فالح) على نحو مفاجئ:

"يكفى هذا".

فتوقف البكاء بشكل أبتر، والتقطوا مجاذيفهم[١].

نحن نعرف الأب المفجوع بابنه، فذهبنا لتقديم التعازى تستمر (الفاتحة) ستة أو سبعة أيام، تتولّى القرية فى أثنائها تقديم وجبات الغداء تباعاً متضمنة اللحم[٢]. يشرب أهل القرية القهوة فى (الفاتحة) ولكنهم لا يشربون الشاى ولا يأخذون السجائر لأنهما مخصصان للضيوف. اقترح عليّ (عماره) أن أصيح الفاتحة، لكننى رفضت قائلاً له أن يتولاها عنى، فغالباً ما يكون صعباً معرفة أى عبارة دينية يجب استخدامها من قبل غير المسلمين وأيها لا تستخدم. فالكثير منها هى كلمات متداولة فى الأحاديث اليومية، على سبيل المثال: الحمد لله، وبسم الله، وفى أمان الله، وفوق الكل، إن شاء الله. فلا أحد يتكلم العربية بلا هذه التعابير. أما بقية العبارات الدينية فالأفضل تركها للمسلمين. فعلى سبيل المثال، بعد ذكر اسم النبى (ﷺ) يضيفون الكلمات: "عليه الصلاة والسلام"، فأشير إليه عادة بالقول، نبيّكم. فى الأيام العشرة الأولى من المحرم، حين يندب الشيعة مقتل الحسين

(١) يريد المؤلف من سرده لهاتين الواقعتين الصغيرتين إيراد حقيقة مفادها الانتقال الوجدانى المفاجئ الذى يتسم به سكنة الأهوار وعموم سكنة الجنوب العراقى. فلا يكتفى صاحب العزاء أحياناً بالتعزية التقليدية التى يقدّمها له بعضهم إن لم تكن مسبوقة ببكاء بصوت عال جداً عند باب المضيف أو السرادق الذى يقام فيه المأتم، دليلاً على الحميميّة أو الرابطة النَسَبية.

(٢) لا تقتصر مساعدة القرية على تقديم وجبة الغداء بل العشاء أيضاً، أما الإفطار فيتولاه صاحب المحنة. وهى من الطقوس التى توضح حقيقة المؤازرة، فالفاجعة لا تصيب البيت وحده بل يشترك (السلف) كله بتحمل تبعاتها، أما لأهل الميّت فليس عليهم سوى البكاء واستقبال ضيوفهم المعزين.

بجدّة انفعالية متحمسّة، غالباً ما أجد نفسي في المضيف لغرض سماع (قراءة) بعد العشاء. أتصرف طبعاً مثل الآخرين، انهض حين ينهضون، التفت يمينا أو شمالاً كما يفعلون.

كانت الغرفة، حيث ذهبنا إلى هناك، مزدحمة جداً. سلمنا على الأب، الرجل العجوز ذي الرجل الكسيحة نتيجة جرح إطلاقه نارية، فدعانا إلى الجلوس إلى جانبه حيث شربنا قهوة، وشاياً ودخّنا سجائر. قبل اثنى عشر عاماً، أحرز هذا الرجل سمعة طيبة في المعركة بين (مجيد) وأبي زوجته (حجي سلمان). لم أسمع مطلقاً عن السبب الحقيقي لهذه المعركة لكني عرفت أن ابنة (حجي سلمان) كانت قد قُتلت حين كانت زوجة لـ (مجيد). قُتل (خريبط) وهو أكبر أبناء (مجيد)، بعد عدة سنين، وقد قيل إن لمقتله علاقة بنفس العداوة والثأر. قام رجال (مجيد)، في هذه المعركة بالهجوم عبر حقول الأرز المكشوفة واستولوا على قرية (حجي سلمان) وأحرقوها. قُتل وجرح مائة وأربعون رجلاً في يوم المعركة ذاك قبل أن يصل (سيّد)[١] ويفرض هدنة. كان أبو الطفل[٢] قد عجز عن حمل راية العشيرة تحت جدران الحصن الذي عجزوا عن الاستيلاء عليه.

جلسنا بجانبه قرابة نصف ساعة، وخزت (عماره) بعدها ليصيح بدوره (الفاتحة)، وغادرنا. من المعتاد المساهمة في النفقات لذا حين رآنا الأب عند الباب، أعطيته نصف دينار.



(١) هو السيّد صروط ــ رحمة الله عليه.

(٢) لم يستطع الشيخ خلف بن مجيد الخليفة تذكر هذا الرجل رغم ترددي على مسامعه كل أوصافه التي ذكرها المؤلف. اكتفى بالقول: لقد كانوا كثيرين.

الفصل الحادي والعشرون

١٩٥٤... الفيضان

دافئ رحـــم الأرض، وشـــهوانى حـــد
الثورة. فوح الماء يا هذا المتلـــصص خلـــف
الضفة متّنْ سدّ الفخذين ولا تـــسدل ســـتار
التوقير فاللذة ماء... يتلوه الماء

كان متجهماً بشكل استثنائى شتاء ١٩٥٣م ـ ١٩٥٤م. فعلى الرغم مـــن أن الثلوج المتراكمة على جبال إيران وتركيا لم تذب لحد الآن، كانت دجلة فى ما يـــشبه الطوفان نتيجة الأمطار الثقيلة التى هطلت فى الشتاء حين عدت إلى العراق فى أواسط شباط. قابلنى (عماره) و(سبيتى) فى البصرة، وبعد أيام فيها اشترينا فى أثنائها أدويـــة، وعتاداً وملابس، عدنا إلى قريتهم. أقمنا ليلة واحدة فى الطريق مع (عبد الواحد) ابـــن فالح، الشاب الفاتر الذى ظهر وكأنه لا يجد ما يقوله. انه مسلّم قياده إلى أمه، المـــرأة الفضولية شديدة البخل[1]. فضّل أتباع (فالح) القدامى الوقوف إلى جانب ولده (عبد الواحد)، لكن أمه تخلصت منهم لتوفر أجورهم. فقد غادر (دعيّر)، وقـــال لى (عبـــد الرضا) إنه أيضاً ينوى المغادرة. حضر القليل من الناس إلى المضيف فى تلـــك الأثنـــاء وجلسنا أغلب الوقت فى صمت أخرق.

---

(١) جريّة بنت حمود الخليفة زوجة فالح بن مجيد الخليفة وابنة عمه. توفيت فى بغداد فى مدينـــة الحريـــة فى مطلـــع الثمانينيات.

لقد تركنا طرادتنا هنا، فوجدناها وقد خُرقت. قلبناها رأساً على عقب وأحكمنا سدّ الشقوق بتسخينها بمشعل قصبي، لكن بها حاجة إلى إعادة طلاء بالقار، لذا قررنا التوغل في الأهوار باتجاه (الهوير) لكي ينجز (حجي حميد) هذه المهمة بنفسه. كان تيار الماء قوياً جداً، وقد وصل مستوى الماء في النهر إلى حافة ضفتيه مهدداً، في عدة مناطق، بكسرها ليغمر حقول الحنطة والشعير التي تكون هنا، كما في أماكن أخرى، أدنى من النهر. اجتزنا عدة مجموعات من الرجال كانوا يمتّنون الضفاف قبل أن نصل (رفيعة) حيث أقمت كالمعتاد مع (عماره). لقد أعاد بناء البيت فأصبح رحباً الآن وأكثر تنظيماً، ولاحظت وجود (مَدّة) جديدة وعدة مخدات. أثمرت جهود (رشك) مع محصول الأرز، ووضعت الجواميس عجولاً، فهناك جاموستان غزيرتا الحليب الآن. أبهجتني عودتي وبدا الجميع سعداء لرؤيتي. واكبني كل الأطفال الصغار في القرية من مكان رسوّي إلى بيت (ثكب) حيث طالب الكبار (عماره) قائلين:

"اطرد هؤلاء (الفروخ) لنتمكن من رؤية صديقنا".

لكن القول أسهل من الفعل دائماً! صاح أحدهم، بعمر السابعة، بوقاحة:

"دعونا وشأننا، إنه ضيفنا وليس ضيفكم".

لم أرَ مطلقاً رجلاً يضرب طفلاً أو يقسو عليه، ولم أرَ أطفالاً يتقاتلون إلا ما ندر. إن (رشك) يستغيث الآن بالأطفال لكي يمسكوا بعض الدجاج، الأمر الذي يُعدّ إغراءً لايقاوم، فاندفعوا في ملاحقة كأنهم قطيع جراء. إن مالكة هذا الدجاج هي (مْطيْرة)[١] أخت (عماره)، وقد هلك القسم الأعظم منها بالذبح كلما قدمت لأقيم معهم. تبيع من هذا الدجاج في بعض الأحيان للمشترين الذين يأتون من المدن ليطوفوا حول القرى.

اشتريت لـ (مطيرة) ثوباً من قماش أخضر لمّاع في أثناء وجودي في البصرة، اختاره (عماره)، لذا كان شعوري بالذنب، بسبب دجاجاها أقل هذه المرّة. كانت فتاة

---

(١) مطيره بنت ثكب وهي أكبر من عمارة بقليل، تسكن محافظة البصرة حالياً.

حَيِّية وصامتة ونحيلة، وحلوة الشمائل بوجه عذب. سألت (عماره) ذات مرّة، ما الذى يمكن أن نفعله هو أو (ثكب) إذا طلب الشيخ يدها للزواج؟ فقال إنهم سوف يرفضون:

"إذا تزوجها الشيخ، سأصبح بلا حول ولا قوة لأحميها[(١)]".

بإمكان الشيخ الزواج من أية امرأة تعجبه، لكن ابنته لا تتزوج إلا شيخاً، ونفس الشيء حصل مع (السادة) [(٢)]. بإمكان المسلمين الزواج من أربع نساء، لكن فى (رفيعة)، كان هناك ثلاثة رجال فقط محتفظين بزوجتين ولا أحد لديه أكثر. نفس الشيء فى (الكباب)، فـ (صدّام) فقط، واثنان آخران لديهم زوجتان.

افترضت فى البداية، أن نسبة كبيرة من الأطفال يموتون وهم رضّع. وفى واحدة من قرى (الفرطوس) التى زرتها مبكراً، مات خمسة أطفال بالسعال الديكى خلال أسبوع. لكن عدد الوفيات من الأطفال، فى الحقيقة، قليل نسبياً، فلدى (ثكب) تسعة أبناء كلهم أحياء عدا واحد، ولـ (سبيتى) سبعة أخوة وأخوات، كلهم أحياء. اخترت عشر عائلات فى (الكباب) عينة عشوائية، لها ثمانون طفلاً، مات منهم ثلاثة عشر دون سن الخامسة عشرة. كنت أتساءل كيف يمكن مقارنة ذلك مع بريطانيا الفكتورية؟

أقمنا فى (رفيعة) ليوم آخر قبل التوجه إلى (بومغيرفات). لقد أمطرت بغزارة خلال الليل، وفى الصباح، كانت السماء مظلمة بغيومها ومكفهرّة. هطل المطر مرّة أخرى ما أن وصلنا إلى مرأى بيت (حسن). نقعنا فى الماء قبل التمكن من إنزال أشيائنا إلى داخل البيت الذى بُنى بشكل جديد بتسقيف سميك بـ (البوارى). كان (حسن)

---

(١) إنه لشرف كبير جداً أن يتقدم أحد الشيوخ للزواج من ابنة أية عائلة ويُعدّ مدعاة للفخر بحق، أما كلام عمارة فربما كان ناتجاً عن تجربة شخصية لايمكن عدّها معياراً يمكن تعميمه، أو رغبة منه فى إعطاء الإجابة التى يتمناها المؤلف.

(٢) ثمة عائلات من السادة المعتدلين غير المتطرفين تزوّج بناتها لكل مَن يرتضون دينه وسمعته الطيبة من (العوام) وهى تسمية غير السادة مفردها (عامى).

خارج البيت للصيد، لكن (عفرة) [١]، أمه، رحبت بنا وأوقدت ناراً لتجفيف ملابسنا. كانت امرأة ضخمة بعينين ذواتي خضرة شاحبة تباعدتا فيما بينهما فى وجه مربع بعض الشيء. كانت امرأة ذات نفوذ فى القرية، ناذرة نفسها لولدها، تنحدر من عائلة تعرف ببيت (مكنــزى Makenzie). حين سمعت الاسم لأول مرّة، توقعــت أنى ســأقابل فرعاً من جماعة اسكتلدنية تلبس قمصانا من قماش صوفى مقلم[٢]! ولكن فى الحقيقة إن بيت (مكنــزى) سلالة لا يرقى إليها الشك من (الفريجات). لقد سمّى جد (عفره) ابنه (مكنــزى) تيمناً وإطراءً لرجل اسكتلدنى قابله وأعجب به فى الحرب العالميــة الأولى. جاء (حسن) وقد نقع بالماء تماماً وامتلأ مشحوفه الصغير بماء المطر، جالباً معه أربعة من طيور (البربش) اصطادها فى رمية واحدة. قال إن هذه الطيور حذرة جداً، فــاقترب منها عبر حمل كتلة صغيرة من القصب أمامه خائضاً فى الماء حد الرقبة.

عاد (ياسين) بسرعة بعد ذلك من جزر القصب. كان كل من (ياسين) و(حسن) قلقين من إمكانية الذهاب معى مرّة أخرى. بعد أن أصلحنا الطرادة فى (الهوير) خططنا لعبور دجلة فى القرنة والارتحال شمالاً خلال جزء من الأهوار الشرقية التى لم يرها أحد منّا حتى الآن. نصحنى (صحيْن):

"لا تقترب من (زجرى) فى مثل هذا الجو، اهبطْ حتى الفــرات خــلال قــرى (البو بخيت) وانظر هناك إن كان بإمكانك الاستعانة بـــ (طــاهر بــن عبيــد)[٣] دليلاً لك. إنه يعيش علــى التــهريب ويعــرف كــل مجــرى مــائى فى الأهــوار الشرقية. وقال (ياسين):

---

(١) عفرة بنت مهيوس بن محيسن الفريجى، ولدت سنة ١٩١٠م اجتمعت لها عدة خصال منها الكرم والجمال واعتــدال البنية ومتانتها، تحظى بإعجاب واحترام كل من رآها، لها نزعة قيادية مهيمنة. تعرّف إليها الرحالة البريطانى الراحل غافن يونغ ونشر لها صورة جميلة فى كتابة العودة إلى الأهوار بنسخته الانكليزية. توفيت سنة ١٩٨٨م.

(٢) الزى الاسكتلندى الفلكلورى.

(٣) طاهر بن عبيد البخيتاوى. قتل بـــ (فالة) ابن أخيه زغير بن داغر بن عبيد سنة ١٩٥٥م تقريباً.

"نعم، لقد قابلته السنة الماضية فى (العزير). إن رافقنا فبإمكاننا الذهاب إلى أى مكان".

فى اليوم التالى تناولنا غداءنا فى (الدوب)، عند الرجل الذى آذى الكلب ابنه قبل ثلاث سنوات. رفض الأب وابنه سماع عذرنا فى مغادرتهم عند العصر، فأمضينا الليل عندهم. قبل أيام، سرق اللصوص جواميس من القرية فى أثناء الليل. أعطت الكلاب تنبيهاً، فطورد اللصوص وأطلقوا عدّة إطلاقات جاءت إحداها فى صدر طفل فقتلته[1] قبل أن يهربوا. كنت قد عرفت الطفل القتيل فذهبت إلى (الفاتحة). تكلم (صحيْن) فى (بومغيرفات) عن الحادث، وأعرب عن شكوكه أن اللصوص من (الفريجات) من منطقة (اويسيج). سمعنا الآن أنهم (سواعد). لقد عرفوهم من لكنتهم، فبإمكان رجل الأهوار معرفة عشيرة الغريب من لكنته.

كان (طاهر) فى البيت حين وصلنا فى الليلة التالية. رجل قوى البنية فى نحو الثلاثين من عمره، يمكن تمييزه من وجود ورم بحجم الجوزة فوق عينه اليمنى. وافق على المجيء معنا ما أن اقترحت عليه ذلك.

كان أكبر أبناء (طاهر) قد مات قريباً وله الآن طفلان صغيران فقط. ساعده ابن أخيه[2]، الولد الوسيم ذو الاثنى عشر عاماً والذى يسكن فى الجوار، فى استضافتنا. كان أبوه، الأخ الأصغر لـ (طاهر) الذى يشبهه فى هيأته، يعيش على التهريب أيضاً. تدهشني دائماً سرعة انتشار خبر وصولي إلى قرية ما، فكان عليّ البقاء مع (طاهر) يوماً آخر بسبب وصول المزيد من المرضى بشكل أكثر من الاعتيادى. كان البعض منهم قادماً من مناطق بعيدة، وكان أحدهم ولد سيئ الحظ، اختبأ (ذكره) تحت كيس الصفن.

---

(١) سألت عن هذه الواقعة فلم يتذكرها أحد.

(٢) زغير بن داغر بن عبيد البخيتاوى، يسكن مدينة العمارة حالياً.

فى الطريق إلى (الهوير)، قال لنا (طاهر) إن مغامرته الأخيرة لم يُكتب لها النجاح، فقد أُلقى القبض عليه من قبل الشرطة الإيرانية التى صادرت سكّرةُ وشايهُ وحققّت معه بشأن اختفاء شرطيين قبل شهور. بعد يومين من الضرب سمحوا له بالذهاب بعد أن حذّروه أنه سيُقتل حال وقوعه بأيديهم مرّة أُخرى. ابتسم (طاهر) وقال:

"كان بودىّ أن أريهم أين يمكن إيجاد شرطييهم، كنت قد دفعتهما تحت جزيرة عائمة فى الهور. لقد فاجآنا بينما كنّا نهرّب حملاً من الحبوب وطردانا فى الظلام. توقف اثنان منّا فى الخلف، وكمنّا لهما. استلم كل واحد منّا مائة دينار عن بندقيتيهما. أما الآن فاعتدت أن أكون بعيداً عن إيران".

تقع (الهوير) على مسافة قصيرة من جدول شمالى الفرات، تنتصب البيوت والعدد الوافر من المضايف تحت أشجار النخيل على جزيرة من أرض مرتفعة مطوقة بالهور. أقمنا مع (حجى حميد) نفسه فى مضيفه الصغير المجاور لورشته، رجل نشيط، متوسط العمر. أرسل الأطفال فى الحال للبدء فى تقشير الطرادة فى حين أخذنى فى جولة حول القرية. ظهر أن للجميع علاقة مباشرة أو غير مباشرة بصناعة المشاحيف. تكدست ألواح الخشب وجذوع الأشجار وأعمدة الخيزران فى الأفنية خلف الدكاكين التى يبيع التجار فيها الأدوات وعلب المسامير فضلاً عن الحاجيات الاعتيادية. تحت أشجار النخيل، كان الرجال يضعون اللمسات الأخيرة لسفينة كبيرة بساريتين قبل تسييرها وإنزالها إلى الماء على جذوع الأشجار. يعمل أغلب الحرفيين فى أفنيتهم الخاصة خلف أسجية قصبية، يقشّرون ويعيدون طلاء أبلام صغيرة ومشاحيف ويصلحون الهياكل المكسورة أو يبنون مشاحيف جديدة. راقبنا رجلاً طاعناً فى السن كان فى بداية بناء المشحوف. وضع بداية للقعر من خلال شرائح خشبية مستعرضة طويلة بين كل شريحة وأخرى فاصلة بعرض بوصة أو نحوها، ثمّ سمرّ ألواحاً

طويلة منفردة أسفل مركز المشحوف. بينما كنّا نشرب الشاى شكّل الأضلاع، مختاراً لذلك قطعاً مناسبة من الخشب من كوم بجانبه. كانت كل آلاته، التى لم تتعد فأسا ومنشارا صغيرا ومثقبا مقوّسا، موضوعة على (باريه) بجانبه مع كمية كبيرة من المسامير. انساقت إلينا رائحة القار الدافئ من الفناء المجاور فى الوقت الذى تأرجحت فيه أشعت الشمس من خلال سعف النخيل فوقنا، فى حين جلس غرابان أبقعان هناك يراقبان كل حركة لنا.

قال (حجى حمِّيد) أخيراً:

"الأفضل لنا أن نعود، سوف ينهون تقشير طرادتك، سأضع قاراً جديداً عليها بعد الغداء. ابق معنا هذه الليلة وستكون صلبة إلى حد بعيد فى الصباح".

صنع لنا مجاذيف جديدة وطلينا راحاتها[1] بالأحمر كى لا تُسرق بسهولة لأن الكل سعداء باقتناء مجاذيف (حجى حميد). أصبح لون مجاديفنا الحمراء، من الآن فصاعداً، علامة مميزة لنا. تيقنت من روعتها وهى تنغمس فى الماء معاً ونحن ننزلق مع التيار فى صباح اليوم التالى عبر ضفاف محفوفة بأشجار النخيل. احتل (طاهر) مكان (حسن) فى المقدمة واستبدل (حسن) (عماره) الذى جلس قبالتى كأنه مسافر. اجتزنا اثنين أو ثلاثة من المراكب البخارية قبل أن نصل إلى القرنة. كان جسر العوامات[2] على الفرات، حيث يتصل بدجلة، مفتوحاً وكان الماء فى دجلة يجرى سريعاً فرسونا عند مضيف فى الجانب البعيد. اليوم هو الرابع من آذار (أبريل) واستمرت إقامتنا فى الجهة الشرقية للنهر مدّة خمسة أسابيع.

---

(١) المجداف، يسمونه (الغَرافَةْ)، أما الجزء العريض فيه فيُسمونه (مشط).

(٢) جسر العوامات يسمونه (أبو الدّوبَ) وهى جمع مفردها (دوبة)، عبارة عن هيكل معدنى كبير مجوّف ومغلق، تربط (الدوب) مع بعضها مستعرضة فى النهر لتمر عليها السابلة والسيارات غير الثقيلة.

زرنا، فى البداية، عشائر لم يسبق لى اللقاء بها من قبل مثل (الدخينات)[1] و(الهليجية)[2]، واسم العشيرة الأخير اسم لأحد الطيور المائية النهمة[3]. عدنا فيما بعد إلى أصدقاء قدامى من (البو محمد) و(الفريجات) الرحل و(السواعد). كانت غالباً ما تمطر عند الليل مع عواصف رعدية مدوّية لتجرف المياه باتجاه الأهوار. القليل من البيوت التي أقمنا فيها كانت بسقوف ثنائية (البارية)، والكثير منها بـ (بارية) واحدة، فيضيف أصحاب البيوت أحيانا (بوارى) الأرض إلى السقف، لكن هذا الإجراء نادراً مع يمنع عنا الماء، لنجد أنفسنا نرقد على الأرض. نمنا بشكل أزواج لنتقاسم البطانيات بسبب برودة الجو الشديدة، وكان الماء يرتفع بمرور الوقت.

ذات عصر، كنّا نصطاد حين تكتلت غيوم سوداء بسرعة منذرة بعاصفة مروّعة. قال (ياسين) بقلق:

"يارب... آمل أن ليس فيها حالوب".

وردد الآخرون دعاءه. انقضت العاصفة قبل أن نصل إلى البيت وقد بذلنا جهداً وعناءً لكى نبقى على سطح الماء. يرعب الحالوب رفاقي، لهم الحق فى ذلك، ففى السنة التالية قطعت عاصفة حالوب مساحات كبيرة من المزروعات عبر النصف الشمالى من الأهوار محطمة حتى القصب الكبير وقتلت عدداً لا حصر له من (نعيج الماى) والبط وطيور أخرى مبعثرة جثثها فى كل مكان، وقتلت أيضاً عدداً من عجول الجاموس، وحاصرت رجلاً وابنه حتى الموت فى (الديمه).

قال (عمارة):

---

(١) الدخينات: بذلت جهداً لغرض الحصول على تعريف لهذه العشيرة لكنى عجزت.

(٢) الهليجيّة: من عشائر قبيلة السراى أحد أثلاث إمارة ربيعة، وجاء لقب العشيرة من حادثة مفادها أن جدهم الأقدم (درياش) قتل أحد أبناء عمومته فنزح من واسط وسكن أهوار العمارة مع قبيلة السواعد، فقالوا عنه (هلك درياش) يلفظونها (هلج درياش)، فأصبح أبناؤه، بعد أن تزوج وأنجب بمرور الوقت، (هليجية). ولا علاقة لهم باسم الطائر المعروف وهو ما يخطئ به المؤلف حين يتسبهم إلى طائر (الهليجى).

(٣) الطير هو (الهليجى) **Cormorant**.

"سوف نقتل الكثير من الخنازير مع ارتفاع الماء هذا".

وكان فعلاً ما قال، فقد قتلت مائتين وخمسة خنازير قبل أن نعبر دجلة مرة أخرى. إنه عمل مثير دائماً، وأحيانا ما يكون خطراً، لكنى لا أصطادها لمجرد المتعة الرياضية، بل لأنها العدو الطبيعى لابن الأهوار، وتَوجّب علىّ خياطة عدد كبير جداً ممن شقّت الخنازير مواقع فى أجسادهم. وهذا ما يجعلنى فى حل من وخز الضمير لقتلها، هذا على الرغم من مقتى لرؤية فنائها هنا كما فنيت الأُسود من قبل. إن أشكالها الداكنة بشدة وعملية تغذيتها عند حافات جزر القصب عند المساء، تعدّ بالنسبة لى جزءاً متمماً لمنظر الهور. ستفقد الحياة الكثير من إثارتها لولا المخاطرة بعزم فى مواجهة الخنازير.

جرأة الخنزير وشجاعته مدهشتان. ففى ذات مرة، عند منطقة العمارة، أكدَّ لى القرويون قدوم خنزير إلى القرية مع الجاموس ليقضى ليلته فى بيوت خالية. لم أصدقهم حتى رأينا اثنين يسيران خلال المياه الضحلة باتجاه القرية عند الغروب. طاردناهما وقتلناهما، وحين عدنا إلى القرية فى الظلام، قالت لنا إحدى العائلات، تجلس خارج بيوتها عند موقد، بشكل عرضى:

"يوجد المزيد من الخنازير هناك".

مشيرين إلى البيت المجاور الذى لا يبعد سوى أذرع قليلة. اعتقدت أنهم يمزحون، ومع ذلك رسونا على (دبن) وكدنا أن نُصدم بخمسة خنازير وهى تهجم مندفعة بعنف نحو الماء.

انعطفنا بالطرادة إلى الشمال يقودنا (طاهر) إلى (اويسيج)، السلسلة الطويلة من الأرض ذات الارتفاع الطفيف التى تسير بموازاة دجلة. غُمر معظمها بسبب طغيان الماء غير الاعتيادى وأوت إليها أعداد كبيرة من الخنازير راقدة فيها خلال النهار. إن رفاقى قادرون، وبسهولة، على جعل الطرادة تنزلق فى الوحل بأى اتجاه فى أثناء الاصطياد. قتلت عصر أحد الأيام عشرة خنازير كانت تسير بعيدا أمامى على شكل

رتل. كانت مهاراتى فى الرماية جيدة بشكل استثنائى ذلك اليوم، فكنت أسقط الأخير فى كل رمية بإطلاقة واحدة. وجدنا أربعة غيرها، وبعد أن قتلت الأول، تجمع الثلاثة الآخرون حوله فيما كان يرفس بتشنج على الأرض، ولسبب غريب بقيت هناك حتى قتلتها جميعاً.

أما الخنزيران الآخران اللذان رأيناهما فكانا كبيرين جداً. وقفا يراقباننا على بعد مائتى ذراع أمامنا. أدار (طاهر) والآخرون المشحوف على جانبه وجلسوا خلفه. ومن موضع الجلوس فى المشحوف، أطلقت النار وأصبت أكبرهما الذى استدار وعدا بسرعة نحو عشرين ذراعاً، ثم انحرف وجاء باتجاهنا مباشرة بصحبة الخنزير الآخر خلفه. أطلقت مرّة أخرى وسمعت وقع الرصاصة تصفعه لكنه لم يتداع مطلقاً، فأطلقت مرّة أخرى والخنزير يتقدم. لقد أصبح، فى الحقيقة، قريباً جداً، وفى هذه المرّة هاوى. أربع إطلاقات.... بقيت لى واحدة، حررّت مسمار البندقية، صوّبت لمواجهة الخنزير الآخر الذى كان سيوهن عزيمتى بقفزتين أخريين. أطلقت آخر إطلاقاتى، فتردّى ساقطاً بقوة فوق الطرادة تماماً. أعدت تعبئة البندقية، لم يتحرك أحد منهما. انحنيت، تحسست الخنزير الأقرب فى حين كان الآخر على مبعدة قدم أو نحوه بعيداً عن متناولى. كنت من الانشغال بحيث أنى لم أخف. لابد أن عبئى المضاعف وفشلى الظاهرى فى الرماية قد أفزعا رفاقى الخمسة العزل، فقد كانت البندقية والمسدس فى الطرادة بجانبى. التفتُ لأجدهم جاثمين بخوف وخناجرهم بأيديهم. سألت:

"ماذا ستفعلون إن صعد إلى الطرادة"؟

فأجاب (عماره):

"سوف نقفز فوقه ونقتله بخناجرنا".

فى اليوم التالى، طاردنا خنزيراً كبيراً آخر فى مياه بعمق ثمانى عشرة بوصة. لم يكن يبعد عنّا أكثر من أربعين ذراعاً وكدنا نصله حين استدار مهاجماً بسرعة شديدة عبر سحابة من رذاذ. فشلت فى إيقافه بسبب حركة الطرادة المستمرة التى أصبح الخنزير جنباً الى

جنب معها قبل أن أطلق النار ثانية. استعار (طاهر) (فالة) هذا الصباح، يرفعها الآن مستقيمة بوجه الخنــزير. لمحته، بطرف عيني، يغادر الطرادة رافعاً عصا (الفالة) من نهايتها. أطلقت النار مرّة أخرى، وفي هذه المرة انهار الخنــزير دافعاً الطرادة إلى الجانب. انتصب (طاهر) واقفاً وهو يغمغم ويقطر الوحل من رأسه إلى قدميه. سأله (ياسين) ببراءة:

"لماذا قفزت من الطرادة؟ فوجودك فيها أكثر أمناً لك، الم تر (صاحب)، وهو يستعد لإطلاق النار؟"

كان (طاهر) مغتماً. علّق (عماره):

"قدم آخر وتُشطر طرادتنا شطرين كالمشحوف الذى رأيناه يوماً وقد هشمّه خنــزير".

هذا الخنــزير من أكبر الخنازير التى قتلتها، له شعر يمكن ضفره، بلون بنى داكن. كان لون شعر البعض من الخنازير أسود، والبعض الآخر ضارب إلى الحمرة بينما القطيع الذى رأيناه ذات مرّة كان باهتاً تماماً فى لونه حتى ظننا للحظة أنها خراف. الكثير منها، على أية حال، لها شعر صلب خشن على جلودها العارية. تولد الخنانيص بين آذار (أبريل) ومايو، وعادة ما يكون عددها خمسة، مخططة، وجذّابة وضعيفة. لقد اكتشفت انه من غير المجدى، على العموم، التقدم نحو الخنــزير وجهاً لوجه، فللخنازير قوة إبصار جيدة، لكنها تبدو ثقيلة السمع عندما تنام. ذات مرّة، كنت أطاردها من على صهوة جواد فى أرض مشجرة، صرخ بى بعض الخيّالة من (بنى لام) أن أذهب إلى حيث يشخر خنــزير كبير فى منطقة شائكة الأشجار ضمن حظيرة لمجموعة خيول نافرة. يؤكد المعدان أن الخنــزير يأكل الجيف. ففى (أويسيج) رأيت بأم عينى جثة خنــزير قتلتهُ قبل بضعة أيام وقد أُفترست أجزاءٌ منه، لكن من السهولة تفسير ذلك على انه أُلتهم من قبل الثعالب الكثيرة هناك. أخشى من أن الثعالب ربما غرقت كلها ذلك العام بسبب شحة الأراضى التى لم تغطها الفيضانات التى ستستمر بالارتفاع لشهرين قادمين على الأقل.

غالباً ما كنّا ننام في قرى صغيرة حيث يُحفظ كل بيت من المياه إلى تحيطه بجدار هش من الطين ينهار بسهولة. كنت أتوقع دائماً انهياره في أثناء نومنا ليسمح بدخول الماء بعلو قدمين. هناك عواصف عنيفة أغلب الليالي، مصحوبة بالكثير من الرعد والبرق، وكنّا سرعان ما ننقع بالماء الراشح علينا من السقف. وفي صباح صحو جففنا بللنا وواصلنا طريقنا، مرتعشين برداً بقسوة، عبر امتداد واسع من ماء موحل تحت سماء عابسة.

كانت القرى في صدور (الكحلاء) مغمورة حين وصلنا هناك. ففي واحدة منها، انجرف الحاجز الطيني المحيط بها أثناء الليل فتجمعت العائلات هنا وهناك خائضة في الماء لغرض انقاذ ممتلكاتها. دمرّ النهر ضفتيه على طول الكحلاء وتدفقت مياهه إلى حقول الحنطة والشعير غير المحصود. وعندما أعدنا عبور دجلة أخيراً، لم تكن بنا حاجة للبحث عن جسر لكي نمرّ من تحت الطريق الرئيس لأن المياه تساوت مع قمة السدّ. رششنا الماء على الطريق الترابي وزلّقنا الطرادة عبره.

هنا أصرّ (طاهر) على مغادرتنا لمساعدة عائلته، قائلاً:

"سيكون الماء هذه السنة عميقاً جداً فلا تستطيع الجواميس الأكل في الهور، فيتوجّب قطع الحشيش الكافي لها".

لقد أصبح واحداً منّا، يوجهنا إلى الأغوار البعيدة الواسعة من جزر القصب على طول الحدود الإيرانية خلال طرق يعرفها القليل غيره. وكان دائماً، حتى تحت أحوال مرهقة شاقة، يحتفظ بمزاج هادئ، وميّال للمساعدة، ومتقاسماً العمل مع رفاقي الذين كانوا من الصغر بحيث يمكن أن يكونوا أولاد. لقد عاهدني على أن يأتي مرّة أخرى، ولكن حين سألت عنه السنة التالية، قال لي رجل بدهشة:

"ألم تسمع أن طاهر قد مات؟ قتله ابن اخيه الشهر الماضي".

من الواضح أن (طاهر) وأخاه قد فقدا هدوءهما بسبب مبلغ تلفه فتضاربا، فاندفع الطفل نفسه ذو الاثنى عشر عاماً، الذى رأيناه العام الماضي، لنجدة أبيه.

أمسك (فالة) وغرزها في ظهر (طاهر) فاخترقت رؤوسها الشائكة كليته ومات في نوبة ألم فظيع بعد ساعات. وقال الرجل:

"كان أخوه شديد الاهتياج حزناً للكارثة ولعن ابنه. الطفل أيضا، كان محباً لـ(طاهر) جداً كأب له، إنها في الواقع مأساة".

في الأهوار، كنا بانقطاع كامل عن بقية العالم، ولا فكرة لدينا عن الكارثة التي أصابت العراق. فقد فاضت مناطق واسعة جداً، وبغداد نفسها تحت خطر جاد، لكن الفيضان لم يقطع الطريق إلى البصرة بعد، حين ذهبنا هناك في زيارة قصيرة في نيسان (مارس). استأجرنا سيارة تاركين الطرادة في (العزير). قبل قدومي إلى العراق، اشتريت بندقية مستعملة عيار (٠,٢٧٥) من نوع (ركبي) حرصاً مني على ألاّ أجلب بندقية أخرى من العيار نفسه. كانوا قد صنعوها لي خصيصاً قبل الحرب. وفي عام ١٩٥٤م جلبت بندقيتي المفضلة تاركاً الأخرى في البصرة، أهديتها الآن إلى (عمارة) وجلبت بندقية إلى كل من (سبيتي) و(ياسين) و(حسن). بعد شهرين، حين كنّا في زيارة للبصرة للمرّة الثانية، دفعنا طرادتنا في الطريق الرئيس حتى القرنة حيث استأجرنا زورقاً بخارياً ليقلّنا أسفل النهر.

حتى بعد عودتنا إلى (الكباب) في نيسان، اكتشفنا أن الماء قد انخفض قدماً واحداً فقط أسفل مدخلِ مضيف (صدّام). كان أدنى من ذلك مسافة ستة أقدام حين زرت المضيف أول مرة في سنة استثنائية في انخفاض مستوى الماء. توجب على (صدّام) إحاطة مضيفه بجدار. من المؤكد أن ارتفاع المياه بهذا الشكل الهائل أمر غير ملائم للمعدان تماماً، لكن الحياة استمرت كالمعتاد. فكل ما فعلته العائلات إضافة المزيد والمزيد من القصب إلى أرضية بيوتهم لينتشلوا أنفسهم من الماء. ومن (الكباب)، انطلقنا لزيارة عشائر (المنتفك) على طول أسفل الفرات، ومن هناك، ارتحلنا باتجاه الشمال إلى نهر (الغرّاف). توقفنا ليومين عند (جاسم الفارس) في طريقنا إلى هناك. في هذا الوقت من السنة تكون الأرجاء الواقعة إلى الغرب من قرى (الفرطوس) مغمورة

دائماً، وكنّا على وشك الغرق فى السنة الماضية حين عبرنا من (العويديّة) إلى (الحمّار). لذلك أصرّ جاسم على إرسال ابنه (فالح) واثنين آخرين من (الفرطوس) معنا فى (بلم). غادرنا قريته فى ٢٩من/ نيسان. هبّت رياح شمالية غريبة قوية فتلاطمت الأمواج العالية فى المياه المكشوفة. انتقلنا أنا و(عماره) و(سبيتى) مع أمتعتنا إلى (البلم) تاركين (ياسين) و(حسن) لتدبر أمر الطرادة التى خفّ وزنها والتى ركبت الأمواج بشكل رائع، تنزلها موجة وترتفع بها أخرى.

فاق مستوى ارتفاع الماء فى هذا الفيضان كل سنة اعتيادية وسيبقى محتفظاً باطراد زيادته مدّة شهر آخر على الأقل. أدركت خطورة الموقف الحقيقية فقط حين رأيت أغلب قرى (الحمّار) غارقة. كان بإمكاننا الذهاب إلى حيث نشاء دافعين الطرادة و(البلم) الكبير عبر حقول المحاصيل غير المحصودة بين جذوع لا عدّ لها من النخيل، قرى كاملة قد هُجرت. وبينما كنا نجتاز، كانت الكلاب الضالة تعوى بيأس فوق سقوف البيوت، وبشكل عرضى، رأينا بقرة على سدّة وقد غمرها الماء حتى بطنها، حيث كانت تأكل ما تطاله من سعف النخيل. القليل من المضايف والبيوت، التى كانت على أرض مرتفعة أو على السدود الصامدة، ما زالت مسكونة. ومتى ما تبادلنا التحية مع شاغلى هذه البيوت، صاحوا باتجاهنا راجينا التوقف عندهم، وإذا ما فعلنا، قدّموا لنا القهوة والشاى، وذبحوا الدجاج لوجبتنا، متحدثين معنا بمرح وكأن شيئاً لم يكن. كنت قد قابلت البعض منهم فى زيارات سابقة، فى حين سمع جلّهم عن رجل انكليزى يعيش مع المعدان. وحتى لو لم أكن معروفا لهم، فهم يقابلوننى بالترحاب نفسه لأننا ضيوف.

دخلنا المجرى الرئيسى للفرات متجّهين إلى الناصرية، منجرفين مع التيار المنطلق بأقصى سرعة. وفى واحد من الأماكن، شكّلت بقايا سدّ طبقة ينهمر الماء فوقها كأنه السيل مكوّنا دوّامة مروّعة. ما زلنا نحمل صناديقى الثقيلة فى (البلم)، التى استقرت

الطرادة بدونها بخفة فوق الماء. اعتقدت للحظة، أننا منقلبون تماماً لا محالة، لكن (ياسين) يعرف بالضبط ما يفعله فقادنا برشاقة بينما كان الباقون يجدفون بكل ما لديهم من طاقة. (سوق الشيوخ) كانت نصف مغمورة بالماء حين اجتزناها.

بعد يومين قضيناهما مع (آل جويبر) (١) عدنا إلى (الحمّار) وراقبنا سكنة سوق (الفهود) وهم يرتحلون، فما أن يرتقي أصحاب الحوانيت مشاحيفهم حتى تنهار الجدران الطينية لحوانيتهم من خلفهم. ثم انحدرنا مع مجرى (الغرّاف) الذى تقع عليه (الشطرة) بعد عدة أميال. صدّع الماء ضفته فى عدة أماكن، فى حين ما زال صامداً فى أخرى، والرجال يعملون بلا راحة لإنقاذ محاصيلهم. أقمنا مع (محسن) فى خيمة ضيافة عظيمة بين (البو صالح). حتى فى مثل هذه الظروف، ترك (محسن) باب بيته مفتوحاً بنفس الكرم الذى ورثه عن أبيه (بدر). أقمنا مع آخرين من شيوخ (المنتفك)، لكن قضينا أغلب ليالينا مع رعاة أو فلاحين، فى خيم سود بعض الأحيان، وفى أكواخ قصبية أو بيوت طينية صغيرة فى أحيان أخرى، وكانت كلها معزولة وسط مياه محيطة.

انفصلنا عن (فالح) ورفيقيه فى (العويديّة) وانطلقنا فى زيارة الى (البزون). قبل خمس سنوات غادرنا أنا و(دوكالد ستيوارت) خيام (البزون) ممتطين جوادين متجهين إلى الجنوب عبر صحراء مغبرة للوصول إلى خيام (العيسى)، والآن، ها نحن نعود إليهم عبر الصحراء نفسها، ولكن بطرادة.



(١) آل جويبر: يشكل آل جويبر إحدى عشائر بنى خيكان ويسكنون منطقة سوق الشيوخ على ضفتى نهر (المزاك) و(عكيكة) ويسيطرون تقريباً على كل الضفة الغربية من هور (الحمّار).

الفصل الثانى والعشرون

١٩٥٥م... الجفاف

أضعتُ (حرثتى) كانت عند الفجر صقيلة
تحاذى النهر، فأين النهر؟

ومن الناحية الأخرى، كان عام ١٩٥٥م، عام قحط، فقد ذاب القليل من الثلج على الجبال فى الشمال، ولم يكد يصل دجلة مستواه فى الشتاء. لقد دمّر فيضان عـــام ١٩٥٤م محاصيل الحنطة والشعير فى (الغرّاف) والفرات وفى أماكن أخـــرى. أمـــا فى الأهوار، فقد حال الفيضان دون زراعة الفلاحين الرز فى مناطق واسعة بين (الصيكل) و(ذنايب) (العدل). فى حين إن عشائر أخرى، كــ (آل أزيرج) الذين تقع أراضـــى زراعة الأرز لديهم خارج الأهوار، كانت قادرة، حين تترسب المياه، على زراعة وجنى محاصيل غزيرة جداً من مناطق واسعة لم تعتد الانغمار، لكنها تغطت ذلك العام بطبقـــة سميكة من الطمى. أما الآن فانحسار المياه إلى مستوى استثنائى فى انخفاضـــه، ســـيمكّن سكنة الأهوار من تسوية التربة وزراعتها أكثر من المعتاد، وفى المقابل سيتـــضرر (آل أزيرج) يشدّة.

إن (آل أزيرج) عشيرة من زرّاع الشلب، يـــصل تعـــدادهم إلى أربعـــين ألفـــا ويسكنون أسفل (البتيرة) الذى يتفرع من دجلة مسافة عشرة أميال شمال العمـــارة. ينقسم (البتيرة) إلى ثلاثة فروع رئيسة[1] تتلاشى فى الأهوار شمال (الصيكل). اجتزنـــا أراضى (آل أزيرج) فى منتصف نيسان. كانت القرى المزدهرة تتوالى الواحـــدة بعـــد

(١) الفروع الثلاثة للبتيرة هى: (أم كعيدة)، و(الهدّام)، و(الخمس).

الأخرى على طول ضفتى النهر بلا أدنى إعاقة. تأخذ (الربعة) عندهم، بصفة خاصة، شكل حرف T ويُستخدم أحد الذراعين داراً لسكن العائلة ويخصّص الآخر للضيوف. شيُدت صوامع حول بيوت الوجهاء من (البوارى) يُحكم غلق سقفها بفضلات الجاموس[١]، ليخزن فيها الشيخ حصته من حاصل العام الماضى. ومن عدد هذه الصوامع وحجمها نتمكن من معرفة ثراء الحصاد.

ومع ذلك، كانت القرى نصف خالية. أعرف أن الكثير من (آل أزيرج) قد ارتحل فى الربيع لحصاد الحنطة والشعير فى (الغرّاف)[٢]. ومن النظرة الأولى، افترضت أن عدد الذين ذهبوا هناك كان أكثر من المعتاد لأنهم يتوقعون سنة سيئة من محصول الأرز عندهم. وعندما أقمنا بينهم، لاحظنا أن الكثير من البيوت الكبيرة المبنية بشكل أفضل من غيرها، كانت خالية، فقد ذهب ساكنوها، على مضض، للحصاد فى (الغرّاف)، وهى مهنة الفقراء. واكتشفت حالاً أن عدداً أقلّ من المعتاد من (آل أزيرج) ذهب للحصاد هذه السنة، فسألنا عن السبب، فقيل لنا إن أعداداً كبيرة من الفقراء والموسرين قد ارتحلت إلى بغداد والبطرة. كانت تلك بداية الظاهرة فى لواء العمارة، ظاهرة التشبه بالنمط القديم فى السعى وراء الذهب التى تستوجب ترك الكثير من القرى مهجورة بشكل كلىّ أو جزئى، وقد تأثر بها الفلاحون كلهم وليس فلاحى (آل أزيرج) فقط، فقد شملت (البو محمد) و(السواعد) وتركت أثراً بين (السودان). المعدان فقط والقبائل الرعوية مثل (العيسى) هم الذين لم يتأثروا بها.

---

(١) تسمى هذه الصوامع (محارز) مفردها (مَحْرَز) إذا كانت كبيرة جداً، أما إذا كانت عبارة عن (بارية) واحدة ملفوفة بشكل أسطوانى ومحكمة الغلق فيسمونها (بارية) أما إذا كانت باريتين مشدودتين إلى بعضهما فيسمونها (مطبك). مع ملاحظة أنها لا تُغلق بفضلات الجاموس بل بالطين. أما ما رآه المؤلف بسبب ضيق مساحة البيوت مما يضطر النسوة إلى وضع (المطّال) الرطب على هذه الصوامع لكى يجف.

(٢) تسمّى عملية ارتحال الفلاحين إلى قرى أخرى لغرض عرض خدماتهم من حصاد ونقل و(دوس) وغيرها (نيسان) ويقولون عن الفلاح الواحد (راح يتنيْسن). قد يكون لشهر نيسان علاقة بالعملية، إذ تتم فيه.

حين زرت العراق أول مرة عام ١٩٥٠م، لم تكن حقول البصرة النفطية قد افتتحت بعد، وبحلول عام ١٩٥٥م كانت بكامل طاقتها الإنتاجية، والأموال تنهال على البلد. هُدمت أحياء كاملة فى بغداد وأعيد بناؤها. وشُقت الطرق الحديثة فى كل مكان وشُيدت الجسور. الطلب على الأيدى العاملة الوقتية كان ملحاً وانتشرت أنباء المردودات المادية المبالغ فيها التى يمكن كسبها بين العشائر. ارتحل المزارعون من لواء العمارة مع عائلاتهم بعشرات الآلاف. عندما كانوا يغادرون للحصاد فى (الغرّاف) أو أى مكان آخر، كانوا ينتقلون مع حيواناتهم وكامل حاجياتهم. أما الآن، فهم يبيعون مشاحيفهم وجواميسهم، وحبوبهم، وفى الحقيقة، كل شىء عدا ما يمكنهم معهم فى الحافلات أو اللوريات، لأنهم لا نيّة لهم بالعودة.

لم يجبرهم العوز على ترك أراضيهم، لاسيما (آل أزيرج) الذين ارتحلوا بأعداد كبيرة أكثر من أى عشيرة أخرى، فقد حصدوا محصولاً جيداً من الأرز فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر). لقد واجههم، وهذه حقيقة، فشل أكيد فى محاصيلهم فى السنة التالية، لكن لديهم الكثير ليتجاوزوا به محنتهم، فهؤلاء الذين بقوا من خلفهم لم يعانوا من مشاق حقيقية. كان عام ١٩٥١م أيضاً عام مياه منخفضة المناسيب جداً، لكنى لاحظت علائم تافهة للإملاق بين (آل أزيرج) و(البو محمد). إن الحقيقة هى أن انخفاض مناسيب المياه فى عام ١٩٥٥م عجّل فى نزوح هائل إلى المدن، لكنه لم يسببّه.

هاجرت، خلال السنوات الحالية، أعداد صغيرة من (آل أزيرج) و(البو محمد) إلى بغداد والبصرة حيث يعيشون معاً فى أحيائهم الخاصة ويحتفظون بتواصل مع أقاربهم فى القرى. خطط بعضهم ليعمل صاحب حانوت أو فى تجارة صغيرة ونجح فى ذلك. إن قصص نجاحهم لا تُخسر شيئاً عند سردها، بالإضافة إلى أنه من المعروف والشائع أن أى رجل ذا قدرة بدنية، بإمكانه الآن أن يجد عملاً فى بغداد ويحصل على خمسة دراهم فى اليوم. إن هذا الرقم وحده يبدو ثروة للقرويين.

السبب الآخر المهم للنـــزوح هو السخط المترتب على التعليم. فهناك الكثير من بين الفلاحين أكثرهم من الشباب الأكثر إقداما، ذهبوا للمدرسة وبالنتيجة تعلموا أن يكونوا منتقدين للقيم المقبولة فى حياة القرية، وهم أيضا يستاءون من سلطة الــشيوخ ويتذمرون علانية من ابتزازهم. إنهم يحلمون بالهرب إلى بغـــداد، إلى عـــالم الفـــرص والجوائز العظيمة مع الكثير من التنوّع والإثارة. إن الآباء يحترمـــون التعلـــيم الـــذى يفتقدونه هم فى ركب التصور. فى عام ١٩٥٥م، حين رأى الشباب أن هناك قطعـــة أرض صغيرة فقط يمكن زراعتها، أعادوا على كبرائهم ضغوطاتهم قائلين:

"لماذا نبقى هنا ونرهق أنفسنا محاولين زراعة المحاصيل للشيوخ؟ لماذا يتوجّـــب علينا العمل من أجلهم؟ نحن أحرار، لسنا عبيداً، ورغم ذلك يعاملوننا كـــالكلاب. أى حق لهم فى الأرض؟ إن أية حكومة حقيقية لابدّ أن تصادرها وتعطينا إياها. لـــن تكون هناك زراعة هذه السنة، فلا ماء هناك بأى حال، فإن بقينا هنـــا، فلـــسوف نتضور جوعاً. أما إذا ذهبنا إلى بغداد، فبإمكاننا كلنا العمل، وخلال شهور سنصبح أثرياء. ها هو (واوى)، لقد ذهب قبل سنتين ولم يكن معه غير (دشداشته)، (واوى) الآن يمتلك سيارة وبيتاً. (على)، و(ياسين)، و(عباس) و(زاير جاسب) كلهم ذهبـــوا. و(غانم) أيضاً، باع جاموساته وارتحل. هيّا يا أبى، قريباً، ســـنـــصبح الوحيـــدين هنـــا وسيجبرنا الشيوخ على أداء كل الأعمال، لنذهبْ قبل أن يرسلوا بطلبنا لبناء الـــسدّ الكبير فى (أبو فحل)[١]".

الشيوخ أنفسهم قلقون بشكل جاد لأن الهجرات الجماعيـــة لرجـــال العـــشائر هدّدهم بأن لا تترك أحداً يعمل فى حقولهم، لاسيما وأن سلطتهم على أولئك الـــذين بقوا بدأت تضعف وربما زالت قريباً. نظّم القرويون، قبل انطلاقهم إلى بغداد، (هوسة) أمام مضيف أحد شيوخ (آل ازيرج)، فهزجوا:

---

(١) السد الكبير فى (أبو فحل): سد ترابى بُدئ العمل به فى أواسط الخمسينيات فى منطقة الهدّام ضمن أراضى آل ازيرج، الغرض منه التحكم بكمية المياه التى تلى السدّ لغرض زراعتها.

(حمّال ولا عند نكال Hamal We Ia and Inkal) (١)

والتى تعنى: أى عمل فى المدينة أفضل من العمل لدى (نكال).

لا يلومنّ الشيوخ إلا أنفسهم فى بعض المواطن، لأنهم متكبرون بشكل لا يُطاق. ففى سنة ١٩٥٣م قام أحد عبيد (مجيد) بضرب شقيق (كليط الشغانبة) (٢) فى (العكر)، فهاجمه القرويون المغتاظون، لان (الكليط) وعائلته محترمون جداً، وتركوه نصف قتيل، فأرسل (مجيد) وكيله الذى جَلَدَ عدّة من أكابر القرية. وعلى أثرها، ترك أغلب (الشغانبة) (العكر) وذهبوا إلى (الصيكل). وعندما سمع (مجيد) بذلك صرّح علانية:

"ذهبت الكلاب، سأجد كلاباً أخرى لتسكن مكانهم".

ولكن بحلول عام ١٩٥٥م، لم يجد (مجيد) ذلك سهلاً، فحين سألته فيما بعد، فيما إذا كان نصف الفلاحين قد غادر، فكّر لحظة ثم أجاب مؤمناً بالقضاء والقدر:

"لا، لا أعتقد بمثل هذه الكثرة حتى الآن".

سألته ما الذى سيفعله إذا هاجر المزيد، فقال انه سيتخلّى عن زراعة الأرز ويكثف زراعة الحنطة والشعير مستعيناً بالآلات. إن أرضه هى شغله الشاغل، وليس عشيرته. تذكرت بكاءه المكروب فى مأتم ابنه (فالح):

"أرضى، حين أموت الآن، ما الذى سيحصل لأرضى"؟

أعتقد أنه من المحزن أن يضع أرضه قبل عشيرته فى كل مرّة.

---

(١) هكذا وردت فى النص وتعنى أن أعمل حمالاً فى موانئ البصرة خير لى من الامتثال لأوامر (نكال). والشيخ الذى (هَوَّس) آل ازيرج قرب مضيفه هو نكال المهاوى أحد كبار شيوخ آل ازيرج توفى إما أواخر عام ١٩٥٦م أو بداية ١٩٥٧م على حد ذاكرة الشيخ محمد بن جثير بن مطلك السلمان. ومن الجدير بالذكر أن نكال هذا كان على جانب كبير من الاعتداد بالنفس. مع ملاحظة أن موسيقى (الهوسة) مضطربة قليلاً، تستقيم إذا استبدلنا نكال بنكالة.

(٢) حمود بن مهاوى بن شجر الذى توفى فى سنة ١٩٩٨م وخلفه أخوه محمد بن مهاوى بن شجر لزعامة عشيرته.

اضمحلت العلاقة، لدى (البو محمد) و(آل ازيرج)، بين الشيخ ورجال عشيرته، لذا باتت العشيرتان بائستين نتيجة لذلك. أما بين العشائر الرعوية، فالعلاقة ما زالت متينة. فها هو (مزيّد) زعيم (العيسى) يشجّع عشيرته على مر سنوات، على زراعة الشعير فى البر، لكن الظروف غير ملائمة. فى بعض الأحيان، هناك وفرة فى المياه، وأحياناً أخرى هناك شحة فيها. لقد كانت مغامرة قامت بها العشيرة، لكن (مزيّد) هو الذى يغرق دائماً فى ديون للحكومة. مع ذلك، فى الساعات التى يحتاج فيها، لا تتوانى عشيرته عن جمع المال فيما بينهم لإسقاط ديونه. ومن ناحية أخرى، طلب منى (محسن بن بدر) شيخ (البو صالح)، ذات صباح، أن آخذه بطرادتى إلى مديرية الناحية التى تبعد ساعتين عن (الغرّاف). حين رسونا، سار بخطى سريعة متباعدة إلى الدائرة، حيث كان المدير ينظر فى قضية، وبعد أن سلّم عليه قال لسجين[1]:

"اذهب واجلس فى الطرادة فى الخارج".

وقال للمدير:

هذا ليس من شأنك، إن عائدية هذا لعشيرتى، وسأسوى الأمر معه.

ثم جلس وتحدث بغير ما كلفة لبرهة قبل أن يستأذن للانصراف.

بحلول ربيع عام ١٩٥٦م، انتهى النزوح الجماعى إلى المدن على الرغم من أن العائلات استمرت فى الهجرة إلى بغداد والبصرة، فقد فقدت الإشاعات قدرها التحميسية، وعاد القليل ممن هاجروا، متحررين من أوهامهم، فربع الدينار فى اليوم بدا أجرا عظيماً من قبل، وعندما ذهبوا هناك وجدوا انه، بالكاد، يكفى لرجل وعائلته مهما عاشوا مقتصدين، هذا فضلاً عن أن العمل قد يتوقف أسبوعا أو أكثر فى الأحوال الجوية السيئة، عندها، لا أجر هناك البتة، وكل شيء بثمن، يقول البعض، حتى الماء.

(١) تجدر الإشارة إلى أن الرجل لم يكن سجيناً بل موقوفاً وإلا لما كان فى مديرية الناحية، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن المؤلف لم يُشر إلى سبب توقيفه، وأظنه على الأرجح ذا طبيعة عشائرية وإلا لما استجاب المدير لطلب محسن بن بدر.

ما الغرض من الارتحال؟ فالفلاح الذى بقى فى أرضه وعمل على فلاحة حقوله أرزاً، بإمكانه أن يحصد ما يكفى من غلة لإطعام عائلته مدّة عام. وبعد أن يعطى للشيخ حصته، سيوفر خمسة وثلاثين ديناراً نقداً فى اليد، والتى بعد كل شيء، تساوى درهمين يومياً على مدار السنة، يستطيع كسبها فى ستة أشهر عمل فقط. فى فصل الكساد، بإمكانه الذهاب للحصاد مع عائلته ليكسب غلة تمكّنه من بيع المزيد من أرزه. بإمكانه اقتناء جواميس تدر عليه حليباً، ودجاج للحم. الوقود، ومواد البناء، وعلف حيواناته كلها بمتناوله مجاناً، وهناك فى الأنهار والبرك وطيور حرّة فى الأهوار.

هذا فضلاً عن الفارق الضئيل فى هذه القرى بين الحياة التى يعيشها الأثرياء والفقراء. فالشيخ يعيش بنفس الطريقة التى يحياها أفراد عشيرته لكنها أفضل فقط. أما فى بغداد والبصرة، فإن الفارق كبير ساحق، فبجانب الفنادق الغالية والقصور ثمة أحياء فقيرة ليست أكثر من (صريفة) قصب جديرة بالازدراء بصفيحها الفارغ والقنانى المهشمة والورق المبعثر، وبما أنه لا وجود لأرجاء مفتوحة قريبة، أقذر بكثير من أية قرية.

من السهل جداً مغادرة الحياة العشائرية والذهاب إلى المدينة، لكنه من المحال على الأغلب للفقراء والبائسين العودة إلى عشائرهم. ففى عام ١٩٣٦م حين كنت فى المغرب، زرت حياً فقيراً كبيراً فى ضواحى مدينة الدار البيضاء، يُعرف بالفرنسية بـ (بدونفايل) حيث يكثر فقراء البربر[1] فى أكواخ مبنية من صفائح البترول المسطحة. قدموا بالأصل من قراهم الجبلية إلى الدار البيضاء فى أثناء سنوات دوى المدافع بعد الحرب العالمية الأولى حين كان هناك طلباً متزايداً على العمالة. ثم، فى الثلاثينات، حلّ الكساد وهبوط الأسعار.

---

(١) البربر: شعب يسكن صحراء البحر المتوسط من مصر إلى المحيط الأطلسى. ذوو مظهر جميل بشعورهم الفاحمة السوداء وعيونهم البنيّة. وعلى الرغم من طول سكناهم مع العرب إلا أنهم لم يندمجوا معهم أو مع غيرهم من الأقوام. يتحدثون اللغة الحاميّة.

كان هؤلاء البربر، فى أثناء زيارتى، يبحثون عن فتات الطعام حول قنوات تصريف المياه ليبقوا على أنفسهم أحياءاً وكانوا يموتون جوعاً بأعداد كبيرة.

الكثير من المهاجرين فى العراق يتركون قراهم للهرب من الحكم الاستبدادى للشيوخ، ويصطدمون فى بغداد والبصرة بالشرطة. فهم يتراصّون فى صرائفهم القصبية فى الفوضى والركام الذى يعوزه النظام، على أرض خربة فى المدينة. وما أن يشعروا بالتوطن والتعرف على طرقهم حول المكان الجديد حتى تصل الشرطة بأوامر لتنظيف الموقع.

"أين يمكن أن نذهب"؟

"إلى أى مكان، ولكن لا تبقوا هنا. عودوا إلى قراكم إذا لم يعجبكم المكان هنا. هيّا، هَدِّمْ ذاك البيت، أسرع، نحن مشغولون".

وهكذا يتوجّب عليهم نقل أشيائهم بصعوبة إلى موقع آخر لتعود الشرطة وتنقلهم مرّة أخرى. وإذا ما استقروا فى ضواحى المدينة، يتوجب عليهم صرف أموال اكتسبوها بمشقة أجوراً للنقل من والى عملهم. إن السلطات المرعوبة من هذه الهجرات الجماعية قلقة بشأن إيقافها وتشجع أفراد الشرطة، الذين يعدّون هؤلاء القرويين لعبة مشروعة لهم، على مضايقتهم باستمرار:

"أرنى أوراقك الثبوتيّة... لم تحصل على أى منها؟ إذاً تعال معى إلى مركز الشرطة".

من المفروض على كل رجل فى العراق أن يخدم مدة سنتين فى الجيش، لكن القليل من النازحين أدّى ذلك الواجب. كنت ذات مرّة مقيماً مع (فالح بن مجيد) حين وصل نقيب جرىء، متوسط العمر إلى المضيف، بصحبة رقيب وجنديين مع حزمة من أضابير. أُعلم (فالح) بهذه الزيارة وطلُب منه هَيئة المجنديين. كان ذلك فى تموز والجو حار، فقبل النقيب بامتنان ما عُرض عليه من (شربت) و(نومى بصرة). كانت بدلة

النقيب ضيقة وغير مناسبة للجلوس على الأرض، فنهض وذهب حيث هُيئ له كرسى ومنضدة فى أقصى المضيف. جُلب المجندون، فكانوا ستة عشر غلاماً دون سن الحلم عدا اثنين منهم، اصطفوا أمام المنضدة فيما جلس آباؤهم والضيوف الآخرون مع امتداد جدران المضيف. راجع النقيب الأضابير، وجهه يوحى بالاستغراق، وضع نظارته وقرأ:

"علوان بن شنته"؟

لا جواب، فأعاد الاسم. أجاب رجل يجلس إلى الجدار:

"ذهب مع عائلته إلى البصرة العام الماضى".

تحسس النقيب قائمته بغير ما هدف وكتب ملاحظة وقرأ:

"جليب بن حسن"؟

وجاء الجواب فورياً:

"لقد مات السنة الماضية".

"مزيّد بن على"؟

دُفع صبيٌّ فى الثانية عشرة من العمر للأمام! كرّر النقيب الاسم بشك مشيراً الى قوائمه:

"هل أنت مزيّد بن على"؟

فقال الصبى بمزيد من التأكد:

"نعم، أنا مزيد بن... ابن على".

"لكنك بعمر أقل مما فى قائمتى، ثمانية عشر، ارفع (دشداشتك) يا ولد".

قطّب النقيب وجهه بشكل أكبر من ذى قبل ثم التفت إلى (فالح):

"لابد أن ثمة خطأ ما، فهذا لايمكن أن يكون هو مزيّد بن على".

أجاب (فالح) بلطف:

"يعانى هؤلاء الناس من حياة عسيرة، فيبطئ الأولاد فى نموهم".

لذا دوّن ملاحظة أخرى فى قائمته وقال:

قلْ له أن يأتى السنة القادمة".

بعد غداء دسم، رحل النقيب مع مجموعته بصحبة ضحيتين أُختيرا منذ البداية من بين كل أقرانهم، وكان من الواضح أن الاثنين والثلاثين الآخرين فى الأضابير إما أن يكونوا ماتوا أو ارتحلوا إلى أماكن أخرى أو ما زالوا صغاراً.

تّمت المقابلة مع الشيخ بمزاج طيّب، وذلك لكى يساند الشيخ أتباعه القرويين، لكنها قضية تختلف تماماً حين يُطلب من الرجل أوراقه فى مركز شرطة فى بغداد لأن الشرطى الذى ينوى إثارة الرعب فى نفسه ومتهيئ لاستخدام القسوة، لا غرض لديه إلاّ ابتزاز المال!



الفصل الثالث والعشرون

البربرة والمضايف

من غبش النسغ وهذا (الكطان) يخاتلنى ويقلّد (الحرش) عربُى والريح... تعـوى تحت إبطئ. يا عالم الزرقة والزرقة سأنشر شباكى وأنام.

فى الأسبوع الأخير من نيسان، خلّفنا قرى (آل أزيرج) وراءنا، وكـدنا نـرى، ونحن نقترب من (الصيكل)، مضيف (عبد الله) عبر البحيرة. عند الصباح، أفزعنا عدة طيور من (الحذاف) التى جاءت هنا فى الربيع لتفقس. كنت مدهـشاً لعـدد طيـور (الرويّة) لأنى توقعتها قد غادرت الآن. أصرّ (ياسين) على ضـرورة محاذاتنـا لجـزر القصب خوفاً من العواصف المفاجئة. فقبل عدة أيام عرّى إعصار مـصحوب بمطـر ورعد الكثير من البيوت بعد أن أزاح (البوارى) حيث كنّا نقيم. فى السنة الماضية، وفى مثل هذا الفصل، أُلزمنا بالبقاء مدّة أكثر من ساعتين فى جزر القصب هـذه نفـسها، مطوقين بظلْمتها المخيفة.

كان (البربرة) فى أقصى البحيرة يصطادون السمك فى مراكبهم، وكنّـا نـسمع نقرهم على الصفائح[1] وآثار (مراديهم) فى الماء وهم يسوقون السمك باتجاه شباكهم. للمعدان ازدراء صعب الفهم لـ (لبربرة)، باستثناء إمكانية الأكل معهم، يحتقـرونهم جداً ولكن بدرجة أقل مما يحتقرون بها الصابئة الذين يأتون فى آخر المقياس الاجتماعى. هذا على الرغم أن لا أحد من رجال العشائر أبداً أوحى إلىّ أن (البربرة) مـن أصـل

(١) ينقر البربرة على الصفائح الفارغة بعدد كبير منها لغرض حث السمك على التوجه لشباكهم المنصوبة فى الماء.

مختلف. يأتي هذا الإجحاف الكامل ضد (البربرة) بسبب مهنتم فحسب. يظهر هـذا الإجحاف للوهلة الأولى، غير منطقى مادام المعدان أنفسهم يصيدون الـسمك بـ (الفالة) لغرض الطعام. بدأ المعدان، وهذه حقيقة، ببيع السمك فى السنوات الأخيرة، لكن ذلك كان شذوذاً عن القاعدة. ففى الماضى لا يجرؤ أحدهم على بيع السمك أو الحليب، أما الآن، فان الظروف أجبرهم على بيع الاثنين. فعلى سبيل المثال، تبيع نساء (الفريجات) الرحل الحليب والزبدة فى (قلعة صالح) و(المجر) حين يقيمون قرب تلكما المدينتين. إن الإجحاف الكامل والأساسى ضد (البربرة) لبيعهم السمك متـأت مـن طرقهم فى صيده. فشيء مماثل لهذا سيكون:

"اللعنة، يا سيدى قد يضطر الرجل النبيل إلى بيع صيده، لكنه لا يطلق النار على الطيور وهو جالس[١]".

لا وجود لـ (البربرة) بين (الفرطوس)، و(الشغانبة) و(الفريجات)، لكن هنـاك الكثير منهم بين (البو محمد) وأيضاً (آل ازيرج). وفى (الجبايش) بين (بنى أسد)، هناك آخرون من الذين يصطادون على طول الحافة الغربية للأهوار مقيمون لمدة شهور فوق الجزيرة قرب قرية (جاسم الفارس). إن المشترى، الذى يُعرف بـ (صفّاط)، يـشترى سمكهم، يملّحه وينقله إلى البصرة. يصطاد (البربرة) على العموم بشباك صيد ضخمة، لكنى رأيتهم أيضاً يستخدمون شباك (الكرف) فى الأنهار، وشباك طويلـة مركـوزة مربوطة إلى أعمدة قصبية فى المناطق المغمورة خارج الأهوار.

أحياناً، يستعمل الصبية فى (المجر) سنارة يلقونها فى الماء على ضـفاف الأنهـار فى المدينة، لكنى لم أرَ مثل هذه الوسيلة فى أى مكان آخر، عدا البصرة. يـضع فلاحـو (السواعد) فى الأهوار الشرقية، أحيانا، قطعة شبك عبر القنوات سـريعة الجريـان،

---

(١) جملة داخل أقواس تنصيص، يبدو أنها تجرى مجرى المثل أو القول المأثور أو لعلها من الأدب العالمى، غـير أن المؤلف لم يشر إلى قائلها أو مناسبة إدراجها.

وراقبت مرّة اثنين منهم وقد خاضا حد الفخد فى المجرى ومعهما شبكة (كرف) تشبه النقالة[١] وبالحجم نفسه تقريباً. ينصب القرويون الذين يسكنون على ضفاف الأنهار غالباً (بوارى) صغيرة فى الماء أدنى بيوقم لتخفيف حركة التيار، فيكون ما بعد (البارية) شبيهاً بالملاذ للسمك، ويركزون عدداً من القصبات فى مجرى النهر مباشرة. وحين تمرّ السمكة تحرّك القصب وبذلك تعطى فرصة اصطيادها لذى (الفالة) الذى ينتظرها.

قبل ارتفاع الماء فى الربيع، يتجمع المعدان بمجاميع مكونة من أربعين أو خمسين مشحوفاً وينساقون مع أو ضد التيار فى (البركة) مصطفين على طول الخط يفصل بين المشحوف والأخر نحو أربعة أو خمسة اذرع، بينما يحاول الرجال ذوو (الفالات) تطويق السمك وهو يشق طريقه تحت المشاحيف. وفى الصيف يصطادون السمك بـ (الفالة) فى الليل من خلال ضوء مشاعل القصب، لكن اصطياد السمك عن طريق (زهر الداتورة) يعطى نتائج أفضل.

قلت لرفاقى ونحن نجدف باتجاه مضيف (عبد الله)، إنى رأيت، مرّة، سمكة بطول خمسة أذرع اصطيدت فى دجلة قرب (كركوك)، وسألت إلى أى حجم يصل (الكطان) و(البنى) فى الأهوار؟ فأجاب (ياسين):

"نحن نصطادها بطول ذراعى، والشبوط على الأرجح مثل ما رأيت. إنها تعيش فى المياه الجارية، يصل بعضها إلى أكثر من ضعف ذلك. هناك سمكة أخرى نسميها (جَصّانه) تشبه (الكطان) العملاق تتواجد تحت الجزر الطافية، نغوص هناك ونمسكها بأيدينا بعد أن نربط حبلاً بإحدى أرجلنا يمسك طرفه الآخر رجل فى المشحوف. أخطأ أحدهم، ذات مرّة، وطعن رجلاً فى بطنه بـ (الفالة) بدل السمكة وحاول رفعه خارج الماء. توجّب علينا قطع فروع (الفالة) الشائكة بخناجرنا. كان عملاً رهيباً لاسيما وان الرجل لم يكن يضطجع ساكناً".

---

(١) يقصد بالنقالة تلك المستخدمة فى المستشفيات والتى نسميها (سَدّيّة).

إن الشبوط سمك من فصيلة الشبوطيات وكذلك (الجصّان) ما داما يشبهان (الكطان) الذى هو نوع آخر من الشبوطيات. علّق (ياسين):

"إن شاء الله، ستكون هذه السنة كسنة (البنى). المياه الآن أكثر مما كانت عليه. لقد اصطدت فى يومين من السمك ما جلب لى أربعة دنانير. والله، لو لم يتدخل (مجيد) لجمعت ثروة".

وافقه (حسن) قائلاً:

"نعم، لقد ذهبت إلى (أم البنى) مع عمى قبل أن يغلق (مجيد) البحيرة فى وجه الجميع، عدا (البربرة). لقد رأيتك هناك مع بعض من (الفرطوس). كنتم جميعاً تقيمون مع (البربرة)، لم أكن أعرفك حينها وأعطيت لرفيقى دواءً لمعدته".

تذكرت المناسبة الجيدة، كانت فى ١٩٥١م فى سنتى الأولى فى الأهوار. فى الأسبوع الأخير من تشرين الأول، كنت أنا وثلاثة من (الفرطوس) قد وصلنا إلى (العكر) لنجد القرية وقد هُجرت بشكل واضح. كانت المياه منخفضة بشكل شاذ تلك السنة، ولكن، نتيجة للأمطار فى الشمال، ارتفعت خلال الأيام القليلة الماضية وهددت بإغراق حقول الرز التى كانت فى دور الحصاد، وكان معظم القرويين فى الخارج لإنقاذ محاصيلهم، فى حين ذهب الكل، رجالاً وصبيان لاصطياد السمك فى (أم البنى) حيث سمعنا عن ظاهرة صيد حقيقى جارية هناك، فذهبنا نحن أيضاً. شقّ مرور الكثير من المراكب والمشاحيف طريقاً واسعاً خلال قلب جزر القصب الذى بلغ سمك سيقان بعضه، الذى طُرح ووُطئ فى الوحل، سمك رسغى. وجدنا صعوبة، فى بعض الأحيان، فى تسيير مشحوفنا لشحة المياه، ورغم ذلك، قابلنا بلمين كبيرين وثقيلين حُمّلا لآخرهما بالسمك، يجرهما طاقم من ستة أشخاص بمشقة. سمعت فيما بعد أن التجار عرضوا مبلغاً كبيراً وصل إلى دينار لكل واحد من أفراد الطاقم فى اليوم، مقابل هذا العمل المرهق.

بعد ثلاث ساعات من مغادرة (العكر) وصلنا إلى بقعة صغيرة خالية، حيث أقام أحد التجار تحت (صريفة) خرقاء من القصب. كان اسمه (ملاّ جبار)[1] وكان يشترى السمك مع اثنين آخرين ليرسلهما إلى سوق بغداد. مضى على إقامته ستة أيام ونصحنا بالبقاء معه تلك الليلة مادام لا أمل لنا فى الوصول إلى (أم البنى) قبل حلول الظلام. كان يدفع ثلاثة دنانير لكل مائة سمكة بصرف النظر عن حجمها، وكان يشترى السمك بالآلاف. قال (ملاّ جبار) إن أعداد السمك تناقصت بشكل ملحوظ حديثاً. إنهم يرسلون السمك بالإبلام إلى البّر، حيث تنتظر اللوريات، لتنقله إلى بغداد محفوظاً بالثلج.

نمنا بجانب صريفته فوق كومة من قصب حمتنا من الماء. سيئاً كان البعوض، لكن الجو فيه برودة، فتغطيت ببطانياتى. أقامت مجاميع أخرى حولنا فى طريقها إلى (أم البنى)، جلس أفرادها حول نيران يغنّون فى وقت متأخر من الليل. مرّت ثلاثة أبلام فى الظلام وتفحص التاخر حمولاتها على ضوء مشاعل القصب.

فى الصباح، تطلب منّا الوصول إلى (أم البنى) ثلاث ساعات أخرى من الجهد. كانت البحيرة بطول ميلين وبعرض نحو ميل ونصف، مطوقة بجزر قصب متعذر اجتيازها، ولم يزرها أحد إلا ما ندر. أقام (البربرة) فوق منصات من قصب موطوء على بعضه فى بداية الطريق. كانت الشباك الاحتياطية منشورة لتجف تحت الشمس وقد تخلف شاب أو اثنان للحراسة فى كل موقع إقامة. كانت مراكبهم، التى يصل عددها إلى خمسة عشر مركباً، تصطاد فى بحيرة، فجدفنا عبرها لمراقبتهم. كانوا موزعين أمامى فى الماء أو على ظهور المراكب وقد خلع أغلبهم (الدشاديش) وعملوا عراة. كانوا يجمعون غنائم الصيد الوفيرة من الشبوطيات، وكانت كلها تقريباً من سمك البنى، معدل وزنها أربعة أرطال[2] مستخدمين شباكاً بقطر أربعين ذراعاً تقريباً. قال لى رجل عجوز أشيب، صاحب أول مركب وصل إلى البحيرة:

---

(١) ملّة جبار أبو ماجد الغراوى الساعدى، يسكن مدينة العمارة حالياً.

(٢) أى ما يعادل ١,٨ كم.

"طوال عمرى وأنا صيّاد، لكنى لم أرَ أبداً شيئاً كهذا، فقد اصطدنا فى محاولتنا الأولى تسعمائة سمكة. الحقيقة، لم أكن أعتقد أن بإمكاننا تحميلها فى مركبنا. لكنه الآن أقل".

انطلق ما يقارب من مائتى مشحوف، تعود إلى (الفرطوس)، و(الشغانبة)، و(الفريجات) و(البو محمد) بحثاً عن الأسماك حول حافات البحيرة، وكان فى كل مشحوف اثنان، يجدف أحدهما، والآخر فى المقدمة يطعن بشكل متواصل فى الطحالب. من المعتاد أن يعّد المعدان أنفسهم محظوظون إذا اصطادوا اثنتى عشرة سمكة فى اليوم، ما لم يستخدموا السم لذلك. أما هنا، فهم يحصلون على سمكة كل ثلاث أو أربع طعنات، وكانت أغلب هذه الأسماك (كطان)، النوع الآخر من الشبوطيات.

انضممنا إلى مجموعة من (الفرطوس)، متحمسة للإثارة، وهم يغمدون (فالاتهم) فى الماء ثم يرفعونها ليلقوا بالسمك اللامع فى المشاحيف. كانوا يصيحون:

"لايمكنك أن تخطئ، فالأسماك، ترقد الواحدة بجانب الأخرى".

احتشدوا لبرهة فى بقعة واحدة وقد اصطفت مشاحيفهم إلى بعضها ليقرروا أية بقعة أفضل لينطلقوا إليها بأقصى سرعة، حاثين المجدفين على الإسراع. حين يقترب بعض (البربرة)، يندفع (الفرطوس) باتجاههم، تاركين حافة البحيرة بضجة، دافعين مشاحيفهم فوق أعلى الشباك العملاقة لـ (البربرة) ليصطادوا فيها. يبدأ (البربرة) بالشتم فيقابلهم رجال العشائر بالضحك والسخرية. لابد أن البعض من (البربرة) ذهب شاكياً إلى (مجيد)، لأن البحيرة أغلقت بعد يومين بوجه المعدان، وسُمح لـ (البربرة) فقط بالاصطياد فيها.

❋ ❋ ❋

من (الصيْكَل)، واصلنا سيرنا بالطرادة، توقفنا لبضعة أيام مع (جاسم) فى (العويديّة). من المألوف فى هذا الفصل، أن تكون كل الأراضى بين الحافة الغربية للأهوار وبين نهر (الغرّاف) تحت مالا يقل عن أربعة أقدام من الغمر، ولكن فى سنة

١٩٥٥م توجّب علينا الذهاب جنوبا بسبب الجفاف فوجدنا ما يكفى من الماء لتعويم طرادة خارج الأهوار.

أقمنا فى (الحمّار)، فى قرية (البو شامة) [١] بين أشجار النخيل أسفل (الغــرّاف). تعيش البطون الأخرى للعشيرة نفسها كمعدان رُحّل، مررنا ببعض منهم وهم يرتحلون إلى أراضى الحنطة ليرعوا جواميسهم على ما يبقى من الحصاد[٢]. وأقمنا كذلك مــع (العميرة) [٣] على (الغرّاف) التى يعيش قسم منها فى (مبرد) وفى قرية أخرى للمعدان، يكسبون رزقهم عن طريق تسيير المراكب الشراعية المحملة بالقصب الجاف إلى ســوق الشيوخ. يفعل جيراهم (الفرطوس) الشىء نفسه، لكن حمولات هذه المراكب تكــون على الأغلب (بوارى).

فى شهر مايو، يكون الجو صحواً مشمساً كالعادة، ولكن فى بعض الأحيان تتلبّد السماء بالغيوم لأيام متتالية، ويكون هناك ثلاث أو أربع عواصف مــاطرة مــصحوبة بالرعود. تهب الرياح بقوة، على العموم، من الشمال والغرب مثيرة الغبار، يكون الجو محتمل البرودة ولطيفاً مع هذه الرياح، أما بدوها فتكون الأيام حارّة ودبقة. أمــضينا الشهر مع (آل جويبر) و(آل حسَن) وعشائر أخرى من (المنتفك) منحدرين على طول الفرات، وقمنا برحلات متواصلة إلى القنوات التى اصطفت على جوانبــها أشــجار (الغَرَب)، بالغين حدّ الأهوار لكى نقيم فى المضايف التى نُدعى إليهــا. طــوال هــذا الوقت، كنّا على أرض مليئة بالنخيل الذى ينمو على شكل صفوف محتشدة على أية أرض لا تغمرها المياه سنويا، وحتى على الجزر بين أجمات البردى. ويغطى النخيل أيضاً

---

(١) البو شامة: إحدى عشائر بنى خيكان تسكن فى الجهة الشرقية من هور (الحمّار) وتوجــد بعــض حمايلــها فى الناصرية والديوانية.

(٢) بقايا الحصاد يسموها (جِل).

(٣) العميرة، لم أعثر على عشيرة بهذا الأسم، بل هو اسم لمكان، لذا يكون من المرجح أن المؤلف يقصد (العمايرة) لاسيما إن كتابة الاسمين بالانكليزية يمكن أن يقودا للاسم نفسه **Amaira** أنظر هــامش ١ مــن الفــصل التاسع.

صف الجزر باتجاه الجنوب عاكساً عتمة ضد تلألؤ مياه هور (السناف). إن العلامات الوحيدة للكارثة التى حلّت بهذه العشائر فى السنة الماضية كانت آثار الفيضانات التى يمكن رؤية آثارها بوضوح على جذوع أشجار النخيل وجدران المضايف.

كانت بساتين النخيل القليلة على دجلة بشكل أجمات متشابكة ووجدنا طريقنا عبرها بصعوبة ونحن نطارد خنزيراً برياً، أما هنا فيُعتنى بأشجار النخيل جيداً وتقشر جذوعها التى ترتفع من أرض معدّة للفلاحة. زرنا الجزر الواقعة على طول حافة هور (الحمّار) المفصول عن الأهوار فى الشمال بمياه مكشوفة تتغطى فى فصل معين بأوراق مسطحة من زنابق الماء المهدّبة (كعيْبة **Kaiba**) (١) وزهور صفراء وبيضاء مشرقة لاتعد ولا تحصى. وفى شهر تشرين الثانى (نوفمبر)، رأيت الجاموس يرعى، وهو غاطس إلى البطن، على هذه النباتات مقحماً رؤوسه تحت الماء ليقتلع النباتات المنتشرة تحت سطح الماء.

تبدو من بعيد كأنها قطيع أغنام ترعى فى مرج الأعشاب ذات زهر أصفر. فى الخريف يكون هناك نوع آخر من (الكعيبة) فى الأهوار، بعضه أبيض، وبعضه الآخر بنفسجى زاه.

لا تعيش عشائر (المنتفك) فى قرى، بل تعيش كل عشيرة فى أرض خاصة بها، وهى عشائر مضيافة وتكثر المضايف فيها ككثرة بيوت السكن، منتشرة بين أشجار النخيل. شيّدت كثير من هذه العشائر حصوناً ذات فتحات بجانب بيوتها لأنها فى حروب وعداوات كثيرة حيث يضع كل رجل وشاب خنجراً ويمتلك غالبيتهم بنادق وكثيراً من العتاد. وعندما يكون هناك عرس، الأمر الذى يكاد يقع كل ليلة، يستمر إطلاق النار حتى الفجر.

تُوضع أشياؤنا ـ بعض الأحيان ـ فى (صريفة) قبل أن نُقاد إلى المضيف. و(الصريفة) بناء مستطيل صغير بجدران معرّشة ذات منحدر مغطى بـ (البوارى)

---

(١) كعيْبة **Kaiba** هكذا وردت هذا النص. الجدير بالذكر أن لهذه الزهور الجميلة ثماراً تؤكل يسمونها (كنكل).

يستند على دعامتين من القصب. يكون التقاطع الأعلى لدى (المنتفك) جذعاً لنخلة صغيرة. وتعدّ (الصريفة) البناء المفضل للعطارين فى الأهوار يستخدمونها مخزناً، لكن حزم القصب تكون بديلاً عن جذوع النخل. يكون مدخل (الصريفه) عند أحد جوانبها. يسعدنى دائماً أن أخلو بنفسى فيها لمدة، هرباً من الحياة الاجتماعية المشاعة فى المضيف. لقد اكتشفت، بعد أن عشت مدة سنين مع العرب، إن الافتقار الكامل للخصوصية أمر مرهق جداً. فبعد صباح طويل من التعامل مع حشود المرضى الصاخبين، أشعر بالإنهاك غالباً، لاسيما حين يصبح الجو حاراً. إذا شعر مرافقىّ بالتعب حين يصلون الى مضيف ما، ينهضون من أماكنهم ما أن يشربوا فناجين القهوة التقليدية، ويذهبون الى نهاية المضيف، يلفون أنفسهم بعباءاتهم ويغطون فى النوم، يوقظهم مضيفوهم حين يجُهز الطعام. إن هذا إجراء عادى جدا، لكنى أشعر بسلوكى أخرق لو فعلت الشيء نفسه. أن أخلو إلى نفسى أمر فوق ما أحلم، ولكن على الأرجح، يتبعنى رفاقى فقط واثنان أو ثلاثة من الآخرين إلى (الصريفة) حيث أستطيع احتلال زاوية مع كتاب أو فى نوم خفيف.

لا تشبه المضايف على الفرات تلك التى على دجلة حيث تبنى بتسع (شِباب) أو إحدى عشرة (شَبّة)، فى حين تأخذ تلك التى على الفرات عدداً أكبر. فأكبر مضيف رأيته، على الرغم من أنهُ مكون من خمس عشرة (شبّة)، كان بطول أربعة وثمانين قدماً، وخمسة عشر قدماً عرضا ومثلها ارتفاعاً. كان الكثير منها بسبع عشرة (شبّة)، ورأيت آخر بتسع عشرة، وكان بطول تسع وستين قدماً وبعرض خمسة عشر قدماً، وقد قُصّر، فارتفاعه لا يزيد على اثنى عشر قدماً. الاتساع المعتاد للمضايف على دجلة هو ثمانية عشر قدماً. إذا ظهرت على المضيف أى علامات انهيار فإن صاحبه وأصدقاءه ينقصون ارتفاعه بالطريقة التالية: يحفرون شقاً بعمق قدمين فى الأرض بجانب (الشَبّة) من الخارج ليكشفوا التراب عن الجزء المدفون منها، ثم، بعد أن يربطوا (الشَبّة) بالحبال، يسحبونها إلى الشق، ثم ينظفون الحفرة، ثم يعيدونها إلى الحفرة بعد قطع مسافة

قدمين من أسفل (الشبّة) ثم يردمون الشق. تكرّر هذه العملية مع كل (شبّة) بادئين بجانب من المضيف، وبعد أن يكملوا، ينتقلون إلى الجانب الآخر.

يمكن أن تجرى هذه العملية مرتين على كل من مضايف الفرات، لكنها غير معروفة فى مضايف دجلة بسبب سهولة الحصول على القصب المناسب، لذا دائما ما يعيدون بناءه بالكامل. من المألوف إعادة بناء المضيف كل عشر سنوات، لكن طول هذا الوقت يعتمد على حالة الأرض. ففى ظل ظروف جيدة قد يدوم إلى خمس عشرة سنة. يتطلب بناء عمل مائة رجل لعشرين يوماً، والبنّاء الرئيس هو الوحيد الذى يُدفع له، أما بقية العاملين فيتوقعون وجبة دسمة عند الظهيرة، ويتوجّب على صاحب المضيف أن يذبح حيوانا كل يوم ليزودهم باللحم. يحتوى لب كل حزمة من التى تشكّل (الشبّة) على قصب سبق استخدامه لكى يجعل الحزمة مرنة. يُغطى وجه (الشبّة) بالقصب النحيف ليعطى شكلاً جميلاً. تكون وفرة القصب فى أراضى (المنتفك) للقصر منه فقط الذى لا يغطى ارتفاع (الشبة)، لذا يعمدون إلى دمجه، ونتيجة لهذا تميل (الشباب) إلى الامتداد بدل أن تأخذ شكل حدوة الحصان ولا تخضع لنفس الإجهاد لدى مضايف (البو محمد) الذين يستخدمون أطوالا واحدة من القصب. جرت العادة، حين ينتهى بناء المضيف، أن يسموا كل (شبّة) بكف مغموس بالحناء، تّجدد هذه الوسمة غالباً كل عيد. وفى السنة الجديدة أو (النيروز) يزيّنون (الشباب) بباقات صغيرة من قصب اخضر.

إن أسوأ ما يمكن أن يتعرض له المضيف هو التآكل الذى يصيب الجزء المدفون من الشبّة فى الأرض حيث يبلى القصب ويتهرأ. هذا فضلاً عن حوادث الحريق العريضة أو المقصودة. وعندما يكون إضرام النار فى المضيف مقصودا فهو إهانة جسمية جداً تجر إلى مشاكل غاية فى التعقيد. ومن الجدير بالذكر أن أشهر الصنّاع المهرة فى بناء المضايف هم: جاسم بن محمد البهادلى ــ طلال بن حتيْتَه الدهامى ــ شدّاد بن خْتاجَه الكعبى ــ الغابشى الزيداوى ــ مريوش بن بدن بن شاطى الدهامى ــ إسماعيل بن حجى عطيه الماجدى. هذا ما يذكره محمد بن داخل الفيصلاوى.

تتمايز المضايف بين (البو محمد) و(آل ازيرج) وبقية العشائر الأخرى على دجلة قليلاً فى عموم مظهرها. يُعَدُ السقف، كما هو الحال فى كل المضايف، من (البوارى) المتراكبة، ومن (باريه) واحدة للطبقة السفلى مشتملة على (باريه) عملاقة واحدة تغطى كل السقف. وتشتمل الجدران السفلى على (بوارى) منفردة تُعلق كالحواشى المتدلية قريباً من الأرض خلف (الشباب) يمكن إبقاؤها مرفوعة للأعلى فى حالة الجو الحار وتخفض فى حالة البرد. للنهاية الجنوبية الغربية للمضيف المواجهة لمكة المكرمة ثلاثة مداخل مفتوحة بين الأعمدة العملاقة مع شبابيك تُهيّأ من خلال قطع (البوارى) فوق المداخل. أما نهاية المضيف الأخرى التى تواجه الشمال الغربى فخالية من أى فتحة.

إن تصميم المضايف بين العشائر على الفرات يكون أكثر اتقانا وأكثر تنوعاً، فالطول الكامل للجدران السفلى يحتوى تشبيكات زخرفية بالقصب تتصل (بالشباب) من الخارج وتربط بـ (بارية) طويلة وضيقة حتى السقف، وهناك حاجز أمام هذه التشبيكات الزخرفية من الداخل لغرض الحماية، يقل ارتفاعه عن قدم واحد لكى يتكئ المقيم فى المضيف عليه. وفى مركز النهاية الجنوبية الغربية، هناك مدخل مسدّد بشكل ثابت بين (شبتين)، محاط بشبابيك من التشبيكات الزخرفية. أما تصميم النهاية الشمالية الغربية فمشابه للنهاية الأخرى ولكن عادة بدون مدخل. يتنوّع تصميم نموذج الشبابيك المزخرفة تبعاً لميل ورغبة البنّاء. وهناك، فوق المدخل، على العموم زخرفة من نفس الحجم والشكل، على جانبيه، مطوقة بشباكين أصغر مزخرفين. كان هناك شباك دائرى منفرد، فى أحد المضايف، ثقبَ النصف العلوى للجدار. وفى هذه الحالة، ينقسم النصف السفلى للجدران إلى ثلاثة أقسام بشكل أفقى مع قسم قصبى خال من أية زخرفة بين التشبيكات العليا والسفلى، ويكون الشكل العام مقسوماً بشكل عمودى بواسطة الأعمدة المركزية.

دائماً يعترينى انطباع ، حين أكون جالساً فى مضايف الفرات، أنى داخل كاتدرائية رومانيسكية(١) أو قوطية(٢) زادها جمالاً الوهم البصرى من خلال السقف والشبابيك المزخرفة فى كلا النهايتين اللتين تدخل الأشعة الساطعة عبرهما خارقة العتمة الداخلية. تمثل المضايف، سواء كانت على الفرات أو دجلة، إنجازا معمارياً رائعاً من مواد غاية فى البساطة. إن تأثير البذخ الذى تعطيه النماذج القصبية، يأتى تماماً من الطرائق العملية الوظيفية للتشييد. والمضايف مهمة من الناحية التاريخية أيضا، فالألفة الطويلة لبيوت كهذه ربما منحت الإنسان فكرة تقليد أشكالها المقوسة بقطع الطابوق، كما خلّد الإغريق أخيرا أنماطا خشبية قديمة بالحجر(٣). إن أبنية مشابهة بهذه المضايف كانت جزءاً من المنظر فى جنوب العراق قبل خمسة الآف سنة وأكثر. ومن المحتمل، فى غضون عشرين السنة القادمة، والمؤكد فى الخمسين سنة، اختفاء هذه المضايف إلى الأبد(٤).



(١) رومانيسك: Romanesque: طراز فى فن العمارة راج فى أوربا فى أوائل القرون الوسطى بين عهدى فن العمارة الرومانى والقوطى.

(٢) قوطى Gothic: من فنون العمارة، نشأ فى شمال فرنسا وانتشر فى أوربا الغربية فى منتصف القرن الثانى عشر إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادى.

(٣) يشير المؤلف هنا إلى اللقى الأثرية السومرية التى تصوّر أبنية قصبية لها شكل المضيف الحالى نفسه.

(٤) هناك للأسف الكثير من البوادر تشير إلى صحة تكهنات المؤلف فى هذا الشأن.

الفصل الرابع والعشرون

الثأر من عمارة

من فجر النطفة وأبي يعلمني فنّ الطاعة،
وتأويل الهزيمة، فنبذتُ بوصلتي، ويممتُ وجهي
شطر... المدى

أقضي حزيران (يونيو)، وغالبًا تموز من كل سنة، بين العشائر الساكنة على طول دجلة شمالي العمارة، واتبعت النهر مرتين مبتعدًا حتى الكوت، باستثناء عام ١٩٥٤م حين مررنا خلال هذه الأراضي بطرادتنا قاطعين صحراء مغمورة بالماء من (الصيكل)، كان (عمارة) و(سبيتي) مرافقيّ الوحيدين فيها. كنّا نرتحل دائمًا على ظهور الخيل حيث يعيرنا مضيفونا خيولاً حتى القرية أو المخيم التالي. لم يسبق لأحدهما أن امتطى ظهر حصان من قبل. وفي المرّة الأولى التي ركبا فيها سار حصاناهما في الطريق المعكوس! ولكن مع المران، أصبحا ماهرين بشكل معقول. كنت عاجزًا أمام المشحوف، لذا سرّني استعراض قدرتي على ظهر جواد على الرغم من أننا نمضي دائمًا بأدنى درجات السرعة لأني أحمل أدويتي في حقيبة السرج. مع حلول منتصف النهار ، تصل الحرارة حدًا لا يُطاق، ولكن في حزيران تبقى درجة الحرارة لطيفة خلال الليل وكنت مبتهجًا بزوج بطانياتي. تهب الرياح الشمالية الغربية غالبًا بطريقة هوجاء خلال الشهر كله فضلا عن عواصف غبار تصل حد انعدام الرؤية لأكثر من ذراعين . تركد هذه الرياح خلال تموز وعندها، حتى في الليل ، لا راحة من الحرارة الرطبة التي قد تصل إلى ١٢٦ فهرنهايت[1] في الظل.

---

(١) فهرنهايت تعادل ٥٢,٢ م°.

من بين رفاقي الأربعة شديدي الإخلاص، أجد (عمارة) و(سبيتي) مفضلين لديّ. وبعيدًا عن رجال العشائر من أتباعهما ، وعن الأعراف المألوفة في الأهوار، نثير نحن الثلاثة الإعجاب بحميميّتنا لبعضنا خلال السفريات. ومنذ عام ١٩٥٦م ألفيت نفسي مهتمًا بشؤونهم تزوج (ياسين) و(حسن) السنة الماضية، أما (عمارة) و(سبيتي) فخاطبان الآن. قالا إنهما لن يتزوجا قبل مغادرتي لأنهما راغبان بالبقاء معي حتى ذلك الوقت. بعد اتفاقي مع أحد الناشرين حول نشر كتاب عن جنوبي الجزيرة العربية، لم يعد بإمكاني العودة للعراق في السنة القادمة.

خطب (عمارة) أخت (سبيتي) . قبلها بخمسة أشهر، ذهبنا أنا و(صحيْن) إلى (لازم) أبي (سبيتي). لابدّ من أخذ رأي أخي (لازم) لأن ابنه، وفقا للعرف، صاحب القدح المعلّى في الزواج من الفتاة. بعدها، وافق على خطبة فقط لـ(عمارة) بعد مناقشة طويلة جدًا. حددنا المهر بـ(٧٥) دينارًا. سُرّ كل من (عمارة) و(سبيتي)، وأقمنا تلك الليلة حفلة بالمناسبة في (بومغيرفات) تضمنت رقصًا وغناءً وإطلاق نار.

لم يكن لترحالنا في تلك السنة، وكما هو دائمًا ، أية غاية. فنحن نعرف أنهم سيرحبون بنا ويستضيفوننا في أية قرية صغيرة أمامنا ما دمنا نتجه شمالاً. نتوقف أينما نرغب، ونعود أدراجنا متى ما أحسسنا بميل لذلك. استضافنا (البو دراج)، العشيرة المنسجمة التي تزرع الشلب على طول الجداول التي تتشتت في هور معزول، لمدة من الزمن. استعرنا منهم مشاحيف لزيارة (الكولبة) و(عكيل) [1] العشيرتين اللتين ترعيان الجاموس بين القصب الواطئ أو في قطع من أراض مغمورة بالمياه شائكة الإعشاب. اجتزنا مرّة أخرى حقول الشلب لـ(البوعِلي) [2]، العشيرة المتفرعة

(١) عكيل: أبناء عقيل بن كعب الذي ينتهي نسبه بمعد بن عدنان. كانوا يسكنون الجزيرة العربية ثم سكنوا البصرة والكوفة في العهد الإسلامي.

(٢) البوعِلي: هم أولاد عِلي بن عبود بن محمد بن سعد الزبيدي. يكوّنون مع أخوهم البوحسين والبو معلّى أو الأبيض والبوخليفة والمصاليخ ركنا من البومحمد هم البو عبّود.

من (البومحمد) الذين تبعوا (حجي سلمان) شمالاً بعد معركته مع (مجيد)، وصلنا بعدها إلى (بني لام).

جرى النهر الموحل المياه عبر أراض مغبرة، وارتفعت شمس برتقالية منتصبة فوق الأفق المنبسط عبر سهل خال. عند الفجر فقط، قرب مرقد (علي الغربي)[1]، أستطيع أحيانا رؤية المعالم الخارجية الباهتة لجبال البشتكوة. ننام أحيانا مع الرعاة في خيام سود صغيرة حيث تطأنا الأغنام والماعز ويحتشد الذباب فوقنا من الفجر حتى الغسق. لكني أجد متعة دائمًا حين أكون مع هؤلاء البدائيين. هناك سحر في المساء حين يزمّر الرعاة بناياهم، جالسين حول نيران قلقة. وفي أوقات أخرى ننزع السروج عن خيولنا[2] في قرىً متناثرة على طول ضفة النهر حيث الكثير من الشيوخ صغار السن يثبتون أنهم مضيفون رائعون ورفقتهم مناسبة لطبيعتنا. كانت الريح، عند الظهيرة، تسفع بحرارتها اللاذعة فى الخارج، ولكن ثمة برودة عذبة داخل البيوت الطينية الصغيرة بسبب الشبابيك المغطاة بأكوام الشوك المشبعة بالماء .

أعطتني هذه الأرض المقفرة إحساسًا بالحرية كنت قد استشعرته من قبل جامحًا في الصحراء. فها هي الأرجاء اللانهائية الخالية نفسها، والبيوت القليلة التي لا تحوي سوى الضروري للحياة. كان هناك الكثير من العمل الطبي الذي يمتعني دائمًا ويمنحني إحساسًا واضحًا بالقدرة على الإنجاز. لقد أحببت (بني لام) أيضا، وأصبح الكثير منهم، بعد زيارتى السابقة، أصدقائي.

رأينا ذئابًا مرات عدّة، وقال لى رجل إنه تغلب على ضبع وقتله وهو على ظهر جواد. يستلزم أمر اللحاق بالضبع فرسًا جيدة، كما تعلمت ذلك قبل عشرين سنة في السودان.

---

(١) الإمام علي الغراب بن يحي بن علي بن محمد بن أحمد بن زيد بن علي بن محمد بن أبي عبد الله جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام. يقع ضمن مدينة سُمّيت باسمه تقع على مسافة ٤٥ كم إلى الشمال من مدينة العمارة على الضفة الغربية لدجلة..

(٢) نزع السرج في مكان إشارة إلى الحلول به .

وحكى لي رجل آخر عن كيفية حفره، هو وصديق له، واستخراجه حيوان (الغريـــري)[1]. لقد هاجمهم وعض اثنين منهم. ظهر عليه أنه غير متأثر بضرباقم حتى ضربه أحدهم علـــى خطمه. نرى أحيانا قططا بريّة، ثمة واحدة كانت بنية اللون مختلفة تمامًا عن البقية. لا وجود للغزلان هنا، لكن الكثير منها موجود إلى الشرق على طول الحدود الإيرانية، حيث لـــسوء الحظ يهلك القسم الأعظم منها بواسطة فرق تطاردها بالسيارات. هذه الممارسة محرّمة من الناحية القانونية، ولكن في الحقيقة، إن موظفي الدولة، غالبًا هم المتهمون. حـــين اتخـــذت طريقي هابطًا من كردستان على ظهر جواد رأيت قطعانًا من خمسين غزالاً وأكثر، لكنـــها حالاً سوف تمحى في العراق كما سبقتها الحمر الوحشية والأُسود.

نحن نصطاد الخنازير فقط التي تزخر بها أشجار الطرفاء على طـــول الجـــداول والأنهار، وفي المناطق الكثيرة الآجام التي ترتفع فيها أشجار السبخ إلى ثلاثـــة أقـــدام وتغطي مساحات واسعة على جانب دجلة. هذه هي البيئة المثالية لاصطياد الخنازير. لم أبرع في استخدام (الفالة)، لكني بارع مع بندقيتي، مطلقًا النار منها كما أطلـــق مـــن مسدس ممسكًا بها بيد واحدة وأنا على ظهر جواد جنبًا إلى جنب مع خنـــزير. كنـــت أستمتع وأبتهج بعدو الفرس، ولكن من ناحية أخرى كنت مشمئزًا من قتل الخنـــازير، وكنت أسمح لـــ (عمارة) بإطلاق النار عليها حين كنا نصطادها سيرًا على أقـــدامنا. كان نادرًا ما يخطئها وقد اكتسب سمعة صياد متفوق تنفعه وقت الحاجة.

حين عدنا إلى (المجر) في نهاية حزيران، استقبلتنا أنباء قتل (بدّاي) – ابـــن عـــم (عمارة) – لأحد أبناء (رضيوي) وأخي (حسن) نفسه الذي يرغب في زوجة (بدّاي) والذي حاول تحطيم هذا الزواج. تذكرت اليوم الـــذي أمـــضيناه مـــع (بـــدّاي) في (أويسيج) قبل ثلاث سنوات وكيف ذهب (عمارة) إلى (رضـــيوي) محـــاولاً حـــسم الموضوع... أما الآن فقد أريق دم .

---

(١) الغريري: **honey – badger** : حيوان لبون يسمونه أيضا (الكرطه) .

سبق لـ (عمارة) أن أخبرني أن زوجة (بدّاي) قد هجرته وعادت إلى أبيها. بإمكان الرجل تطليق زوجته بمجرد القول: أنت طالق[1]، لكن ليس من حقه في هذه الحالة، المطالبة بالمهر الذي قدّمه. ومن الناحية الأخرى، لا تستطيع الزوجة تطليق زوجها تستطيع مغادرة بيت زوجها إلى ملاذ أبيها أو أخيها. إذا بقيت مسترسلة في عنادها، سوف يحاول أهلها إقناع زوجها بتطليقها من خلال عرض إرجاع جزء أو كل المهر الذي قدّمه. في هذه الحالة، رفض (بدّاي) تطليق زوجته بحيث يستطيع (حسن) الزواج منها ووبخه بشدة لخلقه المشاكل بينهما.

علمنا الآن أن (بدّاي)، في الوقت الذي كان يقيم على قناة قرب (الواديّة)، توجّه إليه كل من (حسن) وأخوه الأصغر (خلف)، وواحد من أبناء عمومتهما[2] لغرض قتله. كان مكان إقامتهم عبارة عن تجمع لصرائف قصبية يقع قرب قلعة صالح. توافق أن كان (بدّاي) متغيبًا في أثر جاموسة مسروقة، لذا كمنوا له منتظرين عودته التي جاءت في اليوم الثالث. اقتربوا من كوخه في ساعة متأخرة من تلك الليلة، لكنهم شوهدوا من قبل أحد جيرانه، فاستوقفهم لغرض التأكد منهم وقال لهم بصوت عالٍ:

"لماذا تأتون كل ليلة لتبحثوا عن (بدّاي)؟ إنه لم يقتل أحدًا من أهلكم".

وأطلق رصاصة فوقهم. وبينما كانوا ينسلّون هاربين اندفع كلب (بدّاي) في إثرهم وطاردهم يتبعهُ (بدّاي) نفسه. قادهُ نباح الكلب في إثرهم فأدركهم حين توقفوا ليشعلوا سيجارة، سمع (حسن) يقول:

"دعنا نقتل كلبه".

فأطلق (بدّاي) النار وأخطأ فتبعثر الثلاثة في هروبهم. أطلق مرّة أخرى فهوى أحدهم، وحين أشرف على الرجل الساقط عرف فيه (خلف) وكان مصابًا في فخذه وقد تحطم العظم:

(١) ثمة اختلافات بين المذاهب الإسلامية حول كيفية الطلاق خاصة فيما يخص عدد الطلقات وتفاصيل أخرى كما لا يخفى.

(٢) ابن عمهما الذي ساهم معهما هو عَدِل بن منابي، ما زال حيًا يسكن منطقة الجندالة في محافظة ميسان.

"تريد سفك دماء؟ إذًا ، خذها"!

قال ذلك وأطلق ثانية، خلال الرأس هذه المرّة.

في هذه الأثناء كان (حسن) وابن عمه قد التحقا ببعضهما واكتشفا أن لا أثر لـ(خلف) ، فعادا للبحث عنه، وأخيرًا وجدا جثته. عادا في الحال إلى كوخ (بـدّاي) مصممين على الثأر. وقفا في الضفة المقابلة للقناة، صرخ (حسن) بكلمات تحد قبلها (بدّاي). كان القمر قد أفل والظلمة دامسة. لم يكن أحد منهم مستعدًا لوضعٍ نفسه تحت رحمة الآخر عبر الخوض والعبور للضفة الأخرى. لذا، استمر تبادل إطلاق النار بينهما مستعينين بوميض البنادق. قبيل الفجر أُقنع (حسن) من قبل الجيران (الفريجات) بالانسحاب بعد إلحاح طويل قائلين له، إن الشيخ سيلقى القبض عليه في الصباح إذا استمر وجوده وسوف تسجنه الحكومة حتى يسلّم والده نفسه لأنه مطلوب بتهمتي قتل. حَمَل (حسن) وابن عمه جثة (خلف) وابتعدا بها. أصيب (بدّاي) إصابة طفيفة، لكنه فكك بيته مع الضياء الأول، وحمّل كل شيء في زورقه واختفى مع عائلته وحيواناته في الأهوار، لا أحد يعلم أين ذهب؟

حين سمعنا الأخبار لاح (عمارة) وقورًا متكدّرًا. نويت أن أصرف النظر عن هذه الأنباء وكأنها قتلاً آخر بين هؤلاء البدائيين الخارجين على القانون، إلى أن قال (سبيتي)، ألا تدرك أن (عمارة) هو أقرب الناس لـ(بدّاي)، وأن (رضيوي) وعائلته ربما حاولوا قتله الآن ؟

عزمت أمري على قضاء ثلاثة أشهر في (نورستان) المنطقة الجبلية على الحدود من كترال التي لا يُعرف عنها إلا القليل ، ومنها ، مطلوب التوجه إلى أفغانستان خلال عشرة أيام. يتوجب عليّ قبل التوجّه إلى هناك فعل ما بمستطاعي للاطمئنان على (عمارة). سألت (ثكب) إن كان هو و(رشك) في خطر أيضًا ، فقال:

"لا، ولكن إنْ عجِز (رضيوي) عن قتل (بدّاي) فمن المؤكد أنه سيقتل (عمارة)".

واقترح عليّ وجوب الطلب من (مجيد) تدبر أمر (عطوه)(١) لـ (عمارة) :

"إذا استطعت فقط أخذ (عطوة) لمدة ستة أشهر(٢) فإن (رضيوي) ربما يفتر خلالها، بعدها قد يكون ممكنًا قبوله بالديّة"(٣).

وافقت على الذهاب إلى (مجيد) في الصباح لأرى ما يمكنني فعله.

أعرف ألاّ شيخ، مهما كان ذا سطوة، ولا (سيّد) مهما كان موقرًا مبجلاً بإمكانه حسم الثأر. (الكليط) فقط بإمكانه أن يقرر نهائيًا معاهدة من خلال ربط كوفية حول قصبة، ليعطى كل طرف إلى أحد الفريقين المتخاصمين(٤). إن مكانة (الكليط)

---

(١) عطوة: atwa : هكذا وردت في النص وتعني اتفاقًا على هدنة بين طرفين متنازعين بكفالة طرف آخر أو أكثر تبعًا لأهمية موضوع النزاع .

(٢) لا تمنح مثل هذه المدة الطويلة مرة واحدة وإلاّ عُدّ الأمر تهاونًا من ذوي القتيل ودلالة على عدم وجود الجدّية في الأخذ بالثأر، إلا في حالة (العطوة) لأطراف ليست مسؤولة مسؤولية مباشرة جدًا مع القاتل كما في حالة (عمارة)، فهو على ما يبدو ليس ابن عم مباشر لـ (بدّاي) وإلاّ كان مطلوبًا، مثله في ذلك مثل (بدّاي)..

(٣) سمّاها المؤلف blood money أي نقد الدم أو سعره، وأرى أنها ليست تسمية دقيقة لأن (الفصل) لا يحسم ماديًا بالضرورة، فالكثير من النزاعات التي لا تكون فيها دماء مراقة يكتفون فيها بالتراضي والصلح. أما ديّة القتل فقد تكون بالنساء وقد تكون بالمال وقد تكون بالاثنين معًا. علمًا أن تغيرات كثيرة طرأت على هذه التفاصيل أخرجتها عن كنهها النبيل كمحاولة لرأب الصدع وإيقاف النزف.

(٤) تأخذ مجريات (الفصل) السياق الآتي:

يذهب وفد من عشيرة الجاني يحوي (الكليط) ووجهاء العشيرة وعشائر أخرى فضلا عن سيّد مبجل أو أكثر ويحلّون ضيوفًا لدى عشيرة المجني عليه ويجلسون متقابلين عادة. افتتاح المراسيم يقع على عاتق السيّد الذي يذكّر الفريقين بضرورة تقوى الله حاثًا على السلوك الطيّب الذي يتلاءم وسيرة الرسول ﷺ وأهل بيته ومذكرًا إياهم بالعواقب التي تترتب على التمادي ومجانبة العقل والحكمة. يليه بالحديث (كليط) الجاني الذي يعترف بدوره بالجريرة وأنه جاء وأفراد عشيرته لغرض حسم هذا النزاع عارضًا كل ما من شأنه إرضاء الطرف المجني عليه. يقول بعدها مخاطبًا (كليط) المجني عليه: اطلبْ نحن بخدمتك. يأتي بعدها دور (كليط) المجني عليه بالحديث فيستعرض إنجازات عشيرته في حبها للخير والسلام ثم يستعرض الظلم الذي وقع على ابن عشيرته مضخمًا إياه أو عارضه كما هو تبعًا لما يتمتع به من مقدار (البخت) الذي هو عليه. يعيّن بعدها عدد النساء أو المبلغ الذي يراه عدلا للضرر الذي لحق ابن عشيرته. فيبادر (الكليط) والوجهاء بالمقابل إلى القول: (تستاهل) أو (إلك) أو (إجتك) أي جاءتك وهي بحكم المنتهية. ثم تبدأ مفاوضات هي أطول جزء في تلك المراسيم، =

وراثية حتى لو كان شيخاً خرفاً أو بنصف عقل. وفى حالة كونه طفلاً فقط يتولى عندها أقرب أقاربه الذكور مهامه بالنيابة عنه. سألت (ثكب) فيما إذا كنا نحتاج (صـــحيْن) (الكليط) لحمولة معينّة بالأمر من (الفريجات)، للذهاب معنا كى يقود مفاوضات الهدنة بوصفه إجراء احتياطياً للاتصال بـــ (رضيوى) فأكدّ لى، أن (العطوه) على أية حـــال، يمكن أن يأخذها شيخ أو أى شخص آخر ولا داعى لحضور (الكليط).

أعوت (عماره) مسدسى ونصحته أن يستعين بكلب حراسة جيـــد وأن يغيّـــر مواطن مبيته فى البيت كل ليلة. يمتلك (عماره) أيضا بندقية (٠,٢٧٥) التى أعطيتها له قبل سنتين والكثير من الذخيرة، واشترى منذ عهد قريب بندقية لـــ (رشك) على رغم قدمها إلا أنها جيدة كغالبية البنادق. أثناء مرورى به ذاهباً للنوم، قال (ثكب):

"سأبقى ساهراً للمراقبة، فأنا رجل عجوز وحاجتى للنوم قليلة وبإمكانى الراحـــة نهاراً".

قال (رشك) ضاحكاً:

"أصطدْ لنا ذئباً، صاحب، وأعطنا إحدى عينيه. سنخيطها على قلنسوة[1]، وأى شخص يلبسها سوف يجافى النوم عينه".

=

الغرض منها تخفيض الرقم المطلوب إلى أدنى حد ممكن. فإن قررت عشيرة الجاني أن الرقم كبير مبالغ فيه وأصرّ طرف المجني عليه على ما طلبوا عندها يطلب (كليط) الجاني (عطوه) جديدة لبذل المزيد من الجهد لغرض توفير هذا المبلغ أو تفضيل الاقتتال من جديد حين يشعرون أن المطلوب أكثر من طبيعة الجريرة. أما إن كان المطلوب معقولاً عندها يصار الى (شدّ راية العباس) المتمثل بربط طرف قطعة قماش، عادة ما تكون بيضاء، علـــى أى عصا من قبل (كليط) الجانى أولا، يليه بربط طرفها الآخر (كليط) المجنى عليه، ثم تُعطى للسيّد لكـــى يفـــك عقدتى الراية مع خصم جديد لما اتفق عليه الطرفان وبذلك يكون الطرفان ملزمين بتنفيذ ما اتفقا عليه لاسيما وأنهما أشهدا عليهما الإمام العباس رضى الله عنه.

(١) سماها المؤلف skull – cap أي القلنسوة، يسمونها (عركشين)، غطاء يغطي الجزء الأعلى مـــن الـــرأس، كانت تصنع ملونة أحيانًا بخطوط مستقيمة، أما الآن فهي بيضاء دائمًا، مهمتها منع انزلاق الكوفية عن الرأس وتثبيت العقال فوقها.

لم تمرّ بنا أى مخاطرة تلك الليلة. نمت بين (حسن) الصغير و(عماره) وكان (رشك) وراءه. اتخذت و(عماره) بندقيتينا بجانبينا، بينما جلس (ثكب) عند الباب واضعاً بندقية (رشك) على ركبتيه المتصالبتين، وراحت (مطيرة) تدندن لنفسها بهدوء وهى ترتب أشياءً مبعثرة[١]. كان أصغر الأطفال نكداً مضطرباً فتعهدته (ناكه) أمه بالرعاية بعد أن احتضنته قرب الموقد. من مكانى، كنت أستطيع رؤية الجواميس مربوطة وقطيعًا من جواميس كبيرة الحجم وهي تأكل تحت ضوء القمر أكوام علف جمعها (جليب) من الهور. ضغط (حسن) على يدي إشارة إلى سعادته بعودتي، جلب قبلها حقيبته المدرسية التي أهديتها له ليريني كتبه. كل شيء يسير على ما يرام لعائلة (عمارة) حتى الآن، فقد بذر (رشك) أرضا أوسع من ذي قبل، وفي السنة الماضية حصد غلة جيدة على الرغم من شحة المياه. أما الآن، فعلى الرغم من أنهم لم يرتكبوا خطيئة، قد يتسلل رجل ببندقية محشوة، هناك بين الأستار في الخارج منتظرًا فرصته. وما لم أحصل على (عطوه)، فلن يجرؤ أحد منهم على النوم. انقضت الليلة، يرفع (عمارة) رأسه كلما نبح كلب في القرية.



(١) من المؤكد أن مطيرة لم تكن تغني، بل كانت (تنعى)، فوضع العائلة المهددة بالقتل لا يسمح لها إطلاقًا بالغناء، هذا إذا استثنينا اعتبارات الحياء لوجود رجل غريب تمامًا عنها. وقد سمّى المؤلف (النعي) غناءً لأنه يشبهه في خاصيّة واحدة فقط كونه كلاما منغما. أما مضامين (النعي) فهي دائمًا ذات لواعج ومكابدات غاية في الحزن.

الفصل الخامس والعشرون

عامي الأخير في الأهوار

عن ظهر قلب أردد ترنيمة
الخلود، – دورة في رحم –
غضًا لا أرى لي نهاية

في الصباح الباكر لليوم التالي، ذهبت لرؤية (مجيد) في بيته الجديد الذي بناه قرب (المجر)، فأرسلني في سيارة مع ممثله الشخصي مع رسالة إلى الشيخ الذي يقيم (رضيوي) ضمن أراضيه قرب (قلعة صالح). طلبت من هذا الشيخ أن يثبّت لي هدنة لـ (ثكب) وعائلته، فقال:

"إن (رضيوي) مستسلم لحزنه وأساه وغاضب بشدة ولا أعتقد أنه سيقبل بـ(العطوة) أبدًا. في الوقت الحاضر، لن يقبل إذا شملت (العطوة) (بدّاي)".

"إن (بدّاي) سيهتم بنفسه، وهو لا يهمني. أريد (عطوة) لعائلة (ثكب)" .

"سأبذل جهدي، لكني لا أعتقد أننا سننجح، ابق هنا في المضيف وسأذهب مع ممثل (مجيد)" .

أرسلت (سبيتي) معهم ممثلاً عني. تأخروا لساعات فاعتراني الخوف من أنهم فشلوا، لا سيما بعد قول (القهوجي):

"لن يوافق (رضيوي) على (عطوة) مطلقًا وقد أقسم على إراقة دم بدل دمه المراق. والله، لا أحد في هذه العائلة إنسان جيد" .

عادوا أخيرًا بأخبار تقول، بعد نقاشات طويلة جدًا، أنهم نجحوا بإقناع (رضيوي) في منح هدنة مدّة ستة أشهر لـ(عمارة) وأبيه وأخوته ولم أكن آمل بأكثر من هذا.

بعد ثلاثة أشهر، في أيلول عام ١٩٥٦م توقفت لمدة أسبوعين في الأهوار في طريق عودتي من (نورستان) وأقمت عدة أيام أخرى في (رفيعة). تزوج (عمارة) أخت (سبيتي) لكنه ما زال يعيش مع أبويه كما هو المألوف. كانت زوجته، الفتاة النحيلة المهذبة بعينيها السوداويين الواسعتين، تحبب نفسها لعائلته وكانت هي و(مطيره) متلازمتان. قال لي (ثكب) ذات يوم ونحن نراقب ذهابها إلى الجدول لجلب الماء:

"الحمد لله ، نال ابني زوجة صالحة، ولولا فضلك سيكون (عمارة) أفقر من أن يتزوج حتى بعد سنين، أود أن أشكرك لما عملته من أجلنا" .

كنت منشغلاً إلى الحد الذي منعني من الرجوع إلى العراق مرّة أخرة حتى بداية سنة ١٩٥٨م. وفي أثناء تحليق الطائرة استطعت رؤية الأهوار تحتي وتطلعت بلهفة إلى الشهور الست القادمة. قابلني (عمارة) و(سبيتي) في مطار البصرة وأسرعا باتجاهي لمعانقتي كلما عدت سالمًا حسب عادتهم. سألت عن صحة عائلاتهم وعن أصدقائي الآخرين فكانوا يعطوني الإجابة التقليدية لكل سؤال :

"يسلّم عليك" .

لم يبدّ على (سبيتي) ، المتزوج الآن ، أى تغيير، لكني استشعرت في الحال أن ثمة تبدل في (عمارة)، كان أكثر نضجًا ومتحفظًا بشكل لم أعهده فيه.

لم يدم الأمر حتى وصولنا إلى القنصلية حين أخذني (سبيتي) إلى جانب وأخبرني أن كلا من أبي (عمارة) وزوجته قد توفيا. فسألت في الحال إن كان (رضيوي) هو الذي قتل (ثكب)، لكن (سبيتي) قال إنه مات في الصيف بمرض في معدته بعد عناء طويل وألم قاس. ومما قاله لي (عمارة) فيما بعد، كنت شبه متيقّن أنه سرطان:

"لو كنت معنا (صاحب)، لأعطيته دواءً لإيقاف ألمه، لم يكن بيدي ما أفعله وهو والدي".

بعد وفاة (ثكب) بأسبوعين، ذهبت زوجة (عمارة) إلى بيت والدها لتضع وليدها هناك حسب العادة[١]. ماتت بعد دقائق من ولادتها. كان المولود الذكر عليلاً . أخبرني (عمارة) أن والدته التي رزقت بطفل هي نفسها قبل سنتين هي التي ترضعه:

"لكنها قليلة الحليب وكل جواميسنا جافة في الوقت الحاضر".

بعد أن استشرت العديد من الناس في البصرة، اشترينا (فاريكس[٢] Farex) وأطعمة أخرى للرضع لنأخذها معنا، ولكن حين وصلنا (رفيعه) واجهنا بعض المشاكل بإقناع (ناكه) باستخدامها:

"ربما كانت هذه الأطعمة ملائمة لأبناء الشيوخ، لكن الطعام الملائم لأطفالنا هو مغلي الأرز[٣]، وإذا لم يكن هناك حليب فماءٌ مع قليل من طمي النهر"[٤].

استفدنا من استعداد (مطيره) لمساعدتنا فقد كرّست نفسها للطفل وشرعت بإطعامه مثل ما نشير عليها. زاد وزن الطفل أخيرًا نتيجة لهذا الغذاء الجديد. لقد كان على وشك الموت جوعًا حين رأيته أول مرّة، وكنت على يقين أنه ميّت لولا هذا الإجراء. أُرعبنا ذات مرّة حين كنّا بعيدين عنه مدّة شهرين في طرادتنا وعدنا لنجده يعاني من إسهال وتقيؤ شديدين. كان (عمارة) على يقين من أن ابنه صائر إلى الموت، لكنه استعاد عافيته في الصباح التالي بعد أن أعطيته إبرة بنسلين.

---

(١) لا يجري مجرى العادة والعرف ذهاب المرأة إلى بيت أهلها لتلد هناك، ولكن إن رأى زوجها وأهله أن مداراتها ستكون أفضل في بيت أهلها بحكم وجود أمها أو أخواتها، ذهبت هناك وإلا فالمكان الطبيعي لولادتها هو بيت زوجها. ومن الجدير بالذكر أن ابن عمارة هذا على قيد الحياة الآن واسمه حميد.

(٢) Farex على الرغم من كثرة الأسئلة للعديد من الصيادلة غير أن أحدًا منهم لم يتعرف على هذا الاسم.

(٣) مغلي الأرز: الماء الناتج عن سلق الأرز، يسمونه (فوح).

(٤) اقتراح ناكه هنا جاد جدًا، فطالما سمعت عن حكايات أطفال رضّع فقدوا أمهاتهم استعانوا بالفوح وطمي النهر.

انضم إلينا (حسن) في (بومغيرفات) وقد جلب معه ابن عمه (جثير)[1] لينوب عن (ياسين) الذي استقر مع عائلته. أعدنا زيارة كل القرى تقريبًا، كنت عبرها نشطًا في حركتي وأنا أرى سعادة الناس بعودتي. قال الكثير منهم:

"ظننا أن طبيبنا غادرنا وذهب ليعيش في وطنه. الله يحفظك يا (صاحب). الآن، وقد عدت، سنكون على ما يرام".

شعرت حينها أني نلت أكثر من جائزة عن خيبتي وغضبي وإرهاقي الذي غالبًا ما يحدثونه فيّ. مازال موظفو الدولة يعتقدون أني جاسوس على الرغم من صعوبة تصور ماهيّة الأسرار العسكرية التي أستطيع كشفها في الأهوار . لكن القرويين الذين يأتون معوّلين عليّ يعرفون ببساطة أني هناك لإمتاع نفسي ولمساعدهم ما استطعت.

ما زال الثأر يتوعّد. حذّروني عدّة مرّات أن (رضيوي) قد تخلّى عن محاولاته قتل (بدّاي) وعزم على قتل (عمارة) بدلاً منه. كانت مجموعتنا مسلحة تسليحًا جيدًا ولنا سمعة مرعبة جدًا بوصفنا رماة ماهرين تمنع (رضيوي) وعائلته من محاولة قتل (عمارة) في أثناء وجودنا معًا، لكني خائف بشأن ما يمكن أن يفعلوه حين أغادر. (بدّاي) آمن بين (الفرطوس) في المغرب، حيث يُعرف (رضيوي) ويُميَّز غريبًا في الحال، ولكن (عمارة) يبدو غير محصّن أبدًا في (رفيعة) التي تبعد ساعة أو ساعتين عن محل إقامة (رضيوي). كنت أعرف أن (رضيوي)، عاجلاً، سوف يقوم بهجوم. اقترحت ضرورة انتقال (عمارة) إلى (الصيكل) لكنه، كما توقعت، رفض:

"لن أُجبر على الاختبار ، إنْ فضّلَ (بدّاي) ملازمة الفراش بين (الفرطوس) فذلك شأنه. أنا باق هنا حيث أصدقائي وحيث أرض (رشك)، معي بندقيتي والمسدس

---

(١) جثير بن مكنزي بن معيوس بن محيسن الفريجي، ولد سنة ١٩٣٧م، رافق المؤلف مدة سنتين تقريبًا ١٩٥٧م – ١٩٥٨م، يسكن الآن منطقة أرياف قضاء قلعة صالح تسمى الجوهري على ضفة دجلة اليمنى. يتمتع بذاكرة ذهبية، أعانني كثيرًا في الحصول على المعلومات.

الذي أعرتني. أنا لا أريد المتاعب، فعائلة (ثكب) لا تريد سوى العيش بسلام، ولكن إنْ جاء (رضيوي) باحثًا عني سأقتله".

ذهب (سيد صروط) بنفسه، عبثًا، إلى (رضيوي) ليطلب منه قبول الديّة. أُغضب (السيّد) جدًا من قبل (رضيوي) حتى أنه ضربه بخيزرانته[١]. عقدت عزمي على أن أجد (رضيوي) بنفسي لأجبره. على إعطاء (عمارة) وأخوته هدنة أخرى، ولمدة سنة هذه المرّة وسيساعدهم هذا في محنتهم لحين عودتي مرة أخرى.

المشكلة هي تعيين مكان (رضيوي). ذهبنا للبحث عنه مرتين، وفي كل مرّة نجد معلوماتنا خاطئة. ثم، وفي نهاية مايو، سمعنا أنه قرب (العزير) في أراضي شيخ من شيوخ (البومحمد) اسمه (شِنْتَهْ)[٢]. وصلنا إلى هناك عند العصر ووجدنا (شِنْتَهْ)، الرجل الكهل، في مضيفه. وبعد الشكليات الاعتيادية قلت:

"جئت لأخذ (عطوة) لـ(عمارة) من (رضيوي) وأريد جلبه هنا الآن، إلى هذا المضيف".

فتساءل (شِنْتَهْ) مدعيًا الجهل:

"أين هو"؟

"هناك في تلك البيوت عند حافة الأرض اليابسة".

استدعي (شِنْتَهْ) أحد رجاله:

"اذهبْ إلى (رضيوي) وقلْ له إنني أريده، اجلبه معك".

انتظرنا في الخارج على العشب عند ظل المضيف لأن الجو كان حارًا جدًا. بعد نصف ساعة عاد الرسول وحده.

---

(١) تحتاج عملية رد (سيد صروط) أو أى سيد مبجّل خائبا دون تلبية طلبه للكثير من الجرأة أو حتى الوقاحة، لذلك يعتّم ذوو القتيل على محل إقامهم لكى لا يخرجوا مع (سيّد) ما أو أى (خيّر) آخرين يطالبهم بتسليمهم (عطوة).

(٢) شنتهْ بن طاهر بن حاتم بن صيهود أحد شيوخ البو محمد فى منطقة (الجمشة) القريبة من ناحية العزير. توفى فى بغداد عام ١٩٧٩م.

"(رضيوي) يرفض المجيء".

"نظرت إلى (شنْتَهْ) الذي هزّ كتفيه وقال:

"ما الذي يمكن أن أفعله أكثر من هذا إذا كان يرفض المجيء؟ غدًا ، سوف أطرده من أرضي".

كان واضحًا جدًا أن لا نيّة لديه لمساعدتنا. فقلت بغضب:

"ما أعظم ما فعلت لي! (سبيتي)، (حسن)، (جثير) هيّا، سوف نذهب ونجلبه بأنفسنا".

وحملت بندقيتي.

نهض (شنْتَهْ) على قدميه:

"لا تذهبْ، (صاحب) ، إن (رضيوي) رجل شرير".

"إذا لم تجلبه هنا، سأجلبه أنا".

"لا ، سأذهب أنا وابني، ابق أنت ورفاقك هنا".

ذهب (شنْتَهْ) باتجاه البيوت البعيدة بصحبة حشد من أتباعه. مرّت ساعة وتلتها أخرى والوقت يمرّ ثقيلاً. وأخيرًا رأيناهم عائدين. حين أصبحوا قريبين، قال (عمارة) بهدوء[1]:

"(رضيوي) وابنه معهم" .

نهضنا وتبادلنا التحايا، جلس (رضيوي) وجماعته قبالتنا. كان رجلاً أعجف، بخصلة شعر قامت مقام لحية، عيناه قاسيتان. أما (حسن) ابنه، ففي العشرين من عمره

---

(١) إن وجود الشخص المنوي أخذ (عطوة) له ضمن الوفد الذاهب لهذا الغرض أمر غير جائز البتة وفيه من الجرأة غير المبررة الشيء الكثير، وحتى إن حصل وذهب فعليه ألاّ يواجه خصومه بل يذهب إلى أي بيت قريب إلى أن يعرف نتيجة المفاوضات، ولا أعرف كيف برّر عمارة بن ثكب وجوده في نفس المكان الموجود فيه الرجل الموتور (رضيوي). إنه أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن عماره يشعر أنه بريء من خلال صلته البعيدة نوعا بالقاتل، أو لإحساسه بالأمن برفقة الرجل الإنجليزي الذي كان الناس البسطاء لا يفصلونه عن الحكومة.

تقريبًا، قصير وبدين وفظ. كان معهم ثمانية آخرون من (الفريجات). لم يكونوا مسلحين إلا بالخناجر، لذا كان لابد من طرح مسدسي على البارية بجانبي.

قال (شنْتَهْ):

" صاحب، هذا رضيوي، جاء لأنه سمع أنك ترغب بالحديث معه".

قلت:

"أريد (عطوة) مدة سنتين لـ (عمارة) وإخوته ولا شأن لي بـ (بدّاي)(١)".

أجاب (رضيوي) بشكل محدَّد صريح:

"أبدًا ، لن أعطي (عطوة) مدّة أخرى".

فكررت دون أن أحوّل عيني عنه :

"لمدة سنتين".

"أبدًا".

راقب أحدنا الآخر بصمت ولم نتفوه بحرف. قال (سبيتي) أخيرًا:

"نحن نطلب (عطوه) لعائلة (ثكب) فقط".

"أبدًا، لن أعطى (عطوة) لأي مخلوق ، لا الآن ولا مستقبلاً ".

خيّم الصمت من جديد. كان (عمارة) بجانبي يداعب مسبحته. مرّ رتل من الجاموس عائدًا إلى البيوت من الهور والشمس تميل نحو الغروب وقد تألقت السماء بوهج الألوان. طنّ البعوض حولنا. كرر (رضيوي):

"أبدًا".

ملت إلى الأمام:

"اسمعْ (رضيوي) ، واسمعْ جيدًا، إما أن تعطيني (عطوة) الآن أو لأذهبنَّ في الصباح لمقابلة الحكومة، وأنت مطلوب، لأنه سبق لك قتل اثنين. إذا ألقي القبض

---

(١) لابد أن جملة المؤلف تلك قد أُعقبت بعاصفة من الضحك، فليس من المعروف إعطاء مثل هكذا مدّة طويلة.

عليك ستمضي بقية عمرك في السجن، ساعدك ابنك (حسن) في القتل الأخير وسيلقى عليه القبض أيضًا".

توقفت لوهلة، ثم واصلت:

"سأعرض جائزة بقيمة مائة دينار لإلقاء القبض عليك، عندها سيفتش عنك كل شرطي والكثير من الناس أيضًا. كمّلْ عقلك لأني والله يا (رضيوي) أعني ما قلت، أقسم على ذلك بحياتي. والأكثر من هذا، إذا حصل وقتلت (عمارة) في أثناء غيابي، فسأبذل جهدي لأن تُقتل أنت أيضًا مهما كلفني ذلك".

استقمت في جلستي. بعد لحظات قال له الرجل (الفريجي) ذو اللحية الرمادية الذي كان معه:

"هيّا، دعنا ننفرد جانبًا كي نناقش الأمر".

انسحبوا جميعًا مسافة مائة ذراع وجلسوا هناك[1]. أكاد أسمع، بفضول، دمدمتهم وصوت (رضيوي) الحاد الذي يرتفع بغضب. حلّ الظلام، فجلب الخادم فانوسًا، وأخبره (شِنْتَهْ) أن يجلب قهوة. بعد ساعة، التحق (الفريجات) بنا. تكلم الرجل ذو اللحية الرمادية:

"إن (رضيوي) رجل طيّب فوافق هو وابنه على إعطاء بيت (ثكب) (عطوة) لمدة سنة واحدة، فليس من العادة إعطاء أكثر من سنة. أما ما يخص (بدّاي) فإن (رضيوي) لن يمنحه (عطوة) لا الآن ولا لاحقًا".

فاستحثني (شِنْتَهْ):

"اقبلْ يا صاحب، فالحقيقة ليس من عادة العشائر إعطاء (عطوة) لأكثر من سنة، وحين تنتهي مدتها بإمكانك تجديدها ، اقبل (صاحب)".

---

(١) عملية الانسحاب المؤقت من المضيف إلى مسافة معينة لغرض التشاور بتفاصيل لا يرغبون لغيرهم الاطلاع عليها يسمونها (تطلاع).

"مَن يضمنها؟ أريد أربعة رجال من عشائر مختلفة"(١).

قال (شنْتَهْ):

"سوف أتدبر هذا الأمر".

استشرت الآخرين وقلت:

"حسنًا، نحن نقبل".

وحين اكتملت الشكليات، غادر (الفريجات)، وأرسل (شنْتَهْ) بطلب العشاء. تحتمت مغادرتي إلى لندن قريبًا، فما زال أمامي ستة أشهر عمل في كتابي(٢) قبل أن أكون حرًّا في العودة إلى العراق. بإمكاني الآن، على أقل تقدير، الذهاب بنفس مطمئنة، ولو أني لم أكن أعلم حينها، أني لن أرى أو أسمع (عماره) مرّة أخرى.

حضر (عمارة) و(سبيتي) مغادرتي البصرة. ستغادر طائرتي عند منتصف النهار، لذا انتظرنا في فندق المطار. كان ثمة ملصق ممزق على الجدار المقابل يصوّر مضيّفة طيران غريبة وهي تقدم الطعام لشاب رشيق، كُتب تحته: "شاهد العالم وأنت على كرسيك المريح".

حطّتْ الطائرة. ظهر حشد من المسافرين المرهقين في الصالة في أثناء تزودها بالوقود وجلسوا مستقرين باستسلام. ناولهم النادل قناني الكوكاكولا. لقد غادروا هذا الصباح أو الليلة البارحة من بانكوك أو سدني. انضممت إليهم الآن، وفي غضون ثماني ساعات سوف أكون في لندن، وهو وقت كاف للارتحال من (الكباب) إلى القرنة مع تناول غداء عند (البوبخيت) في الطريق.

(١) من الواضح جدًا فهم المؤلف للكثير من التفاصيل العشائرية ولا أعرف كيف فاتته عملية المطالبة بـ (عطوة) لأكثر من سنة.

(٢) كتاب المؤلف الذي يعنيه هو Arabian Sands "رمال عربية". وقد ترجم إلى العربيّة، يستعرض فيه قصة قطعه للربع الخالي من البحر الأحمر حتى الخليج العربي في عقد الأربعينيات من القرن العشرين.

استطعت فهم بضع كلمات مبتورة من مكبر الصوت الهادر .. مسافرين، BIAC ... رقم الرحلة ... روما ... لندن ... جوازات سفر ... سيطرة جوازات السفر. كان الضجيج يلف المكان. نهضت ولملمت أشيائي. قلت لرفاقي:

"يجب أن أذهب الآن".

قبّلني (عمارة) و(سبيتي) قبلة وداع. قال (عمارة) :

"عُدْ سريعًا".

أجبت وأنا أنضم إلى الرتل:

"السنة القادمة، إن شاء الله".



بعد ثلاثة أسابيع كنت أشرب الشاي مع أصدقاء لي في إيرلندا حين دخل أحدهم:

"هل سمعتم أخبار الساعة الرابعة؟ هناك ثورة في بغداد وقُتلت العائلة المالكة وأحرق سوادُ الناس السفارة البريطانية..".

أدركت أنه لن يُسمح لي بالعودة مطلقاً، وبذلك أُغلق فصل آخر في حياتي.



أسماء الطيور التى وردت فى الكتاب

ت	الاسم بالإنجليزية	الاسم بالعربية	الاسم المحلي للمفرد
١	pied flycatcher	صائد الذباب	-------
٢	kite	الحدأة	الحديّة
٣	rook	الغدّاف	------
٤	partridge	حجل	حجَلَة
٥	cattle-egret	أبو قردان	البيوضى
٦	heron	مالك الحزين	منه الزركي والرخيوي والرخيوي الجبير
٧	coot	دجاجة ماء	دجاجة ماي
٨	Pigmy cormorant	غراب البحر	الهليجى
٩	darter	الزُقّة – الوردة	الوردة
١٠	Warbler	الشادي طائر يغرد	-----------
١١	Duck	بط	منه الخضيري وأم جامل والصيني
١٢	Mallard	خضيري	خضيري
١٣	eagle	نسر	نسر – حوم
١٤	Shoveller	أبو مجرف	بربش
١٥	Teal	الحذف الشتوي	حذّافة
١٦	garganey	الحذف الصيفي	حذَافة
١٧	Pelican	البجع	نعيْجةَ ماي
١٨	Ibis	أبو منجل	صلنْدةَ
١٩	crane	كركي	--------
٢٠	Strok	اللقلق	درويش علي

٢١	dabchick	الغطّاس الصغير	---------
٢٢	Grebe	الغطاس	منه البريزجي – الغوصة – البريزجي الجبير
٢٣	vulrure	نسر	نسر – حوم
٢٤	plover	الزقزاق	---------
٢٥	Pallid harrier	الهار	صكر
٢٦	Snipe	الجهلول	الجهلول
٢٧	wader	الطائر المخوض	--------
٢٨	Ruff	الطائر المطوق	---------
٢٩	Godwit	الليموزية	كصكص
٣٠	curlew	الكروان	--------
٣١	Redshank	طيطوى	--------
٣٢	Spoonbill	أبو ملعقة	مغيرفي
٣٣	goose	الأوزة	منه البطة – الحويزاوي – الخرسة
٣٤	Purple gallinule	السحنون	-----
٣٥	Grey tern	الخَرْشَنَة	-----
٣٦	sparrow	العصفور	عصفور
٣٧	swallow	السنونو	الزيطة
٣٨	whimbrel	الفَيّوب	-------
٣٩	Avocet	النكّات	--------
٤٠	Stilt	الطّوّل	كرسوع
٤١	bittern	الواق	الواغ
٤٢	Halcyon kingfisher	القاوند – الرفراف	الصليلكع
٤٣	pochard	الحمراوي	رويّة

أسماء النباتات في الهور وعلى جوانبه التي ورد ذكرها في الكتاب والتي لم ترد

١	قصب	٢٥	سلهو
٢	بردي	٢٦	شمبلان
٣	جرّيح	٢٧	شويجه
٤	جولان	٢٨	نُعيمه
٥	كُبر	٢٩	حَوّ
٦	كوك الله	٣٠	فجيله
٧	علكه	٣١	حَليّان
٨	مُريْر	٣٢	خويصة
٩	إذان الفار	٣٣	بطنج
١٠	حَلَبْلاب	٣٤	مُرّان
١١	كاط	٣٥	ثيّل
١٢	نعنان	٣٦	شُريّب
١٣	كعيبَه	٣٧	حندكوك
١٤	غزْيزي	٣٨	وْطيوطه
١٥	لسان الثور	٣٩	رجْيجة
١٦	كوبان	٤٠	سلج
١٧	أبو ركيبه	٤١	طكعَه
١٨	مخرب لكاع	٤٢	حميّض
١٩	جبجاب	٤٣	حرفش
٢٠	الزامْرا	٤٤	بسّة
٢١	هوسان	٤٥	سُميّنه
٢٢	تابلك	٤٦	دوسر
٢٣	بريجه	٤٧	شويل
٢٤	عَسّاف	٤٨	طرطيع

أنواع البناء من القصب

يمكن بناء الأشكال التالية تبعًا لأمرين مهمين هما الحاجة إلى هذا البناء والتمكن المادي :

١ – المضيف
٢ – الربعة
٣ – الصوباط
٤ – الصريفة
٥ – السترة
٦ – البيت
٧ – الشكص

وسكان الأهوار أحرار فى بناء هذه الأشكال عدا المضيف والربعة فلا حق لأي كان بناء مضيف أو ربعة إلا لمن توارث زعامة عشيرته .

مراجع الترجمة والهوامش

المراجع العربية :

١ – البعلبكي، منير، المورد ، قاموس إنكليزي عربي، بيروت، ١٩٨٧م، دار العلم للملايين.

٢ – ثيسيغر ، ولفريد، المعدان، محاضرة في الجمعية الملكية البريطانية، ترجمة باقر الدجيلي، بغداد، ١٩٥٦م، مطبعة الرابطة.

٣ – الجويبراوي، جبار عبد الله، سلامًا أيتها الأهوار، بغداد، ١٩٩٢م، دار الشئون الثقافية العامة.

٤ – الجويبراوي، جبار عبد الله، عشائر الفرات الأوسط والجنوبي في الحلة والديوانية والسماوة والناصرية، بغداد، ١٩٩٢م، مطبعة الأديب البغدادية.

٥ – الجويبراوي، جبار عبد الله، تاريخ ميسان وعشائر العمارة، بغداد، ١٩٩٠م، مطبعة الأديب البغدادية.

٦ – حسك، عامر، أهوار جنوب العراق، بغداد، ١٩٧٩م، مطبعة المعارف.

٧ – دانيال، كلين، موسوعة علم الآثار، ترجمة ليون يوسف، ج١ ، ج٢ ، بغداد ، ١٩٩٠ م، دار المأمون للترجمة والنشر.

٨ – سليم، شاكر مصطفى، الجياش، بغداد ١٩٦٥م.

٩ – العامري، ثامر عبد الحسن، معجم القبائل والأسر والطوائف في العراق، ط١ ، بغداد، ٢٠٠١م، مطبعة الوفاق.

١٠ – عبد الله، عبد علي سلمان، المجتمع الريفي في العراق ، بغداد، ١٩٨٠م، دار الرشيد للنشر.

١١ – فلانين ، الحاج ريكان، تعريب د. جميل سعيد و د. إبراهيم شريف، بغداد، ١٩٦٦م.

١٢ – اللوس ، بشير، الطيور العراقية ، بغداد ، ١٩٦٢م، مطبعة الرابطة.
١٣ – ماكسويل، غافن، قصبة في مهب الريح، ترجمة صـــادق التميمـــي ، بغـــداد، بلا تاريخ.
١٤ – مهدي، شفيق، الطيور المائية في العراق والوطن العربي، بغداد، ١٩٨٢م، دار الرشيد للنشر.
١٥ – النجفي ، حسن، معجم المصطلحات والأعـــلام في العـــراق القـــديم، عـــربي إنجليزي، ج١ ، ط١ ، بغداد، ١٩٨٣م، مطابع دار أفاق عربية.
١٦ – يونغ، غافن، العودة إلى الأهوار، ترجمة فريد ضياء شكارة، بغـــداد، ١٩٩٠م، دار الشؤون الثقافية.

المراجع الأجنبية :

1. Little, William and others, The Oxford Universal Dictionary on Historical Principles, 3 rd Edition 1955, U.S.A.
2. Martin, Ruth, E., and others, Encyclopedia Britannica international Atlas, 1965, Italy.
3. Webster, New Webster's Dictionary and Thesaurus of the English language, 1992, U. S. A.

الفهـرس

وليفريد ثيسيغر

عرب الهور

ترجمة الدكتور
سلمان عبد الواحد كيوش



E-mail : misr_mrtda@yahoo.com - ahadi88@yahoo.com
Tel. : 4154574 - Mobile : 07902632131 - 07702697982